صَيْدٌ وَفَيْضٌ

جمعه وحرره وعلق عليه

د. محمد عبد المعطي محمد.

الجزء الأول

مقدمة.

بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد،

فإن المرء منا لانشـــغال باله، وانتثار فكره في الحياة والمعاش ربما تعرض له الفكرة تلو الفكرة، فيبادر إلى القلم ليسطر ما جال في خاطره، ويناضل كى يحققها ويجمعها في بحثٍ أو دراسةٍ أو كتاب يلم شعثها؛ ثم لا يسعفه الفكر ولا يجامله الوقت، فيتركها كلماتٍ معلَّقةً فيها روح البحث ومغامرة الفكرة، ولكنها كائنٌ خديجٌ[1] لم يُقدَّر له الاكتمال وليداً فكريا يمضي إلى ما شاء الله له أن يمضي.. هكذا أتركها وتترى [2] الأيام عليه، وربما فقدتها من خاطري فأظل عليها مغموماً وبها وبأمثالها من الأفكار الضوائع مهموما..

ثم إنني قَدَحتُ زناد عقلي وارتئيت أن ألملم مُتفرِّقها وأجمعها على ما هي عليه؛ أفكاراً تفتح للبحث مجال، وبشيءٍ من التحقيق ربما تنشئ للتدارس طريق.

رتبتها وحررتها وحققتُها بعض التحقيق، وتركتها بين يدي قارئٍ فطنٍ ربما وجد فيها ما يدفع سآمة البحوث المُطَوَّلَة والدراسات المُجَوَّدة ببعضٍ نتفٍ وتحفٍ من مواضيع شتى في كافة فروع الثقافة الإسلامية.

ويقولون إن انتقاء الرجل دالٌّ على بعض عقله، فهذا بعض عقلي وثقافتي أهديه إليك، فإن وجدتَ فيه خطأً فاستغفر الله تعالى لي، وأشفق عليَّ، وقلْ: سبح في غير بحره فغرق.

وإن وجدتَ خيرا فاحمد الله تعالى، وقل: الخير ليس من المؤلف ولا منا، إنما هو من الله تعالى وبيده سبحانه.

وسميته بحول الله وقدرته: " صيد، وفيض" لاشتماله حقيقةً على ما تصيدته من كتب الكبار من العلماء والمجتهدين من طلاب العلم..

وكذا ما قيدته على ما كتبوه من معانٍ بدتْ لي من سالف تعلمي وقراءاتي ..

ومنه ما فاض الله تعالى به من حسن الاختيار أو قريحة فهمٍ لا أبرأها، وإنما نحن متعلمون في رحاب الأجر الذي جعلنا – بإذن الله تعالى - من أهل الاستثناء الذي جاء في حديث سيدنا رسول الله ﷺ :

"الدنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، وعالما، أو متعلما. " [3]

فندعو الله -تعالى- أن نكون من أهل العلم وحملته، ولو إلى من هو أفقه منا.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الميامين.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه

الفقير إلى رحمة ربه د. محمد عبد المعطي محمد.

---

١ أي ناقص، يقال للجنين يولد قبل موعده ناقصا خديج.

٢ تمر متراخية. قال ابْنُ الأَعرابي: تَرى يَتْري إِذا تَراخى فِي الْعَمَلِ فَعَمِلَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ . وأَتْرَى: عَمِلَ أَعْمالاً مُتَواتِرَةً (أي متتابعة)، بين كلِّ عَمَلَيْنِ فَتْرَةٌ. انظر لسان العرب (٥/ ٢٧٥) والقاموس المحيط (ص: ١٢٦٥)

(٣)رواه الترمذي عن أبي هريرة وحسنه وهو كما قال، والله أعلم.

{بسم الله}

القرآن الكريم منذ اللحظة التي نزل فيها نزل مقرونا بسم الله سبحانه وتعالى ـ ولذلك حينما نتلوه فإننا نبدأ نفس البداية التي أرادها الله تبارك وتعالى ـ وهي أن تكون البداية بسم الله.

وأول الكلمات التي نطق بها الوحي لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}.

وهكذا كانت بداية نزول القرآن الكريم ليمارس مهمته الإحيائية الإصلاحية في الكون. هي بسم الله.

ونحن الآن حينما نقرأ القرآن وحينما نمضي في طريق الله وصراطه المستقيم نبدأ نفس البداية.

والبسملة ليست سرا عظيما من أسرار القرآن وحسب. ولكنها أيضا سرٌ عظيمٌ من أسرار الوجود، وسرٌ راقٍ رائقٌ من أسرار حياة المسلم المدرك لحقائق الوجود بعينين تريان بنور الله سبحانه.

فلا خلاف بين المسلمين في بدئهم أمور حياتهم بالبسملة. لا خلاف بينهم أن بدأ السير والحركة والعمل بسم الله هو بركةٌ ونفحة إلهية تفض مغاليق الأمور وتكسر قيودها وتيسر أمورها.

لا خلاف أن الأشياء والأفعال والأشخاص تنفعل حين ينزل عليها (اسم الله) البارئ الخالق العليم القدير فتخر الأرواح والأشياء سُجَّداً لعظمة ربها..

إن المسلم يبدأ كل تصرفاته وحركاته بسم الله ليضمن ربط حركات الحياة لديه بالمحيي سبحانه، فما من وجودٍ ولا حياة ولا حركة إلا بإذن الله سبحانه. فإذا انضم إلى مشيئة الله رضاه وبركته ومعونته كانت الحركات والسكنات من الله وبالله وإلى الله تعالى.

وبذلك ترتقي حياة المؤمن لتصبح حياةً ربانية تسير على نور الله سبحانه وهداه.

وهذه هي الحياة التامة وما سواها فحياة الحيوان وحياة النقص والخسران.

وهذا المعنى هو ما يحتاجه المسلم ليسير ويحيا حياةً طيبةً له فيها السند والبركة الربانية العظمى..

{وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١)} (هود ٤١). عرف المؤمن أن نجاته في الدنيا ليست بالحيل وإن تنوعت وتكاثرت. فباسم الله سلامته، وبتوكله على الله نجاته وراحته، وبتفضله سبحانه صلاحه وعافيته.

فإن سفينة الحياة تجري وترسي بِاسم الله وحده لا سواه. وهكذا يعلمنا نوح – عليه السلام – حين ركب السفينة وأراد النجاة (بسم الله). فما كان يخيفه أبدا {وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ}. لأن من يمشي ويسير في الحياة (بسم الله) لا يخشى شيئا، لأنه استصحب واستعان المحيي المدبر العليم القدير.

إننا في الحقيقة نحيا (بسم الله) لا سواه؛ وما نفعل من شئ إلا بِاسمه سبحانه، فما وجه اعتراضنا أن نسلم حياتنا كلها طوعا لخالقها نرجو معافاته ونبتغي ما يحبه ونجتنب ما لا يرضاه. فنكون ساعتها تحت رعايته وفي كنف اسمه الذي نبدأ به حركاتنا كلها فنقول ونعيش بسم الله .

وهنا نلمح معنى الحياة في ظلال أسماء الله الحسنى. وما أجملها من حياة فحين تكدرنا الدنيا نحيا (بسم الله الخبير اللطيف). وحين نخطأ في حق أنفسنا وفي حق الله نرجع إلى الله (بسم الله التواب الغفور). وحين نرجو خيراً نبتهل إلى الله (بسم الله الوهاب الرزاق الفتاح). وهكذا؛ وهو معنىً راقٍ وفقه دقيق لا يناله إلا المفلحون..

هكذا تبدأ حياة المؤمنين، وهكذا تمضي، وهكذا تترقى (بسم الله الرحمن الرحيم).

فالبسملة أدب رباني راقٍ من الله لعباده. وهي الأساس الأول لعقيدة الإسلام من الأسس التي أرستها هذه السورة الرائعة.

فإن حياة المسلم الحقيقي تبدأ وتسير وتنجو بِاسم الله تعالى.

فما أجمل البدء والسير والوجود بِاسم الله. إنها المعنى الأهم في ربط حياة المؤمن بخالقه خالق الكون والحياة ومُدبِّرها ومُقوِّمها.

إن البسملة تمثل الاستمداد المستمر والدؤوب للهداية والفلاح والنجاة من (الله الرحمن الرحيم).

فالمؤمن حين يقول (بسم الله) فهو يعني (أبدأ وأسير وامضي وأعمر الأرض وأنور العقول وأعمل الخير بسم الله. على نور هداه وإرشاده متبرئا من حولي وقوتي في عملي كله ناسبا عملي وقولي لله وحده لا لأحد، فهو بسم الله. ولأجله سبحانه لا لي، ولا لشئ، ولا لأحد).

وحاصل المعنى أنني أعمل عملي متبرئا من أن يكون باسمي، بل هو باسمه تعالى، لأنني استمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه عليه، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله، بل وما كنتُ عاملا له على فرض القدرة عليه، لولا أمره ورجاء فضله.

وإذا كان الناس يفعلون ويعملون من أجل اعتقاداتهم الباطلة الفاسدة ويقولون ويفعلون (بِاسم الشعب، وبِاسم الأمة، وباسم الدولة، وباسم الشيوعية، وباسم المسيح.. إلخ). ومثل هذا التعبير مألوفٌ عند جميع الأمم، ومنهم العرب، وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمرا ما لأجل أمير أو عظيم بحيث يكون متجردا من نسبته إليه ومنسلخا عنه، يقول أعمله باسم فلان، ويذكر اسم ذلك الأمير أو السلطان؛ لأن اسم الشيء دليل وعنوان عليه.

فإن المؤمن يمضي ويقول ويسير (بسم الله). وهل هناك أشرف من هذا؟ وهل هناك أعز وأرق للعقل والروح والقلب من الوجود (بسم الله)؟

ذلك لأنه هو (الله) الذي له كل الكمال والجلال والجمال؛ الخالق الرازق القيوم الذي يستحق العبادة ولا يستحقها سواه.

وأما تسميته – سبحانه ذاته العلية :(الله).

قال العلماء

الله فَهُوَ اسْم للموجود الْحق الْجَامِع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية المتفرد بالوجود الْحَقِيقِيّ. فَإِن كل مَوْجُود سواهُ غير مُسْتَحق الْوُجُود بِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا اسْتَفَادَ الْوُجُود مِنْه فَهُوَ من حَيْثُ ذَاته هَالك، وَمن الْجِهَة الَّتِي تليه مَوْجُود فكل مَوْجُود هَالك إِلَّا وَجهه. (١)

و(اللَّهِ) علمٌ عَلَى الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتعَالَى يُقَالُ إِنَّهُ (الِاسْمُ الْأَعْظَمُ) لِأَنَّهُ يُوصَفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى {هوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إلى هوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} الآيات، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات. وَهُوَ اسْمٌ لَمْ يُسَمَّ بِهِ غَيْرُهُ تَبَارَكَ وتعالى ولهذا لا يعرف له في كلام العرب

---

(١) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (ص: ٦١)

اشتقاقٌ، فهو اسم علم (ليس مشتقاً) وقد نقله الْقُرْطُبِيُّ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ مِنْهُمْ (الشَّافِعِيُّ) و (الغزالي) و (إمام الحرمين).

يقول الإمام الرازي

الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ اسْمُ عَلَمٍ لِلَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَيْسَ بِمُشْتَقٍّ الْبَتَّةَ، وَهُوَ قَوْلُ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ، وَقَوْلُ أَكْثَرِ الْأُصُولِيِّينَ وَالْفُقَهَاءِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ، وَحُجَجٌ

الْحُجَّةُ الْأُولَى أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَفْظًا مُشْتَقًّا لَكَانَ مَعْنَاهُ مَعْنًى كُلِّيًّا لَا يَمْنَعُ نَفْسَ مَفْهُومِهِ مِنْ وُقُوعِ الشَّرِكَةِ فِيهِ لِأَنَّ اللَّفْظَ الْمُشْتَقَّ لَا يُفِيدُ إِلَّا أَنَّهُ شَيْءٌ مَا مُبْهَمٌ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ الْمُشْتَقُّ مِنْهُ وَهَذَا الْمَفْهُومُ لَا يَمْنَعُ مِنْ وُقُوعِ الشَّرِكَةِ فِيهِ بَيْنَ كَثِيرِينَ، فَثَبَتَ أَنَّ هَذَا اللَّفْظَ لَوْ كَانَ مُشْتَقًّا لَمْ يَمْنَعْ وُقُوعَ الشَّرِكَةِ فِيهِ بَيْنَ كَثِيرِينَ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا كَانَ قَوْلُنَا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» تَوْحِيدًا حَقًّا مَانِعًا مِنْ وُقُوعِ الشَّرِكَةِ فِيهِ بَيْنَ كَثِيرِينَ، لِأَنَّ بِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ لَفْظًا مُشْتَقًّا أَنَ قَوْلَنَا «اللَّهُ» غَيْرَ مَانِعٍ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ تَحْتَهُ أَشْخَاصٌ كَثِيرَةٌ، وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ قَوْلُنَا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» مُوجِبًا لِلتَّوْحِيدِ الْمَحْضِ، وَحَيْثُ أَجْمَعَ الْعُقَلَاءُ عَلَى أَنَّ قَوْلَنَا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يُوجِبُ التَّوْحِيدَ الْمَحْضَ عَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَنَا «اللَّهُ» اسْمُ عَلَمٍ مَوْضُوعٍ لِتِلْكَ الذَّاتِ الْمُعَيَّنَةِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَقَّةِ.

قلتُ جامعه يقصد أن كلمة التوحيد تهدف أولا إلى اختصاص الله سبحانه بالعبادة فوجب أن يكون اسم (الله) فيها مختصا بالإله المعبود بحقٍ لا يشاركه فيه أحدٌ، كي يحصل التمييز والاختصاص، ولو كان مشتقاً لشاركه سواه في أصل الاشتقاق منه.

الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ أَنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ ذَاتًا مُعَيَّنَةً ثُمَّ يَذْكُرَهُ بِالصِّفَاتِ فَإِنَّهُ يَذْكُرُ اسْمَهُ أَوَّلًا ثُمَّ يَذْكُرُ عَقِيبَ الِاسْمِ الصِّفَاتِ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ زَيْدٌ الْفَقِيهُ النَّحْوِيُّ الْأُصُولِيُّ، إِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَنَقُولُ إِنَّ كُلَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى بِالصِّفَاتِ الْمُقَدَّسَةِ فَإِنَّهُ يَذْكُرُ أَوَّلًا لَفْظَةَ اللَّهُ ثُمَّ يَذْكُرُ عَقِيبَهُ صِفَاتِ الْمَدَائِحِ مِثْلَ أَنْ يَقُولَ اللَّهُ الْعَالِمُ الْقَادِرُ الْحَكِيمُ، وَلَا يَعْكِسُونَ هَذَا فَلَا يَقُولُونَ الْعَالِمُ الْقَادِرُ اللَّهُ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَنَا «اللَّهُ» اسْمُ عَلَمٍ.

فَإِنْ قِيلَ أَلَيْسَ أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ {الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ} [إِبْرَاهِيمَ ١، ٢] قُلْنَا هَاهُنَا قِرَاءَتَانِ مِنْهُمْ مَنْ قَرَأَ اللَّهُ بِالرَّفْعِ، وَحِينَئِذٍ يَزُولُ السُّؤَالُ، لِأَنَّهُ لَمَّا جَعَلَهُ مُبْتَدَأً فَقَدْ أَخْرَجَهُ عَنْ جَعْلِهِ صِفَةً لِمَا قَبْلَهُ، وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ بِالْجَرِّ فَهُوَ نَظِيرُ لِقَوْلِنَا هَذِهِ الدَّارُ مِلْكٌ لِلْفَاضِلِ الْعَالِمِ زَيْدٍ وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ جَعَلَ قَوْلَهُ زَيْدٍ صِفَةً لِلْعَالِمِ الْفَاضِلِ، بَلِ الْمَعْنَى أَنَّهُ لَمَّا قَالَ هَذِهِ الدَّارُ مِلْكٌ لِلْعَالِمِ الْفَاضِلِ بَقِيَ الِاشْتِبَاهُ فِي أَنَّهُ مَنْ ذَلِكَ الْعَالِمُ الْفَاضِلُ؟ فَقِيلَ عَقِيبَهُ زَيْدٌ، لِيَصِيرَ هَذَا مُزِيلًا لِذَلِكَ الِاشْتِبَاهِ، وَلَمَّا لَمْ يَلْزَمْ هَاهُنَا أَنْ يُقَالَ اسْمُ الْعَلَمِ صَارَ صِفَةً فَكَذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ (فهو عند النحاة ليس بصفة وإنما عطف بيان).

الْحُجَّةُ الثَّالِثَةُ قَالَ تَعَالَى {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مَرْيَمَ ٦٥] وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنَ الِاسْمِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الصِّفَةَ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ اسْمَ الْعَلَمِ، فَكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ اسْمَ عَلَمٍ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ إِلَّا قَوْلَنَا اللَّهُ.. انتهى. [١]

ويؤيده قول الزمخشري في هذا الآية {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مَرْيَمَ ٦٥] معناه لم يُسَمَّ شيءٌ ب الله قط، وكانوا يقولون لأصنامهم آلهة، والعزى إله، وأما الذي عَوَّض فيه الألف واللام من الهمزة (أي لفظ الجلالة الله) فمخصوص به المعبود الحق غير مشارك فيه. انتهى [٢]

قلتُ جامعه   وسياق الاستفهام في الآية وهو سؤالٌ تقريري بعد أمره تعالى لعبده محمد ﷺ بعبادة ربه وحده والصبر عليها، ثم يَستدل استدلالا منطقيا على قضية التوحيد؛ فكما أنَّ الله تعالى ليس له شريك في ربوبية السموات والأرض (خلقهما وتدبيرهما ورعايتهما وما فيهما)؛ فكذلك يجب على العباد ألَّا يكون في قلوبهم شريكٌ لله سبحانه ولا ندٌّ له في العبادة والتضرع والتقرب والاستغاثة لأنه لا سَمِي له، وقد روى الطبري بسنده عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج، في قوله {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} قالوا ما ملخصه   أي لا شبيهَ ولا عِدْلَ ولا شريكَ ولا شبيهَ لله تعالى في ذاته وصفاته. انتهى.

أقول والغرض أنه لا يصح الاستدلال بها على أن لفظ الجلالة (الله) علمٌ غير مشتق لأنها في سياقها ليست موجهة لهذا المعنى أصلا. وهذه قاعدةٌ يحسن الإلمام بها لمن أراد تدبر كلام الله تعالى وإنزاله

---

(١)تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١/ ١٤٣)

(٢)تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٣٠)

منزله بغير الحامه فيما ليس استدلالا له، ويضبط ذلك مدارسة السياق اللغوي المنطقي، والسياق العقلي الدلالي وقرائن كلٍ منهما، وتوجهات الخطاب القرآني في النص من أجل توجيه المعنى والتأويل وجهته الصحيحة، والله يعلمنا ما ينفعنا ويفقهنا في كتابه.

وقيل إنه مشتقٌّ من أله يأله إلاهةً، أي عبد عبادة، وقيل مشتقٌّ من وله إذا تحيّر، لأنه تعالى يحار الفكر في حقائق صفاته، وقيل مشتقٌّ مِنْ ألهتُ إِلَى فُلَانٍ أَيْ سَكَنْتُ إِلَيْهِ، فَالْعُقُولُ لَا تَسْكُنُ إِلَّا إِلَى ذِكْرِهِ، وَالْأَرْوَاحُ لَا تَفْرَحُ إِلَّا بِمَعْرِفَتِهِ، لِأَنَّهُ الْكَامِلُ على الإطلاق دون غيره، قال تعالى {أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تطمئنُ القلوب}. [(١)]

(وقيل اشتقاقه من ألهت إلى فلان أي سكنت إليه .

فالنفوس لا تسكن إلا إليه تعالى، لأن الكمال محبوب لذاته كما قال تعالى { ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا } [الرعد ٢٨ ٢٩] وقيل من الوله وهو ذهاب العقل سواء فيه الواصلون إلى ساحل بحر العرفان والواقفون في ظلمات الجهالة وتيه الخذلان .

وقيل من لاه ارتفع لأنه تعالى ارتفع عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات .

وقيل من أله في الشيء إذا تحير فيه ، لأن العقل وقف بين إقدام على إثبات ذاته نظراً إلى وجود مصنوعاته ، وبين تكذيب لنفسه لتعاليه عن ضبط وهمه وحسه ، فلم يبق إلا أن يقر بالوجود والكمال مع الاعتراف العجز عن إدراك كنه الجلال والجمال ، وههنا العجز عن درك الإدراك إدراك .

وقيل من لاه يلوه إذا احتجب ، لأنه بكنه صمديته محتجب عن العقول .

فإنا إنما نستدلّ على كون الشعاع مستفاداً من الشمس بدورانه معها وجوداً وعدماً وشروقاً وأفولاً ولو كانت الشمس ثابتة في كبد السماء لما حصل اطمئنان بكون الشعاع مستفاداً منها ، ولما كان ذاته تعالى باقياً على حاله وكذا الممكنات التابعة له ، فربما يخطر ببال الضعفاء أن هذه الأشياء موجودة

---

(١)انتهى من مختصر تفسير ابن كثير للصابوني.

بذواتها فلا سبب لاحتجاب نوره إلا كمال ظهوره ، فالحق محتجب والخلق محجوب .

وقيل من أَلِه الفصيل إذا ولع بأمه ، لأن العباد مولعون بالتضرع إليه في البليات كما قال تعالى { وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} [الروم ٣٣] هذا شأن الناقصين يدعون ربهم للضر فقط ، وأما الكاملون فهو سبحانه- جليسهم وأنيسهم أبداً .

وقيل من أله الرجل يأله إذا فزع من أمر نزل به فألهه أي أجاره .

والمجير للخلائق من كره المضارّ هو الله {وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [المؤمنون ٨٨] .

ومن لطائف اسم الله أنك إذا لم تتلفظ بالهمزة بقي من لفظه (لله) {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} [آل عمران ١٠٩] ، {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} [البقرة ١١٥]، {وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [آل عمران ١٨٠]، {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [آل عمران ١٨٩]، {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا } [الأعراف ١٨٠]....

فإن تركت من هذه البقية اللام الأولى بقيت البقية على صورة (له) {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [البقرة ١٠٧]، {بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ} [البقرة ١١٦]، {صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} [البقرة ١٣٨]....

وإن تركت اللام الباقية أيضاً بقي الهاء المضمومة من (هو)) {بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [سبأ ٢٧] ، {سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الزمر ٤]، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)} [الحشر ٢٢ ٢٤]

والواو زائدة بدليل سقوطها في التثنية والجمع (هما ،و هم).

هذا بحسب اللفظ، وأما بحسب المعنى فإذا دعوت باسمه سبحانه الله فكأنك دعوته بجميع الصفات بخلاف سائر الأسماء ولهذا لا تصح كلمة الشهادة إلا به فقط، والله أعلم. انتهى من كلام الفخر الرازي

(١)

فاسم الله هو الاسم العلم على حقيقة الإله الخالق البارئ المصور الذي لا يستحق العبادة سواه، وكل الأسماء فإليه تُنسب وهي صفاتٌ له.

(وَلأَجل هَذَا الْخُصُوص يُوصف سَائِر الْأَسْمَاء بِأَنَّهَا اسْم الله عز وَجل وَيعرف بِالْإِضَافَة إِلَيْهِ فَيُقَال الصبور والشكور وَالْملك والجبار من أَسمَاء الله عز وَجل وَلَا يُقَال الله من أَسمَاء الشكُور والصبور لِأَن ذَلِك من حَيْثُ هُوَ أدل على كنه الْمعَانِي الإلهية وأخص بهَا فَكَانَ أشهر وَأظْهر فاستغني عَن التَّعْرِيف بِغَيْرِهِ وَعرف غَيره بِالْإِضَافَة إِلَيْه). (٢)

ولذلك قال بعض العلماء أنه الاسم الأعظم واختار هذا الرأي شيخ الإسلام ابن تيمية وحجتهم الحديث الشريف الذي رواه أبو داود وغيره بسند صحيح عن عَبْدِ اللَّهِ بْنُ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ» .

ولذلك جاء هذا الاسم المبارك في القرآن العظيم في معرض الحديث عن الذات الإلهية كما في قوله تعالى {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه ١٤]

قال ابن جرير في تفسيرها

يقول تعالى ذكره إنني أنا المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، لا إلَهَ إلا أنا فلا تعبد غيري، فإنه لا معبود تجوز أو تصلح له العبادة سواي (فاعْبُدْنِي) يقول فأخلص العبادة لي دون كلّ ما عبد من دوني (وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) .

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم معنى ذلك أقم الصلاة لي فإنك إذا أقمتها ذكرتني.

قال آخرون بل معنى ذلك وأقم الصلاة حين تذكرها.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١/ ١٤٣)

(٢) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (ص: ٦١)

قال أبو جعفر وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويل من قال معناه أقم الصلاة لذكري فيها، لأن ذلك أظهر معنييه، ولو كان معناه حين تذكرها، لكان التنزيل أقم الصلاة لذكرها. وفي قوله (لِذِكْرِي) دلالة بينة على صحة ما قال مجاهد في تأويل ذلك. [1]

وقال تعالى لنبيه موسى عليه السلام {يا موسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [النمل ٩] فجعل اسم الله للذات واسميه العزيز والحكيم وصفا لاسمه الله .

وفي الآية الأخرى مثلها {يا موسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص ٣٠]

يقول أبو حامد الغزالي

اعْلَم أَن هَذَا الاسم أعظم أَسمَاء الله عز وَجل التِّسْعَة وَالتسْعين لِأَنَّهُ دَال على الذَّات الجامعة لصفات الإلهية كلهَا حَتَّى لَا يشذ مِنْهَا شَيْء؛ وَسَائِر الْأَسْمَاء لَا يدل آحادها إِلَّا على آحَاد الْمعَانِي من علم أَو قدرَة أَو فعل أَو غَيره . وَلِأَنَّهُ أخص الْأَسْمَاء إِذْ لَا يُطلقهُ أحد على غَيره لَا حَقِيقَة وَلَا مجَازًا؛ وَسَائِر الْأَسْمَاء قد يُسمى بِهِ غَيره كالقادر والعليم والرحيم وَغَيره.

فلهذين الْوَجْهَيْنِ يشبه أَن يكون هَذَا الِاسْم أعظم هَذِه الْأَسْمَاء.

قال رحمه الله

يَنْبَغِي أَن يكون حَظّ العَبْد من هَذَا الِاسْم التأله وأعني بِهِ أَن يكون مُسْتَغْرق الْقلب والهمة بِاللَّه عز وَجل لَا يرى غَيره وَلَا يلْتَفت إِلَى سواهُ وَلَا يَرْجُو وَلَا يخَاف إِلَّا إِيَّاه وَكَيف لَا يكون كَذَلِك وَقد فهم من هَذَا الإسم أَنه الْمَوْجُود الْحَقِيقِيّ الْحق وكل مَا سواهُ فان وهالك وباطل إِلَّا بِهِ فَيرى أَولا نَفسه أول هَالك وباطل كَمَا رَآهُ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم حَيْثُ قَالَ أصدق بَيت قالته الْعَرَب قَول لبيد أَلا كل شَيْء مَا خلا الله بَاطِلُ . انتهى [2]

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨/ ٢٨٣) باختصار.

(٢) المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (ص: ٦١،٦٢)

وقال الطوفي في كتابه التعيين شرح الأربعين ما ملخصه وجميع أسماء الله تعالى سوى هذا الاسم فنصيب العبد منها التخلق بما يستطيعه من معانيها، اما اسمه تعالى الله فحظ العباد منه التعلق به.

المعنى السُنِّي لقول الصوفي: ما وحَّد الواحدَ من واحدٍ ***إذ كل من وحَّده جاحدُ.

قال النيسابوري [١]

وينبغي أن يكون المراد من كون الله تعالى معبوداً كونه مستحقاً ومستأهِلاً لأنْ يعبده كلُّ مَنْ سواه كما يليق بحال العابد ، فإن اللائق بحال المعبود لا يقدر عليه أحد من المخلوقات .

ولا يخفى أن الاستحقاق والاستئهال حاصلٌ لله أزلاً وأبداً ، فيكون إلهاً أزلاً وأبداً وإن كلَّ مَن سواه عابدٌ له بقَدْر استعداده وعلى حسب حاله ، حتى النبات والجماد والكافر والفاسق {وإنْ من شيءٍ إلا يسبحُ بحمدِه ولكن لا تفقهون تسبيحهم } [الإسراء ٤٤] (إنْ كلُّ مَن في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) [مريم ٩٣]. انتهى.

قلتُ محرره روى مسلم عن الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين عائشة تقول فقَدْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ لَيْلَةً مِنَ الفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي علَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وهو في المَسْجِدِ وهُما مَنْصُوبَتَانِ وهو يقولُ اللَّهُمَّ أعُوذُ برِضَاكَ مِن سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِن عُقُوبَتِكَ، وأَعُوذُ بكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أنْتَ كما أثْنَيْتَ علَى نَفْسِكَ.".

فلا يستطيع أحدٌ على الحقيقة الإحاطة بما يجب لله تعالى من الثناء والعبادة، لأنه لا يعرف قدر عظمة الله سبحانه وتعالى إلا ذاته العلية، فمهما عبده العابدون يظلون مقصرين، ومهما وحدَّه الموحدون فإنهم عن حقيقة توحيده ناكبين، إذ لا يوحد الله حق توحيد إلا من أحاط بعظمته ولا يكون إلا إياه

(١)في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٧٥)

سبحانه، لذلك رحمنا الله تعالى بلطفه حين قدَّم شهادته على شهادة كل أحد في توحيده فقال {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (آل عمران/١٨) قال ابن جرير فبدأ جل ثناؤه بنفسه، تعظيمًا لنفسه، وتنزيهًا لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ما نسبوا إليها، كما سنّ لعباده أن يبدءوا في أمورهم بذكره قبل ذكر غيره، مؤدّبًا خلقه بذلك.انتهى

ونحسن الظن بأهل التصوف الذين يقولون:

ما وحَّد الواحدَ من واحدٍ ***إذ كل من وحَّدهُ جاحدُ.

توحيدُ مَن ينطق عن نعتِهِ ***عاريةٌ أبطلها الواحدُ.

توحيدُه إيَّاه توحيدُه *** ونعتُ من ينعته لاحدُ.

ويقصدون أنه لا يصير العبد موحدا كمال التوحيد إلا بكمال الإحاطة بصفات الله وعظمته، وهذا لا يكون أبدا، فيكون من وحد الله فعلى قدر وحال نفسه الناقصة التي لا تحيط بكمال الله، ويكون التوحيد الكامل الذي يطلق عليه حقيقة التوحيد هو توحيد الله تعالى لذاته ولا يحيط بصفاته سبحانه إلا ذاته العلية، وهو معنى دعاء النبي ﷺ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كما أَثْنَيْتَ على نَفْسِكَ وهو أحسن ما يُحمَل عليه كلامهم بما يناسب السنة، وللعلامة ابن القيم كلام جميل طويل في شرح ذلك على طريقة القوم في (مدارج السالكين). وله شروح أخرى على طريقة أهل الحلول والاتحاد؛ أعاذنا الله من مرضهم وضلالهم بفضله وكرمه.

مناقشة كلام المتصوفة في حقيقة العبودية.

يقول الفخر الرازي:

والعبدُ الصالح مَن يعبد الله تعالى لذاته لا لغرضٍ رغبة في الثواب ورهبةً من العقاب، حتى فلو فُرِض حصول المرغوب أو فُقِد المرهوب لم يكن عابداً ، ومع ذلك فينبغي أن يقطع النظر عن عبادته أيضاً .

ويقول إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يعبد الله لطلب الثواب وهو جهل وسخف، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ وُجُوهٌ:

الْأَوَّلُ أَنَّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ لِيَتَوَصَّلَ بِعِبَادَتِهِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ كَانَ الْمَعْبُودُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ ذَلِكَ الشَّيْءُ، فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ لِطَلَبِ الثَّوَابِ كَانَ مَعْبُودُهُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الثَّوَابُ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى وَسِيلَةً إِلَى الْوُصُولِ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْبُودِ، وَهَذَا جَهْلٌ عَظِيمٌ.

الثَّانِي أَنَّهُ لَوْ قَالَ أُصَلِّي لِطَلَبِ الثَّوَابِ أَوْ لِلْخَوْفِ مِنَ الْعِقَابِ، لَمْ تَصِحَّ صَلَاتُهُ. (قلتُ ومقصوده هو أن الصلاة كي تكون من معنى العبادة يجب أن تكون لمجرد الأمر الإلهي بها وحسب، فالعبادة معنى يتضمن لمحض الطاعة والتذلل مع الحب للمعبود).

الثَّالِثُ أَنَّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لِغَرَضٍ آخَرَ كَانَ بِحَيْثُ لَوْ وَجَدَ ذَلِكَ الْغَرَضَ بِطَرِيقٍ آخَرَ لَتَرَكَ الْوَاسِطَةَ، فَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ لِلْأَجْرِ وَالثَّوَابِ كَانَ بِحَيْثُ لَوْ وَجَدَ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ بِطَرِيقٍ آخَرَ لَمْ يَعْبُدِ اللَّهَ، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُحِبًّا لِلَّهِ وَلَمْ يَكُنْ رَاغِبًا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ جَهْلٌ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لِغَرَضٍ أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ، وَهُوَ أَنْ يَتَشَرَّفَ بِخِدْمَةِ الله، لأنه إذا شرع في الصَّلَاةِ حَصَلَتِ النِّيَّةُ فِي الْقَلْبِ، وَتِلْكَ النِّيَّةُ عِبَارَةٌ عَنِ الْعِلْمِ بِعِزَّةِ الرُّبُوبِيَّةِ وَذِلَّةِ الْعُبُودِيَّةِ، وَحَصَلَ الذِّكْرُ فِي اللِّسَانِ، وَحَصَلَتِ الْخِدْمَةُ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ فَيَتَشَرَّفُ كُلُّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْعَبْدِ بِخِدْمَةِ اللَّهِ، فَمَقْصُودُ الْعَبْدِ حُصُولُ هَذَا الشَّرَفِ. انتهى. (١)

وهو كلام حسنٌ من وجهٍ فيه تلبيسٌ وخطأٌ من وجهٍ آخر، وما أحسن ماذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان هذا المعنى ومناقشته:

(فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ «يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ» فَذَكَرَ أَوَّلًا لَفْظَ الدُّعَاءِ، ثُمَّ ذَكَرَ السُّؤَالَ وَالِاسْتِغْفَارَ، وَالْمُسْتَغْفِرُ سَائِلٌ كَمَا أَنَّ السَّائِلَ دَاعٍ؛ لَكِنَّ ذِكْرَ

(١)تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (١/ ١٤٥)

السَّائِلِ لِدَفْعِ الشَّرِّ بَعْدَ السَّائِلِ الطَّالِبِ لِلْخَيْرِ، ذَكَرَهُمَا جَمِيعًا بَعْدَ ذِكْرِ الدَّاعِي الَّذِي يَتَنَاوَلُهُمَا وَغَيْرَهُمَا فَهُوَ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ.

وَقَالَ تَعَالَى {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة ١٨٦].

وَكُلُّ سَائِلٍ رَاغِبٍ رَاهِبٍ، فَهُوَ عَابِدٌ لِلْمَسْئُولِ، وَكُلُّ عَابِدٍ لَهُ فَهُوَ أَيْضًا رَاغِبٌ وَرَاهِبٌ يَرْجُو رَحْمَتَهُ وَيَخَافُ عَذَابَهُ.

فَكُلُّ عَابِدٍ سَائِلٌ وَكُلُّ سَائِلٍ عَابِدٌ.

فَأَحَدُ الاسْمَيْنِ يَتَنَاوَلُ الْآخَرَ عِنْدَ تَجَرُّدِهِ عَنْهُ، وَلَكِنْ إذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا فَإِنَّهُ يُرَادُ بِالسَّائِلِ الَّذِي يَطْلُبُ جَلْبَ الْمَنْفَعَةِ وَدَفْعَ الْمَضَرَّةِ بِصِيَغِ السُّؤَالِ وَالطَّلَبِ.

وَيُرَادُ بِالْعَابِدِ مَنْ يَطْلُبُ ذَلِكَ بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ صِيَغُ سُؤَالٍ.

وَالْعَابِدُ الَّذِي يُرِيدُ وَجْهَ اللَّهِ وَالنَّظَرَ إلَيْهِ هُوَ أَيْضًا رَاجٍ خَائِفٌ رَاغِبٌ رَاهِبٌ يَرْغَبُ فِي حُصُولِ مُرَادِهِ، وَيَرْهَبُ مِنْ فَوَاتِهِ.

قَالَ تَعَالَى {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا} [الأنبياء ٩٠] وَقَالَ تَعَالَى {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [السجدة ١٦] وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَخْلُوَ دَاعٍ لِلَّهِ دُعَاءَ عِبَادَةٍ أَوْ دُعَاءَ مَسْأَلَةٍ مِنْ الرَّغَبِ وَالرَّهَبِ مِنْ الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ.

وَمَا يُذْكَرُ عَنْ بَعْضِ الشُّيُوخِ أَنَّهُ جَعَلَ الْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَامَّةِ، فَهَذَا قَدْ يُفَسَّرُ مُرَادُهُ بِأَنَّ الْمُقَرَّبِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَيَقْصِدُونَ التَّلَذُّذَ بِالنَّظَرِ إلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَخْلُوقٌ يَتَلَذَّذُونَ بِهِ، وَهَؤُلَاءِ يَرْجُونَ حُصُولَ هَذَا الْمَطْلُوبِ وَيَخَافُونَ حِرْمَانَهُ، فَلَمْ يَخْلُوا عَنْ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ لَكِنَّ مَرْجُوَّهُمْ وَمَخُوفَهُمْ بِحَسَبِ مَطْلُوبِهِمْ.

وَمَنْ قَالَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ أَعْبُدْك شَوْقًا إلَى جَنَّتِكَ وَلَا خَوْفًا مِنْ نَارِك، فَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ الْجَنَّةَ اسْمٌ لِمَا يُتَمَتَّعُ فِيهِ بِالْمَخْلُوقَاتِ، وَالنَّارَ اسْمٌ لَا عَذَابَ فِيهِ إلَّا أَلَمُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَهَذَا قُصُورٌ وَتَقْصِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ فَهْمِ مُسَمَّى الْجَنَّةِ، بَلْ كُلُّ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ فَهُوَ مِنْ الْجَنَّةِ، وَالنَّظَرُ إلَيْهِ هُوَ مِنْ الْجَنَّةِ، وَلِهَذَا «كَانَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ

يَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَيَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ النَّارِ، وَلَمَّا سَأَلَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ عَمَّا يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ قَالَ «إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ النَّارِ، أَمَا إنِّي لَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ فَقَالَ «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ» .

وَقَدْ أَنْكَرَ عَلَى مَنْ قَالَ هَذَا الْكَلَامَ يَعْنِي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلَى وَجْهِكَ فَرِيقٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ، ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ لَا يُتَلَذَّذُ بِالنَّظَرِ إلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا نَعِيمَ إلَّا بِمَخْلُوقٍ.

فَغَلِطَ هَؤُلَاءِ فِي مَعْنَى الْجَنَّةِ كَمَا غَلِطَ أُولَئِكَ، لَكِنَّ أُولَئِكَ طَلَبُوا مَا يُسْتَحَقُّ أَنْ يُطْلَبَ، وَهَؤُلَاءِ أَنْكَرُوا ذَلِكَ.

وَأَمَّا التَّأَلُّمُ بِالنَّارِ فَهُوَ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ، وَمَنْ قَالَ «لَوْ أَدْخَلَنِي النَّارَ لَكُنْتُ رَاضِيًا، فَهُوَ عَزْمٌ مِنْهُ عَلَى الرِّضَا.

وَالْعَزَائِمُ قَدْ تَنْفَسِخُ عِنْدَ وُجُودِ الْحَقَائِقِ وَمِثْلُ هَذَا يَقَعُ فِي كَلَامِ طَائِفَةٍ مِثْلِ سَمْنُونٍ الَّذِي قَالَ «وَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ فَكَيْفَ مَا شِئْتَ فَامْتَحِنِّي فَابْتُلِيَ بِعُسْرِ الْبَوْلِ فَجَعَلَ يَطُوفُ عَلَى صِبْيَانِ الْمَكَاتِبِ وَيَقُولُ ادْعُوا لِعَمِّكُمْ الْكَذَّابِ.

قَالَ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران ١٤٣] .

وَبَعْضُ مَنْ تَكَلَّمَ فِي عِلَلِ الْمَقَامَاتِ جَعَلَ الْحُبَّ وَالرِّضَا وَالْخَوْفَ وَالرَّجَاءَ مِنْ مَقَامَاتِ الْعَامَّةِ بِنَاءً عَلَى مُشَاهَدَةِ الْقَدَرِ، وَأَنَّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ فَشَهِدَ تَوْحِيدَ الْأَفْعَالِ حَتَّى فَنِيَ مَنْ لَمْ يَكُنْ وَبَقِيَ مَنْ لَمْ يَزَلْ، يَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَهَذَا كَلَامٌ مُسْتَدْرَكٌ حَقِيقَةً وَشَرْعًا.

أَمَّا الْحَقِيقَةُ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ لَا يَكُونَ حَسَّاسًا مُحِبًّا لِمَا يُلَائِمُهُ مُبْغِضًا لِمَا يُنَافِرُهُ، وَمَنْ قَالَ إنَّ الْحَيَّ يَسْتَوِي عِنْدَهُ جَمِيعُ الْمَقْدُورَاتِ فَهُوَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ «إمَّا أَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ مَا يَقُولُ بَلْ هُوَ جَاهِلٌ، وَإِمَّا أَنَّهُ مُكَابِرٌ مُعَانِدٌ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ حَصَلَ لَهُ حَالٌ أَزَالَ عَقْلَهُ «سَوَاءٌ سُمِّيَ اصْطِلَامًا أَوْ مَحْوًا أَوْ فَنَاءً أَوْ غَشْيًا أَوْ ضَعْفًا «فَهَذَا لَمْ يَسْقُطْ إحْسَاسُ نَفْسِهِ بِالْكُلِّيَّةِ.

بَلْ لَهُ إحْسَاسٌ بِمَا يُلَائِمُهُ وَمَا يُنَافِرُهُ، وَإِنْ سَقَطَ إحْسَاسُهُ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْقُطْ بِجَمِيعِهَا.

فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمُشَاهِدَ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ يَدْخُلُ إلَى مَقَامِ الْجَمْعِ وَالْفَنَاءِ فَلَا يَشْهَدُ فَرْقًا فَإِنَّهُ غَالِطٌ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ الْفَرْقِ فَإِنَّهُ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ.

لَكِنْ إذَا خَرَجَ عَنْ الْفَرْقِ الشَّرْعِيِّ بَقِيَ فِي الْفَرْقِ الطَّبْعِيِّ، فَيَبْقَى مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ لَا مُطِيعًا لِمَوْلَاهُ.

وَلِهَذَا لَمَّا وَقَعَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ بَيْنَ الْجُنَيْدِ وَأَصْحَابِهِ ذَكَرَ لَهُمْ الْفَرْقَ الثَّانِي وَهُوَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ، وَبَيْنَ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَمَا يَكْرَهُهُ مَعَ شُهُودِهِ لِلْقَدَرِ الْجَامِعِ، فَيَشْهَدُ الْفَرْقَ فِي الْقَدَرِ الْجَامِعِ. وَمَنْ لَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ خَرَجَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ.

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْجَمْعِ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ الْفَرْقِ الشَّرْعِيِّ بِالْكُلِّيَّةِ وَإِنْ خَرَجُوا عَنْهُ كَانُوا كُفَّارًا مِنْ شَرِّ الْكُفَّارِ، وَهُمْ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ إلَى التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الرُّسُلِ وَغَيْرِهِمْ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ إلَى الْقَوْلِ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ، فَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، وَلَكِنْ لَيْسَ كُلُّ هَؤُلَاءِ يَنْتَهُونَ إلَى هَذَا الْإِلْحَادِ، بَلْ يُفَرِّقُونَ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ فَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ تَارَةً، وَيَعْصُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ تَارَةً، كَالْعُصَاةِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ. وَهَذِهِ الْأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ). انتهى [١]

وهو سبحانه (الرحمن الرحيم).

قال السعدي وهما اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعَمَّت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله. فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيبٌ منها. انتهى.

ووصفه سبحانه في البدء بالرحمن الرحيم، يستغرق كل معاني الرحمة وحالاتها. وهو المختص وحده باجتماع هاتين الصفتين، كما أنه المختص وحده بصفة الرحمن. انتهى.

ومهما يُختلَف في معنى الصفتين أيتهما تدل على مدى أوسع من الرحمة، فهذا الاختلاف ليس مما يعنينا، إنما نخلص منه إلى استغراق هاتين الصفتين مجتمعتين لكل معاني الرحمة وحالاتها ومجالاتها.

قال ابن عباس الرحمن الرحيم هما اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر. انتهى.

---

(١)الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ٢٢٠)

وقال الطبري وذلك أنّ المعنى الذي في تسمية الله بالرحمن، دون الذي في تسميته بالرحيم هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميعَ خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعضَ خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال. انتهى.

أقول إنها الأسماء الاولى التي يطالعنا بها كتاب الله لتكون المصدر الأول لفهم علاقة الخلق بالخالق. علاقة الله سبحانه بعبيده. إنها (الرحمة) العامة والشاملة والتامة من الله لعبيده (فهو الرحمن). فإذا ما كتب لعبد من عباده رحمته الخاصة كان بهم (رحيما) بمزيدٍ من رحمته في تربيتهم وارشادهم وهدايتهم وتثبيتهم على النور والحق.

وعلى كل حال فمّا لا ريب فيه أن هناك فرقا في اللفظين يجعلهما يستغرقا كل مناحي الرحمة ومجالاتها وسبلها، وأن هذا ما يفسر حكمة التنزيل في استعمالهما معا.

فهو (الله الرحمن الرحيم).

وبذلك فإن الله أولانا الشرف الأعلى بأن علمنا وأرشدنا ان نبدأ بِاسمه قبل كل شيء لتصير الحياة كلها فينا بِاسم الله وحده لا شريك له..

وهكذا كانت وتظل وستظل أول وأهم الأساسات التي يبني عليها المسلم حياته. أن تكون لله وبِاسم الله. وهو أهم معاني الإسلام وأرقاها.

وهذا معنى قوله تعالى {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤)} (الأنعام ١٦٢ ١٦٥).

هذه أولى علامات الطريق المستقيم والمنهج القويم لحياة المسلم أن تكون حياته كلها (بسم الله).

مسألة فقهية في البسملة.

لَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَنْ لَفْظَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ هُوَ لَفْظٌ قُرْآنِيٌّ لِأَنَّهُ جُزْءُ آيَةٍ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} (النَّمل ٣٠).

كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي أَنَّ الِافْتِتَاحَ بِالتَّسْمِيَةِ فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ ذَوَاتِ الْبَالِ وَرَدَ فِي الْإِسْلَامِ، وَرُوِيَ فِي ذلك حَدِيثُ «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ».

وَقَالَ جُمْهُورُ العلماء إِنَّ الْبَسْمَلَةَ رَسَمَهَا الَّذِينَ كَتَبُوا الْمَصَاحِفَ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ مَا عدَا سُورَةِ بَرَاءَةَ، وَلَمْ يَخْتَلِفُوا فِي أَنَّهَا كُتِبَتْ فِي الْمُصْحَفِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَذَلِكَ لَيْسَ مَوْضِعَ فَصْلِ السُّورَةِ عَمَّا قَبْلَهَا.

وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الْبَسْمَلَةَ هَلْ هِيَ آيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَمِنْ أَوَائِلِ السُّوَرِ غَيْرِ بَرَاءَةَ. بِمَعْنَى أَنَّ الِاخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ لَيْسَ فِي كَوْنِهَا قُرْآنًا، وَلَكِنَّهُ فِي تَكَرُّرِ قُرْآنِيَّتِهَا كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ ابْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ فِي كتابه «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» [١].

فالمتفق عليه أنها آية من القرآن العظيم بلا شك، ومن الفاتحة على الراجح للمفسرين؛ افْتَتَحَ بِهَا الصحابةُ كِتَابَ اللَّهِ، ثمّ اختلفوا هل هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كُتِبَتْ فِي أَوَّلِهَا، أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا، أَوْ أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ، لَا أَنَّهَا آيَةٌ؟ عَلَى أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلَفًا، وَذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. (أفاده ابن كثير).

قال الزمخشري في تفسيره قرّاء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها على أنّ التسمية ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، كما بدأ بذكرها في كل أمر ذي بال، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله ومن تابعه، ولذلك لا يجهر بها عندهم في الصلاة. وقرّاء مكة والكوفة وفقهاؤهما على أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وعليه الشافعي وأصحابه رحمهم الله، ولذلك يجهرون بها. وقالوا

---

١ التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور(١/ ١٣٨).

قد أثبتها السلف في المصحف مع توصيتهم بتجريد القرآن، ولذلك لم يثبتوا (آمين) فلولا أنها من القرآن لما أثبتوها. وعن ابن عباس «من تركها فقد ترك مائة وثلاث عشرة آية من كتاب الله تعالى». انتهى.

القرآن والاختبار المفتوح

في المعرفة والقراءة هناك مثل لاتيني آخر يقول خذ حذرك من رجل الكتاب الواحد ، بالطبع ترجمت المثل مباشرة ولم أنقل أصله لأني لو اكتشفت أن أحدً ا ممّن سيقرؤون هذا الكلام يجيد اللاتينية بالفعل فسيتوقف قلبي رعبًا.

خذ حذرك من رجل الكتّاب الواحد، لأنه ببساطة لن يكون رجلًا سهلًا على الإطلاق، هذا رجل أفنى حياته في تفاصيل هذا الكتاب الذي سيكون كتابًا هامًا في العادة ، وأتقن كل معارفه. كما كان يقول بليني علينا أن نقرأ كثيرًا ولكن في كتب قليلة .

تشتهر هذه الهواية بين الكتّاب بشكل خاص، حيث أنه من أسهل طرق تنمية الكتابة هي العكوف على كاتب بعينه أو كتاب ما لحفظ وإجادة أسلوبه ومن ثم يبدأ من حيث انتهى هو ليضيف سماته الخاصة.

على أن اختيارك للكتاب الواحد هذا قد يعني نجاحك أو فشلك المعرفي في الحياة، فلا أظن أنك تحب أن تفني عمرك في دراسة وتحليل أحد مجلدات ميكي . .

مقوّمات اختيار هذا الكتاب نحتاج إليها فقط حين تكون البدائل متكافئة ومحيّرة، أما عند عدم تكافؤ هذه الاختيارات، وعند وجود الفجوة العملاقة بين إحداها والبقيّة، فإنذكر مقومّات الاختيار وطرائقه يعتبر ضربًا من المزاح الثقيل، أو السخرية المُقَنَّعة.

عند هذا التفاوت الكبير في الاختيار يتحول الأمر من عملية ذوق و اجتهاد إلى عملية صواب وخطأ ، الأمر لم يعد راجعًا إليك في تحديد كتابك الواحد الذي ترغب به، الأمر صار اختبارًا عمّا إذا كنت ستنجح في اختيارك لهذا الكتاب تحديدًا أم لا.

وحين نتحدث عن القرآن الكريم، فإننا -لا شك تعلمون- لا نستطيع أن نضعه في مقارنة مع أي كتابٍ آخر، إذ أن القرآن كلام خالق الكون، إرشادٌ من الحكيم، إخبارٌ من علام الغيوب، تزكيةٌ من الحي القيوم، تربيةٌ من رب العالمين، ورسالته إلى ساكني هذا الوجود المترامي الأبعاد. كما قال تعالى {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ} النمل ٦ .

القرآن ليس فقط الاختيار الصائب لكتابك الواحد، ولكنه المفترض أن يكون هو الاختيار الوحيد.

القرآن هو الكتاب الأمثل لفكرة الكتاب الواحد، فلو كان هناك كتابٌ يغني عن بقية الكتب فهو قطعًا هذا الكتاب المعجز ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ العنكبوت ٥٠ .

إن المتبحّر في علوم القرآن هو أولى الناس بالتحذير اللاتيني خذ حذرك من رجل الكتاب الواحد.

نحن إذن في هذه الحياة أمام اختبار مفتوح المدة، أسئلته مشتركة تمامًا في معظمها. على أن هناك اختلافات يسيرة فيها تبعًا لكل طالب، حيث أنك ترى أنه في النهاية كل منا لديه أسئلته الخاصة، ولربما يستعصي عليه شيء يكون يسيرًا جدًا على بقية الزملاء، ولربما العكس.

هذا الاختبار هو أقرب لنوع الاختبار المفتوح، حيث يمكنك أن تدخل إلى لجنة الامتحان بكل ما تشاء من الكتب والمراجع والملخّصات. ذلك النوع من الاختبارات التي تهدف إلى اختبار فهم الطالب للمعلومة وكيفية تطبيقه لها على الواقع، وليس قدرته على الحفظ والاسترجاع.

لم نعرف هذا النوع من الاختبارات في تعلمينا المجاني على كل حال، حيث قد يكون مستقبلك مهددًا بالخطر لو لم تستطع تذكّر السبب الذي كان من أجله يحب طه حسين أن يأكل البليلة.

على أن هذا النوع من الاختبارات ليس جنة للطالب، فبحسب دراسة أعدتها جامعة نيو ساوث ويلز في أستراليا؛ فإن أكبر الأفكار الخاطئة التي يحملها الطلاب نحو الاختبار المفتوح هو أنهم ليس عليهم الاستذكار له، وأنه قطعة من الكعك في السهولة. بينما الأمر ليس كذلك على الإطلاق.

أوضحت الدراسة أيضًا أن الطلاب الذين لا يستذكرون قبل الاختبار المفتوح يعانون من مشكلة متكررة وهي عدم قدرتهم على إيجاد المعلومة داخل الكتاب أصلًا؛ للدرجة التي تجعلهم يظنون أن المعلومة المراد الوصول إليها لا علاقة لها بموضوع الكتاب الذي دخلوا به إلى اللجنة، مع شعور بأنهم قد خُدعوا.

المسألة بسيطة. أنت بالفعل لا تحتاج إلى أن تحفظ الكتاب عن ظهر قلب، ولكنك تحتاج كي تصل إلى ما تريده منه أن تفهمه فهمًا كاملًا وأن تكون قراءتك فيه متكررة وواعية ودقيقة. فبالرغم من أنك لن تحتاج إلا إلى كتاب واحد -وقد سبق وشرحنا أهمية أن يكون لك الكتاب الواحد- إلا أن معاملتك وتناولك لهذا الكتاب يجب أن يكون مختلفًا حتى تحصل منه على كل أجوبة أسئلتك.

حتى لا تقع في الخطأ المتكرر الفادح وتخرج لتقول أن القرآن ليس به الجواب.

بل أنت حينها فقط قد رسبت في الاختبار.

(من كتاب الإجابة القرآنية؛ كيف أجاب القرآن على أسئلتك الوجوبية؟ للكاتب د. مهاب السعيد)

(إن هذه البشرية وهي من صنع الله لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله؛ ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي يخرج من يده سبحانه وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق، وشفاء كل داء ونتزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين. إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم. ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه، ولا تسلك في أمر نفسها، وفي أمر إنسانيتها، وفي أمر سعادتها أو شقوتها. ما تعودت أن تسلكه في أمر الأجهزة والآلات المادية الزهيدة التي تستخدمها في حاجاتها اليومية الصغيرة. وهي تعلم أنها تستدعي لإصلاح الجهاز مهندس المصنع الذي صنع الجهاز. ولكنها لا تطبق هذه القاعدة على الإنسان نفسه، فترده إلى المصنع الذي منه خرج، ولا أن تستفتي المبدع الذي أنشأ هذا الجهاز العجيب، الجهاز الإنساني العظيم الكريم الدقيق اللطيف، الذي لا يعلم مساربه ومداخله إلا الذي أبدعه وأنشأه إنه عليم بذات الصدور. {ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير}؟ [1]

ومن هنا جاء منهج الله تعالى ودستوره في رسالته الخاتمة في قرآنه العظيم.

لقد (تَسَلَّم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور. فكان ذلك مولدا جديدا للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته. لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصورا جديدا عن الوجود والحياة والقيم والنظم؛ كما حقق لها واقعا اجتماعيا فريدا، كان يعز على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء. نعم لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع، والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن

---

[1] مقدمة في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب رحمة الله عليه.

والتناسق . . . بحيث لا يخطر للبشرية على بال، لولا أن الله أراده لها، وحققه في حياتها. في ظلال القرآن، ومنهج القرآن، وشريعة القرآن). [1]

كما قال تعالى {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (الإسراء ٩).

فالقرآن يهدي ويدل على الحقّ والصواب. و «أَقْوَمُ» هنا بمعنى المستقيم الصحيح كأكبر بمعنى الكبير، فالقرآن يدل على الحق والصواب، ولكنّ الخلل من جهة الإنسان المُسْتَدِلّ لا الدليل، إذ قد يكون الدليل ظاهرا ولكنّ المستدلّ مُعْرِض، وبآداب النظر والتدبر مُخِلّ، فيكون العيب في تقصيره لا في قصور الدليل.

القرآن نورٌ مَن استضاء به تخلص من ظلمات جهله، وخرج من غمار شكّه. ومَنْ رَمِدت عيونُ فكرِه التبس رشدُه، فرأى الشمس ناقصة الضياء. ويقال الحول ضرره أشدّ من العمى، لأنّ الأعمى يعلم أنه ليس يبصر فيتبع قائده، ولكن الأحوال يتوهّم الشيء شيئين، فهو بتخيّله ويحسب أنه يرى ويجادل مَن كان سليما؛ كذلك المبتدع إذا سلك طريق الجدل، ولم يضع النظر موضعه بقي في ظلمات جهله، وصال بباطل دعواه على خصمه. انتهى[2]

وكذلك الذين يتفلسفون ويجادلون في القرآن بغير علمٍ. إنهم الذين يرون القرآن كتابا قديما أثريا لا يصلح لعالمهم ولا لحل مشاكلهم ومعضلاتهم. ويروحون لمناهج فاسدةٍ حكم عليها من صنعوها بالخلل والاضطراب فيجعلون منها النموذج والقدوة، وترى ذلك جليا في (متعلمني) العرب و(شيوعييهم).

---

[1] المصدر السابق

[2] لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٢/ ٣٣٨) بتصرف يسير.

(إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية، ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق.

ويهدى للتي هي أقوم، في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله.

ويهدى للتي هي أقوم في عالم العبادة، بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل، ولا تسهل حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار، ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدى للتي هي أقوم، في علاقات الناس بعضهم ببعض أفرادا وأزواجا وحكومات وشعوبا، ودولا وأجناسا.

ويهدى للتي هي أقوم في نظام الحكم، ونظام المال، ونظام الاجتماع، ونظام التعامل). [1]

---

(1)« في ظلال القرآن للمرحوم سيد قطب ج ١٥ ص ٢٢١٥.» .

نزهة القاصدين.

قال القشيري في لطائف الإشارات يفسر   إياك نعبد وإياك نستعين   [والعبادة نزهة القاصدين، ومُسْتَروح المريدين، ومربع الأنس للمحبين، ومرتع البهجة للعارفين. بها قرّة أعينهم، وفيها مسرة قلوبهم، ومنها راحة أرواحهم. وإليه أشار صلّى الله عليه وسلّم بقوله أرحنا بها يا بلال». ولقد قال مخلوق في مخلوق

يا قوم ثارى عند أسمائى .. يعرفه السامع والرائي.

لا تدعنى إلا بيا عبدها .. فإنه أصدق أسمائى.

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه، ونزولك بساحة جوده، وتسليمك إلى يد حكمه، فتقصده بأملٍ فسيح، وتخطو إليه بخطوٍ وسيع، وتأمل فيه برجاء قوى، وتثق بكرمٍ أزلى، وتتكل على اختيارٍ سابق، وتعتصم بسبب جوده غير ضعيف].

لطيفة في الكلام والصمت.

وقد فضَّل البعض الصمت على الكلام، وفضل بعضهم الكلام على الصمت لكن الحسن البصري حسم المقارنة بقوله

(إملاء الخير خيرٌ من الصمت، والصمت خيرٌ من إملاء الشر).

اغتاب رجل أخا له عند إياس بن معاوية المزني قاضى البصرة، فسأله إياس أغزوت الروم ؟ قال لا. قال أغزوت السند ؟ قال لا. قال أغزوت الترك ؟ قال لا. قال سبحان الله. سلم منك كل هؤلاء ولم يسلم منك أخوك المسلم   .

" الريب" و" الشك" ودقة البلاغة القرآنية.

إن اللغة القرآنية لغةٌ متفردةٌ، لغةٌ تمثل طرارزا خاصا من بلاغة اللغة العربية، فليست هي بعينها اللغة العربية؛ كما أنها ليست تخرج عنها، وما نسبتها إلى اللغة العربية إلا كنسبة الوعاء إلى الموعَى فيه، فاللغة العربية تمثل الإطار والوعاء الذي تنطلق منه لغة القرآن إلى أفقٍ أرحبَ وأكثر عمقاً ودلالةً وبلاغةً.

وقد قررتُ بفضل الله ذلك بشيء من التفصيل في كتابي اللغة القرآنية وعظمتها ، ومما فيه أن المفردة القرآنية كمثالٍ هي مفردةٌ حيةٌ نابضةٌ موحيةٌ بليغةٌ تجاوز بدلالتها المعنى المعجمي اللغوي الذي تتحجر فيه لغة العرب في إطارٍ محدود من الدلالة والإيحاء.

ومن الإجحاف الشديد أن نأطر المعاني لمفردات القرآن في مرادفتها أو مساواتها للفظة أخرى من مفردات اللغة غير نفس تلك اللفظة القرآنية. فإن ظاهرة العدول في اللغة القرآنية تفند هذا القصور في تناول مفردات القرآن على أنها لغةٌ فريدةٌ وطراز مخصوص من اللغة العربية، وتجعلنا مستائين جدا أمام مؤمنٍ يطلب عظمة القرآن ويسلم بلا تردد لتفسيرٍ سطحي يساوي كلمةً قرآنيةً بلفظ عربي عادي جدا ليس له بعض دلالات اللفظ القرآني فضلاً عن أن يكون مثله، وإنما الاعتذار الوحيد لها أنها تقرِّب المعاني لمن كان عقله ساذجاً أو بعيداً عن فهم لغة القرآن فيطلب ما يعينه على الفهم العام فقط لا غير.

ولا أجازف إن قلت أن مقصدها كان مراعاةً لغير العرب لمعرفة دلالة المفردات القرآنية؛ أما العربي فأربأ به عن التعلق بغير التدبر والتأمل العميق لدلالات وإيحاءات وعلوم اللغة القرآنية لأن في ذلك تقويةً للإيمان بعظمة كلام الله تعالى وبلاغته.

وهذا مقصود كلام شيخ الإسلام ابن تيمية

وَمِنْ الْأَقْوَالِ الْمَوْجُودَةِ عَنْهُمْ (أي الأقوال المنقولة عن السلف في التفسير) وَيَجْعَلُهَا بَعْضُ النَّاسِ اخْتِلَافًا أَنْ يُعَبِّرُوا عَنْ الْمَعَانِي بِأَلْفَاظ مُتَقَارِبَة لَا مُتَرَادِفَة، فَإِنَّ التَّرَادُفَ فِي اللُّغَةِ قَلِيلٌ، وَأَمَّا فِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ فَإِمَّا نَادِرٌ وَإِمَّا مَعْدُومٌ، وَقَلَّ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ لَفْظٍ وَاحِدٍ (أي من القرآن) بِلَفْظٍ وَاحِدٍ (أي يفسره)

يُؤَدِّي جَمِيعَ مَعْنَاهُ، بَلْ يَكُونُ فِيهِ تَقْرِيبٌ لِمَعْنَاهُ وَهَذَا مِنْ أَسْبَابِ إعْجَازِ الْقُرْآنِ فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا} إنَّ الْمَوْرَ هُوَ الْحَرَكَةُ كَانَ تَقْرِيبًا إذْ الْمَوْرُ حَرَكَةٌ خَفِيفَةٌ سَرِيعَةٌ. انتهى [1]

وممن منع وجود الترادف في اللغة العربية على عمومها أيضا :المبرد والزجاج من علماء اللغة، واختار هذا القول أيضا الجويني من علماء الأصول، وقال أكثر ما يُظَنُّ أنه مترادف هو مختلفٌ، لكن وجه الاختلاف خفي .انتهى.

قال القرافي في نفائس الأصول في شرح المحصول قال المنكرون للترادف القمح والبر والحنطة متباينة، لا مترادفة والقمح اسم صفة من قوله تعالى {إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون} (يس ٨) وهذه الحبة يحصل فيها تعب في حرثها وحصادها ودراسها، وغير ذلك، فسميت قمحا لذلك، والبر من البر، لأنها قوام بنية الإنسان والحنطة اسم الذات، والإنسان والبشر متباينان، فالإنسان من النسيان، لقول الشاعر وسميت إنسانا لأنك ناسي، ويعضده قوله تعالى {ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي} (طه ١١٥) فسميت ذريته بذلك، وقيل من الأنس، لأنه يتأنس به، ويأنس بعضه ببعض ما لا يأنس غيره من الحيوان بعضه ببعض، وقيل من النوس الذي هو الحركة، وعلى هذا سمى الجان بالناس، وقد قيل ذلك في قوله تعالى {من الجنة والناس} }(الناس ٦) هذه ثلاثة أقوال في اشتقاقه، فهو اسم صفة والبشر من البشر، وقول العرب بشر يبشر بشرا إذا انتشر وسوى، والإنسان قد سويت ظواهر أعضائه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام خللوا الشعر وأنقوا البشر - أي أنقوا ظواهر أجسدكم، فعلى هذا هو اسم صفة، أو نجعله اسم الذات، والأول اسم صفة. انتهى.

ومن أشهر الكتب في معرفة وجه الفرق بين الألفاظ التي يقال عنها مترادفة، كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، فتجد فيه مثلا التفريق بين الظن والشك، وبين الشك والارتياب، وبين الشك والامتراء، وبين الظن والحسبان، ونحو ذلك.

---

[1] () مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤١)

ومن الكتب التي تفيد في هذا الباب أيضا كتاب الكليات للكفوي، وتجد فيه التفريق بين التولي والإعراض، حيث قال قال بعضهم المعرض والمتولي يشتركان في ترك السلوك، إلا أن المعرض أسوأ حالا، لأن المتولي متى ندم سهل عليه الرجوع، والمعرض يحتاج إلى طلب جديد، وغاية الذم الجمع بينهما. انتهى.

ومن هذه الكتب أيضا كتاب بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادي صاحب (القاموس المحيط).

ولكي أكون منصفا فإن بعض كتب غريب القرآن قد توسعت شيئا ما لبيان خصوصية اللغة القرآنية وبيان بعض اتساع الدلالات البلاغية لمفردات القرآن مثل كتاب مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (المتوفى ٥٠٢هـ) ، وكتاب عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي (المتوفى ٧٥٦ هـ) . ويُضاف إليهما بعض الكتب التي عنت ببلاغة لغة القرآن كمثل تفسير الزمخشري الكشاف ، والدر الثمين لصاحب عمدة الحفاظ، وتفسير ابن عرفة وأمثالهم....

وإن كنا في حاجةٍ ماسة لدراسة نوعية متخصصة في حصر عميق لبعض دلالات وبلاغة المفردات القرآنية، وإن كان أمراً شاقاً إلا على مَن يسره الله عليه. [1]

وللذكرة فإننا ما زلنا نتحدث عن البلاغة والعمق الدلالي للمفردة القرآنية بصورتها المنفصلة، فتأمل إذا ضُمَّ إليها وجود المفردات القرآنية في تركيب لفظي/معنوي، ثم سياق ترتيب وسياق منطقي يوجِّه المعاني لمزيد من الدلالات ويزيد في مستوى البلاغة والعمق المعنوي لتناول قضايا بناء الإنسان على نور من الرحمن سبحانه.

وضربنا مثالاً لسذاجة تناول المفردات القرآنية في قوله تعالى في أول سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، ثم تأملتُ أقوال المفسرين وأصحاب كتب غريب القرآن فوجدتهم يساوون بين {لَا رَيْبَ فِيهِ} وبين (لا شك فيه) [2] ، ثم تساءلتُ لِمَ عدلت البلاغة القرآنية عن استعمال لفظ (

---

(١) وربما أعانني الله على ذلك بفضله ومنته.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١/ ٢٢٨)

شك) إلى استعمال كلمة { ريب}؟ لابد أن هناك عمقٌ وبلاغةً في كلمة {ريب} لا تحملها كلمة (شك).

قال العلامة الزمخشري

والريب مصدر رابنى، إذا حصل فيك الريبة. وحقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها.

ومنه ما روى الحسن بن على قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الشك ريبة، وإنّ الصدق طمأنينة» (١) أى فإن كون الأمر مشكوكا فيه مما تقلق له النفس ولا تستقرّ. وكونه صحيحا صادقا مما تطمئن له وتسكن. ومنه ريب الزمان، وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه. ومنه أنه صلى الله عليه وسلم مر بظبي حاتفٍ (أي يلقى حتفه) فقال «لا يربه أحد بشيءٍ» (٢) . انتهى. (٣)

وفي لغة الحديث دع ما يربك إلى ما لا يريبك والمراد أن ما اشتبه حاله على الإنسان فتردد بين كونه حلالاً أو حراماً فاللائق بحاله ترْكه والذهاب إلى ما يعلم حاله ويعرف أنه حلال، وذلك بدلالة قوله – ﷺ وهو الفصيح البليغ فإن الشك ريبة ولا يعقل عاقلٌ من هذا أن يقول (فإن الشك شك) فوجب المغايرة بين الشك وبين الريبة التي تقابل في نفس لفظ الحديث الطمأنينة لتكون بمعنى القلق وعدم والاستقرار والتردد، ويؤيد ما ذهبت إليه من المغايرة بين معنى الشك والريب قوله تعالى {قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ

---

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَرَوَى الدَّارِمِيُّ المقطع الأول منه، وهو صحيح. انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١/ ٤٤).

(٢) أخرجه في الموطأ. والنسائي في الحج. وابن حبان من رواية عمر بن سلمة الضمري عن البهزى: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خرج يريد مكة وهو محرم، حتى إذا كان بالاثاية بين الرويثة والعرج، إذا ظبى حاتف في ظل وفيه سهم. فأمر رجلا أن يقف عنده لا يريبه أحد من الناس حتى يجاوزوه. ولإسحاق في مسنده: فقال لبعض القوم: «كن حتى يمر الناس ولا يريبه أحد بشيء» اه.

(٣) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ٣٤)

مُرِيبٍ} [هود ٦٢] فوصف هنا وفي آيات أخرى الشك بأنه مريب، فكأن الريبة زيادة على معنى الشك.

وبعد أن أوغلتُ في تأمل هذا وجدتُ ما يقوله الدكتور إبراهيم السامرائي [(١)]

لقد وردت كلمة «الريب» في سائر سور القرآن خمس عشرة مرة أخرى في خمس عشرة آية من سور القرآن ومنها

إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها [غافر ٥٩].

كما وردت كلمة «ريبة» في [الآية ١١٠ من سورة التوبة] هي في قوله تعالى {لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ}.

وقد ورد الوصف من هذه الكلمة «مريب» في سبع آيات من سور مختلفة، جاء في ست منها وصفا لموصوف هو «الشكّ»، ومن ذلك قوله عز وجل {وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}.

ولم يلتفت أهل العلم إلى هذا الوصف، فيعرضوا للشكّ والريب، وعلاقة أحدهما بالآخر، وتعيين الحد بينهما، ولم أجد في كتب التفسير شيئا من هذا العلم اللغوي، الذي يبحث في دقائق الفروق.

وقد ورد «الشكّ» في خمس عشرة آية في سور مختلفة، جاء في ست منها موصوفا بالوصف «مريب» كما أشرنا.

و «الشكّ» نقيض اليقين، فاليقين ثبوت العلم، أما الشكّ فهو نقيضه.

قال والذي أراه أن الشك أضعف من «الريب»، ولو لم يكن ذلك لما وُصف «الشكّ» في ست آيات ب «مريب»، منها قوله تعالى {وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} (٩) [إبراهيم].

ويدلنا هذا على أن «الشك» قد ورد في تسع آيات أخرى غير موصوف بهذا الوصف، ويبدوا أنها تعني عكس ونقض اليقين الثابت ...إلخ كلامه.

١() من بديع لغة التنزيل لـ السامرائي (ص: ١١، بترقيم الشاملة آليا)

والقصد أن وصف الشك بأنه مريب في ست آيات في كتاب الله تعالى هو دلالة علة مغايرة الشك للريب في المعنى، ودلالة أن الريب أقوى لأن الوصف في اللغة العربية إنما استعماله لزيادة قوة وعمق المعنى.

وكذلك مما يؤيد أن معنى الريب أعمق وأكثر دلالات من معنى الشك قوله تعالى {إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} [التوبة ٤٥] فارتياب قلوب المنافقين أو وقوعها في الريب هو بمعنى قلقها واضطرابها وعدم استقرارها الذي هو أعمق من مجرد الشك، ولذلك قال تعالى {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ} أي هم متحيّرون لا يعرفون حقًّا من باطل، فيعملون على بصيرة. وهذه صفة المنافقين.

أما مجرد الشك فإنه لا ذم فيه إذا كان الشاكّ يعرف أنه ليس على علم ويبحث عن اليقين، وهذا لا ذم فيه إلا اقترن بزيغٍ عن الحق ورفضٍ للنور والحقيقة، ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ على سبيل الفرض وليس التقرير ألا يجادل أهل الباطل، من أجل البيان للناس أن قاعدة الحق صلبة، فقال تعالى

{فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [يونس ٩٤] أي لا تجادلهم فإنهم عُمْي لا يرون الحق ولا يفتحون عيونهم للنور ابتداءً، و(الامتراء) من المِراء الذي هو الجدال.

وقد ورد (الشك) هنا في صيغة (الشرط) وليس (التأكيد) وقد انتفى الشرط فانتفى الشك، وبقي مقصود الكلام وهو تأكيد الحق في تنزيل الله تعالى على نبيه ونهيه عن مجادلة المبطلين الين لن يقنعوا بحق؛ كما قال تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [البقرة ١٤٦، ١٤٧]

ولكن حين الحديث عن شك المشركين في كلام الله الممزوج بإنكار الحق والمجادلة عن الباطل يجئ استعمال كلمة (ريب) وليس (شك) {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [البقرة ٢٣]

ولذلك قال تعالى {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء 87] أي لا يصح ولا يجوز أن يرتاب فيه عاقل بعدما عرف دلائل البعث من النشأة الأولى، وعليه جاء التذييل البديع {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} لقومس يعقلون. فللريب هنا دلالة على الحيرة والاضطراب والجدال عن الباطل، وهو ما نفى الله تعالى ان يكون في قلب متأملٍ عاقلٍ، وفي الوقت ذاته نهى عن أن يكون.

(وعلى هذا كان استعمال الريب ألزم وأوجب لما يقتضي المقام أن تستعمل فيه، ولا يمكن أن يحل «الشكّ» محلّه.

ألا ترى أن قوله تعالى {لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا} [الكهف 21]. تقرير حق وبيان وعلم بأمر مُحَقَّق، وهذا يؤذن ألا يستعمل فيه ما قد يفهم منه الضعف والتردّد، فاستبعدت كلمة «الشكّ» واستعملت كلمة «الريب»، ولا يمكن أن تؤدي الاولى ما تؤديه الثانية). [1]

وتأمل ما قاله موسى عليه السلام – لفرعون وقومه {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} [غافر 34، 35]

فلم يعلق الهلاك على شرط الشك مجرداً، وإنما علقه على ضلالٍ نشأ عن ريبٍ وإسراف في التمسك بالباطل وعدم البحث عن الحق، ولذلك وصف الهالكين بأنهم يجادلون في آيات الله (الدلالات الواضحات على الحق) بغير حجةٍ استكبارا وتجبرا على الحقيقة، فهذا هو معنى الريب والريبة والارتياب الذي هو أعمق من مجرد الشك.

فناسب المغايرة بين استعمال القرآن لكلا الكلمتين (الريب والشك) ليكون كلٌ منهما مناسب تماما وأبلغ في موضعه، ولله الفضل والمنة.

1() من بديع لغة التنزيل لـ إبراهيم السامرائي (ص: 13، بترقيم الشاملة آليا)

ألا ترى أن قيام الساعة، والبعث، ويوم القيامة، ويوم الجمع حق لا مراء فيه، فإثباته وبيانه يتطلب أن تؤدي الألفاظ هذه الحال المقتضاة، فكان ان استعمل «الريب»، ولم يستعمل «الشك». تلكم لغة التنزيل في تخير اللفظ، وأحكام الأداء، وإصابة دقائق المعاني.

ويظل العدول عن استعمال لفظ الشك إلى لفظ الريب في أول سورة البقرة {ذلك الكِتَابُ لا رَيْبَ فيه} أكبر دليل على المغايرة في دلالة الريب ودلالة الشك. وأن البلاغة في صالح استعمال كل منهما في موضعه.

فالريب في هذه الآية له معنى أعم وأعمق من معنى الشك، الذي هو تساوي احتمالية وقوع الشيء وعكسه بلا ترجيح. وهذا المعنى للريب يوحي بقلق النفس واضطرابها تجاه قضيةٍ ما سواءً كان حصل الشك أو لا، فهو أعم من الشك والشك أخص منه وأضيق معنىً بدلالة قوله تعالى ينهى عن اضطراب النفس في شيءٍ من الأخبار التي أنزلها الله، قال تعالى {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} وقوله {فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ} وهو مَخْرَج جيد من السؤال الذي تساءله المحققون من المفسرين فقالوا كيف نفى الريب عنه، وقد علم تشكك كثير من الناس فيه؟ قيل في ذلك أجوبة الأول إن ذلك نفي على معنى النهي نحو قوله {فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ} أي لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا في الحج، خرج الأمر بصورة الخبر لتأكيد حصوله من المؤمن الحريص على عبادته.

(ومن المفسرين من فسر قوله تعالى لا ريب فيه بمعنى أنه ليس فيه ما يوجب ارتيابا في صحته أي ليس فيه اضطراب ولا اختلاف... بالنظر إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً}[النِّسَاء ٨٢] أَيْ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَشْتَمِلُ عَلَى كَلَامٍ يُوجِبُ الرِّيبَةَ فِي أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مِنْ كَلَامٍ يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا أَوْ كَلَامٍ يُجَافِي الْحَقِيقَةَ وَالْفَضِيلَةَ أَوْ يَأْمُرُ بِارْتِكَابِ الشَّرِّ وَالْفَسَادِ أَوْ يَصْرِفُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْفَاضِلَةِ، وَانْتِفَاءِ ذَلِكَ عَنْهُ يَقْتَضِي أَنَّ مَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ

الْقُرْآنُ إِذَا تَدَبَّرَ فِيهِ الْمُتَدَبِّرُ وَجَدَهُ مُفِيدًا الْيَقِينَ بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَالْآيَةُ هُنَا تَحْتَمِلُ الْمَعْنَيَيْنِ فَلْنَجْعَلْهُمَا مَقْصُودَيْنِ مِنْهَا.)[1]

فتأمل كيف أن مفردة قرآنية واحدة في سياقها تحتمل من المعاني والإيحاءات ما يزيد كثيرا عن مجرد تفسيرها بمرادفٍ لفظي لا يحتمل بعض تلك المعاني.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٣)

أقولُ من الشائع عند الناس اليوم في لغتها هو استعمال كلمة (وراء) بمعنى (خلف)، وهو استعمالٌ غير فصيح، و(لغة القرآن) لها استعمالٌ بليغٌ جدا لهذه الكلمة، فتقول لكل ما توارى عنك واستتر وتراخى وغاب فلا تكاد تراه أو تخيله أو تحسبه (وراء) لأنه خفي عنك.

فيُقال (وراء هذا الجدار، ووراء هذا البحر، ووراء هذا الباب كذاوكذا) لما لم تره ولكنه استتر عنك. ويقال (تركت ورائي كذاوكذا) أي تجاوزتهُ حتى غاب عن نظري فلم ألتفتُ إليه.

(والتورية أن تظهر شيئًا وتريد غيره، كأنه يُظْهِر جزءًا ويستر آخر. وفي الحديث إذا أراد غزوًا وَرَّى بغيره . (أي أظهر وِجهةً وستر الوجهة الحقيقية). وأصله من الوراء، وهو إلقاء السِتر وراء ظهره). [1]

والْوَرْيُ دَاءٌ يُدَاخِلُ الْجِسْمَ. يُقَالُ وَرِيَ جِلْدُهُ يرِي وَرْيًا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «لِأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا حَتَّى يَرِيَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا». [2]

وحقيقة الداء من المستترات، فلا نعرف كل الأدواء على حقيقتها؛ فاستعمل (يَرِي وَرْيا) هنا لمعنى مداخلة الداء فهو من مادة الخفاء والستر أيضا.

ومعناه أنْ يمتلأ جوفُ مؤمنٍ قيحاً يداخل جسمهكالداء خيرٌ من يمتلأ شعراً بالباطل، وفيه تحذير من استعمال الشعر وأدوات الإعلام عموما في نصرة الباطل أو حرب الحق.

فما تجاوزه المرؤ أو كان في سِتر عنه أو ينتظره ولا يعلم كنهه فهو وراءه.

ومن هذه المادة للتواري والاستتار في العلم أو العيان اشتقت كلمة (وراء)؛ سواءٌ فيها ما توارى عنك وكان خلفك أو امامك أو في أي اتجاهٍكان. وعلى هذا فليس معنى (وراء) هو (خلف)، وليست كما ادعى بعض اللغويين – لما رأى تعارض استعمال وراء في معنى الأمام مرة وفي معنى الخلف مرة أخرى أنها من الأضداد.

---

(١) راجع عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ (٤/ ٣٠٤)

(٢) مقاييس اللغة (٦/ ١٠٤)

قال تعالى ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف ٧٩] أي غاب عن بالهم أو عزب عن علمهم أنه ينتظرهم ملكٌ جائرٌ يستولي على سفن الناس إذا لم تكن معيبة؛ فحُقَّ هنا استعمال وراء لما توارى عن علمهم.

وفي هذه الآية نكتة وقاعدة لطيفة أن (العموم يمكن أن يُخَصَّ بالمفهوم وقرينة الحال)، فالعموم في الآية ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ مخصوص بأنه لا يأخذ المعيبة، وإلا لما لجأ الخضر عليه السلام إلى أن يعيبها، والتخصيص هنا بقرينة الحال والمفهوم، كما يأمر رجلٌ مجالسيه يقول ليَخرجْ جميعُ مَن في الغرفة، وهو منهم ولكن لما كان الكلام صادرا منه جاز أنه نفسه مستثنىً من هذا العموم فلا يكون الأمر له معهم أن يخرج، خُصَّ بالمفهوم وقرينة الحال.

ونعود لقوله تعالى ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان ٢٧]، أي يتركون يوما ثقيلاً هو متوارٍ عنهم ولا يعرفون كنه ثقله وشدته، أو هم تناسوه وكأنهم جعلوا بينهم وبينه سترا فلا يرونه قادما.

وقال تعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة ٩١]

أي يكفرون بما جاوزه وجاء بعده، ولأنه يسترونه عن أنفسهم فلا يرونه، عبَّر عنه بكلمة (وراء)، وليس المقصود بها ظرفا زمانيا أو مكانيا، وإنما المقصود بها حالة الستر والتواري، وهو تعبيرٌ بليغ عظيم يلخص معانٍ عدةٍ في كلمة واحدة، ولله العظمة وحده سبحانه.

كما قال تعالى ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم ١٥، ١٦]

فلما كانت جهنم والعذاب الغليظ فيها قد تجاوز كل وصفٍ فلا يكاد يتخيله هذا الجبار العنيد؛ صار في حكم المستتر المتواري إلى أن يفاجئه فيكون أبلغ في العذاب والصدمة، ولذلك عبر عنه بكلمة (وراء).

ولذلك قيل للكفار لما طلبوا نورا مثل ما أعطاه الله تعالى للمؤمنين {قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} [الحديد ١٣] أي ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور هنالك، فإن النور يأتي من العمل الصالح الذي نبذتموه وراء كم، وعبّر عن الدنيا التي تورات وصار بينهم وبينها حاجز الموت والبرزخ ب{ وراء كم} على ما قررناه آنفاً، فتأمل.

وهذا في معنى قوله تعالى {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون ٩٩، ١٠٠]

والمعنى حتى إذا جاء أحدَ هؤلاء المشركين الموتُ، وعاين نزول أمر الله به، قال لعظيم ما يعاين مما يقْدم عليه من عذاب الله تندّما على ما فات، وتلهُّفا على ما فرط فيه قبل ذلك، من طاعة الله ومسألته للإقالة (رَبِّ ارْجِعُونِ) إلى الدنيا فردّوني إليها، (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا) يقول كي أعمل صالحا فيما تركت قبل اليوم من العمل فضيعته، وفرّطت فيه.

(كَلا) يقول تعالىذكره ليس الأمر على ما قال هذا المشرك، لن يُرْجع إلى الدنيا، ولن يعاد إليها (كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) يقول هذه الكلمة، وهو قوله (رَبِّ ارْجِعُونِ) كلمة هو قائلها يقول هذا المشرك هو قائلها.

(وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ) يقول ومن أمامهم حاجز يحجز بينهم وبين الرجوع، يعني إلى يوم يبعثون من قبورهم، وذلك يوم القيامة. انتهى [١]

وهنا استعمال {وراء} لما توارى ولم يعد ممكنا العودة إليه. وليس بمعنى قدام أو خلف.

ويؤيد هذا قوله تعالى في اليهود يصف جبنهم وخور نفوسهم {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ} [الحشر ١٤] أي لا يقاتلكم اليهود إلا من خلف تحصيناتهم أو متوارين في جدرٍ (جمع جدار) تحميهم. وهكذا عادتهم في كل زمانٍ، سبحان الله.

١() تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٩/ ٦٩)

وقوله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران ١٨٧]

قال أبو عبيدة «فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ» أي لم يلتفتوا إليه، يقال نبذتَ حاجتى خلف ظهرك، إذا لم يلتفت إليها. انتهى. (١)

والمعنى جعلوا بينهم وبين كتاب الله حاجزا فلا يلتفتون إليه. ومعناه كما قال الراغب في المفردات لم يعملوا به ولم يتدبّروا آياته. وفيها استعارة تمثيلية شبه الذي لا يتدبر لا يتدبر كتاب الله ويعمل به بذلك الذي يرمي شيئا وراءه ولا يلتفت إليه. واستعمال وراء هنا لأنهم واروا (أي أخفوا) الكتاب عن أبصار قلوبهم.

وقوله {فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فأولئك هم العادون} [المؤمنون/ ٧]. أي من ابتغى أكثر مما بيّنته الآيات أنه لا لوم فيه وهو الزوجة وملك اليمين، فقد اعتدى وتعرض لما لا يحل له من النساء، واستعمال (وراء) هنا لأن من طلب الاستمتاع بغير زوجته أو ملك يمينه فقد خرق الحاجز الذي بعده الحرام والعدوان.

أما استعمال كلمة (أمام) في القرآن.

{بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} [القيامة ٥]

يقول تعالى ذكره ما يجهل ابن آدم أن ربه قادر على أن يجمع عظامه، ولكنه يريد أن يمضي أمامه قُدُما في معاصي الله، لا يثنيه عنها شيء، ولا يتوب منها أبدا، ويسوّف التوبة. (٢)

١() مجاز القرآن (١/ ١١١)

٢ عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس في قوله: (لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) قال: يمضي قُدُمًا. وعنه: يعني الأمل، يقول الإنسان: أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة. وعن مجاهد قال: يمضي أمامه راكبا رأسه. وقال الحسن: لا تلقى ابن آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُما قدما، إلا من قد عصم الله. وعن عكرمة قال: قدما لا ينزع عن فجور. وقال آخرون: بل معنى ذلك أنه يركب رأسه في طلب الدنيا دائبا ولا يذكر الموت.

قال الواحدي وهذه الأقوال معناها واحد، أي (يسوف التوبة، ويقدم الأعمال السيئة)، ومعنى (يفجر) يعصي ويخالف أمر الله تعالى. و (أمامه)، أي فيما يستقبل. والمعنى يريد أن يعصي ويكفر أبدًا ما عاش. قال ابن الأنباري يريد أن يفجر ما امتد عمره، وليس في نيته أن يرتد عن ذنب يرتكبه. وهذا معنى ماذكره المفسرون. (١)

وقال ابن بي زمنين وَهُوَ الْمُشْرِكُ؛ يَعْنِي أَنَّهُ يَمْضِي عَلَى فُجُورِهِ لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ حَتَّى يلقى ربه. (٢)

وَالْمَعْنَى بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُقَدِّمَ فُجُورَهُ فِيمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَمَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ الزَّمَانِ، فَيُقَدِّمُ الذَّنْبَ وَيُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ.... (٣)

فكلمة (أمام) هنا لا يقصد بها الظرف المكاني بمعنى (قدام)، وإنما تعني ما يستقبل من الزمان بلا حدٍ معروف، بمعنى فيما يأتي إلى آخر العمر.

لأن (أمام) مشتقة في اللغة من الفعل (أمم) أي قصد، وكل ما تقصده وتكون خلفه فهو أمامك، وكل ما يجمع ويكون وجهةً ومقصداً فهو (أُم) بضم الهمزة.

وفي التنزيل {فَتَيَمَّموا صَعيدًا طَيِّبًا ... } (النساء ٤٣ ، المائدة ٦)، والتَّيمم التَّوَضُّؤُ بالتُّرْبِ على البَدلِ أَيضًا وأَصْلُه من ذلك لأَنه يُقْصَدُ التّراب فَيَتَمَسَّحُ بهِ.

وفيه أيضا {وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ} [المائدة ٢] أي قاصدين البيت الحرام.

[و(أَمَّ) الْقَوَمَ وأَمَّ بِهم بمعنى تَقَدَّمَهُم وصاروا يقصدونه ليقودهم، وهي الإمامةُ والإمامُ ما ائْتُمَّ به غيره مِنْ رئيسٍ وغَيْرِه، والجمعُ (أَئِمَّةٌ)، وفي التنزيل {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ} (التوبة) ١٢ أي رُؤَساءَ الكُفْرِ

وقال ابن زيد في قوله: (بَلْ يُرِيدُ الإنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ) قال: يكذّب بما أمامه يوم القيامة والحساب . انظر تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٤/ ٥٢)

١() التفسير البسيط (٢٢/ ٤٨١)

٢ تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٥/ ٦٤)

٣ فتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٠٤)

وقادَتَهم المقصودين المتبوعين فيهم،وكذلك قولُهُ {وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} (القصص ٤١) من تَبِعَهُم فهو في النارِ يومَ القيامةِ.

و(إِمَامُ القِبْلَةِ) تِلْقَاؤُهَا ومواجهها. والحَادِي (إمام الإِبلِ) وإن كَانَ وراءَها لأنه الهادِي لها.

و(الإمامُ) الطريقُ وقولُهُ عزَّ وجلَّ {وإنهما لبإمام مبين} (الحجر ٧٩) أَيْ لَبِطَرِيقٍ يُؤَمُّ أي يُقْصَدُ. والدليلُ هو إمامُ السَّفرِ.

وقولُهُ تَعَالَى {واجعلنا للمتقين إماما} (الفرقان ٧٤) أي أئمة. قال أبو عُبَيْدَةَ هو واحِدٌ يدلُّ على الجَمْعِ، كقوله تعالى {إن المتقين في جنات ونهر} (القمر ٥٤) أي أنهار]. [1]

وَقيل هو مثل قَوْلُهُ تَعَالَى {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران ٧] وَلَمْ يَقُلْ أُمَّهَاتُ لِأَنَّهُ عَلَى الْحِكَايَةِكَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لَيْسَ لِي مُعِينٌ فَتَقُولُ نَحْنُ مُعِينُكَ فَتَحْكِيهِ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى {وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان ٧٤]. [2]

ومن هذا يتبين أن استعمال القرآن لكلمة (أمام) راعى الاشتقاق الأصلي للكلمة من معنى القصد والتبعية، فكان كل أمام هو المقصود وما يستقبل المرئ وليس مجرد المعنى السطحي المرادف ل(قدام).

١() المحكم والمحيط الأعظم (١٠/ ٥٧٢)

٢() مختار الصحاح (ص: ٢٢)

لماذا هذا الهجوم المتزايد على صحيح الإمام البخاري؟

مقال للأستاذ محمد عياش الكبيسي - موقع إسلام أون لاين على شبكة الانترنت.

يتعرض صحيح البخاري هذه الأيام لحملة من التشكيك وإثارة الشبهات، مع حالة من الغموض بالنسبة لدوافعها وغاياتها، والعلاقات التي تجمع بين أصحابها، الذين كأنهم تفرّغوا اليوم أو فُرّغوا لهذه المهمة. هؤلاء بالعموم لم يُعرف عنهم الاهتمام ببحوث السنّة النبوية، ولذلك يُستبعد أن يكونوا قد توصلوا بالفعل إلى هذه الشبهات نتيجة لحلقات البحث والدراسات العلمية، بل ربما يكون الواحد منهم قد بات وهو لا يعرف شيئاً عن البخاري، ثم يستيقظ في الصباح ليمارس شهوته في هذا النقد وهذا الطعن.

وقد انتشر مؤخّراً تسجيل مرئي لشيخ معمم يطعن في البخاري وهو لا يعرف اسمه، فيسميه «جُمعة أبو عبدالله محمد بن إسماعيل»، لأنه قرأ على غلاف الكتاب عبارة «جَمَعه أبو عبدالله...».

يقول لك آخر إنه يريد أن يرسّخ في الأمة مرجعية القرآن الكريم، ولذلك فهو يضعّف كل حديث يعارض القرآن ولو كان في صحيح البخاري، هنا تظن لأول وهلة أنك أمام باحث مختص في القرآن الكريم وتفسيره، عارف بأصوله وفروعه، ومحكمه ومتشابهه، ومكّيّه ومدنيّه، ومتضلع قبل كل هذا بلغة القرآن وأسلوبه، لكنك تُفاجأ حينما تعلم أن هذا وأمثاله ربما لا يحسنون تلاوة القرآن أصلاً، وربما جاءوا بالمضحكات حينما يحاولون تفسير كلمة أو آية من آيات القرآن.

بعضهم تراه يردد كلمات وعبارات، تفهم من مجملها أن عقدته مع البخاري تكمن في تصوّره أن التشبث بالبخاري يعني عنده الجمود على الماضي والعجز عن مواكبة العلوم الحديثة ومتطلبات العصر، ولشدة ما تراه متحمساً لهذا الاتجاه تخيل كأنه يواجه يومياً مئات الحافظين لصحيح البخاري، والذين لا شغل لهم إلا مذاكرة ما يحفظونه منه بمتونه وأسانيده، حتى أشغلهم ذلك عن غيره، ولا أدري كيف برزت أمام ناظريه هذه المشكلة في وقت نرى فيه هذا الجيل إلا ما ندر منشغلاً بأمور أخرى لا تمتّ إلى البخاري بصلة، فمتابعة لعبة الكرة مثلاً مقدّمة عندهم على متابعة دروسهم وواجباتهم، ناهيك عن أولئك الذين غرقوا في أوحال الرذيلة والمخدرات، ثم لنسأل هؤلاء ما الدراسة العلمية التي أوصلتكم إلى هذا التشخيص؟وكم نسبة هؤلاء الشباب الذين شغلتهم أحاديث البخاري قياساً ببقية شباب الأمة؟

أخيراً وليس آخراً، ربما ترى صنفاً آخر يتضايق جداً من البخاري، لا لشيء إلا لأنه لم يفهم لماذا حظي البخاري بهذه المكانة، ولماذا كان صحيحه أصحّ كتاب بعد القرآن الكريم، فتراه يتساءل بغضب وانفعال لماذا هذا الغلو؟ لماذا هذا التقديس؟

وهذه التساؤلات يمكن أن نتفهمها، خاصة مع شيوع حالة من المفاهيم والتصورات المغلوطة عن البخاري وعن غير البخاري، لكن أليس من الغريب أن يكون الإعلام الغربي هو الذي يروّج لمثل هذه التساؤلات؟ ثم تجد من يعكسها عليك بالنص؟

خذ مثلاً هذه العبارة التي نشرتها قناة الحرة العربية على موقعها الرسمي، والتي يرددها أيضاً كثير من الناقدين والطاعنين «حينما يتم نقد البخاري أمام رجال الدين، فإن أوصالهم ترتعد لأن ذلك سوف يهدم كهنوتهم الديني، الذي يسيطرون به على عقول العامة»

إن هذا الاضطراب والتخبّط لدى هؤلاء يكشف أيضاً عن جهل عريض في أصول هذه العلوم ومبادئها الأولية، ولذلك لا ترى هذا الطعن إلا منهم ومن أمثالهم، ممن لا علم لهم بالسنّة وعلومها.

إن علماء السنّة قد أصّلوا أصولاً وقعّدوا قواعد في النقد الشامل والدقيق، بما لا مثيل له في أية أمة من الأمم، ويكفي هنا التذكير بعلم «الجرح والتعديل» الذي ضبط معايير التوثيق والتضعيف، وبحث في كل الرواة بأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم ومستوياتهم، دون أن يستثني منهم أحداً مهما كان، ثم لم يكتفوا بذلك بل راحوا ينقدون النصّ نفسه بمسالك علمية دقيقة، منها البحث في مراتب الدلالة، والبحث في قواعد التعارض والترجيح، والبحث في مشكل الحديث، وغير ذلك.

ولتقريب الصورة لغير المختصين، أذكر أن شيخنا المحقق صبحي السامرائي رحمه الله قد اقترح عليّ وعلى صديقي د. عمر عبدالعزيز أن نعمل على تحقيق وتخريج رسالة من رسائل ابن أبي الدنيا رحمه الله وكان ذلك سنة ١٩٨٤م، وكانت الرسالة بعنوان «حسن الظنّ بالله» وهي رسالة صغيرة، لكننا تعلمنا منها الكثير، والأهم أننا تعلمنا الأدب مع هؤلاء العلماء، حيث لمسنا بأيدينا الجهد الاستثنائي الذي لا يمكن أن يقدّره مقدّر أو يتخيله متخيّل، وعلى سبيل المثال، لو افترضنا أن معدّل السند في كل حديث خمسة رواة، وأن مجموع الأحاديث فيها ١٠٠ حديث فقط، فهذا يعني أن الرسالة هذه ستضم ٥٠٠ راوٍ،

وبحذف المكرر تكون مهمتنا الأولى البحث في ٣٠٠ راوٍ، وتمييز كل واحد منهم، والتأكّد أن هذا الاسم هو المقصود، وذلك بمعرفة ولادته ونشأته ورحلاته ووفاته وشيوخه وتلامذته... إلخ، لأنك قد تجد مائة راوٍ يشتركون في اسم واحد، ثم ندقق فيما قاله العلماء عنهم واحداً واحداً... إلخ، لقد كانت تجربة شاقة جداً مع ما فيها من متعة وأنس، وهنا كنت أتساءل أي جهد بذله أولئك الأعلام حينما نقلوا لنا كل هذه الثروة بمئات المجلدات وبأعلى درجات الدقة والعناية.

ثم حينما يتفق كل هؤلاء على أن صحيح البخاري هو أصحّ كتب السنّة على الإطلاق، فماذا يعني هذا؟ من هنا ندرك لماذا لا يأتي الطعن إلا من خارج هذه الدائرة، ممّن لا معرفة له لا بنقد السند ولا بنقد المتن.

إن البخاري ليس هو من قال إن كتابي هذا هو أصح الكتب في هذا العلم، وإنما هذه هي شهادة أهل الاختصاص على مرّ القرون، دون أن يملك البخاري أية سلطة للتأثير على هذه الشهادة، كما أن هذه الشهادة ليست غريبة في أي مجال علمي، فبكل تأكيد هناك مصادر معتمدة في علم الطب بناء على شهادة الأطباء، وهنالك مصادر معتمدة في الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء، فهل يجوز أن نشكّك في كل ذلك، بحجة أن هؤلاء الأطباء أو غيرهم من كل الاختصاصات غير معصومين وغير مقدّسين؟

إننا حقيقة أمام أزمة لا تمسّ البخاري ولا كتب السنّة فقط، وإنما تضرب القواعد العلمية لكل علم من علوم الأرض، بحيث يختلط العلم بالجهل، والأسس المنهجية بالنزعات العبثية والفوضوية.

المسألة ليست مسألة تقديس للبخاري، ولو كانت المسألة كذلك لاتجه الناس إلى موطّأ الإمام مالك إمام دار الهجرة، أو مسند ابن حنبل إمام أهل السنّة، بل لقدّسوا مرويّات البخاري نفسه في كتبه الأخرى، فالمسألة عند العارفين مسألة علمية منهجية، لا علاقة لها بالأشخاص مهما علا كعبهم، وعظمت منزلتهم.

إننا هنا ربما نكون بحاجة إلى أن نبسّط الأمر لغير المختصين، فنقول إن البخاري لا يختلف أبداً عن هؤلاء الأعلام، وربما فيهم من تفوّق عليه في أكثر من مجال حتى في علوم السنّة نفسها، لكن منهجية البخاري في كتابه هذا هي التي ميّزت الكتاب، فالعلماء لهم مناهج مختلفة في تدوين السنّة، منهم من يجمع

مرويّات كل صحابيّ على حدة، ومنهم من يجمعها بحسب الموضوعات، ومنهم من يجمع الأحاديث ولا يحكم عليها، ومنهم من يجمعها ويحكم عليها في مواضعها، كما فعل الإمام الترمذي، فهو يروي الحديث مذيّلاً بحكمه عليه، فيقول مثلاً هذا حديث صحيح أو حسن أو غريب أو منكر، أما الإمام البخاري فقد أفرد الصحيح فقط في كتاب مستقل، وتبعه الإمام مسلم على ذلك، وهذا لا يعني أن الأحاديث الصحيحة عند البخاري أو مسلم أكثر منها عند الترمذي أو أحمد، الموضوع مختلف تماماً.

كنت أشرح الأمر لطلابي بمثال تقريبي، لو قارنّا بين مجموعتين في مقرر واحد لأستاذين مختلفين، لكن الأستاذ الأول جاء بمجموعته كلها، والثاني جاء بالمتميزين فقط، فكيف سيكون حكمنا على المجموعتين وعلى الأستاذين؟

إن البخاري نفسه قد بنى كتابه الآخر في الحديث «الأدب المفرد» بمنهجية مختلفة ضمّت الصحيح وغيره، وهو كتاب عظيم الفائدة، لكن العلماء لم يرفعوه إلى مستوى كتابه الأول، بل فضّلوا عليه كثيراً من كتب السنّة، وهذا دليل واضح على أن المسألة لا علاقة لها بتعظيم الأشخاص أو تقديسهم.

وهنا لا بد من الإجابة عن سؤال قد يرد في هذا المجال لماذا لم يأخذ بقية المحدثين بمنهجية البخاري ما دامت هي الأعلى والأفضل؟ ولماذا لم يلتزم البخاري نفسه بمنهجيته هذه في كتبه الأخرى؟

ولاختصار الجواب نقول، لو اقتصر المحدّثون على هذه المنهجية لفات الأمةَ خيرٌ كثير، فالأحاديث التي هي دون الصحيح لا تعني أنها باطلة أو مكذوبة، وقد يرتقي كثير منها إلى درجة الصحيح باعتضادها ببعضها، ثم إن شروط البخاري في الصحيح متشددة جداً حتى في مستوى الأحاديث الصحيحة، والعلماء قد يرون التشدد والاحتياط في أحاديث العقائد والأحكام المتعلقة بالحقوق والدماء والأموال، لكن هذا التشدد لا نحتاجه في الفضائل والنوافل، خاصة إذا كان لها أصل في الشرع ومتوافقة مع قيمه ومبادئه.

أما انتقادات الإمام الدارقطني لصحيح البخاري، والتي يدندن حولها هؤلاء المبطلون، فيا ليتهم قد قرأوها بالفعل، ويا ليتهم قد قرأوا أيضاً مناقشة العلماء لهذه الانتقادات، خاصة مناقشات الإمام ابن حجر العسقلاني، لنتأكد أنهم جادّون في البحث عن الحق والحقيقة. إن انتقادات الدارقطني تثبت أن شهادة

العلماء لصحيح البخاري جاءت بعد نقد وتمحيص ومناقشات تخصصية معمقة، وليس عن تقديس أو انبهار، يؤكد هذا أيضاً إجلال العلماء جميعاً للدارقطني على ما جاء به من انتقادات.

هناك من يردد سؤالاً آخر مؤدّاه، ماذا نفعل إذا وجدنا في البخاري ما يعارض القرآن الكريم، أو يعارض العقل؟ وهذا السؤال بدأ يتردد مع هذه الموجة كجزء من حملة التشويه ومحاولة النيل من مكانة البخاري وصحيحه، بل النيل من السنّة النبوية كلها، باعتبار أن صحيح البخاري هو أصحّ كتب السنّة، فالتشكيك به تشكيك بما سواه بطريق الأولى، ثم هو اتهام لكل علماء الأمة المتفقين على صحة الصحيح، أنهم ما كانوا يفهمون القرآن الكريم، ولا يفهمون البديهيات العقلية، وكأنهم ساروا صمّاً وعمياناً وراء البخاري؟ .

ومن المفارقات الغريبة هنا أن الأمة وهي تعيش اليوم أسوأ محطاتها التاريخية جهلاً وتخبطاً وتخلفاً، يظهر فيها من يتطاول على الأمة في عصورها الذهبية التي كانت فيها سيّدة العالم قوّة وعلماً وحضارة لقد فات هؤلاء أن علاقة السنّة بالقرآن وعلاقتها بالعقل من أشهر المباحث العلمية في تراثنا الإسلامي الأصيل، فهذا الإمام ابن الجوزي يضع قاعدته الذهبيّة «كل حديث رأيته يخالف المعقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع»، وهنا يأتي الإمام زُفَر تلميذ أبي حنيفة ليفرّق تفريقاً دقيقاً بين العقل وبين مجرد الرأي، فيقول «إنما نأخذ بالرأي ما لم يجئ الأثر، فإذا جاء الأثر تركنا الرأي وأخذنا بالأثر»، وهذا الإمام الغزالي وهو من هو في المدرسة العقلية يقول بالمعنى نفسه «القياس على خلاف النصّ باطل قطعاً»، ثم يأتي شيخ الإسلام ابن تيمية ليبسط القول في كل ذلك بكتابه العظيم «درء تعارض العقل والنقل».

لقد عرف المسلمون هذه المباحث منذ الصدر الأول، فها هو البخاري نفسه يؤصّل لذلك، ولنقرأ هذه الرواية في صحيحه عن مسروق قال قلت لعائشة رضي الله عنها يا أمّتاه، هل رأى محمد ربّه؟ فقالت لقد قفّ شعري ممّا قلت، أين أنت من ثلاث من حدّثكنّ بها فقد كذب، من حدّثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار»، ومن حدّثك أنه يعلم ما في غدٍ فقد

كذب، ثم قرأت «وما تدري نفس ماذا تكسب غداً»، ومن حدّثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك» انتهى.

فانظر إلى هذه المنهجية الدقيقة في محاكمة الرواية إذا ناقضت القرآن، ثم يأتي هؤلاء اليوم ليوهموا البسطاء أنهم قد تنبّهوا لقضية خطيرة لم يتنبّه لها الأوائل

أما أولئك الذين يرفعون شعار الاحتكام إلى القرآن فقط، ومن ثم هم يرفضون البخاري والسنّة النبوية من أساسها، فهؤلاء يناقضون القرآن قبل السنّة، فالقرآن هو الذي ألزمنا بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتأسي به، فقال «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول»، وقال «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»، ثم من الناحية العملية، كيف يمتثل هؤلاء لقول ربهم «أقيموا الصلاة»، والقرآن لم يفصّل لنا أحكام الصلاة ولا أركانها ولا شروطها؟ وهكذا قُل في أغلب العبادات والأحكام العملية.

من هنا ندرك أن استهداف السنّة إنما يقصد به استهداف الإسلام كله، واستهداف هوية الأمة وثوابتها والأواصر التي تجمعها، وهذا لا يعني سدّ باب البحث والنقد العلمي بأصوله وضوابطه، فبين النهجين والمقصدين بعد ما بين المشرقين والمغربين. انتهى وهو مقالٌ شافٍ نقلته بطوله لفائدته.

من الطرائف المُبكية.

البناء اللغوي السليم هو بعض مما نفتقده حقاً في عالم اليوم.

تلك اللغة المسخ التي ابتعدت بنا كثيرا عن لغة الثقافة العربية والدين جعلت من عقولنا مكبّا لنفايات كل سفيهٍ أو حاقدٍ يريد النيل من هويتنا ووجودنا؛ تلك اللغة السوقية السفيهة هي نتاج تراكمٍ أشبه بالمتعمد لإفساد التعليم في بلادنا، والتوجه الأهوج ناحية بناء العلوم والفهوم على أساساتٍ هشةٍ متجنبةٍ اللغةَ الأمَ التي تحمل ثقافتنا وحضارتنا وديننا...

إن بناء العقل والفهم على لغةٍ فاسدةٍ أو ناقصةٍ هو بناءٌ هشٌّ محكومٌ عليه بالسقوط في مهاوي الخطأ والتطرف في الفهم والفكر...

ويحضرني لهذا المعنى موقفٌ طريفٌ مع أحد أصحابي وكان كلما رأى امرأةً في الطريق نظر إليها ثم قال اللهم كما جمَّلتَ خلقَنا جمِّل خُلُقنا. فقلتُ له مستنكراً أنَّى لكَ هذا؟ فأجابني بإجابةٍكادت تفطرني من الضحك عليها، قال قرأتُهذِكراً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نظر الرجل في (المرأة) هكذا قال بهمز الألف فرددت عليه تصحيحها إنما هى(المرآة) يا لُكَع (بمَدِّ الألف لا بهمزها).

فتأمل جدياً من وراء هذه الفكاهة المضحِكة المُبكِية كيف أنَّ خطأً في أصغر قواعد الإملاء صنع فهماً منحرفاً بل في غاية الانحراف عن صحيح المقصود.

المعضلةُ أنَّ هذا الأمر الذي بدا للوهلة الأولى مُزْحةً ينقلب في أصل معناه إلى هلاكاً للحرث والنسل، وفساداً في الفكر والعمل، وحرباً على الدين والهُويَّة والثقافة وحضارة الأمة.

ولك أنْ تتساءلَ وأى فعلٍ يجره الخطأ في حرفٍ أو حرفين؟ في نقطة أو همزة؟

ولكن ليس لك أن تتهم حقيقة أنَّ الخطأ في اللغةِ ينتجُ زللاً وخطلاً في الفكر والسلوك.

فجواب الأول يقطع عذر الآخر.

إن الفكر حين ينطلقُ؛ ينطلقُ من فهمٍ، والفهم حين ينبني؛ ينبني على نصٍّ. فالخطأ في قراءة النص قراءة صحيحةً له وجهين

إما أنَّ ينم عن جهل المتلقي بلغة النص أو عدم الغوص فيها بما يسمح بفهمٍ صحيح، كما فعل صاحبنا الذي تمازحنا بشأنه قريبا. وهذا الجهل يعطي النص دلالاتٍ بعيدةًكل البعد عن معناه، حتى ربما تضاد معناه ومقصوده أحياناً

سلاماً، وسلامٌ.

كتبتُ في أحد أبحاثي أن بلاغة القرآن العظيم تتعدى طور البلاغة إلى أفق الدلالة المتسع، وإلى عبقرية التأثير النفسي الممتدة في المعنى، وهو ما شرحته حينها وسميته ما بعد البلاغة وهنا بعض مثالٍ لهذه الروعة في الأداء القرآني من حيث اللغة والنحو والدلالة والتأثير.

قال تعالى {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} (هود ٦٩). فما السر في قول الرسل سلاما بالفتح، وقول إبراهيم سلامٌ بالرفع؟

يجيبنا هنا النحو العربي بأن قولهم سلاما هو مفعول به لفعل محذوف تقديره نسلم سلاما ، وأن قول إبراهيم سلامٌ هو مبتدأ وخبره محذوف تقديره سلامٌ عليكم أو يكون خبرا لمحذوف بمعنى هو سلامٌ .

في الواقع لم يعطينا النحو السر وإنما المفتاح ففي علوم البلاغة يكون المبتدأ الذي هو جملة اسمية أشد ثباتا وقوةً من الفعل في الجملة الفعلية الذي يحتاج دوما إلى التجدد للاستمرار، وهنا يكون قول إبراهيم سلامٌ أقوى وأرسخ من قولهم سلاما ، وتكون تحيته أحسن من تحيتهم، وهو عين الأدب الرباني الذي علمه الله الأنبياء في قوله تعالى {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا} (النساء ٨٦). وقول إبراهيم عليه السلام هذا في ذلك المقام هو عين الفضيلة، فهو يرى أناساً غرباءَ ليسوا من نواحيه فيؤَمّنهم بلغة ثابتة قويةٍ ، وما يؤكد كلامي أنه عليه السلام أكد على معنى أنهم غرباء بقوله { ..قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} (الذاريات ٢٤، ٢٥). أي غرباء لا نعرفكم. أو كان هذا سؤالا لهم، كأنه قال أنتم قوم منكرون، فعرفوني من أنتم؟ وهذا التحليل هو ما وجدته عند الزمخشري في كشافه الماتع يقول معناه عليكم سلامٌ، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به، أخذا بأدب الله تعالى. وهذا أيضا من إكرامه لهم. (١)

وهذا من مروءته التي مدحه الله تعالى بها في قوله {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤)} فوصفهم بأنهم مكرمين لأنهم ضيف إبراهيم عليه السلام الذي جاء لهم بعجل سمين حنيذ، وخدمهم بشخصه وقربه ودعاهم للأكل كما ذكر القرآن العظيم في لفتةٍ لا تفوتنا ذكرها إمام البلاغة القرآنية الزمخشري غفر الله له في قوله تعالى {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ} (الذاريات/٢٦). (راغ) أي

---

(١)المصدر السابق (٤/ ٤٠١)

ذهب إلى أهله في خِفْية من ضيوفه، ومن أدب المضيف أن يخفي أمره ، وأن يباده بالقِرَى من غير أن يشعر به الضيف، حذرا من أن يكُفَّه ويُعْذِرَه (أي يقيم عذره في عدم إضافتهم). [1] ؛ والخلاصة أن الله تعالى يباهي بهذه التفاصيل في هذا الموضع كل خلقه بل الملائكة بما ربَّى عبده الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عليه من مكارم الأخلاق، ويرشدهم إليها في لفتةٍ مباركة لا تغيب على متدبر لكتاب الله تعالى الذي يعلم خلقه المروءة وجميل الآداب.

ويباغتنا هنا سؤال إذا كانت سلامٌ بالرفع أقوى وأرسخ فلماذا جاءت آية سورة الفرقان بالنصب {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (الفرقان ٦٣).؟ ولا أريد أن يراودك ذلك الجواب الباهت المعتل بأن ذلك من أجل فواصل الآيات ( )

ولكن الجواب هو في بلاغة اللغة القرآنية دقيقة الدلالة، وتدبر المعنى أولاً وقبل كل شيء. فالجاهلون لا يملون من مجابهة الحق بجهالاتهم، وعباد الرحمن لا يملون من قولهم سلاما ، فالمقام هنا أحوج إلى تجدد الفعل منه إلى تثبيت الصفة.

قال السَّمين الحلبي وقولهم {سَلاَماً} يجوز أن يُنصَبَ على أنه المصدر(مفعول مطلق) بفعلٍ مقدرٍ أي نُسَلِّم سَلاماً، أو نُسَلِّمُ تَسْليماً منكم لا نُجاهِلكم، فأُقيم السِّلام مُقامَ التسليمِ. ويجوزُ أَنْ ينتصِبَ على المفعول به أي قالُوا هذا اللفظَ (سلاما). قلتُ يقصد أنهم قالوا لهم ندعو الله السلامة من جهلكم، وسفهكم. وفيه إيجاز لكثير من معاني الرفق بالجهلاء لأجل جهلهم، والرفق بالنفس من مقارعة الجاهل التي تضيع العمر والجهد وتأتي بالحزن. قال الزمخشري أي قالوا سَداداً مِنَ القولِ يَسْلَمُوْن فيه من

---

[1] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٤٠١)

الأذى. والمرادُ سَلامُهم من السَّفَهِ. [1] ولأن الفتح هنا أضاف لها من المعاني ما يليق بموضعها كان أفصح لها وأبلغ أن تكون منصوبة. والله أعلم.

وللفائدة أنقل لك.

من تفسير القرآن الكريم المجموع لابن القيم (ص ٤٨٧)

قول الله تعالى في سورة الذاريات {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٢٧)}.

ففي هذا ثناء على إبراهيم من وجوه متعددة.

أحدها أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون. وهذا على أحد القولين

أنه بإكرام إبراهيم عليه السلام لهم.

والثاني أنهم المكرمون عند الله. ولا تنافي بين القولين فالآية تدل على معنيين.

الثاني قوله تعالى «إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ» فلم يذكر استئذانهم. ففي هذا دليل على أنه صلّى الله عليه وسلّم كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم. فصار منزله مضيفة مطروقا لمن ورده، لا يحتاج إلى الاستئذان، بل استئذان الداخل إليه دخوله. وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث قوله «سلام» بالرفع. وهم سلموا عليه باللفظ منصوبا. والسلام بالرفع أكمل. فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد. فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم. فإن قولهم «سلاما» يدل على سلمنا سلاما وقوله «سلام» أي سلام عليكم.

---

(١) ورَجَّح سيبويه أنَّ المرادَ بالسَّلام السَّلامةُ لا التسليمُ؛ لأنَّ المؤمنين لم يُؤْمَروا قَطُّ بالتسليم على الكفرة، وإنما أُمِروا بالمُسالَمَةِ، ثم نُسِخَ ذلك، ولم يَذْكُرْ سيبويهِ في كتابِه نَسْخاً إلاَّ في هذه الآيةِ. اهـ (الدُّرُّ المصُون).

الرابع أنه حذف المبتدأ من قوله «قوم منكرون» فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال أنتم مكرمون، لحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام.

الخامس أنه بنى الفعل للمفعول، وحذف فاعله، فقال

«منكرون» ولم يقل إني أكرمكم. وهو أحسن في هذا المقام، وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس أنه راغ إلى أهله ليحييهم بنزلهم. والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث يكاد لا يشعر به. وهذا من كرم رب المنزل المضيّف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف، فيشق عليه ويستحي. فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه وهو يقول له، أو لمن حضر مكانكم حتى آتيكم بالطعام، ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

السابع أنه ذهب إلى أهله، فجاء بالضيافة. فدل على أن ذلك كان معدا عندهم مهيئا للضيفان. ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه، أو غيرهم فيشتريه، أو يستقرضه.

الثامن قوله «فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ» يدل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل فأمر لهم، بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه، ولم يبعثه مع خادمه. وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع أنه جاء بعجل كامل، ولم يأت ببضعة منه. وهذا من تمام كرمه صلّى الله عليه وسلّم.

لعاشر أنه سمين لا هزيل. فمعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية، فآثر به ضيفانه.

الحادي عشر أنه قربه إليهم بنفسه، ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر أنه قربه إليهم، ولم يقربهم إليه. وهذا أبلغ في الكرامة. أن تجلس الضيف ثم تقرب الطعام إليه، وتحمله إلى حضرته، ولا تضع الطعام في ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه.

الثالث عشر أنه قال «ألا تأكلون؟» وهذا عرض وتلطف في القول، وهو أحسن من قوله كلوا، أو مدوا أيديكم ونحوها. وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه. ولهذا يقولون بسم الله أو ألا تتصدق؟ أو ألا تجبر؟ ونحو ذلك.

الرابع عشر أنه إنما عرض عليهم الأكل لأنه رآهم لا يأكلون، ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم «ألا تأكلون؟» ولهذا أوجس منهم خيفة، أي أحسها وأضمرها في نفسه، ولم يبدها لهم. وهو

الوجه الخامس عشر فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم، ولم يظهر لهم الخوف منهم. فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا «لا تخف» وبشروه بالغلام الحليم.

فقد جمعت هذه الآيات آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم. وكفى بهذه الآداب شرفا وفخرا. فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما، وعلى سائر النبيين.

{لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} (النور: ١١).

هكذا يريد الله تعالى أنْ يرى المؤمنين النور في أقصى حالات الظلام، ويريهم اليسر في أحلك لحظات العسر، ويريهم الخير في أشد معاني الشر.

{لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} ..

هذه العبارة الربانية الكريمة جاءت في سياق ذلك الزلزال العنيف الذي ابتغى به المنافقون هدم قلعة الإسلام الشامخة، وبنيانه الطاهر؛ بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

فلقد اختلق أولئك الهالكون قصةً مكذوبةً تحكي أوساخ قلوبهم؛ يتهمون بها سيدة النساء الصديقة بنت الصديق عائشة بن أبي بكر بالذي برَّأها الله تعالى منه بعد ذلك بقرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة.

وكفى بذلك تكذيبا لهم، ورِفعةً لها وللجَناب النبوي فوق كل دسيسة.

لقد أرادوا القيام بضربةٍ خاطفةٍ قاصمةٍ للإسلام من خلال المساس بحياة رمزه الأول صلى الله عليه وسلم.

وقد أطال القرآن العظيم في فضح المنافقين وفعلهم.

وأمعنت الآيات في تعليم المؤمنين الثقة بصروحهم الإيمانية في بيوتهم التي بنوها على العفة والصلاح.

وكذلك أطال الذكر الحكيم في بيانِ عصمةِ البيت النبوي من الزلل والخطيئة، وبيان قدسية المقام النبوي، ومقام أهله، وقدر عائشة رضى الله عنها الفريد عند ربها.

كل ذلك وأكثر كان للمتأملين من حِكَم الابتلاء العظيم في هذه الحادثة التي سجَّلها القرآن العظيم (بالتفصيل الهادف) لتكون خيرا للمؤمنين ظنوه من شدة الابتلاء شراً..

لقد روى البخاري ومسلم وغيرهما حديث الإفك [1] هذا بِطُوله في لغةٍ شيقةٍ ممتعةٍ بليغةٍ ودروسٍ وعِبرٍ قيمةٍ خطيرة.

واختصاره أن عائشة عليها السلام خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة (بني المصطلق)، فضاع لها عِقْدٌ فتأخرت على طلبه والبحث عنه حتى رحل الناس، وتركوها ولم يفطنوا لعدم وجودها في هودجها، فجاء رجلٌ من أفاضل وأتقى الصحابة الكرام يُقال له (صفوان بن المُعَطّل)؛ فرآها فنزل عن ناقته وتنحَّى عنها يشيح بنظره حتى ركبت أم المؤمنين عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ الجيش في مطلع النهار، وبدأت القلوب المريضة لبعض الناس في تناول الكلام عمَّا حصل، وكبَّر زعيم المنافقين (عبد الله بن أبيِّ بن سلول) حديث السوء والاتهامات وضخّمها، وكان من المؤمنين أنْ ظنَّوا بأمهم (عائشة) وأخوهم (صفوان) خيرا، وحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بعد حينٍ قوله تعالى

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}

تقول الآية {لَا تَحْسَبُوهُ} والحسبان ظنٌّ من ورائه تقديرٌ وحساب، والتقدير رؤيةٌ، ووِجهةٌ يتجه بها المرء لتفسير ما يحوطه من أحداثٍ وأشياء.

---

[1] الإفك هو أشد الكذب، فقد جعلته اللغة من شدة مجانبته للحقيقة كأنها قلبها، فلم يُكتَفى فيه بخلاف الواقع، بل بعكسه. فمادة أفك في اللغة يعني قلب.

وهنا تأتي النكتة في التوجيه القرآني للمؤمنين أن يغيروا رؤاهم حول الأحداث والأشياء، فهو توجيهٌ يُراد به يفتش المؤمن عن الخير في كل ما يصيبه أو يراه، وأن يتجه به تلك الوجهة الإيجابية نحو الإصلاح والنهوض والتقدم.

هو توجيهٌ حكيم يبتعد بالمؤمن عن الغرق في أوحال الماضي ليقتنص العِبرة والفكرة من الماضي، فتتغير حياته في الحاضر بما يستلزم الأفضل في المستقبل.

هذا التوجيه القرآني لحياة المؤمنين هو توجيهٌ مثمرٌ فعَّالٌ تجده على خط عميقٍ ممتدٍ في كتاب الله جميعِهِ. ولو لم يكن في الابتلاء سوى بحث المؤمن عن مناطق ضعفه وتقويم الخلل في إيمانه وعمله تقويما دقيقا لكفى بالابتلاء نعمة..

يرى الباحثون في تنمية الإنسان [١] وقد سبقهم القرآن بمئات القرون بعظمته أنَّ الأحداث مهما تفاوتت واشتدت قسوتها لا تُحدِّد أبداً مسارَ الحياة، ولا ترسم (بذاتها) معالم الفشل، وإنما الذي يحدد ذلك هو استجابةُ وتفاعل الإنسان مع تلك الأحداث..

تلك الاستجابة التي تنطلق من تكوين الفرد النفسي والاجتماعي والعضوي الذي يهيئه لتقبل الأمور إما سلبايً أو إيجابياً.

وهذه الاستجابة أو آلية التقبل والتفاعل مع الحدث (perception) هي ما يحدد قيمة الحدث وأهميته في مسار الحياة وليس الحدث نفسه.

بعبارةٍ أخرى؛ فإن الحدث الواحد وإنْ كان قاسيا بكل تفاصيله يحدث لفردين مختلفين، فيستقبله أحدهم بطريقةٍ إيجابيةٍ مُنظَّمةٍ ينتقل منها إلى تقليل الخسائر؛ بل البحث عن تحويل الخسارة نجاحا وانتصارا، وعلى مستوى أوسع يسميه الباحثون (علم إدارة الأزمات **crisis management**) .. بينما يستقبله شخصٌ آخرُ بأسلوبٍ سلبيٍ يضخِّم الخسارة ويضاعف الأذى..

---

١ هم علماء (التنمية البشرية) في العصر الحاضر والمختصين منهم في البرمجة اللغوية العصبية (NLP) = neuro– linguistic programing

فمثلاً نجد الصمم الذي أصاب (بِتهوفِن) الموسيقار الشهير، جعل منه أكثر استجابةً وعمقا في تناول الموسيقى حتى بلغ الذروة في ذلك الفن، ولو أنه استسلم لعجزه لم يكن ليصبح إلا فرداً عاجزاً يُضاف لقائمة الصُمِّ فلا يلتفت له أحد.

وإن العمى الذي أصاب (طه حسين) وهو صغير جعل منه ذواقةً للجمال الأدبي، يصوغه كيفما أراد، ويرى من البلاغة وصور الكلمات ما لا يراه كثير من المبصرين (على اختلافنا معه في كثيرٍ من فكره).

وكثيرٌ من الناس من حُرم نعمة البصر، ونورَ العين، وهى من أغلى النعم للإنسان، لكنه ما حُرم نورَ القلب، وذكاءَ العقل، وفصاحةَ اللسان، فابن عبّاسٍ رضي الله عنهما بعد ما ذهب بصرهُ يقول

إنْ يأخُذِ الله من عينيّ نُورَهُما... ففِي لِسانِي وقلبي مِنْهُما نورُ.

قلبي ذَكِيٌّ وعَقلي غَيْرُ ذي دَخَلٍ.. وفي فمي صارمٌ كالسّيفِ مأثورُ.

وهكذا في كل عصرٍ، هناك مَن يقْلبُ النكبةَ انتصاراً، والمحنةَ منحةً، والسقطةَ انطلاقةً نحو السماء..

وفي سياق هذه الروح (الإيجابية) في تقبل أقدار الله تعالى يجيب أحدُ الخطباء المعاصرين وكان أعمى، لمن سأله هل تجلس أمام التلفاز ؟، فأجاب إن الله تبارك وتعالى أكرمني بفقد البصر حتى لا أرى ما يغضبه، ثم أنشأ يقول

رأيتُ العمـــى أجراً وذُخْـراً وعِصْمةً...وإنـــي إلى تلك الثلاثِ فقيـــرُ.

يُعَيّرُني الأعداءُ والعيبُ فيهمُ ......وليس بعيبٍ أن يُقـــالَ ضريـــرُ.

إذا أبصر المرءُ المـــروءةَ والـــوفا ...فإنّ عمى العينين ليس يَضيـــــرُ.

ولنا في تلك الآيات التي افتتحنا بها كلامنا عِبرةٌ وفكرةٌ وموعدٌ جديد..

{لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ }..

تقول الآيات {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} .. ولو أننا توقفنا أمام النهى عن هذا (الحُسبان) وهو الحساب الجائر للأمور الذي يضعها في خانة الشرور بلا تروٍ ولا تأمل..

لو أننا توقفنا مع الآية لوجدنا ذلك الاستدراك والإضراب بأداة النسق [١] (بل) التي تعطي معنى الاستنكار لهذه السلبية في تقدير الأمور، وتصحِّح الأوضاع لصالح معنى التفاؤل في رؤية النور في أوج سُدُف الظلام، ورؤية اليسر في أصعب لحظات العسر، ورؤية الفرج مع أشد ساعات الضيق، ورؤية الخير في أحلك أوقات الشر.. { بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ }..

يقولون إن أشد اللحظات ظلمةً تلك التي تسبق طلوع نور الفجر..

وفي قصة عائشة الصدّيقة، وسياق هذه الآية الكريمة بيانٌ لما نحن من هذا المعنى الشريف..

ويلفت نظرنا في هذه الآية الكريمة قوله تعالى {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ}.

أن الآية لم تقل (لا تحسبوه شرا، بل هو خيرٌ)، وإنما جاءت باختصاص حرف اللام في (لكم). لأن الأحداث في حقيقتها لا تُوصَف بأنها خيرٌ أو شر، إلا باعتبار تأثيرها وعواقبها على الأشخاص والمعاني. ولذلك آثر التعبير القرآني استئناف الجملة من جديدٍ ليصحح هذه القضية في العقول والقلوب، فقال تعالى {..بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ}. ولم يقل (لا تحسبوه شرا لكم، بل خير) وإنما أعاد الجملة الإسمية مبتدأً وخبرا (هو خيرٌ) بعد تصحيح الفهم بأداة (بل) كما ذكرنا لتؤكد أن ما تحسبه شراً محضاً هو عند المتأمل المتفائل عين الخير..

هذا في جانب التحليل البلاغي للغة القرآن في هذه الآية ودلالتها، وعندئذٍ يثور هذا السؤال كيف يكون حادث الإفك خيرًا للمؤمنين؟

نحن نعلم أنّه بالنسبة للمنافقين، لم يزِدْهم كذبُهم على أم المؤمنين إلا سوءًا على سوءِهم، وهذا ما قرّرته الآية الكريمة {لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

وحتّى بالنّسبة للمؤمنين، نحن نعلم ما عانته عائشة الصّدِّيقة رضي الله عنها، من انتشار قول السّوء عنها، وما عاناه الرّسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكرٍ الصديق وأمها، والصّحابة جميعًا، طوالَ شهرٍ كاملٍ..

---

[١] أدوات النسق هي أدوات العطف في اصطلاح بعض النحويين، وأحب تسميتها كذلك.

ولكنّ قوله تعالى {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} ينقلهم بعد المعاناة إلى أفقٍ آخر، أكثر رحابةً، إذ ينهاهم عن ذلك الاعتقاد السطحيّ الّذي يوسوس به الشيطانُ في النّفوس، ويجعلها تعتقد أنّ هذا الأمر شرٌّ لها، فلذا جاء قوله تعالى في هذه الآية القرآنيّة مؤكّدًا بأداة الإضراب بل ، وبصيغة الجملة الاسميّة (هو خيرٌ) الدّالّة على الثّبوت والرسوخ، لتُقرّر في نفوس المؤمنين أنّ هذا الحدثَ، بالرّغم مما يَحُفُّ به من شرّ، فهو في حقيقته وعند التأمل خيرٌ لهم

في الواقع إنّ هذه الآية الكريمة، تُعتبر من أعظم الأدلة على (خُلُق التّفاؤل)، الّذي يرسمُ منهجًا إسلاميًّا في تفسير الأحداث، وكيفيّة التّعامل معها؛ منهجًا يستند إلى الإيمان بالله تعالى وإلى الإيمان بالقدر .

وإنّ خلُق التّفاؤل، ليس من وظيفته أن يعود بالإنسان إلى الماضي، ليُبدّل مسار الأحداث الواقعة التي أَلَـمَّت به فعلًا، بل إنه يعود إليها، ليمسح الآثار السّيّئة التي ترسّبت عنها في نفسه، ويُعيد بناءَ وعيه وتفكيره، ليُوجّهه إلى أفقٍ جديد!

هنا وفي هذا الجو المُلبَّد بالفتن منذ رجوع النبي صلوات الله عليه من غزوة بني المصطلق، تأتي الفرصة من حَدَثٍ بريٍ جاء قدراً ليطلق المنافقون السهم الأخير والأقذر في جعبتهم، وليَظهروا على الناس بوجههم المدَنَّس سافرا دون مواربة.

وتأخر الوحى شهرا كاملاً ليُحدِث ذلك الزلزال الذي يجتث ما بُنى على باطلٍ في مجتمع المسلمين، ويبقى ما أُسِّس على التقوى صامدا حتى النهاية.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ..لماذا؟ ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾. (الأنفال ٣٧).

هنا يتميز المسلمين فريقين فريق النفاق وأهله، وفريق المؤمنين، وإن اهتز الإيمان في قلوبهم قليلا؛ فإن الضربة التي لا تقتل تزيد المؤمن قوةً.

تأخر الوحىُ لتكون البراءة والحكم الذي يثبِّت دعائم بيت النبي صلوات الله عليه ويقدِّس طهارته حكماً إلهياً لا يعارضه إلى يوم القيامة إلا كافرٌ مارقٌ من دين الإسلام. (١)

قدَّس الله تعالى حياةَ نبيه الخاصة والعامة على مرأىً من الناس جميعا وبرهانِ صدقٍ يجعل المنصفين يقدسون حياته لأنهم يرونها أهلاً للتقديس.

هكذا كان الابتلاء والامتحان، وخرج المؤمنون منه أقوى، وافتُضح المنافقون، وتقدست حرمات النبي عليه الصلاة والسلام عن حجةٍ وبرهان.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

لا تظنوا أنّ في هذه الحادثة انتكاسةٌ لكم أنتم أيها المسلمون، بل إن هذه القصة مع ما فيها من مرارةٍ كانت خيرا للمسلمين. ولكن لماذا يعتبر القرآن هذه القصة ذات مردودٍ إيجابي مع مرارتها؟

فإن هذه الفئة المنافقة التي كشف هذا الموقف عنها من أكبر المخاطر التي تهدد المجتمع المسلم؛ من تداخل الخنادق واختلاط الصفوف.

وما أن يتعرض ذلك المجتمع إلى هِزّةٍ حتى ينتهز المنافقون الفرصة للعبث والفتنة. وهنا كشف الوجوه.

---

١ قال ابن القيم–رحمه الله–في زاد المعاد معلقا:

إن هَذَا مِنْ تَمَامِ الْحِكَمِ الْبَاهِرَةِ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ سَبَبًا لَهَا، وَامْتِحَانًا وَابْتِلَاءً لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِجَمِيعِ الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَرْفَعَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ أَقْوَامًا وَيَضَعَ بِهَا آخَرِينَ، وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَإِيمَانًا، وَثَبَاتًا عَلَى الْعَدْلِ وَالصِّدْقِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَالصِّدِّيقِينَ مِنْ عِبَادِهِ، وَيَزْدَادَ الْمُنَافِقُونَ إِفْكًا وَنِفَاقًا، وَيُظْهِرَ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ...

وَلِتَتِمَّ الْعُبُودِيَّةُ الْمُرَادَةُ مِنَ الصِّدِّيقَةِ وَأَبَوَيْهَا، وَتَتِمَّ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلِتَشْتَدَّ الْفَاقَةُ وَالرَّغْبَةُ مِنْهَا وَمِنْ أَبَوَيْهَا، وَالِافْتِقَارُ إِلَى اللَّهِ وَالذُّلُّ لَهُ وَحُسْنُ الظَّنِّ بِهِ وَالرَّجَاءُ لَهُ، وَلِيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهَا مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَتَيْأَسَ مِنْ حُصُولِ النُّصْرَةِ وَالْفَرَجِ عَلَى يَدِ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ، وَلِهَذَا وَفَّتْ هَذَا الْمَقَامَ حَقَّهُ لَمَّا قَالَ لَهَا أَبَوَاهَا: قُومِي إِلَيْهِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَرَاءَتَهَا، فَقَالَتْ: " وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي" .

وَأَيْضًا فَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ حَبْسِ الْوَحْيِ شَهْرًا، أَنَّ الْقَضِيّةَ نضجت، وَاسْتَشْرَفَتْ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْظَمَ اسْتِشْرَافٍ إِلَى مَا يُوحِيهِ اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ فِيهَا، وَتَطَلَّعَتْ إِلَى ذَلِكَ غَايَةَ التَّطَلُّعِ، فَوَافَى الْوَحْيُ أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ، وَالصِّدِّيقُ وَأَهْلُهُ وَأَصْحَابُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، فَوَرَدَ عَلَيْهِمْ وُرُودَ الْغَيْثِ عَلَى الْأَرْضِ أَحْوَجَ مَا كَانَتْ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ مِنْهُمْ أَعْظَمَ مَوْقِعٍ وَأَلْطَفَهُ. انتهى

وإذا وقع للمجتمع بلاءٌ يقف المؤمنون إلى جانب المؤمنين، ويمزِّق المنافقون حُجُب نفاقهم وأقنعتهم الزائفة، ويقفون في الخندق الذي ينبغي لهم الوقوف فيه.

وهذا خيرٌ كبيرٌ للمجتمع. إنه تمايز الصفوف ومعرفة المصلح من المفسد..

هؤلاء المنافقون، ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. (البقرة ١٤، ١٥)

فالمنافقون الذي وضعوا هذه القصة بقي لهم منها حسب تعبير القرآن الإثم فقط، والإثم بمعنى وصمة الذنب. فأولئك المنافقون قد سقطوا من الاعتبار ما بقوا على قيد الحياة، وقد ظهروا للجميع بقلوبهم القبيحة.

وإن الذين لفَّقوا هذه التهمة لفَّقوها عن وعيٍ، إلاّ أن سائر المسلمين صاروا كأداة لهذه الزمرة الفاسدة، فأكثرية المسلمين مع ما نتصف به من الإخلاص والإيمان ونزاهتهم عن الأغراض والمساوئ إلا أنهم استغلتهم هذه الزمرة كأداةٍ إعلاميةٍ ولكن لا عن قصدٍ ولا عن وعيٍ، وإنما عن غفلةٍ وحماقة.

ومن أكبر المخاطر الكبيرة التي تواجهها المجتمعات أن يكون أفرادها غير واعين. في مثل هذه الحادثة يتخذهم العدو إن كان ذكيا ضد أبناء مجتمعهم. فهو يختلق قصةً ثم يلقيها في أفواه هؤلاء الناس غير الواعين فيشيعونها بأنفسهم.

إنها حروبٌ ذكية تستغل الجهل والحمق من بعض أفراد المجتمع لهدم المجتمع كله. وتستغل الإعلام الفاسد، والإشاعات الباطلة، والأبواق الغافلة من أجل تحقيق أهدافها بدون أدنى جهدٍ أو صراحةٍ في المواجهة.

كان الواجب على المسلمين أن يقتلوا الكلام الفاحش حين ظهر في مهده، لأن العدو يستهدف أساسا أشاعته، والواجب أن تحبطوا بصمتكم هدف العدو.

وإن الفائدة الكبرى المستقاة من قصة الإفك هي توعية المسلمين.

والقرآن ذكرها لتبقى على الدوام يقرأها الناس باستمرارٍ ويأخذوا منها العِبر. فإياك وإن تصبح أداةً وإذاعةً للآخرين، وقول القرآن

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ يريد منه إنّ هذا درس لكم أيّها المسلمون اقرأوا قرآنكم وخذوا منه العبر لكيلا تكونوا بعدها أبواقاً إعلامية للأعداء، ولما يبثونه من إشاعات.

إن المسلم الذي رباه القرآن هو سيدٌ الناس في فكره وعقله وأخلاقه وآدابه. وهو النموذج والمثال. وإن اتباعه لكل صيحةٍ، وكل ناعقٍ هو ضد كل ما تعلمه من القرآن ومن الرسول الكريم.

هذه التربية والعتاب والعقاب لأولئك الذين انحطوا عن مرتبةٍ رفعهم إليها القرآن والرسول هي أكبر ذلك الخير الذي صرَّحت به الآيات.

فالدرس -إذن – وعلى قسوته كان مدرسةً كاملةً للمؤمنين، وتقويضاً لهيكل النفاق بفضحه وألاعيبَه أمام الرسول واتباعه إلى يوم الدين.

إنه كالمناعة التي لا يتم اكتسابها إلا بالإصابة بالداء أولاً، ثم يقوى الجسم ولا يترك لذلك الداء مجالاً للمعاودة بعد أن تفهم طبيعته جيداً

ولذلك قال سبحانه ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾. [١]

هذا هو الدرس، وهذه هي الأنوار التي تطالعنا من قلب ظلمة الحدث لتسلك بالمؤمن طريق الرضا، والانطلاق من ذلك الرضا إلى أفق الإيجابية في التلقي والتفسير والمضى قدما نحو الأحسن..

فهما غاب (يوسفُ) يظل هناك من يحثُّ على تقفي أثره لأنه }لا ييئس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون{ ..

فما القصة إذاً...؟ نطالع ذلك في فصلٍ جديدٍ من أنوار التفاؤل في الحياة مع القرآن.

---

١ وأذكر هنا قول العلامة الزمخشريّ–عفا الله عنه: ومعنى كونه خيرا لهم، أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم. لأنه كان بلاء مبيناً ومحنةً ظاهرة. وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كلُّ واحدةٍ منها مستقلةٌ، بما هو تعظيمٌ لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسليةٌ له، وتنزيهٌ لأم المؤمنين– رضوان الله عليها، وتطهيرٌ لأهل البيت، وتهويلٌ لمن تكلم في ذلك أو سمع به فلم تمجُّه أذناه. وعدةُ ألطافٍ للسامعين والتالين إلى يوم القيامة. وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها. انتهى

{..وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ..}

(يوسف) عليه السلام وقصته الرائعة التي تحوي من المعاني والفوائد ما لا تحويه خِبرة عمرٍ كثيرٍ من الزمان..

إنه عليه السلام رمزٌ لأشياءٍ كثيرةٍ جميلة؛ العفة والصبر والتسامح والنبل.. وهنا أراه رمز (الأمل)؛ ذلك الأمل الذي مهما تاه وضاع منا يظل المؤمن يتحسَّسه ولا ييأس أبداً، لأن الله تعالى يقول

{وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}

هذا النهى الرباني للمؤمنين جاء على لسان نبيٍ جليلٍ من أنبياء الله تعالى؛ يعقوب عليه السلام يتوجه به لأبنائه معلّما ومؤدباً في أحلك ما قد يتعرض له أبٌ من الظروف، وأشد ما يكون من المصائب، ليعيَ الدرسَ عمومُ أهلِ الإيمان على مرِّ الدهور..

{يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف ٨٧).

إنه الأب المكلوم الذي فقد ابنه الأعزَّ في نفسه بحادثٍ غامضٍ، وقصةٍ مزعومةٍ نسجها أبناؤه الآخرون ليبعدوا ابنه الأثير عن ناظريه، ثم تمر الأيام والسنين ليفقد ابنه الآخر في ظروف أيضا غامضة، والمتهم أيضاً أبناؤه.. فيالحسرة الأب الشيخ الكبير الذي فقد ماء عينه حزنا على ابنيه وما آل إليه أبناؤه الآخرون من القسوة والظلم..

إنه رجلٌ خاب ظنُّه في أبنائه، وفقد ابنه، فعينيه، فابنه الآخر. فكيف هو شعوره تُجاه كل هذا.. ؟

هذا هو الدرسُ، وهنا التأملُ، وتلك العبرةُ..

{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (يوسف ٨٦). قال يعقوب للقائلين له من ولده {تالله تفتأ تذكر يوسفَ حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين}؛ ينكرون عليه أسفه على يوسف حتى ضاع ماء عينيه وعمى، وأنَّ حزنه ذاك يقتله..قال لهم لست إليكم أشكو بثي وحزني، وإنما أشكو ذلك إلى الله وحده.

فالله وحده كاشف الضُّر، ومُسيِّر الأقدار والقضاء. والله وحده ميسر الأمور ومُليِّن القلوب. والله وحده المعين على الصبر والثبات..

فكيف يتجه المؤمن بشكواه إلى غير الله تعالى، وكيف لا يأنس بالتذلل إليه سبحانه والوقوف بين يديه باكياً راجيا إياه أن يكشف السوء؟

وهل حق العبودية إلا مثل ذلك؟

وإني لأتعجب جدا ممَّن يتجلَّدون أمام الله تعالى ويقفون كالجلمود أمام المصائب يدَّعون أنه الصبرُ على الأقدار، والرضا بالقضاء

وهل اللجوء إلى الله سبحانه والبكاء بين يديه، والشكوى إليه، وطلب الثبات منه ينافي الصبر أو يضاد الرضا، كلا والله

فربما ابتلى الله تعالى أقواما ليعرف منهم كسرتهم بين يديه، والتجاءهم إليه فيرفعهم بها فوق درجات الصابرين.

فالصبر ليس كتمان الجزع، وإنما أعلى الصبر طلب الثبات من الله حين المصيبة، وترك التسخُّط على الأقدرا.

وأعلى من الصبر رؤية حقوق العبودية من وراء المصيبة بالالتجاء إلى المولى عز وجل والتقرب منه، والاتكال عليه، وطلب المعونة منه والعوض في الدنيا والآخرة.

روى النسائي وغيره واللفظ له عن أُسَامَةَ بْنُ زَيْدٍ، قَالَ أَرْسَلَتْ بِنْتُ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم إِلَيْهِ أَنَّ ابنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنَا، فَأَرْسَلَ يَقْرَأُ السَّلَامَ وَيَقُولُ «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ اللَّهِ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا، فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَرِجَالٌ، فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَقَعْقَعُ (أي تخرج روحه محدثةً صوتاً)، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ سَعْدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هَذَا؟ قَالَ «هَذَا رَحْمَةٌ، يَجْعَلُهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ».

فهل فاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمةً ورقةً وضعها الله تعالى في قلب عبده النقى؟ وإن القساة في الحقيقة لا يصبرون؛ فهم ابتداءا لا يجزعون ولا يرقون، فيكتموا ما يسخط ربهم من الجزع الذي فيه بغضٌ للأقدار، وتنكر للقضاء.

وها هو العظيم محمد صلى الله عليه وسلم مرةً أخرى يحمل ابنه العزيز بين يديه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في أصعب وأشد ما قد يحدث لأبٍ، ويعلمنا الصبر والعظمة حتى في حزنه.

فقد روى البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ (أى زوج مرضعته)، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - رضى الله عنه وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ (أى تفعل ما يفعل الناس من البكاء والحزن)؟ فَقَالَ «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم

«إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ».

لقد صارت هذه الكلمات درسا ونموذجا يحتذيه المؤمنون على كر العصور، وإنَّ المتأمل ليرددها مراراً فيقذف في قلبه معاني لم يكن ليحسها لولا هذا الموقف النبوي العظيم والكلمات تلك النورانية.

وكما قال أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى ليس الرضا ألَّا تحسَّ بالبلاء، إنما الرضا ألا تعترض على الحكم والقضاء.

(ولِمَن إذن يشكو الموجوعون؟ وإلى من يستصرخ المستصرخون؟ إذا لم يكن بُدٌّ من الشكوى والاستصراخ؟

أهناك غير الله مَن يُرجى لدفع الضر وكشف البلاء؟

إن اللّجأ إلى الله والهتاف به، والشكوى إليه، والتوجع له، هو من دلائل الإيمان به، والثقة فيه، وإظهار العبودية له والافتقار إليه.

وإنها لعبادة أىّ عبادة، تلك الأكفّ الضارعة إلى الله، وهذه الألسنة الشاكية له، وتلك العيون المتطلعة إليه، ترقب العافية منه، وتنتظر مواطر الخير من غيوث رحمته.

ولهذا، فلقد كان مما أمر الله به عباده أن يدعوه دائما. فى السراء وفى الضرّاء، وأن يكشفوا بين يديه أحوالهم، وهو الذي يعلم سرهم ونجواهم، وأن يجتهدوا فى الطلب، وهو الذي قدّر كل شىء، وكتب لهم ما هو لهم. ولكن هذا منهم هو عبادة له، وتسبيح بحمده. وفى هذا يقول سبحانه. «ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً» (٥٥ الأعراف) .

ويقول سبحانه «فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَوَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَأَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً» (٩٠ الأنبياء).

ويقول سبحانه «وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ» (٦٠ غافر) .[1]

نعود ليعقوب عليه السلام إذ يرد على فظاظة بنيه وهم ينكرون حزنه وبكاءه على ابنه بأنه يشكو بثه إلى الله وحده لا سواه، والبث هو أشد الحزن، قال ابن قتيبة سُمي بذلك لأن صاحبه لا يصبر عليه، حتى يبثّه، أي يخرجه وينشره. أو – كما ألمح الطبري هو الحديث والخبر بآلامه التي يعانيها، وهو من بثّ الحديث.

قال يعقوب عليه السلام {وأعلمُ من اللهِ ما لا تعلمونَ}

أى أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظنى به أنه يأتينى بالفرج من حيث لا أحتسب. والمعنى إنَّ ثقتي وتكالي والتجائي إلى الله تعالى عن علمٍ ويقينٍ بلطف الله، ورحمته، وعدله، وحكمته. فإنَّ هؤلاء الذين يقفون بين يدى الله متذللين خاضعين لحكمه لاجئين إليه هم أعرف الناس بالله تعالى.

قال أبو الحسن الفارسي بلغنا أن رجلاً من أصحاب ذي النون كان يطوف ويقول آهٍ أين قلبي؟ أين قلبي؟ من وجد قلبي؟ من وجد قلبي؟ والصبيان قد أولعوا به يرمونه من كلِّ جانب.

---

[1] التفسير القرآني للقرآن (٧/ ٣٥)

فقضي أنه دخل يوماً بعض سكك مصر (القاهرة الآن)، وقد هرب من الصبيان، فجلس يستريح ساعةً إذ سمع بكاء صبي تضربه والدته، ثم أخرجته من الدار، وأغلقت دونه الباب.

فجعل الصبي يلتفت يميناً وشمالاً لا يدري أين يذهب؟ وإلى أين يقصد؟ فلمَّا سكن ما به عاد ناكصاً على عقبيه حتى رجع إلى باب والدته، فوضع رأسه على عتبة الدار فذهب به النوم.

ثم انتبه فجعل يبكي ويقول يا أمَّاه مَن يفتح لي الباب إذا أغلقتِ عني بابك؟ ومَن يُدْنيني من نفسه إذا طردتِني من نفسك؟ ومن الذي يربيني بعد أن غضبتِ علي؟

قال فرحمته أمه، فقامت، فنظرت من خُلِل (فتحات) الباب، فوجدت ولدها تجري الدموع على خديه متمعكاً في التراب.

ففتحت الباب، وأخذته حتى وضعته في حجرها، وجعلت تقبله وتقول يا قرة عيني ويا عزيز نفسي، أنتَ الذي حملتَني على نفسك، وأنت الذي تعرَّضتَ لما حلَّ بك، لو كنتَ أطعتني لم تلقَ مني مكروهاً.

قال فأخذ الرجل الوجد وصاح حتى اجتمع عليه الخلق فقالوا ما الذي أصابك؟ فقال الآن وجدت قلبي، الآن وجدت قلبي.[١]

فتأمل كيف أن الرجل أدرك العلاقة الصادقة بين الرب عز وجل في علاه والعبد في تذلله وتعبده لمولاه، فأيقن أنَّ من ارتمى في أحضان ذل العبودية وجد قلبه وهداه الله تعالى لنوره العلوي الشريف..

{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف ٨٧، ٨٦).

قال الحسن البصري وقتادة ذُكر لنا أنّ نبي الله يعقوب لم ينزل به بلاء قط إلّا أَتى حسن ظنّه بالله من ورائه، وما ساء ظنّه بالله ساعةً قَطّ من ليلٍ أو نهار.

---

[١] صفة الصفوة (٢/ ٤٥٤)

{وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} .. ذلك ما يعلمه يعقوب -عليه السلام من يقينه في ربه، ومن تضرعه إليه، وشكاته له، فإنه يعلم من الله سبحانه صفات الكمال والجلال ما لا يعلمه أبناؤه. ولو علموا من الله ما علم لما كان منهم هذا اللوم له.

قال صاحب الظلال «وفي هذه الكلمات التي حكاها القرآن عن يعقوب عليه السلام ، يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب الموصول، كما تتجلى هذه الحقيقة ذاتها بجلالها الغامر، ولألائها الباهر.

إن هذا الواقع الظاهر المُيْئِس من يوسف، وهذا المدى الطويل الذي يقطع الرجاء من حياته فضلا عن عودته إلى أبيه .. إن هذا كله لا يؤثر شيئا في شعور الرجل الصالح بربه، فهو يعلم من حقيقة ربه ومن شأنه ما لا يعلمه هؤلاء المحجوبون عن تلك الحقيقة ..

وهذه قيمة الإيمان بالله ..

إن هذه الكلمات «أعلم من الله ما لا تعلمون» تجلو هذه الحقيقة بما لا تملك كلماتنا نحن أن تجلوها. وتعرض مذاقا يعرفه من ذاق مثله، فيدرك ماذا تعنى هذه الكلمات في نفس العبد الصالح يعقوب .. والقلب الذي ذاق هذا المذاق، لا تبلغ الشدائد منه مهما بلغت إلا أن يتعمق اللمس والمشاهدة والمذاق .. »[1]

لقد عرف يعقوب عليه السلام الرأفة به من ربه، واستنار قلبه بذكر اللطف من ربه، فوجّه بنيه أن يحاولوا ما داموا أحياءً بحثاً عن يوسف وأخيه الغائبين..

لم يصبه اليأس قطّ. بل إن يقينه بالفرج كان أقوى من كل إحساسٍ بالعجز. فأعلنها صريحةً {إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}.

{يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا من يوسف وأخيه} أى فتعرّفوا منهما واطلبوا خبرهما. وهو من الحِسّ والإحساس وهو التعرف، ومثله الجس إلا أن التحسس أكثر في الخير والتجسس في الشر.

{ولا تيأسوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ} الروح بفتح الراء وسكون الواو؛ أى من فرجه وتنفيسه.

---

١ «في ظلال القرآن لسيد قطب ١٣/ ٢٠٢٦» .

واليأس ضد الرجاء والأمل، ولا يقطع عبدٌ الرجاء في ربه تعالى إلا ظن أنه استغنى عنه. فهو انفلات من أهم معاني العبودية لله تعالى، انفلاتٌ يقتضي الكفر بالله تعالى.

وما دام في المؤمن نفسٌ يترجج فيه فإنه يأمل الخير والرحمة والعطاء من الله سبحانه، وهل العبودية إلا ذاك؟

فإن الأمل في الله هو علامة يقينِك بمعرفتك به سبحانه، فَمَن عرف الله جوادا كريما. عفوا رحيما. لطيفا بَرًّا ودودا عظيما لا يستعظم في سؤاله أملا مهما بلغ..

قال تعالى:

{ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ } (الأنبياء ٨٣).

إن الابتلاء في الحقيقة ليس اختبارا لقوتك الذاتية؛ بل هو اختبار لقوة استعانتك بالله وتوكلك عليه.

وفي الآية المذكورة يقول العلامة ابن القيم في الفوائد

ما ألطف هذا الدعاء، وما أرقه، وما أخشعه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مع أن الجمل قليلة ولكن القلوب إذا دعت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن صدق، وإخلاص، وإن قلَّت العبارات، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستجيب للمخلصين. [١]

وقد جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه.

ووجود طعم المحبة في المتملق له سبحانه. والإقرار له بصفة الرحمة وإنه أرحم الراحمين. والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجة العبد لربه. فمتى وجد المبتلى هذا من نفسه كشف الله عنه بلواه. [٢]

إن قصة ابتلاء أيوب من أروع قصص الابتلاء. والنصوص القرآنية تشير إلى مجملها دون تفصيل.

وهي في هذا الموضع تعرض دعاء أيوب واستجابة الله للدعاء. لأن السياق سياق رحمة الله بأنبيائه، ورعايته لهم في الابتلاء. سواء كان الابتلاء بتكذيب قومهم لهم وإيذائهم، كما في قصص إبراهيم ولوط ونوح.

١( ) من كلام العلامة ابن القيم في كتابه الفوائد

٢( ) من كلام العلامة محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره.

أو بالنعمة في قصة داود وسليمان. أو بالضر كما في حال أيوب.

وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله {أني مسني الضر}. ووصف ربه بصفته {وأنت أرحم الراحمين}. ثم لا يدعو بتغيير حاله، صبراً على بلائه، ولا يقترح شيئاً على ربه، تأدباً معه وتوقيراً. [١]

وأذكر هنا قصة الأعرابي الذي دخل على داود بن مزيد المهلَّبي، فقال إني لم أصنْ وجهي عن مسألتك، فصُن وجهَك عن ردِّي، وضعني من كرمك بحيث وضعتُكَ من أملي فيك، قال قد أمرت لك بعشرة آلاف درهم، وهي أكثر من قدرك. قال والله لئن جاوزتَ قدري فما بلغتَ قدْرَك. ولله المثل الأعلى ليس كمثله شيء.

ونحن نقول إلهي قد سجدتُ بوجهي الذليل أناجي وجهك الجميل، ووقفتُ بين يديك بذنبي الكبير وقد جرَّأني عفوك الكبير، فلا تعاملني بما أنا أهلٌ له وعاملني بما أنت أهلٌ له؛ سبحانك منك الجود ومني الزلل.

وقال محمد بن إبراهيم بن الوزير[٢] رحمه الله تعالى

أُرَجِّيكَ إذْ كنتَ أهلَ الرَجا .. وأخشاكَ إني من الظالمينا.

وأسألكَ إذ كنتُ دوماً .... علمتُ بحبك للسائلينا.

وفوضتُ أمري بعد الدُعا .. بحقٍّ إلى أحكم الحاكمينا.

إذا شئتَ أعفيتني من ذنوبي . وسامحتَ يا أرحم الراحمينا.

وهذا الذي أنت أهلٌ له .. وأنت تحثُّ به المحسنينا.

وأنت الذي قلتَ لا تقنطوا .. خطاباً خَصَصْتَ به المسرفينا.

يقول صاحب التفسير القرآني

١( ) في ظلال القرآن / لسيد قطب.

٢ محمد بن إبراهيم بن علي، السيد الحسني، الإمام الكبير، المجتهد المطلق، المعروف بـ ((ابن الوزير)). ولد سنة ٧٧٥، وقرأ على أكابر مشايخ صنعاء وسائر المدن اليمنية ومكة، وتبحر في جميع العلوم، وفاق الأقران، واشتهر صيته، وطار علمه في الأقطار، وله مصنفات مهمة كثيرة، وقيل إن اليمن لن يُنجب مثله. توفي رحمه الله تعالى سنة ٨٤٠. انظر ((البدر الطالع)): ٢/ ٨١ ـ ٩٣.

«إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ» الذين لا يعرفون الله، ولا يقدرونه قدره. أما المؤمنون فهم أبدا على رجاء من رحمة الله، وعلى ترقب لفضله، وتوقّع لغوثه. ويوم ينقطع رجاء العبد من ربه، فذلك شاهد على انقطاع الصلة بينه وبينه، وعلى فراغ القلب من أية ذرّة من ذرات الإيمان به روى أن بعض الصالحين كان يقول «إن لى إلى الله حاجة أدعوه لها منذ أربعين عاما، ما استجابها لى، ولا يئست من دعائه.»

وفى قوله «فتحسسوا» إشارة إلى البحث المعتمد على التحسس بالمشاعر والحدس، لا على النظر المادي، إذ كان الأمر خفيّا، لا يرى الرائي منه شيئا.

إنه في البحث عنه أشبه بمن يتحسس طريقه في الظلام الدامس، حيث يبطل عمل العينين، ويكون الاعتماد على الحدس والبصيرة.

وفى تعدية الفعل بحرف الجر (من)، وهو فعل متعدّ بنفسه، إشارة إلى أنهم يتبعون آثار يوسف وأخيه أثراً أثراً، ويتحسسونها خطوةً خطوة. فحرف الجر «من» دالٌّ على التبعيض في هذا التركيب.

وروْح الله نفحات رحمته، وأنسام لطفه، التي بها تستروح النفوس، وتنتعش الأرواح. انتهى [1]

إن التحسُّس ههنا فيه إشارة إلى تتبع نسمات الفرج من بين مداخل المصيبة وفي ثغرات الأحزان. إنه اشتمام روائح النور في ساعات الظلام. إنه البحث بالرُّوح عن ومضات الأمل في طريق الوجع.

فلقد جاءت الآيات القرآنية بحقيقةٍ كونية للمتدبرين، والموجوعين، والمبتلين فيها أنَّ الفرج يأتي مع الضيق وربما أخفاه قليلا لكنه سرعان ما يظهر من خلال العين المؤمنة البصيرة التي ترى الخير في كل شيء، وإذا شئتَ أن تصدق ذلك وتؤمن به فاتلُ قوله تعالى

{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} (الشرح ٥، ٦).

[1] التفسير القرآني للقرآن للدكتور عبد الكريم الخطيب (٧/ ٣٦)_طبعة دار الكتب المصرية الهيئة العامة للكتاب.

(استغفارنا يحتاج إلى استغفار).

الاستغفار بمجرد اللسان توبة الكذابين، فهمٌ وعمقٌ.

روي عن الحسن البصري رضى الله عنه أنه قال استغفارنا يحتاج إلى استغفار.

قال الشيخ القرطبي رحمه الله في (التذكرة) هذا قَوْلُه في زمانه فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مُكِبّاً على الظلم حريصاً عليه لا يقلع عنه؛ زاعماً أنه يستغفر من ذنبه وذلك استهزاء منه واستخفاف. وهو ممن اتخذ آيات الله هزؤا وفي التنزيل {ولا تتخذوا آيات الله هزواً} .

وروي عن علي رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد فرغ من صلاته وقال سريعاً اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك. فقال له يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين وتوبتك تحتاج إلى توبة.انتهى.

يقول العلامة الرباني الغزالي – رضى الله عنه في (الإحياء ٤/٤٧ ٤٩)

كان بعضهم يقول (استغفر الله من قولي أستغفر الله). وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين. وقالت رابعة العدوية (استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير).

فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ، حتى قرن الله الاستغفار ببقاء الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى {وما كان اللهُ ليعذبَهم وأنت فيهم وما كان اللهُ مُعذِبَهم وهم يستغفرون}، فكان بعض الصحابة يقول (كان لنا أمانان ذهب أحدهما؛ وهو كون الرسول صلى الله عليه وسلم فينا، وبقي الاستغفار معنا، فإن ذهب هلكنا).

فنقول الِاسْتِغْفَارَ الَّذِي هُوَ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ هُوَ الِاسْتِغْفَارُ بِمُجَرَّدِ اللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِلْقَلْبِ فِيهِ شَرِكَةٌ؛ كَمَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ، وَعَنْ رَأْسِ الْغَفْلَةِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، وَكَمَا يَقُولُ إِذَا سَمِعَ صِفَةَ النَّارِ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَأَثَّرَ بِهِ قَلْبُهُ.

وَهَذَا يَرْجِعُ إِلَى مُجَرَّدِ حَرَكَةِ اللِّسَانِ، وَلَا جَدْوَى لَهُ. فَأَمَّا إِذَا انْضَافَ إِلَيْهِ تَضَرُّعُ الْقَلْبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَابْتِهَالُهُ فِي سُؤَالِ الْمَغْفِرَةِ عَنْ صِدْقِ إِرَادَةٍ وَخُلُوصِ نِيَّةٍ وَرَغْبَةٍ فَهَذِهِ حَسَنَةٌ فِي نَفْسِهَا فَتَصْلُحُ لِأَنْ تُدْفَعَ بِهَا السَّيِّئَةُ.

وَعَلَى هَذَا تُحْمَلُ الْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي فَضْلِ الِاسْتِغْفَارِ حَتَّى قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَلَوْ عَادَ في اليوم سبعين مرة (٧) وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب.

وللتوبة والاستغفار درجات، وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنتهِ إلى أواخرها، ولذلك قال سهل التستري (لا بد للعبد في كل حال من مولاه، فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء، فإن عصى قال يا رب استر علي، فإذا فرغ من المعصية قال يا رب تب علي، فإذا تاب قال يا رب ارزقني العصمة، وإذا عمل خيرا قال يا رب تقبل مني).

وسُئل أيضاً عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال (أول الاستغفار الاستجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة. فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، والتوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق. ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه، ومن الجهل بالنعمة، وترك الشكر).

إياكَ أنْ تَستَصْغِرَ ذرَّاتِ الطَّاعَاتِ فلَا تَأتيهَا وذرات المعاصي فلا تنفيها.

فَالاسْتِغْفَارُ بِالْقَلْبِ وَالتَّدَارُكُ بِالْحَسَنَاتِ وَإِنْ خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات، فَلَيْسَ يَخْلُو عَنِ الْفَائِدَةِ أَصْلًا، فَلَا يَنْبَغِي أن تظن أن وجودها كعدمها؛ بل عرف أرباب القلوب معرفةً لا ريب فيها أنّ قول الله تعالى {فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره} صدقٌ وأنه لا تخلو ذرة من الخير عَنْ أَثَرٍ، كَمَا لَا تَخْلُو شُعَيْرَةٌ تُطْرَحُ في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات، وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثْقُل فتُرفَع كفة السيئات.

فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَصْغِرَ ذَرَّاتِ الطَّاعَاتِ فَلَا تَأْتِيَهَا وذرات المعاصي فلا تنفيها، كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد؛ وتقول أيُّ غنيً يحصل بخيطٍ ، وما وَقْعُ ذلك في الثياب ؟ ولا تدري المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرةً مع ذرةٍ .

الاستغفار باللسان وإن خلا من يقظة القلب خير كثيرا من عدمه.

فإذن التَّضَرُّعَ وَالِاسْتِغْفَارَ بِالْقَلْبِ حَسَنَةٌ لَا تَضِيعُ عِنْدَ اللَّهِ أَصْلًا.

بَلْ أَقُولُ الِاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ أَيْضًا حَسَنَةٌ إِذْ حَرَكَةُ اللِّسَانِ بِهَا عَنْ غَفْلَةٍ خيرٌ من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلمٍ، أو فضول كلامٍ؛ بل هو خيرٌ من السكوت عنه؛ فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه.

وإنما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب. ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي إن لساني في بعض الأحوال يجري بالذكر والقرآن وقلبي غافل. فقال   (اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير، وعوَّدَه الذكر، ولم يستعمله في الشر ولم يعوده الفضول).

وماذكَره حقٌ ، فإن تَعوُّد الجوارح للخير حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملَةً من المعاصي، فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما تعود فقال أستغفر الله. ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحمقك وما أقبح كذبك . ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادىء الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله. وإذا تعود الفضول قال لعنه الله.. فيعصي في إحدى الكلمتين، ويسلم في الأخرى، وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير، وهو من جملة معاني قوله تعالى {إن الله لا يضيع أجر المحسنين} ومعاني قوله تعالى {وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً}، فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع بتلك العادة شر العصيان بالغيبة واللعن والفضول هذا تضعيف في الدنيا لأدنى الطاعات وتضعيف الآخرة {أكبر لو كانوا يعلمون}.

مكيدة الشيطان على أهل الطاعة وتلبيس المعاني وفطنة المؤمن في ردها.

فإياك وأن تلمح في الطاعات مجرد الآفات فتفتر رغبتك عن العبادات، فإن هذه مكيدة روَّجها الشيطان بلعنته على المغرورين، وخيَّل إليهم أنهم أرباب البصائر، وأهل التفطن للخفايا والسرائر يقول لهم فأي خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب. فانقسم الخلق في هذه المكيدة إلى ثلاثة أقسام ظالمٌ لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات.

أما السابق فقال للشيطان صدقت يا ملعون، ولكن هي كلمة حق أردتَ بها باطلاً، فلا جرم أعذبك مرتين ، وأرغم أنفك من وجهين، فأضيفُ إلى حركةِ اللسان حركةَ القلب، فكان كالذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه.

وأما الظالم المغرور فاستشعر في نفسه خُيلاءَ الفطنة لهذه الدقيقة، ثم عجز عن الإخلاص بالقلب، فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر، فأسعفَ الشيطان وتدلى بحبل غروره، فتمت بينهما المشاركة والموافقة.
وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل، وتفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب، ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول، فاستمر عليه، وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

معنى قول أهل القلوب (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

ولذلك قالت رابعة العدوية رضى الله عنها (استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير). فلا تَظُنَّ أَنَّهَا تَذُمُّ حَرَكَةَ اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ أنهُ ذَكَرَ اللَّهَ، بَلْ تَذُمُّ غَفْلَةَ الْقَلْبِ، فَهُوَ مُحْتَاجُ إِلَى الِاسْتِغْفَارِ مِنْ غَفْلَةِ قَلْبِهِ لا من حركة لسانه، فإن سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين؛ لا إلى استغفار واحد .

فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يُذَمُّ ، وحمد ما يُحْمَد، وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق (حسنات الأبرار سيئات المقربين). فإن هذه أمور تثبت بالإضافة، فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة.

بل ينبغي أن لا تَسْتحقِر ذرات الطاعات والمعاصي.

ولذلك قال جعفر الصادق رضى الله عنه إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاثٍ

رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئاً، فلعل رضاه في (أقل طاعة)

وغضبه في معاصيه، فلا تحقروا منها شيئاً، فلعل غضبه في (أصغر معصية).

وخبأ ولايته في عباده، فلا تحقروا منهم أحداً، فلعله ولي الله تعالى.

وزاد وخبأ إجابته في دعائه، فلا تتركوا الدعاء فربما كانت الإجابة فيه.) انتهى.

وينقل الغزالي قول أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة يقول

(اللهم إنَّ استغفاري مع إصراري للؤمٌ. وإن تركي استغفارِكَ مع علمي بسعةِ عفوك لعجز. فكَمْ تحببُ إلي بالنِّعم مع غناكَ عني.وكم أتبغَّضُ إليك بالمعاصي مع فقري إليك. يا مَنْ إذا وعد وفَّى، وإذا أوعد عفا، أدخلْ عظيمَ جُرْمي في عظيمِ عفوكَ يا أرحمَ الراحمين).

فائدة ونكتةٌ بديعة.

يقول النووي – عليه الرحمات في كتابه (الأذكار) ومما يتعلَّق بالاستغفار ما جاء عن الرَّبيع بن خُثَيْم رضي الله تعالى عنه قال لا يقلْ أحدُكم أستغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباًوكذباً إن لم يفعل، بل يقولُ اللَّهمّ اغْفرْ لي وتُبْ عليّ، وهذا الذي قاله من قوله اللَّهمّ اغفر لي وتب علي حسن.

وأما كراهته أستغفرُ الله وتسميته كذباً فلا نُوافق عليه، لأن معنى أستغفرُ الله أطلبُ مغفرتَه، وليس في هذا كذب، ويكفي في ردّه حديث ابن مسعود – رضي الله عنه قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مَنْ قالَ أسْتَغْفِرُ اللَّهَ الَّذي لا إلهَ إلاَّ هُوَ الحَيَّ القَيُّومَ وأتُوبُ إليْهِ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم، ووافقه الذهبي رحمهما الله. انتهى

الزم باب سيدك، فلن تجد سيداً مثله .

ذُكِرَ أَنَّ فِي بَنِي إِسْرَاپِيلَ كَانَ مَلِكٌ، فَوُصِفَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ الْعِبَادِ، فَدَعَاهُ وَرَاوَدَهُ عَلَى صُحْبَتِهِ وَلُزُومِ بَابِهِ، فَقَالَ لَهُ الْعَابِدُ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَسَنًا مَا تَقُولُ، وَلَكِنْ لَوْ دَخَلْتَ يَوْمًا فِي بَيْتِكَ، فَوَجَدْتَنِي أَلْعَبُ مَعَ جَارِيَتِكَ، مَاذَا كُنْتَ تَفْعَلُ؟ فَغَضِبَ الْمَلِكُ فَقَالَ يَا فَاجِرُ أَتَجْتَرِئُ عَلَيَّ بِمِثْلِ هَذَا؟

فَقَالَ لَهُ الْعَابِدُ إِنَّ لِي رَبًّا كَرِيمًا، لَوْ رَأَى مِنِّي سَبْعِينَ ذَنْبًا فِي الْيَوْمِ مَا غَضِبَ عَلَيَّ، وَلَا طَرَدَنِي عَنْ بَابِهِ، وَلَا أَحْرَمَنِي رِزْقَهُ، فَكَيْفَ أُفَارِقُ بَابَهُ وَأَلْزَمُ بَابَ مَنْ يَغْضَبُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُغْضِبَهُ؟ فَكَيْفَ لَوْ رَأَيْتَنِي فِي الْمَعْصِيَةِ ثُمَّ خَرَجَ.

انتهى من (تنبيه الغافلين للقاضي السمرقندي).

من دعاء سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم.

(اللهم إني أسألك رحمةً من عندك؛ تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملي، وتلم بها شَعَثي، وترد بها الفتنَ عني ، وتصلح بها ديني، وتحفظ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكّي بها عملي، وتبيِّض بها وجهي، وتلهمني بها رشدي، وتعصمني بها من كل سوء.

اللهم أعطني إيماناً صادقاً ، ويقيناً ليس بعده كفرٌ ، ورحمةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ..).

رواه الترمذي وضعفه حيث أشار لغرابته،وكذا ضعفه الألباني رحمه الله في السلسلة الضعيفة. وله شواهد لبعضه.

رابعة العدوية وما رابعة؟!

ذكر أبو الفرج بن الجوزي في (صفوة الصفوة) أن رجلا قال لرابعة العدوية رضى الله عنها ادعي الله لي. فالتصقت بالجدار، وقالت مَن أنا حتى أدعو لك ؟ أطع ربك عز وجل وأدعه، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

وقيل لها ما تقولين في الجنة؟ قالت (الجار قبل الدار). تقصد أنَّ من يتشوَّق إلى رؤية الله تعالى في الجنة لا يلتفت إلى شيءٍ من نعيمها سواه.

وسُئلت متى يكون العبد راضيا؟ قالت (إذا سرَّته المصيبةكما تسره النعمة). وتقصد أنَّ التفات أولياء الله تعالى ليس إلى المصيبة أو النعمة في ذاتها، ولكن إلى إجراء الله تعالى لها، فكل فعله -سبحانه للمؤمن رحمةٌ وخيرٌ أدرك العبد ذلك أو لم يدركه، فاطمئنانه إلى رحمة الله تعالى وحكمته به في أيٍ من المصيبة أو النعمة ألقى به في حضن التسليم لقدر الله فيه، فإذا قوي التسليم تيقَّن من رحمة الله به فسُرَّ لذلك واستوت عنده المصيبة والنعمة في سروره، فذلك الرضا، والله أعلم.

وقيل لرابعة هل عملتِ لله عملاً ترين أنه يقبل منكِ؟ قالت إن كان.. فمخافتي أنْ يُرَدَّ عليَّ.

قلتُ ويحضرني هنا في تفسير قوله تعالى {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} (المؤمنون ٦٠). الحديث الذي رواه الترمذي بسندٍ حسن عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُ؟ قَالَ «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أن لا يُقبَل منه» .

يتلبثُّ الطاعاتِ ثم يخافُها .. فكأنّما حسناتُه آثامُ.

فقد جعلت رابعةُ تعظيمَها لربها في أنها تستقل طاعاتها في جنب رجائه من أعظم حسناتها .

لعلَّ هذا في معنى قول ابن عطاء الله السكندري رحمه الله الحكمة الأولى: (مِنْ عَلامَةِ الاعْتِمادِ عَلى العَمَلِ، نُقْصانُ الرّجاءِ عِنْدَ وُجودِ الزَّلَلِ). معناه يشير إلى خطأ مَنْ اعتمد في رضا الله عنه، وفي الجزاء الذي وعده به على عملٍ قد فعله ووُفِقَ له، كالصلاة، والصوم، والصدقات...، بل الاعتماد في ذلك يجب أن يكون على لطف الله وفضله وكرمه. والدليل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه البخاري وغيره لن يُدخِلَ أحدَكم الجنةَ عملُه ، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته . وقول ابن عطاء الله معناه أنك إذا كنت ترجو كرم الله وعطاءه وكنت تعتمد في ذلك على عملك، فمن علامات وأمارات ذلك أنه لما قلَّ العمل أو أصابه الزلل غاب الرجاء .

{أفحكم الجاهلية يبغون}

لابد أن يهيمن المنهج الإسلامي وتبدأ القوانين العملية بعد أن أرسى القرآن أسس الدستور القرآني . فالقرآن منهج حياة، والإسلام عقيدةٌ وشريعةٌ، وهو ما جذب له عداء الذين يريدون أن يهيمنوا على مقدرات الناس ويستعبدوهم لمصالحهم الخاصة، لأن الإسلام بما يضعه من تشريعات تضمن العدل والمساواة في الحقوق والواجبات يناقض شرع البشر الذي وُضع نظرا لمصالح فئةٍ معينة فيه ولا يراعي جميع فئات الناس إما جهلا وعدم إحاطةٍ بمصالح الناس جميعا، وإما عمداً لأن من يحكمون يمررون القوانين بما يخدم سلطانهم ومصالحهم، أو يراعون الحاجات الإنسانية من جانبٍ واحدس قاصرٍ لا يتم به مقصود القانون من العدل ومنع الظلم والجور .

(والمقصود أن شريعة الإسلام جاءت مضامينها وتعاليمها شاملةً لكل مناحي الحياة، وجميع شؤون الخلْق الدنيوية والأخروية، فهي ليست تشريعات مُنزويةً في ركن ضيق ومقصورةً عليه، تتولى علاجه دون غيره، كلا، بل إنها تملِك منظومة متكاملة لكل ما يتعلق بالإنسان والكون والحياة، وكما أنها نظمت علاقة الناس بربهم كذلك نظمت علائقهم ببعضهم البعض؛ من اقتصاد، وسياسة، واجتماع، وقضاء، وجنايات، وتعليم، وحرب، وسلام، وعلاقتهم بالبيئة وما خلَق الله فيها من كائنات. وغير هذا من الجوانب الكثيرة التي لها صلة بانتظام الحياة في هذا الكون.

قد روَّج العلمانيون متابعين في هذا معلِّميهم من المستشرقين والمنصِّرين ومَن سَلَك مسلكهم ولَفَّ لَفَّهم أن الإسلام لا يملِك سوى نظامٍ رُوحيٍّ مقصورٍ على تنظيم العلاقة بين الفرد وربه فقط، فهو محصور في إطار القفص الصدري للإنسان، وإن تجاوزه فلا يَزيد في زعمهم عن جدران المساجد وبيوت العبادة، هم يروجون لهذا، وهكذا يريدون.و كذلك يتمَنَّوْن.

والحق أن مَن شَمَّ رائحة العلم ورائحة التجرد معًا، لَيَربأُ بنفسه عن الترويج لمثل هذا الباطل والزُّور.

إن هذا الترويج يمكن أن ينطبق على غيرِ الإسلام؛ كالنصرانية الموجودة الآن مثلًا، التي تقول أناجيلها أعطُوا ما لِقيصر لِقَيْصر، وما لله لله . وتنسب إلى المسيح عليه السلام أنه قال مَمْلكتي ليستْ مِن هذا العالم). [1]

أما الإسلام ومحمد ﷺ فمملكته في الأرض والسماء لأنه لا فائدة إن اقتصر الدين على الأمور الروحية وترك الإنسان يهيم في غيابات الجهل والظلم والفساد والشهوات بلا ضابط ولا رابط.

يقول الأستاذ الفضيل الدكتور عبدالكريم زيدان مِن المعروف أن الشريعة الإسلامية نظام شامل لجميع شؤون الحياة؛ فهي ترسم للإنسان سبيل الإيمان، وتبين له أصول العقيدة، وتنظم صلته بربه، وتأمُرُه بتزكية نفسه، وتحكم علاقاته مع غيره، وهكذا لا يخرج عن حُكم الشريعة أيُّ شيء. [2]

وإن المحاولات التي تولى كبرها واضعو القوانين في بلاد المسلمين بناءً على القوانين البشرية التي ثبت عوارها وجورها وقصر نظرها؛ هذه المحاولات هي ببساطة إنكار لصلاحية الإسلام ومنهج الله تعالى في تدبر أمر هذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى، وهو أعلم به وبمصالحه، ولذلك ليس كبيرا أن صرَّح القرآن بأن هذا هو الكفر بعينه، ولم يقل هو كفرٌ ولكن قال عمن فعل ذلك هم الكافرون والفاسقون والظالمون كما في سورة التوبة.

وتدبر معي ما قال الله تعالى

---

(١)شمولية الشريعة الإسلامية- مقال على شبكة الألوكة لل أ.د. إسماعيل علي محمد- رابط الموضوع:
https://www.alukah.net/culture/0/113479/#ixzz6r3lRX3Gr

(٢)المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، د.عبد الكريم زيدان، ص٥٠.

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾ [المائدة ٥٠].

يقول ابن كثير رحمه الله (لماذكر تعالى التوراة التي أنزلها الله على موسى كليمه عليه السلام ومدحها وأثنى عليها، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع، ذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه ، شرع تعالى فيذكر القرآن العظيم، الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال {وأنزلنا إليك الكتاب بالحق} أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، {مصدقا لما بين يديه من الكتاب} أي من الكتب المتقدمة المتضمنةذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد صلوات الله عليه ، فكان نزولهكما أخبرت به، مما زادها صدقا عند حامليها من ذوي البصائر، الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله.

وقوله {ومهيمنا عليه} فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم، الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، أشملها وأعظمها وأحكمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره؛ فلهذا جعله شاهدا وأمينا وحاكما عليها كلها. وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر ٩] .

وقوله {فاحكم بينهم بما أنزل الله} أي فاحكم يا محمد بين الناس عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم {بما أنزل الله} إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك.

وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله عليه وسلم مخيرا، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم. فردهم إلى أحكامهم، فنزلت {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم} فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما في كتابنا.

وقوله {ولا تتبع أهواءهم} أي آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله؛ ولهذا قال {ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق} أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء.

وقوله {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} الشرعة وهي الشريعة أيضا، هي ما يبتدأ فيه إلى الشيء ومنه يقال شرع في كذا أي ابتدأ فيه.وكذا الشريعة وهي ما يشرع منها إلى الماء. أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل، والسنن الطرائق، فتفسير قوله {شرعة ومنهاجا} بالسبيل والسنة أظهر، والله أعلم.

ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة في الأحكام، المتفقة في التوحيد، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد يعني بذلك التوحيد، الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أنزله، وأما الشرائع فمختلفة في الأوامر والنواهي، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراما ثم يحل في الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفا فيزاد في الشدة في هذه دون هذه. وذلك لما له تعالى في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

وقيل المخاطب بهذا هذه الأمة، ومعناه {لكل جعلنا} القرآن {منكم} أيتها الأمة {شرعة ومنهاجا} أي هو لكم كلكم، تقتدون به. وحذف الضمير المنصوب في قوله {لكل جعلنا منكم} أي جعلناه، يعني القرآن، {شرعة ومنهاجا} أي سبيلا إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أي طريقا ومسلكا واضحا بينا.

هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد، رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة} فلو كان هذا خطابا لهذه الأمة لما صح أن يقول {ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة} وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم، وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة التي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة، لا يُنْسَخ شيء منها. ولكنه

تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمدا ﷺ

الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة، ليختبر عباده فيما شرع لهم، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ وهي طاعة الله واتباع شرعه، الذي جعله ناسخا لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله.

ثم قال تعالى ﴿إلى الله مرجعكم جميعا﴾ أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق، العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلة الدامغة.

وقوله ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه.

ثم قال تعالى ﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ أي احذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفرة خونة. ﴿فإن تولوا﴾ أي عما تحكم به بينهم من الحق، وخالفوا شرع الله ﴿فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم. ﴿وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾ أي أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم، مخالفون للحق ناؤون عنه.

وقال محمد بن إسحاق بالسند عن ابن عباس قال قال كعب بن أسد، وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس، بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى محمد، لعلنا نفتنه عن دينه فأتوه، فقالوا يا محمد، إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن

بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك، ونصدقك فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله، عز وجل، فيهم {وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك} إلى قوله {لقوم يوقنون} رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقوله {أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان، الذي وضع لهم اليساق وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ﷺ فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير، قال الله تعالى {أفحكم الجاهلية يبغون} أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون. {ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون} أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ أبغض الناس إلى الله عز وجل مُلْحِدٌ فِي الحَرَمِ ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئٍ بغير حقٍ ليريق دمه . وروى البخاري، عن أبي اليمان بإسناده نحوه. انتهى. [١]

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة (٣/ ١٢٧) باختصار.

{الحمد لله رب العالمين}.

افتتح ربنا تبارك وتعالى خمسَ سورٍ في القرآن بهذا المفتتح وهذا الاستهلال الرائع الحمد لله ..

ففي أم القرآن (الفاتحة) الحمد لله رب العالمين . وفي سورة الأنعام الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور . وفي سورة الكهف الذي أنزل على عبده الكتاب . وفي سورة سبأ الذي له ما في السماوات وما في الأرض . وفي سورة فاطر فاطر السماوات والأرض .

فما وجه المناسبة بين هذا الاستهلال واختلاف التعقيب بعده مع السورة التي ورد فيها؟

ذكر السيوطي في الاتقان

فِي تَفْسِيرِ الْخُوَيِّيِّ يقول ابْتُدِئَتِ الْفَاتِحَةُ بِقَوْلِهِ {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} فَوَصَفَ بِأَنَّهُ مَالِكُ جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ. وَفِي الْأَنْعَامِ وَالْكَهْفِ وَسَبَأٍ وَفَاطِرٍ لَمْ يُوصَفْ بِذَلِكَ؛ بَلْ بِفَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ صِفَاتِهِ، وَهُوَ خلق السماوات وَالْأَرْضِ وَالظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ فِي الْأَنْعَامِ، وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ فِي الْكَهْفِ، وَمِلْكِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ فِي سَبَأٍ، وَخَلْقِهِمَا فِي فَاطِرٍ. لِأَنَّ الْفَاتِحَةَ أُمُّ الْقُرْآنِ وَمَطْلَعُهُ فَنَاسَبَ الْإِتْيَانَ فِيهَا بِأَبْلَغِ الصِّفَاتِ وَأَعَمِّهَا وَأَشْمَلِهَا). انتهى.

أقول لقد تناسب هذا الاستهلال الرائع بالفعل مع موضوع السورة التي ورد فيها فجاء الاستهلال مكتملاً مع معاني السورة متناسقا بكل دقةٍ وبراعةٍ يؤكدها ما عقّبت به الآية بعد الحمد لله ..

ففي أم الكتاب كان أول القرآن وفاتحته فناسب ذلك افتتاحها بالحمد لله الذي يربُّ العالمين فيصلحهم ويربيهم بنعمه وهداياته المتعددة النابعة من رحمانيته العامة الشاملة.

وفي سورة الأنعام التي يتمحور مضمونها العام حول دلائل التوحيد وإثباته لله تعالى وحده ودحض شبه المشركين ومناقشتهم. فناسب ذلك البدء بالحمد ذكر الدليل الأول على وحدانية الله تعالى وهو الخلق الذي يشهد له سبحانه ببديع الصنعة وبيان ما نصبه من نور الحق وما يدحضه من ظلمات الباطل.

وأما سورة الكهف فكذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف ذكر ذى القرنين وهى مما سأله المشركون أو اليهود لرسول الله يطلبون تعجيزه، فكان القرآن سنده الرباني العظيم في إثبات أنه الحق من رب العباد

لا عوج فيه ولا مطعن لبشر. فناسب ذلك الحمد لله على ما أنزله على عبده ليكون معجزته الكبرى وهدايته العظمى التي لا يقوى أمامها طعن أو اعتراض.

وأما سورة سبأ فإن فيها قصة سبأ فلما تضمنت ملك سبأ وملكتها بلقيس، وما تضمنته من قصص داود وسليمان عليهما السلام وما منحهما الله سبحانه وتعالى من الملك؛ من تسخير الجبال والطير والجن وإلانة الحديد، ولم يجتمع مثل هذا في سورة سواها. افتتحها سبحانه بحمده وانفراده بملك السماوات والأرض وما فيهما وأنه أهل الحمد في الدنيا والآخرة، وأن الملك كله لله يهبه لمن يشاء؛ فقال تعالى الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض .

وأما سورة فاطر فإن الله تعالى بيّن فيها من صفات ربوبيته ودلائل وحدانيته من إبداع السماوات والأرض، ومن خلق عمّار السماوات من الملائكة على عظيم خلقهم، وجعلهم رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع، وإمساكه السماوات والأرض أن تزولا وغير ذلك من هذه الأوصاف العلية. فناسب ذلك تعظيم الله وحمده على عظمة ذاته وهو الفاطر الخلاق البديع العظيم فقال ربنا الحمد لله فاطر السماوات والأرض .

فتبين من هذا عظمة القرآن في مناسبة كل افتتاح لموضوع السورة المفتتحة به دلالة على هذا الاتساق الشريف الدقيق بين روعة الافتتاح ومناسبة المعاني الكلية لسور هذا القرآن العظيم. وهذا من وجوه الإعجاز القرآنية العزيزة التي لا يوفق لها من عباد الله إلا المتدبر العاشق للقرآن.

ثانيا وردت لفظة الحمد في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة. وفي كل مرةٍ معها (لام) الاختصاص التي تشير أن الحمد لله وحده يختص به فلا يجوز الحمد الحق لسواه سبحانه. فمرة تجئ (له الحمد) ومرة (الحمد لله).

وورد قوله تعالى الحمد لله في القرآن كله واحداً وعشرين مرةٍ.

وورد قوله تعالى الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هكذا بلفظه وتمامه أربع مرات..

في الفاتحة. وبينا مناسبته في موضعه.

وفي سورة يونس {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠)}

وفي سورة الزمر {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)}.

وفي سورة غافر {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦)}.

وهنا نستقرأ أن الحمد ورد في الفاتحة تقريرا لحقيقة الوجود العليا أن الحمد لله في ذاته وصفاته وأفعاله فهو لله رب العالمين وحده.

وتعلمنا آية سورة غافر أن يعيش المهتدون المؤمنون على نور هذه الحقيقة يملأ حياتهم كما ملأ الحمد السماوات والأرض وما بينهما. هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ فالذين يعيشون في كنف هذه الحقيقة يصيرون إلى الفلاح وعظيم الثواب الذي يغمر قلوبهم وعقولهم فلا ينفكون تكون دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، ومن خاب سعيه فالخسران المبين.

والله سبحانه له الحمد ابتداءاً في ذاته وصفاته وأفعاله، وله الحمد في الخلق، وفي العناية والرعاية والهداية، وفي الجزاء والقضاء، فله الحمد في الأولى والآخرة.. وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

فمن يستقرأ ما وردت فيه الحمد لله رب العالمين يعلم يقيناً أن الحمد لله بدايةٌ وطريقٌ وغاية..

وأن الحمد يجب أن يكون في حياة المسلم منهج حياة وسبيل نجاة..

وقد لخصت كلام العلامة فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى {الحمد لله} وفيه وجوه الأول هاهنا ألفاظ ثلاثة الحمد، والمدح والشكر، فنقول الفرق بين الحمد والمدح من وجوه الأول أن المدح قد يحصل للحي ولغير الحي، ألا ترى أن من رأى لؤلؤة في غاية الحسن أو ياقوتة في غاية الحسن فإنه قد يمدحها، ويستحيل أن يحمدها، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

الوجه الثاني في الفرق أن المدح قد يكون قبل الإحسان وقد يكون بعده، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان.

الوجه الثالث في الفرق أن المدح قد يكون منهيا عنه، قال عليه الصلاة والسلام «احثوا التراب في وجوه المداحين». وأما الحمد فإنه مأمور به مطلقا، قال صلى الله عليه وسلم «من لم يحمد الناس لم يحمد الله».

الوجه الرابع أن المدح عبارة عن القول الدال على كونه مختصا بنوع من أنواع الفضائل، وأما الحمد فهو القول الدال على كونه مختصا بفضيلة معينة، وهي فضيلة الإنعام والإحسان فثبت بماذكرنا أن المدح أعم من الحمد.

وأما الفرق بين الحمد وبين الشكر فهو أن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو مختص بالإنعام الواصل إليك.

(قلت وقيل الحمد أعم من الشكر في متعلقه إذ متعلقه الذات والصفات والأفعال، فيُحمد المحمود على ذاته وعلى صفاته وعلى أفعاله، بينما الشكر متعلقه الفعل والإحسان فقط، فلا يُشكر المشكور إلا على فعله. والحمد أخص في وقوعه فلا يحمد بغير اللسان، بينما الشكر أعم إذ يقع الشكر باللسان والقلب والجوارح كما قال ربنا تعالى {إعملوا آل داود شكرا} فسمى العمل شكراً).

قال الرازي فقوله الحمد لله أولى من قوله الشكر لله لأن قوله الحمد لله ثناء على الله بسبب كل إنعام صدر منه ووصل إلى غيره وأما الشكر لله فهو ثناء بسبب إنعام وصل إلى ذلك القائل، ولا شك أن

الأول أفضل لأن التقدير كأن العبد يقول سواء أعطيتني أو لم تعطني فإنعامك واصل إلى كل العالمين، وأنت مستحق للحمد العظيم، وقيل الحمد على ما دفع الله من البلاء، والشكر على ما أعطى من النعماء.

الفائدة الثانية (الحمد لله أبلغ من أحمد الله). أنه تعالى لم يقل أحمد الله ولكن قال الحمد لله وهذه العبارة الثانية أولى لوجوه

أحدها أنه لو قال أحمد الله أفاد ذلك كون ذلك القائل قادرا على حمده أما لما قال الحمد لله فقد أفاد ذلك أنه كان محمودا قبل حمد الحامدين وقبل شكر الشاكرين، فهؤلاء سواء حمدوا أو لم يحمدوا وسواء شكروا أو لم يشكروا فهو تعالى محمود من الأزل إلى الأبد.

وثانيها أن قولنا الحمد لله، معناه أن الحمد والثناء حق لله وملكه، فإنه تعالى هو المستحق للحمد بسبب كثرة أياديه وأنواع آلائه على العباد، فقولنا الحمد لله معناه أن الحمد لله حق يستحقه لذاته ولو قال أحمد الله لم يدل ذلك على كونه مستحقا للحمد لذاته ومعلوم أن اللفظ الدال على كونه مستحقا للحمد أولى من اللفظ الدال على أن شخصا واحد حمده.

وثالثها أنه لو قال أحمد الله لكان قد حمد لكن لا حمدا يليق به، وأما إذا قال الحمد/ لله فكأنه قال من أنا حتى أحمده؟ لكنه محمود بجميع حمد الحامدين، مثاله ما لو سئلت هل لفلان عليك نعمة؟ فإن قلت نعم فقد حمدته ولكن حمدا ضعيفا، ولو قلت في الجواب بل نعمه على كل الخلائق، فقد حمدته بأكمل المحامد.

ورابعها أن الحمد عبارة عن صفة القلب وهي اعتقاد كون ذلك المحمود متفضلا منعما مستحقا للتعظيم والإجلال، فإذا تلفظ الإنسان بقوله أحمد الله مع أنه كان قلبه غافلا عن معنى التعظيم اللائق بجلال الله كان كاذبا، لأنه أخبر عن نفسه بكونه حامدا مع أنه ليس كذلك، أما إذا قال الحمد لله سواء كان غافلا أو مستحضرا لمعنى التعظيم فإنه يكون صادقا لأن معناه أن الحمد حق لله وملكه، وهذا المعنى حاصل سواء كان العبد مشتغلا بمعنى التعظيم والإجلال أو لم يكن، فثبت أن قوله الحمد لله أولى من قوله أحمد الله، ونظيره قولنا لا إله إلا الله فإنه لا يدخله التكذيب، بخلاف قولنا أشهد أن لا إله إلا الله لأنه قد يكون كاذبا في قوله أشهد، ولهذا قال تعالى في تكذيب المنافقين ﴿ والله يشهد إن

المنافقين لكاذبون{ (المنافقون ١) حين قالوا { نشهد إنك لرسول الله{، ولهذا السر أمر في الأذان بقوله أشهد ثم وقع الختم على قوله لا إله إلا الله. انتهى.

من حكم ابن عطاء السكندري.

- لا يكن تأخرُ العطاءِ مع الالحاح في الدعاء موجباً ليأسك، فهو ضمن لك الاجابة فيما يختاره لك سبحانه لا فيما تختاره لنفسك .

يقصد رحمه الله إلى أدب من آداب المعاملة مع الله تبارك وتعالى وخصوصا في مسألة الدعاء، فالذي يظنهكثيرٌ من المؤمنين أن الله تعالى ضمن الإجابة مع الدعاء حين قال في محكم كتابه { وقال ربكم أدعوني أستجب لكم{، ولكن أهل الفهم عن الله تعالى يدركون أنَّه سبحانه ضمن الإجابة على حسب علمه وحكمته وحلمه وإحاطته فهو العليم الحكيم الحليم المحيط، فلو عجَّل الله تعالى للناس إجابتهم لما دعوا بغير سبْرٍ منهم لمآلات الأمور، وتدبر منهم لعواقب طِلْبتهم؛ لأعنتهم وأهلكهم بما طلبوا، ولكنَّ الله تعالى يقدّر الأمور بحكمته وعلمه المحيط فيعطي المؤمن على تقديره الحكيم وليس على طَلَبه الساذج؛ وهو سبحانه أدرى بما يصلح عبده وبما يفسده، فهو ضمن لك الاجابة فيما يختاره لك سبحانه لا فيما تختاره لنفسك ، فالحمد لله رب العالمين. والشيخ هنا يقتدي بالحديث الشريف عن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إن الله ليحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبهكما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه).

- اجتهادك فيما ضُمِنَ لك. وتقصيرك فيما طُلِبَ منك دليلٌ على انطماس البصيرة فيك .

يقصد رحمه الله أن اجتهاد المرئ فيما ضمنه الله تعالى من الرزق بحيث يقصَّر فيما فرضه الله عليه من العبادة هو من أدلة انطماس البصيرة وقصور الفكر وضعف القلب. وكأنه يفسر قول الله تبارك وتعالى {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) { [الذاريات ٥٦ ٥٩]

من أغاليط المفسرين.

كما يقرر علماء القرآن أن المفسرين ينزعون إلى نصرة مذاهبهم العقدية وهو الأخطر والذي لا يُغْتَفَر، ومذاهبهم الفقهية وهو مقبولٌ في موضعه ويُخَطَّأ أحيانا.. ينزعون إلى ذلك عن طريق لى عنق الآيات لحنها على دعم مذاهبهم، وهو ما نسميه بلغة المثقفين حاليا (استنطاق النص).

ولنضرب مثلاً واضحا للزمخشري الذي يحمل لواء المعتزلة ويحشر كثيرا من عقائد المعتزلة في تفسيره الكشاف بصورةٍ خفيةٍ حتى قال العلامة البُلْقَيني رحمه الله استخرجتُ من الكشاف الاعتزاليات بالمناقيش.

ويقول ابن تيمية – قدس الله روحه في كتابه الشائق (مقدمة في أصول التفسير) وأما (الزمخشري) فتفسيره محشو بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات، والرؤية، والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات، وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة. وأصولهم خمسة يسمونها التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكن معنى (التوحيد) عندهم يتضمن نفي الصفات، ولهذا سمى ابن التومرت أصحابه الموحدين وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته.

ومعنى (العدل) عندهم يتضمن التكذيب بالقدر، وهو خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات، والقدرة على شيء، ومنهم من ينكر تقدم العلم والكتاب، لكن هذا قول أئمتهم، وهؤلاء منصب الزمخشري، فإن مذهبه مذهب المغيرة بن علي وأبي هاشم وأتباعهم. وأما (المنزلة بين المزلتين) فهي عندهم أن الفاسق لا يسمى مؤمنا بوجه من الوجوه، كما لايمى كافرا، فنزلوه بين منزلتين. و (إنفاذ الوعيد) عندهم معناه أن فساق الملة مخلدون في النار. لايخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقول الخوارج. و (الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر) يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة، وقتالهم بالسيف. وهذه الأصول حشى بها الزمخشريكتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها، ولا لمقاصده فيها، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين. انتهى

ففي قول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)﴾ [الذاريات ٥٦ - ٥٩].

قال الزمخشري أى وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة، ولم أرِدْ من جميعهم إلا إياها . فإن قلتَ لو كان مريدا للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا؟ قلت إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها، لأنه خلقهم مُمكَّنين، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كون الله مريدا لها، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم. انتهى.

وقوله «مع كونه مريدا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة الله الفعل من العبد بمعنى الأمر. وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراده الله كان، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد، وتحقيقه في علم التوحيد.

ورد عليه أحمد ابن المنير السكندري قال أحمد من عاداته أي الزمخشري أنه إذا استشعر أن ظاهرا موافق لمعتقده نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالا، وإيراد معتقده جوابا، فكذلك صنع هاهنا، فنقول السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بماذكره، فانه سؤال مقدماته قطعية عقلية، فيجب تنزيل الآية عليه، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة، فإنها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم، فان عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم. والله تعالى لا يطلب من عباده رزقا ولا إطعاما، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقا أنه هو الذي يرزقهم، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية، وله سيقت، وبه نطقت، ولكن الهوى يعمى ويصم، فحاصله وما خلقت الجن والانس إلا لأدعوهم إلى عبادتي، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة، فانه وافق معتقدهم وبالله التوفيق. (١)

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٤٠٦).

قلتُ والحق أن عجلة الزمخشري في نصرة مذهبه حملته على لي عنق السياق في الآيات ليحملها من المضمون العقدي ما لا تحتمل ومقصود السياق الذي بينه ابن المنير هو الصحيح وهو ما تتسق معه مقاصد الآيات هنا، فتأمل كيف يعمي الهوى ويصم كما قال ابن المنير رحمه الله.

"آتي بابَ الجنةِ فأستفتح.." الحديثَ.

قال رسول الله ﷺ آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك . [1]

الشـــــرح (آتي) بالمد (باب الجنة) أي أجيء بعد الانصراف من الحشر للحساب إلى أعظم المنافذ التي يتوصل منها إلى دار الثواب وهو باب الرحمة أو هو باب التوبةكما في النوادر . فإن قلت هل لتعبيره بالإتيان دون المجيء من نكتة؟ قلت نعم، وهي الإشارة إلى أن مجيئه يكون بصفة من لبس خلع الرضوان فجاء على تمهل وأمان من غير نصب في الإتيان ، إذ الإتيان كما قال الراغب (الأصفهاني) مجيء بسهولة . قال والمجيء أعم ففي إيثاره عليه مزية زهية . وفي الكشاف وغيره إن أهل الجنة لا يذهب بهم إليها إلا راكبين، فإذا كان هذا في آحاد المؤمنين؛ فما بالك بإمام المرسلين؟ . قال الراغب والباب يقال لمدخل الشيء وأصله مداخل الأمكنةكباب الدار والمدينة ؛ ومنه يقال في العلم باب كذا ، وهذا العلم باب إلى كذا أي منه يتوصل إليه . وقد يقال أبواب الجنة وأبواب جهنم للأسباب الموصلة إليها . انتهى . والجنة مصدر جنَّه أى ستره ، ومدار التركيب على ذلك سُمي به الشجر المظلل لالتفاف أغصانه وسترها ما تحته، ثم البستان لما فيه من الأشجار المتكاثفة المظللة ، ثم دار الثواب .. وقال الزمخشري الجنة اسم لدار الثواب كلها، وهي مشتملة على جنات كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاق العاملين لكل طبقة منهم جنة منها ، قال ابن القيم ولها سبعة عشر اسماًوكثرة الأسماء آية شرف المسمى ، أولها هذا اللفظ العام المتناول لتلك الدار وما

---

(1)تخريج السيوطي (أحمد و مسلم) عن أنس. تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: 1 في صحيح الجامع .

اشتملت عليه من أنواع النعيم ، والبهجة ، والسرور ، وقرة العين ، ثم دار السلام أي السلامة من كل بلية ، ودار الله ، ودار الخلد ، ودار الإقامة ، وجنة المأوى ، وجنة عدن ، والفردوس وهو يطلق تارة على جميع الجنان وأخرى على أعلاها ، وجنة النعيم ، والمقام الأمين ، ومقعد صدق ، وقدم صدق ، وغير ذلك مما ورد به القرآن ، (يوم القيامة فأستفتح) السين للطلب وآثر التعبير بها إيماءاً إلى القطع بوقوع مدخولها وتحققه أي أطلب انفراجه وإزالة غلقه يعني بالقرع لا بالصوت كما يرشد إليه خبر أحمد آخذ بحلقة الباب فأقرع وخبر البخاري عن أنس أنا أول من يقرع باب الجنة والفاء(للتعقيب والسرعة). فإن قلت ما وجهه؟ قلت الإشارة إلى أنه قد أذن له من ربه بغير واسطة أحد لا خازن ولا غيره ، وذلك أن من ورد باب كبيرٍ فالعادة أن يقف حتى ينتهي خبره إليه ويستأمر فإن أُذن في إدخاله فُتح له . فالتعقيب إشارةً إلى أنه قد صانه ربه عن ذل الوقوف، وأَذِن له في الدخول قبل الوصول بحيث صار الخازن مأموره منتظراً لقدومه (فيقول الخازن) أي الحافظ وهو المؤتمن على الشيء الذي استحفظه، والخزن حفظ الشيء في الخزانة ، ثم عبر به عن كل حفظ ، ذكره الراغب ، سمي الموكل بحفظ الجنة خازناً لأنها خزانة الله تعالى أعدها لعباده ، و(أل) فيه عهدية، والمعهود رضوان عليه السلام خازن الجنةكما ورد في السنة، وظاهره أن الخازن واحد وهو غير مراد بدليل خبر أبي هريرة من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنةكل خزنة باب هلم فهو صريح في تعدد الخزنة إلا أن رضوان أعظمهم ومقدمهم ، وعظيم الرسل إنما يتلقاه عظيم الحفظة . (من أنت) أجاب بالاستفهام ، وأكده بالخطاب تلذذاً بمناجاته ؛ وإلا فأبواب الجنة شفافة ، وهو العَلَم الذي لا يشتبه والمتميز الذي لا يلتبس ؛ وقد رآه رضوان قبل ذلك وعرفه ، ومن ثم اكتفى بقوله (فأقول محمد) وإن كان المسمى به كثيراً .. ثم إنه لم يقل (أنا) لإيهامه مع ما فيه من الإشعار بتعظيم المرء نفسه وهو سيد المتواضعين ، وهذه الكلمة جارية على ألسنة الطغاة المتجبرين إذاذكروا مفاخرهم وزهوا بأنفسهم ، قال في المطامح وعادة العارفين المتقين أن يذكر أحدهم اسمه بدل قوله أنا إلا في نحو إقرار بحق فالضمير أولى . وقال ابن الجوزي أنا لا يخلو عن نوع تكبر كأنه يقول أنا لا أحتاج إلى ذكر اسمي ولا نسبي لسمو مقامي .. وأما من

ليس من هذه الطائفة فقد قال النووي لا بأس بقوله أنا الشيخ فلان أو القاضي فلان إذا لم يحصل التمييز إلا به وخلا عن الخيلاء والكبر والزهو ، .. (فيقول بك) قيل الباء متعلقة بالفعل بعدها ثم هي سببية قدمت للتخصيص أي بسببك (أمرت) بالبناء للمفعول والفاعل هو الله (أن لا أفتح) . و في نسخ مسلم الصحيحة المقروءة لا أفتح بإسقاط أن (لأحدٍ) من الخلائق (قبلك) لا بسبب آخر . أي أمرت بفتح الباب لك قبل غيرك من الأنبياء وفي رواية ولا أقوم لأحد بعدك وذلك لآن قيامه إليه خاصة إظهاراً لمرتبته ومزيته ولا يقوم في خدمة أحد غيره بل خزنة الجنة يقومون في خدمته وهو كالملك عليهم وقد أقامه الله في خدمته صلى الله عليه وسلم حتى مشى إليه وفتح له..اهـ. [1]

صنائع المعروف تقي مصارع السوء؟

قال ﷺ صنائع المعروف تقي مصارع السوء و الآفات ، و الهلكات. و أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة . [2]

شرح الحديث

قال العلماء والمراد بميتة السوء أو مصارع السوء ما استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم ـ كالهدم والتردي والغرق والحرق، وأن يتخبطه الشيطان عند الموت، وأن يقتل في سبيل الله مدبرا. وقال بعضهم هي موت الفجاءة. وقيل ميتة الشهرة ـ كالمصلوب. ومثل ذلك الحوادث والكوارث التي تشاهد اليوم في كل مكان.

---

(١)من فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي رحمه الله تعالى- باختصار وتصرف يسير .

(٢) تخريج السيوطي (الحاكم) عن أنس. تحقيق الألباني (صحيح) انظر حديث رقم: ٣٧٩٥ في صحيح الجامع. قال عنه السخاوي : أخرجه الطبراني في الكبير بِسَنَدٍ حَسَن .

والذي يقي من ذلك هو صنائع المعروف ـ من الصدقة، وبر الوالدين، وصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، والإحسان إلى الناس، وعمل الخير بصفة عامة. وقد لخصت أمنا خديجة ـ رضي الله عنها ـ صنائع المعروف ـ التي تقي مصارع السوء ـ بقولها لنبينا صلى الله عليه وسلم أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. متفق عليه.

قال العلامة المناوي هذا تنويه عظيم بفضل المعروف وأهله . قال علي كرم الله وجهه لا يزهدك في المعروف كفر من كفر، فقد يشكره الشاكر أضعاف جحود الكافر. قال الماوردي فينبغي لمن قدر على ابتداء المعروف أن يعجله حذراً من فوته، ويبادر به خيفة عجزه، ويعتقد أنه من فرص زمانه ، وغنائم إمكانه ، ولا يمهله ثقة بالقدرة عليه ، فكم من واثق بقدرةٍ فاتت، فأعقبت ندماً ، ومعول على مُكْنةٍ زالت ؛ فأورثت خجلاً ، ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفظ من عواقب فكره لكانت مغارمه مدحورة ، ومغانمه محبورة . وقيل من أضاع الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها .انتهى من فيض القدير للمناوى.

قال بعض العلماء ويشهد له حديث صدقة السر تُطفئ غضب الرب . وفيه ضَعْف يسير مُحْتَمل .

قال الحافظ ابن حجر تنبيه الرافعي اسْتَدَلّ به على أن صَدَقَة السِرّ أفضل مِن صدقة العلانية ، وأَوْلَى منه حديث أبي هريرة المتفق عليه سبعة يظلهم الله ، وفيه ورَجُل تَصَدّق بِصَدَقة فأَخْفَاها . اهـ .

ويشهد له أيضا حديث الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ . رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب . والحديث صححه الشيخان الألباني و الأرناؤوط . وهو دالّ على فضل الإسرار بالصدقة .

قال الإمام الترمذي ومعنى هذا الحديث أن الذي يُسِرّ بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بقراءة القرآن ؛ لأن صدقة السِرّ أفضل عند أهل العلم مِن صدقة العلانية ، وإنما معنى هذا عند أهل العِلم لكي يأمن الرجل مِن العُجْب ، لأن الذي يُسِرّ العمل لا يُخَاف عليه العُجب ما يُخاف عليه مِن علانيته .

وصنائع المعروف داخلة في عموم قوله تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) ا. ه.

مقال جيد (كتبه د. منقذ بن محمود السقار)

معنى المعروف وأهمية هذه العبادة

١ المعروف المقصود هنا هو فعل الخير وإسداؤه للعباد، سواء كان هذا الخير مالاً كالصدقة والإطعام وسقاية الماء وسداد الديون، أو جاهاً كما في الإصلاح بين المتهاجرين والشفعة وبذل الجاه، أو علماً، أو سائر المصالح التي يحتاجها الناس، كحسن المعاملة وإماطة الأذى وعيادة المرضى، و..

ومن النصوص التي أشارت إلى تنوع هذه العبادة قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو ذر قال قلت يا رسول الله ذهب الأغنياء بالأجر يصلون ويصومون ويحجون قال وأنتم تصلون وتصومون وتحجون . قلت يتصدقون ولا نتصدق؟ قال وأنت فيك صدقة، رفعك العظم عن الطريق صدقة، وهدايتك الطريق صدقة، وعونك الضعيف بفضل قوتك صدقة، وبيانك عن الأرثم(الذي لا يبين الكلام) صدقة، ومباضعتك امرأتك صدقة . قال قلت يا رسول الله نأتي شهوتنا ونؤجر؟ قال أرأيت لو جعلته في حرام أكان تأثم . قال قلت نعم قال فتحتسبون بالشر ولا تحتسبون بالخير . (رواه أحمد).

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال على كل مسلم صدقة فقالوا يا نبي الله فمن لم يجد قال يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قالوا فإن لم يجد قال يعين ذا الحاجة الملهوف قالوا فإن لم يجد قال فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة . (متفق عليه).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل سلامى عليه صدقةكل يوم يعين الرجل في دابته يحامله عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ودل الطريق صدقة . (متفق عليه).

٢ كثير من الناس يطلق معنى العبادة على ما يتعلق بحقوق الله فحسب، ويغفل عن باب آخر عظيم، وهو حسن المعاملة مع العباد والإحسان إليهم.

أدلة صناعة المعروف من القرآن الكريم.

{يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون}(الحج ٧٧). فقوله {وافعلوا الخير} أمر يشمل كل خير، وقال تعالى{لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس}(النساء ١١٤).{وأحسنوا إن الله يحب المحسنين}(البقرة ١٩٥).

أدلة صناعة المعروف وتعدد صوره من السنة النبوية.

عن ابن عمر أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أي الناس أحب إلى الله ونصف الأعمال أحب إلى الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الناس إلى الله عز وجل أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً(في مسجد المدينة) ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غضبه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رخاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام . [١]

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه . [٢]

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة . (متفق عليه).

---

(١)(رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، وحسّن الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة ح٩٠٦).

(٢)(ابن ماجه ح٢٣٧، وابن أبي عاصم في السنة، وحسنه الألباني بطرقه ، السلسلة الصحيحة ح١٣٢٢).

وعن أبي جريٍّ الهجيميّ قال أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقلت يا رسول الله إنّا قوم من أهل البادية فعلّمنا شيئًا ينفعنا الله تبارك وتعالى به قال لا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلّم أخاك ووجهك إليه منبسط .(رواه أحمد).

عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحد إلا كان له صدقة .(رواه مسلم).

عن سعد بن عبادة أن أمه ماتت فقال يا رسول الله إن أمي ماتت أفأتصدق عنها؟ قال نعم، قال فأي الصدقة أفضل؟ قال سقي الماء، فتلك سقاية سعد بالمدينة . (رواه النسائي ، أحمد).

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره . قال أبو هريرة (ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم) (متفق عليه).

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان .(رواه مسلم).

عن أبي موسى رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء .(متفق عليه).

عن معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الرجل ليسألني الشيء، فأمنعه حتى تشفعوا فيه فتؤجروا .، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اشفعوا تؤجروا .(رواه النسائي وأبو داود).

عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال الإيمان بالله والجهاد في سبيله، قال قلت أي الرقاب أفضل؟ قال أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمناً، قال قلت فإن لم أفعل؟ قال تعين صانعاً أو تصنع لأخرق، قال قلت يا رسول الله أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟ قال تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك . (متفق عليه).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل معروف صدقة .(متفق عليه).

عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك .(رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح).

التحذير من ترك صناعة المعروف.

{فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون}(الماعون ٤ ٧). {ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين }(المدثر ٤١ ٤٤). {ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين}(الحاقة ٣٤ ٣٥).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم . فذكر منهم ورجل منع فضل ماء فيقول الله اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك . (البخاري).

عن أنس قال توفي رجل من أصحابه فقال يعني رجلا أبشر بالجنة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا تدري، فلعله تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه . (رواه الترمذي، وقال هذا حديث غريب [1]).

---

(١)الحديث الغريب هو الذي وقع فيه وجه من وجوه التفرد .

ووجوه التفرد كثيرة ، أهمها وجهان :

١– تفرد مطلق : وهو أن ينفرد راو معين – في أي طبقة من طبقات السند – برواية هذا الحديث ، ولا يشاركه فيها أحد ، فيكون الحديث الغريب حينئذ هو : الحديث الذي لا يُعرف عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بإسناد واحد .

مثاله : حديث : (إنما الأعمال بالنيات) هذا الحديث ليس له إلا إسناد واحد مستقيم ، يرويه يحيى بن سعيد الأنصاري ، عن محمد بن إبراهيم التيمي ، عن علقمة بن وقاص الليثي ، عن عمر بن الخطاب .

٢– تفرد نسبي : هو أن يتفرد أحد الرواة برواية حديث معين عن شيخه ، ولا يشاركه في الرواية عن شيخه أحد ، رغم أن الحديث مروي من طرق عدة ، وأن هذا الشيخ قد تابعه كثيرون ، غير أن تلاميذ هذا الشيخ لم يرو أحد منهم الحديث عنه إلا راو واحد .

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض .(متفق عليه).

وروى مالك أن الضحاك بن خليفة ساق خليجاً له من العريض فأراد أن يمر به في أرض محمد بن مسلمة فأبى محمد فقال له الضحاك لم تمنعني وهو لك منفعة، تشرب به أولاً وآخراً ولا يضرك، فأبى محمد، فكلم فيه الضحاك عمر بن الخطاب، فدعا عمر بن الخطاب محمد بن مسلمة، فأمره أن يخلي سبيله فقال محمد لا فقال عمر (لم تمنع أخاك ما ينفعه وهو لك نافع، تسقي به أولاً وآخراً، وهو لا يضرك) فقال محمد لا والله. فقال عمر (والله ليمرن به ولو على بطنك) فأمره عمر أن يمر به ففعل الضحاك.(الموطأ).

الأنبياء وصناعة المعروف.

الأنبياء هم أسرع الناس إلى طاعة الله، فهم الذين قضوا حياتهم في دعوة الناس وهدايتهم إلى خيرهم، إذ حياتهم كلها بذل وتضحية ومعروف.

فهذا إبراهيم الخليل، بلغ هذه المنزلة بصناعته للمعروف، فقد روى البيهقي في الشعب بسنده إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يا جبريل لِمَ اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ قال لإطعامه الطعام يا محمد .(الدر المنثور ٢/٧٠٦).

وهذا موسى عليه السلام {ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير}(القصص ٢٣ ٢٤).

ومن مثاله : ما رواه عيسى بن موسى غُنْجارٌ ، عن أبي حمزة السكري ، عن الأعمش ، عن أبي أيوب السَّختياني ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تسموا العنب الكرْم)

قال الطبراني : لم يرو هذا الحديث عن الأعمش إلا أبو حمزة السكري .

فانظر كيف تفرد أبو حمزة السكري برواية هذا الحديث عن الأعمش ، فكان تفرده بالنسبة لشيخه الأعمش ، وليس تفردا مطلقا ، فقد روي الحديث من طرق كثيرة عن جماعة من الصحابة .

والله أعلم .

وقال الله على لسان عيسى{وجعلني مباركاً أينما كنت}(مريم ٣١). روى أبو نعيم وغيره بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في تفسيره للآية جعلني نفاعاً للناس أين اتجهت .{الدر المنثوره/٥٠٩}

وكذا كان نبينا صلى الله عليه وسلم ، قيل لعائشة هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وهو قاعد؟ قالت (نعم بعد ما حطمه الناس) أي بكثرة حوائجهم (رواه مسلم).

ومن صور صناعته للمعروف صلى الله عليه وسلم ما جاء عن عبد الله بن جعفر قال فدخل صلى الله عليه وسلم حائطاً لرجل من الأنصار فإذا جمل، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت فقال من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال لي يا رسول الله فقال أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه . (رواه أبو داود).

ومنه أيضاً شفاعته لمغيث عند زوجته السابقة بريرة، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنه، وفيه أن زوج بريرةكان عبداً يقال له مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو راجعتِه قالت يا رسول الله تأمرني؟ قال إنما أنا أشفع. قالت لا حاجة لي فيه .(رواه البخاري).

وقد صدق الشاعر حين قال عنه

تراه إذا ما جئته متهللاً... كأنما تعطيه الذي أنت سائله.

لو لم يكن في كفه إلا روحه.. لجاد بها فليتق الله سائله.

صناعة المعروف عند السلف.

كان السلف رحمهم الله أسرع الناس في صناعة المعروف وبذله

ومن ذلك ماذكر من إنفاق الصديق وعثمان والزبير وأمهات المؤمنين وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهم، وهذا يطول ذكره.

ومنه أيضاً صنيع أبي بكر الصديق حين ولي الخلافة ، فكان في كل يوم يأتي بيتاً في عوالي المدينة تسكنه عجوز عمياء، فينضج لها طعامها، ويكنس لها بيتها، وهي لا تعلم من هو، فكان يستبق وعمر بن الخطاب إلى خدمتها.(أُسد الغابة ٣/٣٢٧).

ولما ولي عمر الخلافة خرج يتحسس أخبار المسلمين، فوجد أرملة وأيتاماً عندها يبكون، يتضاغون من الجوع، فلم يلبث أن غدا إلى بيت مال المسلمين، فحمل وقر طعام على ظهره وانطلق فأنضج لهم طعامهم، فما زال بهم حتى أكلوا وضحكوا .(الرياض النضرة١/٣٨٥).

ومن صناعة المعروف أيضاً ما ذكر عن علي زين العابدين، فقد كان أناس من أهل المدينة، لايدرون من أين معايشهم، فلما مات فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل.

ولما غسلوه رحمه الله وجدوا بظهره أثراً مما كان ينقله بالليل إلى بيوت الأرامل.(سير أعلام النبلاء٤/٣٩٣).

وهذا عبد الله بن المبارك كان ينفق من ماله على الفقهاء، وكان من أراد الحج من أهل مرو إنما يحج من نفقة ابن المبارك، كما كان يؤدي عن المديون دينه ويشترط على الدائن أن لا يخبر مدينه باسمه(سير أعلام النبلاء٨/٣٨٦).

ثمرات صناعة المعروف

١ صرف البلاء وسوء القضاء في الدنيا

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . (رواه ابن ماجه).

ولما عرض جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال زملوني زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة (كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب) .(متفق عليه).

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو أمامة صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب . (رواه الطبراني في معجمه الكبير ، وقال الهيثمي إسناده حسن).

٢ دخول الجنة

وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أول أهل الجنة دخولاً أهل المعروف . (رواه الطبراني في الكبير).

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس . (رواه مسلم).

٣ مغفرة الذنوب والنجاة من عذاب وأهوال الآخرة

عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا أعملت من الخير شيئاً؟ قال لا. قالوا تذكر ،قال كنت أداين الناس فآمر فتياني أن ينظروا المعسر ويتجوزوا عن الموسر، قال قال الله عز وجل تجوزوا عنه .

وفي رواية عند مسلم فقال الله أنا أحق بذا منك تجاوزوا عن عبدي . (متفق عليه).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا رجل بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال في كل ذات كبد رطبة أجر . (متفق عليه).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخذه، فشكر الله له فغفر له . (متفق عليه).

آداب صناعة المعروف.

ولصناعة المعروف آداب، يتعلق بعضها بالصانع ، وبعضها بالمصنوع له.

ومن الآداب المتعلقة بمن صنع له المعروف

١ شكر الله عز وجل أولاً، إذ هو المنعم الحقيقي، فهو أولى بالحمد من كل أحد، قال الله {يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون} (النحل ٨٣).قال عون بن عبد الله إنكارهم إياها أن يقول الرجل لولا فلان أصابني كذاوكذا، ولولا فلان لم أصب كذاوكذا.(الدر المنثور ١٥٥/٥). وقد أسدي إلى بعض السلف معروف، فشكر الله ، ثم عاد إلى صاحبه في اليوم الثاني فشكره على معروفه، وقال استحييت من الله أن أضيف شكرك إلى شكره.

٢ شكر صاحب المعروف فعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن لا يشكر الناس لا يشكر الله . (رواه الترمذي ، أبو داود، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح).

عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه ومن استجار بالله فأجيروه ومن آتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه .(رواه النسائي ، أبو داود).

وعن أسامة بن زيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنع إليه معروف فقال لفاعله جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء .(رواه الترمذي).

قال المكي بن إبراهيم كنا عند ابن جريج المكي فجاء سائل فسأله فقال ابن جريج لخازنه أعطه ديناراً فقال ما عندي إلا دينار، إن أعطيته جعت وعيالك، قال فغضب وقال أعطه.

قال المكي فنحن عند ابن جريج إذ جاءه رجل بكتاب وصرة، وقد بعث إليه بعض إخوانه، وفي الكتاب إني قد بعثت خمسين ديناراً قال فحل ابن جريج الصرة فعدها، فإذا هي أحد وخمسون ديناراً، قال فقال ابن جريج لخازنه قد أعطيت واحداً فرده الله عليك وزادك خمسين ديناراً (ذكره الترمذي عقب الحديث السابق).

٣ أن يقبل المعروف الذي أسدي إليه، فعن خالد بن عدي الجهني قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بلغه معروف عن أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرده، فإنما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه .(رواه أحمد).

ومن الآداب المتعلقة بصانع المعروف

١ إخلاصه وإسراره بالعمل وعدم انتظار العوض من الناس، قال تعالى{إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً}(الإنسان ٩).

وهذا عدي بن حاتم لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المعروف والخير الذي كان يصنعه أبوه في الجاهلية ابتغاء المدح والذكر الحسن، فقال صلى الله عليه وسلم إن أباك أراد شيئاً فأدركه . (أحمد ح١٨٨٨). أي الأجر من الناس بالثناء.

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من شفع لأخيه بشفاعة فأهدى له هدية عليها فقبلها، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الربا .(رواه أبو داود).

ومن الإخلاص الإسرار بالمعروف، قال تعالى {إن تبدو الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم}(البقرة ٢٧١). قال صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء . (الحاكم ح٤).،وقال في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه .(متفق عليه).

٢ أن يبذله لمن يستحقه ويحتاج إليه من إنسان أو حيوان، أن يبذله للبر والفاجر بل والكافر.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال قال صلى الله عليه وسلم لا يغرس مسلم غرساً ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا طائر ولا شيء إلا كان له أجر . (رواه الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي إسناده حسن).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال رجل لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تصدق على سارق، فقال اللهم لك الحمد، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية، فقال اللهم لك الحمد، على زانية، لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي غني فأصبحوا يتحدثون تصدق على غني، فقال اللهم لك الحمد، على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتي فقيل له أما

صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله . (متفق عليه).

٣ أن يعلم أن معروفه نوع من المعاملة مع الله قبل أن يكون معاملة مع الخلق، فعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده.

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي.

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي .(رواه مسلم).

٤ أنه يقع عند الله بمكان مهما صغر شأنه عند الله، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس . (متفق عليه).

عن عائشة أنها قالت جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار . (رواه مسلم).

٥ أن يبادر إلى حاجة أخيه ولو لم يطلبها منه، جاء مديون إلى سفيان بن عيينة يسأله العون على قضاء حاجته، فأعانه ثم بكى، فقالت له زوجته ما يبكيك؟ فقال أبكي أن أحتاج أخي فلم أشعر بحاجته حتى سألني.

٦ المسارعة بالخير والمسابقة إليه{فاستبقوا الخيرات}(البقرة ١٤٨). عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً أو موقوفاً التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة .(رواه أبو داود).

٧ أن يستصغر معروفه ولا يمن به{لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى}(البقرة ٢٦٤).

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وصحبه الكريم، والحمد لله رب العالمين.

{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً}

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (النور ٣١).

وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ، خَاطَبَ اللَّهُ بِهَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَخِيَارَ خَلْقِهِ أَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ، بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَصَبْرِهِمْ، وَهِجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ، ثُمَّ عَلَّقَ الْفَلَاحَ بِالتَّوْبَةِ تَعْلِيقَ الْمُسَبَّبِ بِسَبَبِهِ، وَأَتَى بِأَدَاةِ لَعَلَّ الْمُشْعِرَةِ بِالتَّرَجِّي، إِيذَانًا بِأَنَّكُمْ إِذَا تُبْتُمْ كُنْتُمْ عَلَى رَجَاءِ الْفَلَاحِ، فَلَا يَرْجُو الْفَلَاحَ إِلَّا التَّائِبُونَ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ.

(مدارج السالكين ١/١٩٦)

حكمٌ عميقةٌ.

- روى ابن قتيبة في كتابه الماتع عيون الأخبار بسنده عن أمير المؤمنين الفاروق عمر قال (الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم).
- ستتعلم الكثير من الدروس. إذا علمت أن رجال الإطفاء لا يكافحون النار بالنار
- لماذا لا ندرك أن السلالم ليست الصعود فقط وإنما للهبوط أيضا؟
- كل إناء ينضح بما فيه. فماذا إذا صارت الأواني معدنية لا تنضح أصلا ؟
- السر عند النساء نوعان نوعٌ تافه لا يستحق الاحتفاظ به. ونوع خطير لا تستطيع الاحتفاظ به.
- لا شيء يطرد النوم من عيون الملوك غير أحلام الشعوب.
- كثيراً ما يحدث حين تُخلف السعادة مواعيدها.. أفقد الاهتمام.
- ما أعجب الخلوة إلى قلبي، فالغربة بين الناس قاتلة.
- صديق لا يكذِّبني ولا يؤذيني ولا يخونني، ليس إلا السراب..أو الكتاب.
- كبرت فأدركتُ حقيقة أننا نحيا جميعا في بيوتٍ من زجاج فلا داعي أن تهددني بحجر.

- حين أراد الله تعالى ضرب عقيدة أن عيسى أو أمه إلهين من دونه قالها في كلمتين فيهما أعظم فلسفة الدنيا {كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ} (المائدة ٧٥)، ومن يأكل لابد أن .. أفلا يعتبر ذوو البدلات المتكبرون المتألهون حين يخلعون بنطالهم في دورة المياه؟
- ومن علامة الخسران أن أستطيع عد حسناتي، بينما يتوقف عقلي لكثرة ذنوبي عند العد. اللهم غفرانك. سبحانك لا إله إلا أنت إني كنت من الظالمين.

عظمة جدال القرآن في آية.

قال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (٢) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} (يونس ٣)

{أَكانَ} الهمزة لإنكار تعجبهم . و{أَنْ أَوْحَيْنا} (أي هل كان وحينا إلى رجلٍ منهم أمراً يدعو للعجب) معنى حرف اللام في قوله {للناس} معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم. والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر، وأن يكون رجلا من رجالهم دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون العجب أنّ الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب، وأنْ يَذْكُرَ لهم البعثَ وينذر بالنار ويبشر بالجنة. وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجبٍ، لأنّ الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم. وقال الله تعالى {قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا}، وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجبٍ أيضاً، لأنّ الله تعالى إنما يختار للنبوة من استحق الاختيار بعلمه. والغنَى والتقدّم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء، كما قال تعالى {وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى}، والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى، فكيف يكون عجباً؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول هو التعجيب من ذلك بدل الإيمان به.

وأنت ترى أنَّ القوم يتجاوزون في جدالهم المنطق والموضوعية إلى السفسطة الفارغة والحديث الذي يحمل نوازع الهوى دون العقل والفهم والتدبر، ومع ذلك ترى القرآن يؤثر الصبر ويناقشهم مناقشة عاقلة جادة وموضوعية.

قوله تعالى {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ} أى سابقة وفضلا ومنزلة رفيعة . فإن قلت لم سميت السابقة قدما؟ قلت لما كان السعى والسبق بالقدم، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد، وباعاً لأنّ صاحبها يبوع بها، فقيل لفلان قدم في الخير. وإضافته إلى {صدق} دلالةٌ على زيادة فضل، وأنه من السوابق العظيمة.

{قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} (قلتُ فهم لم يقولوا ما قالوا إلا وهم كافرون ابتداءً، فهم لم يسمعوا ولم يعقلوا ولم يفكروا قبلما يحكموا بهذا، بل قالوه وهم مضمرون للكفر، ولعل هذه فائدة إظهار الفاعل هنا فجاءت الآية {قال الكافرون} ولم تجئ (قالوا). ثم هم خرجوا من حيز النقاش العقلاني إلى الرمي بالباطل والاتهامات الجاهزة، كعادةكل مُبطِل، يقولون وبكل ثقة يوحي بها التأكيد في (إن) { هذا} أي محمد صلى الله عليه وسلم {لساحر} مع لام التأكيد المُضمرة للقسم، وكأنهم يقسمون على أنه ساحر {مبين} واضح بين. وبالله إن هذه لثقة الجهل والغباء والتشويش على الحق بعلو الصوت بالباطل، وإلا فهلا ناقشوا الحق وأثبتوا ما يدعون؟ فالسِّحْرُ لَمْ يَكُنْ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ حَقَائِقَ عِلْمِيَّةً وَلَا هِدَايَةً نَافِعَةً، وَالسَّحَرَةُ لَمْ يَكُونُوا إِلَّا أُنَاسًا مِنَ الْمُتَكَسِّبِينَ بِإِطْلَاعِ النَّاسِ عَلَى غَرَائِبِهِمُ الْمَجْهُولَةِ لَهُمْ، فَأَيْنَ هَذَا وَذَاكَ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، مِنْ حَقَائِقَ سَاطِعَةٍ، وَهُوَ لَا يَسْأَلُ عَلَيْهَا أَجْرًا وَلَا يَبْتَغِي بِهَا لِنَفْسِهِ نَفْعًا إِذْ هِيَ بَاقِيَةٌ بِنَفْسِهَا وَبِآثَارِهَا النَّافِعَةِ، وَالسِّحْرُ بَاطِلٌ لَا بَقَاءَ لَهُ؟ والقرآن باقٍ خالدٌ بهداياته وإعجازه في زمنهم وفي كل زمانٍ إلى يوم القيامة.

ثم تنتقل الآيات لمناقشةٍ هادئة فيها الأدلة للعقول الحائرة، برغم سفههم وسفه ما يقدمونه في نقاشهم. مناقشة تبدأ بالقضية الأهم التي أتى بها الرسل وهم يتملصون منها ليحولوها إلى مسألةٍ شخصيةٍ تقصد الرسول نفسه، وهى حيلةٌ نفسية دفاعية معروفة للتخفيف من الصراع النفسي الذي يعيضونه وهم يعلمون الحق ثم يحيدون عنه لهواهم، وتسمى هذه الحيلة (الإبدال أو النقل أو التحويل) يقوم الشخص بتحويل

أو إزاحة الانفعالات من المعاني الأصلية غير المقبولة إلى معانٍ أخرى بديلة تكون أقل إثارة للقلق، وإلى هذا أشارت الآية الكريمة {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)} (الأنعام ٣٣).، والمعنى أن الأمر ليس بحقيقته في شخصك أيها النبي الكريم، وإنما هم ظلموا أنفسهم حيث يجحدون آيات الله على الحقيقة، ويوجهون تكذيبهم إليك تحويلا عن الحقيقة في نفوسهم.

ولذلك تتحول الآيات إلى خطابٍ صريحٍ لنفوس أولئك الجاحدين، لتكشف لهم الحق دون الأغشية التي يستعملونها للكفر به، وهذه فائدةٌ دلاليةٌ عظيمةٌ لأسلوب الالتفات في موضعه هذا غير الفائدة الجمالية في تنشيط السامع.

قوله عز وجل {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ} يعني إن سيدكم ومالككم ومصلح أموركم وموصل الخيرات إليكم والذي يدفع عنكم المكاره، وهو الله {الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ} أصل الخلق في اللغة التقدير ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل سبق ولا ابتداء تقدم. فقوله (خلق السموات والأرض) يعني أبدعهما وأنشأ خلقهما على غير مثال سبق وقدر أحوالهما.

وهم كانوا مقرين بالربوبيةكما قال تعالى {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (العنكبوت ٦١).، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} (لقمان ٢٥). فبدأ ببديهيةٍ لا ينكرونها ليصل معهم إلى أصل القضية، فما أقروا به من وحدانية الله في ربوبيته يستلزم إخلاص العبادة لهكما يأتي {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)} (النمل ١٤).

فالله الذي خلق السماوات والأرض واستوى على عرشه استواءً يليق بجلاله {يدَبِّرُ} يقضي ويقدِّر على حسب مقتضى الحكمة، حكمة الناظر في أدبار الأمور وعواقبها العليم المحيط بها سبحانه. و{الْأَمْرَ} هو أمر الخلق كله، وأمر ملكوت السماوات والأرض والعرش.

وقد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه - سبحانه وملكه بخلق السماوات والأرض، مع بسطتها واتساعها في وقتٍ يسير، وبالاستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمرٌ من الأمور من قضائه وتقديره.

وهذه الأخرى يقرون بها كما قال تعالى {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)} (يونس ٢٢).

{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥)} (العنكبوت ٦٥).

{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢)} (لقمان ٣٢).

فاعترافهم بتدبير الله تعالى لهم وإن أخفوه فإنه يظهر حين الشدائد تراهم يلجئون لله وحده..

وفي الحديث قَالَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي «كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا؟» قَالَ سَبْعَةٌ، سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ، قَالَ «فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَلِرَهْبَتِكَ؟» قَالَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ..إلخ. رواه الترمذي في جامعه، والبخاري في (خلق أفعال العباد).

وقوله تعالى {ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} دليلٌ على العزة والكبرياء، كقوله تعالى {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ}. فإن كانوا يعبدون المخلوق ظنا أنه يقربهم إلى الله ويشفع لهم وهم لا يملكون على ذلك دليلا، فكيف ينكرون على الله سبحانه أن يصطفى من خلقه من يشاء لتبليغهم توحيده، وهو الذي يعلمهم بذلك سبحانه مؤيداً رسله بالمعجزات الدالة على صدقهم، ولعل هذه هي العلاقة المنطقية لذكر الشفاعة في عُرض هذا النقاش.

و{ذلِكُمُ} إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة سبحانه، أى ذلكم العظيم الموصوف بما وُصِف به هو { الله ربكم}، هو الذي يستحق منكم العبادة {فَاعْبُدُوهُ} وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان، فضلا عن جماد لا يضر ولا ينفع.

{أَفَلا تَذَكَّرُونَ} فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه.

والمعنى أنكم إذا كنتم تقرون بأن الله هو الخالق، وهو المدبر، فلم تشركوا معه غيره في العبادة، ولم تتعجبون من إرساله الرسل وإنزاله الكتب بالبعث والحساب والجزاء.

نقاشٌ هادئٌ، وحججٌ قويةٌ تنفذ إلى عمق نفوسهم لتستخرج ما يحاولون طمسه في قلوبهم بأقرب وأفصح وأبلغ جهدٍ بلا جدالٍ متشعب يضيع القضية ويذيب معانيها.

وهذه عظمة جدال القرآن، فتأمل.

راجع مشكورا في تفسير الآيات تفسير الزمخشري ، تفسير المنار ، تفسير الخازن.

تأمل في عظمة القرآن: متى يعلن الطبيب خبر الوفاة ؟

حتى عام ١٩٥٠ كنت تعتبر ميتا عندما يقول الطبيب أنك ميت حيث كان يعتبر الشخص ميتا اذا توقفت أي من الأجهزة الأساسية في الجسم عن العمل مثل توقف نبضات القلب أو التنفس على سبيل المثال. وأدى هذا الآعتقاد الطبي الى دفن الاشخاص أحياء عن طريق الخطأ لحتى عام ١٩٥٠.

فتوقف القلب أو التنفس لم يكن يعنى أن الشخص قد مات. يتوقف القلب أو التنفس ثم يدفن الشخص أو يدخل إلى ثلاجة الموتى ثم بعد ذلك يعمل قلبه وتنفسه مرة أخرى ويعود إلى الحياة.

ولذلك لا ينبغى أن يجزم الأطباء بوفاة شخص ما لأن قلبه قد توقف أو لأن تنفسه قد توقف او لأن رئته قد توقفت. وقد تغير تعريف الموت فقط فى سنة ١٩٥٩ بعد اختراع ماكينة التنفس الصناعى وأصبح تعريف الموت هو موت جذع المخ. وبما أن جذع المخ هو المسئول عن الوعى فتعريف الموت هو فقدان الوعى الدائم.

وهل تعلم ما هو تعريف النوم ؟ النوم هو فقدان الوعى المؤقت. ولا داعى للقلق، فإنه بالفعل تعريف واحد. فحالة الموت وحالة النوم هما فقدان للوعى. والمسئول عن فقدان الوعى هذا هو جزء واحد أيضا فى الحالتين وهو جذع المخ؛ لأن جذع المخ هو المسئول عن الوعى. فجذع المخ يفقدك الوعى فى حالة موتك أو حالة نومك. فقط الفرق واحد فجذع المخ يفقدك الوعى فى حالة موتك بصفة دائمة لكن

فى حالة نومك فإن جذع المخ يفقدك الوعى بصفة مؤقتة. ولكن يبقى التعريف واحد لحالة الموت وحالة النوم هما فقدان الوعى.

قال تعالى في سورة الأنعام وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)

فقد أوضح لنا القرآن منذ أكثر من ١٤٠٠ سنة أن الموت هو فقدان الوعى عندما شبه لنا النوم بالموت. وأن حكمنا على الموت هو حكم عصبي؛ لأن الموت هو فقدان الوعى فقط لا غير. وعليك أن تخرج الرئة والقلب من المعادلة فهما يعملان أثناء النوم، ويقول لك القرآن النائم هو ميت.

يقول تعالى اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (سورة الزمر)

لو كنا فكرنا فى هذه الآية وعملنا بها لوضعنا نحن المسلمون أول تعريف للموت قبل سنة ١٩٥٩ بكثير، ولأنقذنا نحن المسلمون من بالتأكيد دفنوا وهم مازالوا أحياءً قبل سنة ١٩٥٩.

خير أمةٍ

يقول تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾. (آل عمران ١١٠)

وفى التعبير بلفظ الماضي «كنتم» ما يشير إلى أن هذا الحكم الذي حكم به الله على هذه الأمة، بأنها خير أمة أخرجت للناس ليس محدودا بزمنٍ من أزمانها، وإنما هو حكمٌ عامٌ مطلقٌ يطالها في كل أزمانها. إنه حكمٌ ثابت قدَّره الله لها في ماضيها وحاضرها، ومستقبلها. وإن تلقته في أول وجودها، وفى ساعة مولدها لأن تلك الساعةكان الجيل النموذج والقدوة الذي حقق كل شروط الخيرية من معرفة الخير والعمل به والدعوة إليه، ومعرفة الشر والحذر منه ومحاربته انطلاقا من قاعدة الإيمان المتينة. وكلما حُقِّقَت هذه الشروط كلما طالها هذا الحكم لا يتخلف.

وفى قوله تعالى «أُخْرِجَتْ» تنويه آخر بشأن هذه الأمة، وأنها هى المولود الكامل، الذي تمخضت عنه الإنسانية كلها، ولن تلد مثله أبد الدهر فمنهجها هو المنهج الكامل في العقيدة والفكر والسلوك، وتشريعها هو الشرع الرباني الصالح لكل زمانٍ ومكانٍ وبه ينصلح حالها وحال الدنيا كلها.

وفى قوله سبحانه «أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» تنويه ثالث بتلك الأمة، فإنها لم تخرج من الناس، ولكنها «أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» أخرجها الله لتكون الأمة القدوة والنموذج في اعتقاد الحق والعمل به والدعوة إليه، وأخرجت للناس من حيث لا يتوقعون؛ من صحراء مجدبة قفر، ومن مجتمعٍ أمّى غارق في الجهالة ، فقادت ركب الإنسانية، وحررتها من قيود العبودية والظلم بشرع الله الحميد المجيد.

هذا هو مكاننا أمة الإسلام الذي نَدَبَنا الله له، وأحلَّنا فيه، وأقامنا عليه، وهذه هي مهمتنا في الحياة أن نكون الضياء للدنيا، والعافية للناس من أمراضٍ تكاد تهلكهم في أرواحهم وعقولهم وقلوبهم وأبدانهم.

وذلك ما ينبغي أن نؤمن به إيمانا راسخا، فكيف يخرج الناس من ظلماتهم من معه النور ولا يؤمن به، وكيف يشفي الناس من يقتله المرض ولا يأبه له.

كالعيس في البيداء يقتلها الظما.. والماء فوق ظهورها محمولُ.

فليكن ذلك شعورنا بأنفسنا، وإيماننا بمكانتنا فى هذه الحياة. ثم ليكن منّا ما يقابل هذا الشعور، وذلك الإيمان، مِن جِدّ، وتحصيلٍ لكل معاني الإنسانية الكريمة، ومثلها الرفيعة، فذلك هو الذي يحقق كل معاني الخيرية فينا، ويعرض للناس وللحياة أكمل الكمال منّا. عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ نَحْنُ آخِرُ الْأُمَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ وَيُقَالُ أَيْنَ الْأُمَّةُ الْأُمِّيَّةُ وَنَبِيُّهَا؟ فَنَحْنُ الْأَوَّلُونَ الْآخِرُونَ . (رواه اللالكائي).

تفسير آية.

قال سبحانه { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (82) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا } (الآية في سورة النساء 83)

قال الشيخ السعدي

هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها. فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين وسرورا لهم وتحرزا من أعدائهم فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال {لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} أي يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولَّى مَنْ هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيُقْدِم عليه الإنسان؟ أم لافيحجم عنه؟

ثم قال تعالى {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أي في توفيقكم وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، {لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا} لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر. فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم. انتهى [1]

وتفصيل المعنى هؤلاء المنافقون الطاعنون عليك، ألا يرجعون إلى الإنصاف والعدل، وينظرون موضع الحجة ويتدبرون كلام الله تعالى؟ فتظهر لهم براهينه، وتبين أدلته، «والتدبر» النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، هذا كله يقتضيه قوله {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ} وهذا أمر بالنظر والاستدلال، ثم عرَّف تعالى بمواقع الحجة، أي لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور، وظهر فيه التناقض الذي لا يمكن جمعه، والقرآن منزه عنه، إذ هو كلام الله المحيط بكل شيء علما.

---

(١)تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٩٠)

وقوله تعالى ﴿وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ﴾ الآية، قال جمهور المفسرين الآية في المنافقين حسبما تقدم من ذكرهم، والآية نازلة في سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعوثه، والمعنى أن المنافقين كانوا يشرهون إلى سماع ما يسوء النبي في سراياه، فإذا طرأت لهم شبهة أمن للمسلمين أو فتح عليهم، حقروها وصغروا شأنها وأذاعوا بذلك التحقير والتصغير، وإذا طرأت لهم شبهة خوف المسلمين أو مصيبة عظموها وأذاعوا ذلك التعظيم، وأَذاعُوا بِهِ معناه أفشوه.

وقالت فرقة من المفسرين الآية نازلة في المنافقين، وفي مَنْ ضعف إيمانه من المؤمنين وقلت تجربته. فإما أن يكون ذلك في أمر السرايا فإنهم كانوا يسمعون أقوال المنافقين فيقولونها مع من قالها، ويذيعونها مع من أذاعها، وهم غير متثبتين في صحتها، وهذا هو الدال على قلة تجربتهم، وإما أن يكون ذلك في سائر الأمور الواقعة،.. .

وتحتمل الآية أن يكون المعنى لعلمه المسئولون المستنبطون، فأخبروا بعلمهم. (قلتُ أي لو ردوا ما استشكل عندهم من أي أمر في الدين إلى الله والرسول والعلماء المستنبطون لعلموه منهم).

وقوله تعالى {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ..} الآية، المعنى لو أمسكوا عن الخوض واستقصوا الأمور من قبل الرسول. أو أُولِي الْأَمْرِ وهم الأمراء، قاله السدي وابن زيد، وقيل أهل العلم، قاله الحسن وقتادة وغيرهما، والمعنى يقتضيهما معا لَعَلِمَهُ طلابه من أُولِي الْأَمْرِ والبحثة عنه وهم مستنبطوه، كما يستنبط الماء وهو النبط أي الماء المستخرج من الأرض.

، وعودة الضمير في {مِنْهُمْ} يحتمل أن يعود على الرَّسُولِ وأُولِي الْأَمْرِ، ويحتمل أن يعود على الجماعة كلها، (أي لعلمه الذين يبحثون من الناس ويردون العلم للرسول وأهل العلم والاستنباط).

وقوله تعالى {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا}. هذا خطاب للمؤمنين باتفاق المفسرين. والمعنى لولا هداية الله لكم وإرشاده لبقيتم على كفركم، وهو اتباع الشيطان. وقال الضحاك هدى الكل منهم للإيمان فمنهم من تمكن فيه حتى لم يخطر له قط خاطرُ شكٍ ولا عنت له شبهةُ ارتيابٍ، وذلك هو القليل وسائر من أسلم من العرب لم يخل من الخواطر، فلولا فضل الله بتجريد الهداية لهم لضلّوا واتبعوا الشيطان.

قال القاضي أبو محمد هذا معنى قول الضحاك، ويجيء الفضل معينا، أي رسالة محمد والقرآن، لأن الكل إنما هدي بفضل الله على الإطلاق، وقال قوم المخاطب بقوله {لَاتَّبَعْتُمُ} جميع المؤمنين، وقوله {إِلَّا قَلِيلًا} إشارة إلى من كان قبل الإسلام غير متبع للشيطان على ملة إبراهيم، كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهما، وقال قوم الاستثناء إنما هو من الاتباع، أي لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ كلكم إِلَّا قَلِيلًا من الأمور كنتم لا تتبعونه فيها. (١)

الطبري وتاريخه

يقول علماء الحديث :من أسند لك فقد أحالك .أي من جاء لك بإسناد روايته فقد برئت ذمته وأحال إليك تمحيص الرواية والكشف عنها .

ورواية التاريخ ليست كرواية السنة .فالاعتماد على الإخباريين وبعض الضعفاء ومجهولي الحال وارد فيها .ولو التزم مؤرخٌ ضوابط رواية الحديث المتشددة مع التاريخ لما وصل إلينا عشر التاريخ .

كما أن هناك ما يسمى بالحلقات المفقودة في التاريخ الإسلامي والتي لم يجد فيها الطبري روايات يحملها الصادقون لجبر وجودها للامانة في جمع التاريخ بروايات المجروحين الذين ربما سقطوا في وحل التعصب المذهبي الذي أذهب مصداقيتهم تماما كمثل اعماده في روايات التحكيم على روايات أبو مخنف لوط بن يحيي وهو إخباري شيعي متعصب كذاب .ويضاف إلى ذلك أن هناك فترات تاريخية لا يمكن فيها ضبط روايةٍ أو حتى إيجاد سند كامل متصل لحكايته كمثل حقبة ما قبل الإسلام وعصور اهل الكتاب الأولى.

وهنا يضطر امثال الطبري لنقل الإسرائيليات مسترشدين بإباحة النص النبوي لهم في التحديث عن أهل الكتاب الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم " :حدثوا عن أهل الكتاب ولا حرج ."

---

(١)انظر تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (2/ 83-٨٥)

وقال : :لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم "وللمحققين في قبول الإسرائيليات والتعامل معها بحوث لعل أورعها ما كتبه الشيخ الشهيد الدكتور الذهبي في بحثه الضافي " الاسرائيليلات في القرآن والحديث "ومثله وتحت عنوان قريب منه ما كتبه الدكتور " أبو شهبة "عليهم رحمة الله من علماء الأزهر المحفوظ .

وابن جرير الطبري لم يسبقه مثله في بدء سنته في التوسع في كتابة التاريخ حتى صار رائدا فيه ومرجعا مهما.

ولقد صدر في السنوات الأخيرة كتاب صحيح تاريخ الطبري وضعيفه مرفوعا على الشبكة العالمية للمعلومات فيه محاولة جادة لتمحيص الروايات ودراسة الأسانيد .مع الفرق الذيذكرته آنفا أن الطبري أدى دور الجامع لا المنقح مما جعل علينا تبعة الفحص والتنقيح واتهام الجامع الذي بين منهجه ولم يشترط الصحة إما هو إجحافُ أو سوء قصدٍ كما فعل بعض المهاجمين للتراث الإسلامي من غير تحقيقٍ أو عن قصد تجاهلٍ لأصول التعامل مع هذا التراث.

عليك بآثار مَن سلف.؟

قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء ١١٥).

عن جابرٍ رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه صَلَّى اللّه عليْه وسَلَّم « أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ » . رواه مسلم

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة، قلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اختِلافاً كَثيراً، فَعَليكُمْ بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمورِ، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة ». (أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) ، وابن ماجه (٤٣) ، والترمذي (٢٦٧٦) وقال حديث حسن صحيح).

عن أبي قلابة، أن ابن مسعود رضي الله عنه قال «عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضه ذهاب أهله، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يُقبض، أو متى يُفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقواما يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع، والتنطع، والتعمق، وعليكم بالعتيق». (الدارمي (١٤٤)، البدع والنهي عنها لابن وضاح (١٦٣)، السنَّة لمحمد بن نصر المروزي (٨٠)).

تبدّع الشيء أَنشأَه وبدأَه أو أحدثه واخترعه والمراد هنا الحدث في الدين بعد الإكمال

التنطع التكلف والمغالاة والتعمق في القول أو الفعل

التعمق المبالغة في الأمر والتشدد فيه

العتيق القديم وما كان عليه الأوائل والمراد التمسك بالقرآن والسنة

وقال أيضاً «إنكم أصبحتم على الفطرة، وإنكم ستحدثون، ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة، فعليكم بالهدي الأول». (الدارمي (١٦٩)، السنَّة للمروزي (٨٠)).

وكان حذيفة يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول «يا معشر القراء اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقا بعيدا، ولئن أخذتم يمينا وشمالا لقد ضللتم ضلالا بعيدا». (البخاري (٧٢٨٢)، البدع والنهي عنها لابن وضاح (١٢)، السنة لعبد الله بن أحمد (١٠٦)، السنَّة للمروزي (٨٦)).

ودخل ابن مسعود الأنصاري رضي الله عنه على حذيفة، فقال «اعهد إلي». فقال «ألم يأتك اليقين؟» قال «بلى وعزة ربي». قال «فاعلم أن الضلالة حق الضلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وأن تنكر ما كنت تعرف، وإياك والتلون في دين الله تعالى، فإن دين الله واحد». (اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٢٠)، الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (١٦٨)).

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه -أيضاً «كلّ عبادة لم يَتَعبدْ بها أَصْحابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فلاَ تَتَعبَّدوا بها؛ فإِن الأَوَّلَ لَمْ يَدع للآخِرِ مَقالا؛ فاتَّقوا اللهَ يا مَعْشَر القرَّاء، خُذوا طَريقَ مَنْ كان قَبلكُم». (الإبانة لابن بطه).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «مَنْ كان مُسْتَنّا فَلْيَسْتن بمَنْ قَدْ مَاتَ أولئكَ أَصْحَابُ محمد صلى الله عليه وسلم كانوا خَيْرَ هذه الأمَّة، وأبرها قُلوبا، وأَعْمقَها عِلْما، وأَقلّها تكلفا، قَوم اخْتارَهُمُ اللهُ لِصُحْبَةَ نَبيه صلى الله عليه وسلم ونَقلِ دينه فَتَشبَّهوا بأَخْلاقِهِم وطَرائِقِهم؛ فَهُمْ كانوا عَلَى الهَدْي المُستقِيم». (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/٩٧)، الحجة في بيان المحجة للأصبهاني (٤٩٨)، الشريعة للآجري (١١٤٣)).

وعن عثمان بن حاضر، قال قلت لابن عباس أوصني، قال «عليك بالاستقامة، واتباع الأثر، وإياك والتبدع». (سنن الدارمي (١٤١)، الإبانة لابن بطه (١٦٤)).

وعن الزهري ، قال « كان من مضى من علمائنا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة، والعلم يقبض سريعا، فنعش العلم ثبات الدين والدنيا، وذهاب العلماء ذهاب ذلك كله ». (سنن الدارمي (٩٦) ، اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٣٦) ، الإبانة لابن بطه (١٦٦)).

وقال محمد بن سيرين « كانوا يرون أنَّه على الطريق ما كان على الأثر ». (سنن الدارمي (١٤٠) ، اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٠٩) ، الإبانة لابن بطه (٢٥٠) ، الشريعة للآجري (٣٠)).

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يجلس مجلسا للذِّكْر، إلا قال حين يجلس « الله حَكَم قِسْط ، هلَكَ المرتابون، فقال معاذُ بن جبل يوما إن ورائَكم فِتَنا يَكْثُرُ فيها المال، ويُفتَح فيها القرآنُ حتى يأخذَه المؤمنُ والمنافقُ، والرجلُ والمرأةُ، والعبدُ والحرُّ، والصغيرُ والكبيرُ ، فيوشكُ قائل أن يقول ما للناس لا يتَّبعوني وقد قرأت القرآن ؟ وماهم بِمُتَّبِعيَّ حتى أبتدعَ لهم غيرَه فإياكم وما أبْتَدَع، فإنما ابتدَع ضلالة، وأحذِّركم زَيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافقُ كلمةَ الحق » قال قلت لمعاذ وما يدرينا رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، وأنَّ المنافق يقول كلمة الحق؟ قال « اجتنبوا من كلمة الحكيم كل متشابه، الذي إذا سمعته قلت ما هذه؟ ولا ينأينك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، ويلقي الحق إذا سمعه، فإن على الحق نورا ». (سنن أبي داود (٤٦١١) ، اعتقاد أهل السنة للالكائي (١١٦) ، الإبانة لابن بطه (١٤٩) ، الشريعة للآجري (٨٨)).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بين فسقه، ولكني أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أزلفه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله ». (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١٢٤٢) صفة المنافق للفريابي (٢٦)).

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال « عَلَيْكُمْ بِالسَّبِيلِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ عَلَى سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ ذَكَرَ الرَّحْمَنَ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ فَمَسَّتْهُ النَّارُ أَبَدًا ، وَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ عَلَى سَبِيلٍ وَسُنَّةٍ ذَكَرَ اللَّهَ فَاقْشَعَرَّ جِلْدُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ إِلاَّ كَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ يَبِسَ وَرَقُهَا فَهِيَ كَذَلِكَ إِذْ أَصَابَتْهَا رِيحٌ فَتَحَاتَّ وَرَقُهَا عنها إِلاَّ تَحَاتَّتْ خَطَايَاهُ كَمَا يَتَحَاتُّ عن هَذِهِ الشَّجَرَةِ وَرَقُهَا، وَإِنَّ اقْتِصَادًا فِي سُنَّةٍ وَسَبِيلٍ خَيْرٌ مِنَ اجْتِهَادٍ فِي غَيْرِ سُنَّةٍ وَسَبِيلٍ، فَانْظُرُوا أَعْمَالَكُمْ، فَإِنْ كَانَتِ اقْتِصَادًا وَاجْتِهَادًا أَنْ تَكُونَ عَلَى مِنْهَاجِ الأَنْبِيَاءِ وَسُنَّتِهِمْ ». (مصنف ابن أبي شيبة (٣٦٦٧٥) ، اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٠) ، الإبانة لابن بطه (٢٥٩)).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « إِنَّهَا سَتَكُونُ هَنَاتٌ، وَأُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، فَعَلَيْكَ بِالتُّؤَدَةِ، فَتَكُونُ تَابِعًا فِي الْخَيْرِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ رَأْسًا فِي الشَّرِّ ». (مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٤٣) ، الإبانة لابن بطه (١٨٤)).

وعنه رضي الله عنه - أيضاً قال « يجيء قوم يتركون من السنة مثل هذا يعني مفصل الأنملة، فإن تركتموهم جاءوا بالطامة الكبرى، وإنه لم يكن أهل كتاب قط، إلا كان أول ما يتركون السنة، وآخر ما يتركون الصلاة، ولولا أنهم أهل كتاب لتركوا الصلاة». (مستدرك الحاكم (٨٥٨٤) ، اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٢٢) ، الإبانة لابن بطه (١٩٤)).

وعنه - أيضاً قال « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ الفِتْنَةُ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَتَّخِذُهَا النَّاسُ سُنَّةً، فَإِنْ غُيِّرَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ غُيِّرَتِ السُّنَّةُ» ، قَالُوا مَتَى يَكُونُ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ؟ قَالَ « إِذَا كَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ ». (مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣١١) ، سنن الدارمي (١٨٥) ، اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٢٣) ، الإبانة لابن بطه (٧٦٤) ، البدع والنهي عنها لابن وضاح (٢٦١)).

وقال رضي الله عنه – أيضاً « إن لله عند كل بدعةكيد بها الإسلام ولياً من أوليائه يذب عنها، وينطق بعلامتها، فاغتنموا حضور تلك المواطن، وتوكلوا على الله » . قال ابن المبارك وكفى بالله وكيلا. (البدع والنهي عنها لابن وضاح (٤)).

وعن ابن عباس ، قال « والله ما أظن على ظهر الأرض اليوم أحدا أحب إلى الشيطان هلاكا مني » . فقيل وكيف ؟ ، فقال « والله إنه ليحدث البدعة في مشرق أو مغرب، فيحملها الرجل إلي، فإذا انتهت إلي قمعتها بالسنة ، فترد عليه ». (اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٢)).

وعن أبي إدريس الخولاني ، قال « لئن أرى في المسجد نارا تضطرم أحب إلي من أن أرى فيه بدعة لا تغير ». (الإبانة لابن بطه (٦٠١) ، البدع والنهي عنها لابن وضاح (٨٦) ، السنة لعبد الله بن أحمد (٧١٥) ، السنة للمروزي (٨١)).

وعن ابن عباس، قال « لا يأتي على الناس زمان إلا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا فيه سنة حتى تحيا البدع، وتموت السنن ». (اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٢٥) ، الإبانة لابن بطه (١١) ، البدع والنهي عنها لابن وضاح (٩٣) ، السنة للمروزي (٩٨)).

وعن عبد الله الديلمي، قال « إن أول الدين تركا السنة يذهب الدين سنة سنةكما يذهب الحبل قوة قوة ». (سنن الدارمي (٩٧) ، اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٢٧) ، الإبانة لابن بطه (٢٣٤) ، البدع والنهي عنها لابن وضاح (١٧٣)).

وعن سلام بن مسكين، قال كان قتادة إذا تلا { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } قال « إنكم قد قلتم ربنا الله فاستقيموا على أمر الله، وطاعته، وسنة نبيكم، وامضوا حيث تؤمرون، فالاستقامة أن تلبث على الإسلام، والطريقة الصالحة، ثم لا تمرق منها، ولا تخالفها، ولا تشذ عن السنة، ولا تخرج عنها، فإن أهل المروق من الإسلام منقطع بهم يوم القيامة، ثم إياكم وتصرف الأخلاق، واجعلوا الوجه واحدا، والدعوة واحدة، فإنه بلغنا أنه من كان ذا وجهين، وذا لسانين كان له يوم القيامة لسانان من نار».(الإبانة لابن بطه (١٦٣)).

وعن عاصم قال قال أبو العالية « تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتوه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم، فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الإسلام يمينا ولا شمالا، وعليكم بسنة نبيكم والذي كان عليه أصحابه، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء، فرددها مرارا ».

فحدثت الحسن فقال صدق ونصح.

قال فحدثت حفصة بنت سيرين ، فقالت يا باهلي ، أنت حدثت محمدا بهذا ؟ قلت لا. قالت فحدثه إذا. (مصنف عبد الرزاق (٢٠٧٥٨) ، اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٧) ، الإبانة لابن بطه (١٤٢) ، البدع والنهي عنها لابن وضاح (٧٥) ، السنة للمروزي (٢٦) ، الشريعة للآجري (١٩)).

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب تأمل كلام أبي العالية هذا ما أجلَّه، وأعرف زمانه الذي يحذر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسنة، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب، .. وأما الإنسان الذي يقرأها وأشباهها وهو مطمئن أنها لا تناله ويظنها في قوم كانوا أمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال « لو أَن رجُلا أَدركَ السلفَ الأَولَ ثم بُعثَ اليومَ ما عَرَفَ من الإِسلام شيئا » قال ووضع يده على خدِّه ثم قال « إِلا هذه الصلاة » ثم قال « أَما والله ما ذلكَ لمن عاشَ في هذه النكراء ولم يدرك هذا السلف الصالحَ؛ فرأى مبتدعا يدعو إِلى بدعته، ورأى صاحبَ دنيا يدعو إِلى دنياه؛ فعصمهُ الله من ذلكَ، وجعلَ قلبهُ يحنّ إِلى ذلك السَّلف الصالح يَسْأَلُ عن سبيلهم، ويقتص آثارهُم، ويتّبعُ سبيلهُم، ليعوض أَجرا عَظيما؛ فكذلك فكونوا إِن شاء الله ». (البدع والنهي عنها لابن وضاح (١٧٦)).

وقال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ « سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سنناً، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها. من عمل بها مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا ». (اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٣٤) ، الإبانة لابن بطه (٢٣٩) ، الشريعة للآجري (٩٠)).

وقال الإمام البربهاري في شرح السنة « اعلم أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فمن السنة لزوم الجماعة ومن رغب غير الجماعة وفارقها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وكان ضالا مضلا ».

وقال « واعلم رحمك الله أنه لا يتم إسلام عبد حتى يكون متبعا مصدقا مسلما فمن زعم أنه قد بقي شيء من أمر الإسلام لم يكفوناه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كذبهم وكفى بهذا فرقة وطعنا عليهم

قال ابن مسعود اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ». (شرح السنة للبربهاري (١)).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان وجوب إتباع مذهب السلف « وما أحسن ما جاء عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة أنه قال عليك بلزوم السنة، فإنها لك بإذن الله عصمة، فإن السنة إنما جُعلت ليستن بها ويقتصر عليها، وإنما سنها من قد علم ما في خلافها من الزلل والخطأ والحمق والتعمق، فارض لنفسك بما رضوا به لأنفسهم، فإنهم عن علم وقفوا، وببصر نافذ كفّوا، ولهم كانوا على كشفها أقوى، وبتفصيلها لو كان فيها أحرى، وإنهم لهم السابقون، وقد بلغهم عن نبيهم ما يجري من الاختلاف بعد القرون الثلاثة، فلئن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم حَدَثٌ حَدَثَ بعدهم، فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، واختار ما نحته فكره على ما تلقوه عن نبيهم، وتلقاه عنهم من تبعهم بإحسان، ولقد وصفوا منه ما يكفي، وتكلموا منه بما يشفي، فمن دونهم مقصر، ومن فوقهم مفرط، لقد قصر دونهم أناس فجفوا، وطمح آخرون فغلوا، وإنهم فيما ذلك لعلى هدى مستقيم ». (الفتاوى (٤/٧)).

قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى « السنَّة سَفينةُ نوح مَن رَكِبَها نجَا ومَن تَخلّفَ عنهَا غَرِقَ ». (تاريخ بغداد (٣٨٥٠)).

عن عبد الله بن المبارك رحمه الله قال « اعلم أي أخي أن الموت اليوم كرامة لكل مسلم لقي الله على السنة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فإلى الله نشكو وحشتنا، وذهاب الإخوان، وقلة الأعوان، وظهور

البدع، وإلى الله نشكو عظيم ما حل بهذه الأمة من ذهاب العلماء، وأهل السنة، وظهور البدع ».

(البدع والنهي عنها لابن وضاح (٩٥)).

وقال الإمام الأوزاعي « عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإيّاك وآراء الرجال وإن زخرفوها لك بالقول، فإن الأمر ينجلي حين ينجلي وأنت على طريق مستقيم ». (شرف أصحاب الحديث (٦) ، الشريعة للآجري (١٢٤) ، سير أعلام النبلاء (١٢٠/٧) ، طبقات الحنابلة (٢٣٦/١)).

وعن سعيد بن جبير ، قال « لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يقبل عمل إلا بقول، ولا يقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يقبل قول وعمل ونية إلا بنية موافقة للسنة ». (اعتقاد أهل السنة للالكائي (١٨)).

كان ابن عون يقول « رحم الله رجلا لزم هذا الأثر، ورضي به، وإن استثقله واستبطأه ». (الإبانة لابن بطه (٢٧٠)).

عن وهب بن منبه قال « الفقيه العفيف الزاهد المتمسك بالسنة أولئك أتباع الأنبياء في كل زمان »

قال محمد بن الحسين جعلنا الله وإياكم ممن تحيا بهم السنن، وتموت بهم البدع، وتقوى بهم قلوب أهل الحق، وتنقمع بهم نفوس أهل الأهواء، بمنه وكرمه.(الإبانة لابن بطه (٣٩) ، الشريعة للآجري (٣)).

وقال سهل بن عبد الله التّستري « عليكم بالأثر والسنة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ والاقتداء به في جميع أحواله ذموه ونفروا عنه وتبرؤوا منه، وأذلوه وأهانوه ».

وعن سليم بن أخضر قال سمعت ابن عون يقول غير مرة « ثلاث أرضاها لنفسي ولإخواني أن ينظر هذا الرجل المسلم القرآن فيتعمله ويقرأه ويتدبره وينظر فيه والثانية أن ينظر ذاك الأثر والسنة فيسأل عنه ويتبعه جهده والثالثة أن يدع هؤلاء الناس إلا من خير ». (السنة للمروزي (١٠٦)).

وعن ابن الماجشون، قال سمعت مالكا يقول « مَن ابْتَدَعَ في الإِسلام بدعة يَراها حَسَنة ؛ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمّدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم خانَ الرّسالةَ ؛ لأَن اللهَ يقولُ { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ } فما لَم يَكُنْ يَوْمَئذ دينا فَلا يكُونُ اليَوْمَ دينا». (الاعتصام للشاطبي (٦٢/١)).

قال الإمام ابن بطه العكبري « فقدذكرت في هذا الباب ما قاله المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأمر به أصحابه، والتابعين بعدهم بإحسان من لزوم السنة، واتباع الآثار ما فيه بلاغ، وكفاية لمن شرح الله صدره ووفقه لقبوله، فإن الله عز وجل ضمن لمن أطاع الله ورسوله خير الدنيا، والآخرة، فإنه قال { وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا } وتوعد من خالف ذلك وعدل عنه بما نستجير بالله منه ونعوذ به ممن كان موصوفا به فإنه قال {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } ، فرحم الله عبدا لزم الحذر واقتفى الأثر، ولزم الجادة الواضحة، وعدل عن البدعة الفاضحة ».

المراجع من معين السلف الصالح

المصنف لابن أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥

البدع والنهي عنها لابن وضاح القرطبي المتوفى سنة ٢٨٧

السنة لابن أبي عاصم المتوفى سنة ٢٨٧

السنن لعثمان بن سعيد الدارمي السجستاني المتوفى سنة ٢٨٠

السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٩٠

السنة لمحمد بن نصر المروزي المتوفى سنة ٢٠٢

صفة المنافق للفريابي المتوفى سنة ٣٠١

شرح السنة للبربهاري المتوفى سنة ٣٢٩

الشريعة للآجري المتوفى سنة ٣٦٠

الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية لابن بطة العكبري المتوفى سنة ٣٨٧

شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة لهبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي المتوفى سنة ٤١٨

الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة لأبي القاسم الأصبهاني المتوفى سنة ٥٣٥

لعميد الأدب العربي/ مصطفى صادق الرافعي.

- ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ، ولكنها في التعب والكدح والمشقة حين تتحول أياماً إلى راحة وفراغ.
- هذه السماء فوقنا في كل مكان، غير أن العجيبَ أن أكثر الناس يرحلون إلى المصائف ليروا أشياء منها السماء . . .
- إن الذي يعيش مترقباً النهاية يعيش مُعدّاً لها، فإن كان مُعدّاً لها عاش راضياً بها.
- وانتقل الأميرُ البخيلُ إلى رحمة الله، وترك المال وأخذ معه الأرقام وحدَها يُحاسَب عنها .
- تقرر في الأمة أن كَذِبَ القوّةِ صِدقٌ بالقّوة.
- ما نفْع الحكمة إذا لم تكن إلا رأياً ليس له ما يمْضيه؟
- لا تتم فائدة الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ إلا إذا انتقلتْ النفسُ من شعورٍ إلى شعورٍ، فإذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تبرحْ.
- متى ثقُل الهم على نفسٍ من الأنفس، ثقُل على ساعتها التي تكون فيها، فتطول كآبتها ويطول وقتها جميعاً.
- إن الألم هو فهمُ الألمِ لا غير.
- من أحرز نفسه من عدوّه فذاك قتلُ عدوه.
- لا طبيعة للزمن إلا طبيعة الشّعور به، ولا حقيقة للأيام إلا ما تضعه النفس في الأيام.
- كثيراً ما تكون النعمةُ بذيئةً وَقاحاً سيئة الأدب في أولاد الأغنياء، وكثيراً ما يكون الغنى في أهله غنى من السيئات لا غير.
- كرم الأصل في كرم الفعل، ولا يغني شيء منهما عن شيء.

- ربما عابوا السمو الأدبي بأنه قليل، ولكن الخير كذلك، وبأنه مخالف، ولكن الحق كذلك، وبأنه محُيِّر، ولكن الحسن كذلك.
- لا تَغْضَبْ من حماقةِ امرأةٍ تحبُّها، ولا تَغْضَبي من حماقةِ رجلٍ تحِبّينَه، وإلا فأينَ تَدُسُّ الحياةُ سَمَّها إلا في ألذِّ أطعمَتِها؟
- احذري نجل الأوروبية المترجلة من الإقرار بأنوثتها. إن نجل الأنثى يجعل فضيلتها تخجل منها. إنه يسقط حياءها ويكسو معانيها رجولة غير طبيعية. إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى. والمرأة تعلوا بالزواج درجة إنسانية، ولكن هذه المكذوبة تخط درجة إنسانية بالزواج. أيتها الشرقية احذري احذري).

في بلاغة آية.

قال تعالى: {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} (الفجر ١٣).

المتأمل لهذه الآية يجدها من بديع الإستعارة التمثيلية التي يكون فيها تمثيل حالةً بكل تفاصيلها بحالةٍ أخرى بتفاصيلها بما فيها من توافق وتوارد الدلالات التي تجعل المعنى حيًّا نابضا في ذهن المتلقي وليس فقط تصويرا جماليا او استعراضا بلاغيا.

فقد مثلت الآية ما حاق بالظالمين من العذاب في تتابعه وقوته وسرعته وعنفه بالسياط السريعة القوية المؤلمة .هذا التصوير وما يكتنفه من استصحاب تلك الحالة المهينة للمجلود المنصوب في العراء تتابع على ظهره السياط هى مقابل لذلك الطغيان الذي ملك قلوب الفراعين فأكثروا في بلادهم الفساد، فجاء العقاب من جنس الجريمة ذلا وهوانا وسياطا تقصم ظهورهم من العذاب المهين لجلاد جعله الله مجلودا مهينا.

هذا التكامل بين البعد النفسي والبعد الواقعي والمعنوي الذي أظهرته الأداة البلاغية الاستعارية جعلت من البلاغة عنصراً هاما في تعميق وبناء المعنى في القرآن العظيم.

وهو ما يتجاوز بالبلاغة القرآنية الانضغاط في البعد الجمالي ليطير بها في آفاق الدلالة الواسعة المعجزة.

وذلك بعينه ما أسميه " ما بعد البلاغة".

مسألة : في معنى السؤال عن الله تعالى.

وعلى العموم وللفائدة فإن السؤال عن الله تعالى في القرآن يقع على أنحاء

فإذا كان السؤال عن أفعاله تعالى. فأفعاله كلها فضلٌ وعدلٌ وحكمة. ويأمرنا الله تعالى فيها بالتسليم للحكمة الإلهية في كل قضاءٍ قضاه، ويعلمنا أنه سبحانه {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ } (الأنبياء ٢٣) والمعنى لا سائلَ يسأل ربَّ العرش عن الذي يفعل بخلقه من تصريفهم فيما شاء من حياة وموت وإعزاز وإذلال، وغير ذلك من حكمه فيهم؛ لأنهم خلقه وعبيده، وجميعهم في ملكه وسلطانه، والحكم حكمه، والقضاء قضاؤه، لا شيء فوقه يسأله عما يفعل فيقول له لم فعلت؟ ولِمَ لم تفعل؟ (وَهُمْ يُسْأَلُونَ) يقول جلّ ثناؤه وجميع من في السماوات والأرض من عباده مسئولون عن أفعالهم، ومحاسبون على أعمالهم، وهو الذي يسألهم عن ذلك ويحاسبهم عليه، لأنه فوقهم ومالكهم، وهم في سلطانه. [١]

وأما السؤال عن صفاته فيجيبنا الرب تبارك وتعالى {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.. } الآية (الإسراء ١١٠) وسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ سَمِعُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعوا يا الله يا رحمان فَقَالُوا كَانَ مُحَمَّدٌ يَأْمُرُنَا بِدُعَاءِ إِلَهٍ وَاحِدٍ وَهُوَ يَدْعُو إِلَهَيْنِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وقيل غيره.

ومعنى (ادعوا) هنا (سموا) فالدعاء هنا بمعنى التسمية وليس النداء كما رجح الزمخشري وغيره و(أو) للتخيير.

وتقدير الآية أيُّ الأسماءِ تسموه بها سبحانه مما علمكم فهو الله وهو الرحمن واهو الرحيم..، فأنت مهما سمَّيتَ ذاته العليا بأى مما سمَّى ووصف به نفسه سبحانه مصيبٌ، {أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.. }

---

(١)تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٨/ ٤٢٥)

في ذاتها ومقتضياتها، وكما كان سيدنا رسول الله -ﷺ يقُول   اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقُوبتك، وَأَعُوذ بك منْك، لَا أحصي ثَنَاء عَلَيْك، أَنْت كَمَا أثنيت على نَفسك .

قال القرطبي {فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} الَّتِي تَقْتَضِي أَفْضَلَ الْأَوْصَافِ وَأَشْرَفَ الْمَعَانِي. وَحُسْنُ الْأَسْمَاءِ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ بِتَحْسِينِ الشَّرْعِ، لِإِطْلَاقِهَا وَالنَّصِّ عَلَيْهَا. وَانْضَافَ إِلَى ذلك أنها تقتضي معاني حِسَانًا شَرِيفَةً، وَهِيَ بِتَوْقِيفٍ لَا يَصِحُّ وَضْعُ اسم لله ينظر إِلَّا بِتَوْقِيفٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَوِ الْحَدِيثِ أَوِ الْإِجْمَاعِ. [١] فنؤمن بأنَّ الله تعالى كما سمَّى نفسه ووصف ذاته العلية، ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته ولا في صفاته، لا نعطِّل شيئا منها، ولا نشبهه بخلقه، ونثبت له ما أثبته لنفسه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (الشورى ١١) .

وأما السؤال عن ذاته سبحانه فلا يعلم كنه ذاته سبحانه إلا هو، فكيف بالمخلوق المحدود أن يسأل عن الخالق الذي له الكمال والجلال والجمال كله؟ فما بيَّنه الله لنا حمدناه به وما خفي عنا آمنا به.

يقول حجة الإسلام الغزالي

قُل لِمَن يفهَمُ عَنّي ما أَقُولُ..قَصّرِ القَولَ فذَا شَرحٌ يطُولُ.
ثمّ سِرٌّ غَامِضٌ مِن دُونِهِ....قَصرت واللهِ أعنَاقُ الفُحولِ.
أنتَ لا تَعرِف إيَّاكَ ولاَ..تَدري مَن أنتَ وَلاَ كَيفَ الوُصُولُ.
لاَ وَلاَ تَدري صِفَاتٍ رُكِّبَت. فِيكَ حَارَت فِي خَفَايَاها العُقُولُ.
أين مِنك الرُّوحُ في جَوهَرِهَا...هَل تَرَاهَا فتَرَى كَيفَ تجُولُ؟
أينَ مِنكَ العَقلُ والفَهمُ إذَا...غلَبَ النَّومُ فقُل لي يَا جَهُولُ؟
فَإِذَا كانت طَوَايَاكَ الَّتِي......بينَ جَنبيك كَذَا فيِهَا ضَلُولُ
كَيفَ تَدري مَن عَلَى العَرشِ استوى..لاَ تقُل كَيفَ استَوَى كَيفَ النُّزُولُ؟
فَهُوَ لاَ أَينَ وَلاَ كَيفَ لَهُ............وَهُوَ فِي كُلِّ النَّوَاحِي لاَ يَزُولُ.
جَلَّ ذَاتاً وَصِفَاتٍ وَسَمَا..............وَتَعَالَى رَبّنَا عَمَّا تَقُولُ.

---

[١]تفسير القرطبي (١٠/ ٣٤٣)

فالله سبحانه كما أخبر عن نفسه، وأما ما يلوكه أهل الكلام من الحديث في الجسم والعرض والجوهر وصفاته هي ذاته أم غير ذاته.. إلخ جدلهم العقيم فليس يعني أهل السنة في شيء.

(ذكر الإمام فخر الدين الرازي في آخر كتبه وهو كتاب أقسام اللذات الذي صنفه في آخر عمره، وهو كتاب مفيد ذكر فيه أقسام اللذات وبين أنها ثلاثة الحسية كالأكل والشرب والنكاح واللباس. واللذة الخيالية الوهمية كلذة الرياسة والأمر والنهي والترفع ونحوها. واللذة العقلية كلذة العلوم والمعارف. وتكلم عن كل واحد من هذه الأقسام إلى أن قال وأما اللذة العقلية فلا سبيل إلى الوصول إليها والتعلق بها فلهذا السبب نقول يا ليتنا بقينا على العدم الأول، وليتنا ما شهدنا هذا العالم، وليت النفس لم تتعلق بهذا البدن، وَفِي هَذَا الْمَعْنَى قُلْتُ

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ .. وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ.

وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا .. وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ.

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مَنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمُرِنَا .. سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ (قِيلَ وَقَالُوا).

وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ .. فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا.

وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا .. رِجَالٌ فَزَالُوا وَالْجِبَالُ جِبَالُ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ بَعْدَ التَّوَغُّلِ فِي هَذِهِ الْمَضَايِقِ وَالتَّعَمِيقِ فِي الِاسْتِكْشَافِ عَنْ أَسْرَارِ هَذِهِ الْحَقَايِقِ رَأَيْتُ الْأَصْوَبَ الْأَصْلَحَ فِي هَذَا الْبَابِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالْفُرْقَانِ الْكَرِيمِ، وَهُوَ تَرْكُ التَّعَمُّقِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِأَقْسَامِ أَجْسَامِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ عَلَى وُجُودِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثُمَّ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّعْظِيمِ مِنْ غَيْرِ خَوْضٍ فِي التَّفَاصِيلِ فَاقْرَأْ فِي التَّنْزِيهِ قَوْلَهُ تَعَالَى {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} (محمد ٣٨) وَقَوْلَهُ تَعَالَى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} (الشورى ١١) وَقَوْلَهُ تَعَالَى {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} (الإخلاص ١) ، وَاقْرَأْ فِي الْإِثْبَاتِ قَوْلَهُ {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه ٥) ، وَقَوْلَهُ تَعَالَى {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ} (النحل ٥٠) وَقَوْلَهُ تَعَالَى {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} (فاطر ١٠) ، وَقَوْلَهُ تَعَالَى {قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ} (النساء ٧٨) ، وَفِي تَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَنْبَغِي قَوْلَهُ {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} (النساء ٧٩) الْآيَةَ وَعَلَى هَذَا الْقَانُونِ فَقِسْ وَخَتِمَ الْكِتَابَ. [١]

قال ابن القيم فهذا إنشاده وألفاظه فى آخر كتبه. وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق فى علم الكلام والفلسفة، وكلام أمثاله فى مثل ذلك كثير جدا قدذكرناه فى كتاب الصواعق وغيره. ذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء آخر أمر المتكلمين الشك، وآخر أمر المتصوفين الشطح والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين فى هذه المطالب التى هى أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به. وجعله شفاء لما فى الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين. [٢]

وكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رحمه الله يُبْغِضُ أَهْلَ الْأَهْوَاءِ وَيَنْهَى عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ أَشَدَّ النَّهْيِ وكَانَ يَقُولُ (عَلَيْكُمْ بِالْأَثَرِ وَإِيَّاكُمْ وَالْكَلَامَ فِي ذَاتِ اللَّهِ) [٣] أي بغير ما أنزل الله تعالى في كتابه أو على لسان نبيه يصف ذاته العلية. فالكلام في ذات الله بغير علمٍ عن الله ورسوله يدخل وعيد التحريم في قوله تعالى {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (الأعراف ٣٣) أي حرَّم عليكم أن تقولوا بغير علمٍ عن الله ورسوله في ذاته وصفاته والتحليل والتحريم والتشريع وغير ذلك.

من سحر العرب.

في قطعةٍ فريدةٍ من سحر العرب والعربية نستمع إلى الشاعر المُنخَّل اليشكُري كتب قصيدةً يتغزل في امرأة النعمان ابن المنذر يقول:

ولقد دخلتُ على الفتاة... الخِدرَ في اليوم المطيرِ.

الكاعبِ الحسناءِ ترفل.. .في الدمَقْس وفي الحرير.

---

(١) انظر ابن القيم- اجتماع الجيوش الإسلامية - ٢/ ٣٠٥.

(٢) ابن قيم الجوزية - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٤٥)

(٣)أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ)- ذم الكلام وأهله (٥/ ١٤٢)

فدفعتُها فتدافعتْ........ مشىَ القطاةِ إلى الغدير.

ولثمتُها فتنفست........ .كتنفس الظبي الغَرير.

فدنتْ وقالت يا مُنَخّلَ...... ما بجسمكَ من قُرور.

ما شفَّ جسمي غيرُ حبكِ ......فاهدئي عني وسيري

وأحبها وتحبني......... .ويحب ناقتَها بعيري.

نبي الله موسى والفاجر فرعون (ومشهدٌ جديد).

قال تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)} (غافر ٢٣ ٢٧).

يسلِّي الله تعالى نبيه محمد صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم وأمته الداعية إلى الحق من بعده، يخبره عن ضريبة حمل رايات الحق التي لابد أن يدفعها المؤمنون بالنور، فلم يكن صلوات الله وسلامه عليه بِدْعاً من الرسل الذين جاءوا قومهم ولاقوا من الأذى لقاءَ دعوتهم إلى التوحيد والحق {كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} (الذاريات ٥٢).

والقرآن إذْ يذكر قصةَ موسى عليه السلام إنما يؤكد سننَ الله في الخلق الذين يُعادُون كلَّ مَن يحارب ما ألفوه من الفساد ؛ فقد فسدت نفوسهم، وامتزج الفساد بعروقهم، فصار نزعه منهم هو نزع الدم واللحم.

والقصص الحق هنا ليسلِّي نبيه محمدا بما لقي إخوانه الرسل من قبله {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} (الأنعام٣٣)، وهو كذلك ليبشره بأن الله يعليه ويهلك أعداءه أعداءَ الدين، ثم هو تثبيتٌ لأقدام المؤمنين بأن النصر مع الصبر، وأن الحق له العاقبة مهما طال أمدُ الظالمين.

يقول تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا} يعني بالمعجزات والأدلة الدامغة على صدقه. {وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ} أي الحجة البالغة في بيانها، والسلطان كما قال علماؤنا إما سلطان قهر، أو سلطان حجةٍ وإقناعٍ.

أرسل الله موسى نبيه {إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ} ولعل سائلٌ يقول لِمَ خصَّ أولئك الثلاثة برسالة موسى عليه السلام دون غيرهم، وإنْ كانت دعوته عامة لأهل مصر حينها؟

قلتُ والله أعلم إن الشعب حينها والآن لا يملك من أمره شيئاً، وإنما هو أسير سلطة أولئك الطواغيت الذين أوجزت الآية بكل عظمةٍ ودقةٍ – رؤوسهم حينذاك. ففرعونُ يمثل رأسَ السلطة السياسية بكل تألهها وطغيانها، وهامانُ الوزير وقائدُ الجندِ يمثل حامي تلك السلطة والقامع لكل مَن تسول له نفسُه الخروجَ عليها، وقارون بأمواله يمثل طبقة رجال الأعمال والمال الذي ينتفعون من وراء كل هذا الطغيان، ويمولون وجوده ويضخون الحياة في أعواده ، ويذودون بأموالهم عن حماه حتى لا يسقط؛ فالثلاثة – جميعا يمثلون العائق الأول أمام انتشار دعوة التوحيد والحق، تلك الدعوة التي نسي الكثيرون أنها لا تكتمل إلا بالكفر بالطغيان والطواغيت كما قال تعالى {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا} الآية (البقرة ٢٥٦).، فقد جمع الكفر بالطاغوت، مع الإيمان بالله تعالى حتى تساوي المعادلة التمسك بالعروة الوثقى وهى ميثاق التوحيد، ولا تكتمل المعادلة بفقدان أي عنصر فيها.

ولكن هل سيقف الطغيان عاجزا أمام تهديد الحق له؟ بالطبع، لا. سيبدأ الطغاة في إخراج كل ألاعيبهم.

ولذلك يعقِّب القرآن بردَّةِ فعل الطواغيت على رسالة موسى وحججه التي تهدد تجبره، وظلمه { فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} أى فقال هؤلاء الذين أُرسل إليهم موسى عليه السلام هو ساحرٌ يسحر العصا، فيَرى الناظر إليها أنها حيةٌ تسعى..إلخ معجزاته، و(كَذَّابٌ) يقولون بكل سفاهةٍ أنه يكذب على الله، ويزعم أنه أرسله إلى الناس رسولا.

وفي الحقيقة أنهم هم الذين يكذبون على أنفسهم، وعلى شعوبهم، وعلى الله تعالى، ومن كثرة ما يكذبون صار الكذب لهم هواءً يتنفسونه، وماءً يشربونه، فما عادوا يقدرون أنْ يفرِّقوا بين الكذب والصدق حتى إنهم صدَّقوا أنَّ كذبهم صدقٌ وعدلٌ، ومن براعتهم في التقمص صدقهم الجهلاءُ من قومهم كذلك.

قال القرطبي لَمَّا عَجَزُوا عَنْ مُعَارَضَتِهِ حملوا المعجزات على السحر.

قلتُ وهذا ديدنُ الطواغيت بآلتهم الإعلامية الجبارة التي ينفقون عليها الكنوز حين يعجزون عن مقاومة الحق بالحجة والبرهان، يبدؤون في مخاطبة جهلاء الناس وضعيفي النفوس الذين ينّفِرون من الالتزام بالدين لأنه يغيِّر ما هم عليه من نمط الحياة التي ألفوها في الشهوات والفساد، يخاطبونهم بالاتهامات الجاهزة، والتُّهم المُلَفَّقة والخطاب العدائي للمؤمنين الملتزمين وهو خطابٌ عند العقلاء خالٍ من أي مضمون، هم فقط يخيفون الناس من شرع الله تعالى، ويوعدونهم بالاستقرار في شهواتهم ومعاصيهم. وسيأتي لهذا بيانٌ في الآية بعد ذلك.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى { فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا} وَهو التوحيد بأدلته الدامغة والْمُعْجِزَةِ الظَّاهِرَةِ .

{ قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} قَالَ قَتَادَةُ هَذَا قَتْلٌ غَيْرُ الْقَتْلِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ قَدْ أَمْسَكَ عَنْ قَتْلِ الْوِلْدَانِ بَعْدَ وِلَادَةِ مُوسَى، فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُوسَى أَعَادَ الْقَتْلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ عُقُوبَةً لَهُمْ حتى يمتنعوا الْإِيمَانِ، وَلِئَلَّا يَكْثُرَ جَمْعُهُمْ فَيَعْتَضِدُوا بِالذُّكُورِ مِنْ أَوْلَادِهِمْ. فَشَغَلَهُمُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ. كَالضَّفَادِعِ وَالْقُمَّلِ وَالدَّمِ وَالطُّوفَانِ إِلَى أَنْ خَرَجُوا مِنْ مِصْرَ، فَأَغْرَقَهُمُ اللَّهُ. وَهَذَا مَعْنَى قوله تعالى { وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ} أَيْ فِي خُسْرَانٍ وَهَلَاكٍ.

وهذه هي الخطوة الموا زية للآلة الإعلامية للضلال في حربها ضد الإيمان وأهله، هنا يبدأ الإرهاب السلطوي، والإجرام المدروس لإخافة أهل الحق، فالقتل والسجن والتنكيل إلى أقسى وأفجر حد هو وسيلتهم للحد من تفشي النور في جنبات المجتمع المظلوم المُظْلِم..

هكذا بالأمر المباشر { قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}، فالقتل هنا بالأمر المتعمد المباشر والمدروس { اقتلوا}،و كذلك القسوة و استخدام القوة (المفرطة)، أو قلْ (الفُجور المفرط) في هذا القتل الذي يوحي به التوجه بالقتل للأطفال الصغار { أبناء الذين آمنوا} وهدفه ليس فقط القتل كما كان قبل ولادة

موسى عليه السلام ولكن القتل الذي يخلق الذعر والذل والعجز واليأس في نفوس {الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} والتعبير ما زال في قمة الصراخ بالمعاني، فذنبهم الوحيد الذي استحقوا عليهكل هذا التنكيل والإجرام في حقهم هو الإيمان مع موسى، ويدلك هذا على مقدار التهديد الذي يمثله التوحيد واتباع الحق لأمثال أولئك الطواغيت؛ إنه يمثل انهاء حالة الاستعباد والعيش في حُلَلِ الآلهة التي صنعوها على مدى السنين، فتأمل هنا كيف كانت مهمةُ موسى عليه السلام وإخوانه من الرسل والأنبياء وأتباعهم صعبةً عصيَّةً في وجه أولئك السفلة.

وقف معي مستمتعاً في جلال الآيات حين تغوص في معانيها الخفية وإيحاءاتها التي تقبع خلف الألفاظ وتركيبها وسياقها في إعجازٍ لا يتكرر إلا في القرآن فقط.

يقول الله تعالى معقبا على هذا الإجرام والفجور وإنْ طال ما طال { وَما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ}، والضلال في اللغة جاء من الضياع ، فيقال حين يذوب السكر أو الملح في الماء ولا يبقى له جُرمٌ يُرى (ضل في الماء) أي ضاع وهلك.

ثم توسعت اللغة في وصف كل ما هلك وخسر وفسد أو أدى إلى ذلك بالضلال. ولعل الأصل اللغوي هنا أقرب لتأويل الآية، فالكيد هو التدبير الخفي وصناعة الحيل لإيقاع الخصم والعدو، ودقةُ القرآن في وصف تلك الأفعال المجرمة المخزية من فرعون بالكيد هو عبقريةٌ بحد ذاتها، لإثبات قلق أولئك الأنجاس الطواغيت، ذلك القلق الذي يجعلهم لا ينامون؛ يخافون يوما يظهر فيه الحق وأهله، ولذلك يظلون يخططون ويتآمرون، ولكنْ في النهاية يجعل الله كيدهم وإجرامهم وإن طال في خسران وهلاك يذوب ويضيع كما يضيع الملح في ماء البحر الذي به يغرقون. واستعمال واحدٍ من أقوى أساليب الحصر يمنح المؤمنين تلك القوة وذلك الأمل في أن الدائرة والخسران والهلاك على فرعون وقومه وملئه، فالنفى في (وما) والاستثناء في (إلا) من أقوى أساليب القصر والتأكيد، والمعنى وليس شيءٌ أحق بالضلال والهلاك والخسران من كيد فرعون وقومه، وكأنه قُصر عليه.

قال العلامة السعدي رحمه الله وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى إذا كان السياق في قصةٍ معينة أو على شيءٍ معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يخص به الحكم، بل

يعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها. فلهذا لم يقل {وما كيدهم إلا في ضلال} . بل قال {وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ} . [1]

قلتُ والمقصد أنَّ القرآن جاء هدايةً للعالمين في كل زمانٍ ومكان، وقصص القرآن جاء ليردع الظالمين بذِكرِ أمثالهم وأشباههم في التاريخ، كيف ضلوا وكيف هلكوا، ويُذَكِّر المؤمنين أنَّ العاقبة لهم، وأنهم ليسوا وحيدين في طريقهم الذي ارتضاه الله لهم، بل هناك مَنْ ضحَّى ونصره الله في النهاية مِثْلَهم في كل زمان.

يقول تعالى {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦)}

(والسؤال هنا إن أحدا لم يعرض لفرعون، ولم يحُلْ بينه وبين ما يريد فى موسى. فما السر فى أن يقول هذا القول «ذرونى» أي اتركوني؟ وهل أراد فرعون شيئا يفعله بموسى ثم عرض له أحد دونه؟ وهل يجرؤ أحد أن يعترض طريق فرعون إلى ما يريد؟. ما السرّ إذن فى قوله هذا «ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى» ؟.

الجواب والله أعلم أن هذا القول من فرعون يكشف عن خوفٍ كان مستوليا عليه من موسى، ومن أن خطرا داهما يتهدده من جهته.. فلقد كان يعلم بعد أن رأى ما رأى من المعجزات أن موسى يستند إلى قوةٍ لا قِبَل لأحد بها، وأنه لو أراد بموسى شرّا لما استطاع، ولأصابه هو بلاء عظيم. إنه كان على يقين بأن موسى على حقٍ، ولكن الغطرسة، والكبر، وحب التسلط والسلطان كل أولئك قد جعله يُؤْثِر ما هو فيه من ضلالٍ على هذا الحق الذي يُدْعَى إليه.

فقول فرعون «ذرونى أقتل موسى» يشير إلى أن شيئا ما بداخله، يمسك به، وأن مشاعرَ خفيَّةً تلقاه بالتخويف والتحذير كلما هم أن يبطش بموسى، ويتخلص من هذا الخطر الذي يهدده.. وكأن فرعون بقوله «ذرونى أقتل موسى» إنما يتحدث إلى هذه المشاعر التي تغلّ يده، وتحول بينه وبين ما يشتهى من

---

[1] تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٧٣٦)

الانتقام من هذا العدو المخيف . وفى قوله «وَلْيَدْعُ رَبَّهُ» ما يشير إلى هذا الخوف الذي يملأ كيان فرعون، أكثر مما يشير إلى الاستخفاف، وعدم المبالاة. (١)

قلتُ وهو شائع في اللغة النفسية للقرآن التي تستعمل إيحاءات الألفاظ لفهم المعاني النفسية العميقة في الدلالة، وهو منحى إعجازي للغة القرآن لم يسبره الباحثون بعدُ.

يقول العلامة السعدي {وَقَالَ فِرْعَوْنُ} متكبرًا متجبرًا مغرِّرًا لقومه السفهاء {ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} أي زعم قبحه الله أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه، ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح لقومه، وإزالة للشر في الأرض فقال {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ} الذي أنتم عليه {أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ} وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس فيحذرهم من اتباع خير الخلق. وهذا من التمويه والترويج الذي لا يدخل إلا عقل مَنْ قال الله فيهم {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}.

قلتُ إن الظالم كلما كان خائفاً من أن تلحقه عاقبةُ ظلمه ولا بُد كلما أظهر الإجرام إلى منتهاه، وهنا يبلغ فرعون الغاية الكبرى في الخوف من موسى وما معه من الحق، فينهي أي وسيلةٍ للحوار بالعزم على قتل موسى عليه السلام ويظْهر بذلك التجلد المُصْطنع لكي يؤكد لأتباعه السفهاء أنه ما زال مسيطراً على الأمور وليس بخائفٍ، يقول {وَلْيَدْعُ رَبَّهُ} فلا أبالي منه شيئا.

وهذا التجلد الذي يبيِّن القرآنُ العظيم أنه مصطنعٌ وكاذبٌ من قومٍ فاسقين كما قال تعالى {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ

---

(١) الدكتور عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن (١٢/ ١٢٢٣)
.

الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) } (الأعراف ١٣٢ ١٣٧).

ثُم يتوجه فرعون إلى آلته الإعلامية ليعطيهم الإشارة بالبدء في حملة تشويهٍ كاذبةٍ مجرمةٍ ضد نبي الله موسى لا تنطلي إلا على سفهاء شعب فرعون وقومه ممن ألقوا عقولهم وأسماعهم له فأهلكهم الله معه أجمعين.

يقول فرعون ما يجعله موضعا للسخرية إلا في نظر أتباعه الأغبياء و يسجل عليه القرآن قولته ليبين طريقة ومنهج الإعلام الفاسد في صناعة ودعم الطواغيت بالكذب الصريح المتبجح ، يقول {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ}. وأى دينٍ هذا الذي يريد موسى أن يبدله؟ أليس هذا الدين الذي يؤله فيه الناسُ الطاغوتَ، ويتنازلون له عن أموالهم وأرواحهم، ويتحملون فيه ظلمه وتجبره، واستمتاعه هو وحاشيته بالحياة دونهم؟ أليس هو دين الذل والهوان للرعية، والفساد والاستكبار للراعي الذي يدَّعي أنه الإله؛ ذلك الإله المجرم الذي يأخذ قوت الشعب وتعبه ويرمي فتاته لهم كأنه رزقه ومنته عليهم؟

ألم يدعهم موسى إلى عبادة الله وحده، الذي في عبادته العزةُ لهم، وارتقاء الروح، وتزكية البدن، والأخلاق من دنس الظلم والتجبر؟ أليس دين موسى هو العدل والمساواة أمام الله في الحقوق والواجبات؟ أليس هو الأخلاق الرفيعة، والإحسان للخلق، وترك الكبر والطمع؟

والأعجب أن يقال عن موسى وأتباعه {أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ}، وما هو الفساد إلا ما يفعل فرعون وكل فرعون وحاشيته وملئه بالناس والحياة؟ وكما يقول تعالى في أمثالهم {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)}.

يقول ابن القيم رحمه الله ما معناه من كثرة إفسادهم فسدت آلات الشعور عندهم، فرأوا الفساد إصلاحا.

إنه انقلاب الموازين، وكما يقول المثل العربي لمن يرمي غيره بما هو فيه رمتني بدائها وانسلت ،

والواقع أنَّ ظلم فرعون وأمثاله أعماهم عن الحقيقة حتى صاروا يمثلون على أنفسهم الباطل ويصدقونه، بل يصدقه كذلك أتباعهم الجهلاء السفهاء.

صار الحق وأهله يطاردونهم في صحوهم ومنامهم لأنهم يمثلون الجمال الذي يفضح قبحهم، فيقومون بعملية (إحالة) أو (تحويل) لقبحهم يسقطونه على الجمال الذي يطاردهم فيصفونه بالفساد.

جاء في البداية والنهاية لابن كثير أن عبد الملك ابن مروان الخلفة الأموي سمع جماعةً من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال أنهى عن ذكر عمر، فإنه مرارةٌ للأمراء. مَفْسَدةٌ للرعية.

قلتُ لا عفا الله عنه، نعم عمر بن الخطاب مرارة في حلق كل حاكمٍ ظالمٍ، وسيرته العطرة حافزٌ للشعوب للمطالبة بحقوقها.

وتأمل هنا (فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني، عن موسى رسول الله عليه السلام «إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ» ؟ أليست هي بعينها كلمة كل طاغيةٍ مفسدٍ عن كل داعيةٍ مُصْلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟

إنه منطقٌ واحدٌ، يتكرر كلما التقى الحق والباطل، والإيمان والكفر، والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان. والقصة قديمةٌ مُكَرَّرةٌ تعرض بين الحين والحين.). انتهى من الظلال.

وفي سياق هذه الآلة الإعلامية المسخرة لخدمة الطاغوت يطالعنا نفس الاستخفاف بعقول الجماهير من القطيع في تخويفهم باسم الدولة والوطنية والقومية وكل ذلك الهراء الذي يستفيد منه فقط فرعون وملئه، ترى ذلك في قوله تعالى {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)} (الأعراف ١٠٩، ١١٠). قال السعدي خوفوا ضعفاء الأحلام وسفهاء العقول، بأنه {يُرِيدُ} موسى بفعله هذا {أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ} أي يريد أن يجلِيكم عن أوطانكم {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} أي إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم، فإنَّ ما جاء به إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا دخل في عقول أكثر الناس.

قلتُ وهكذا يلعبون على وتر عاطفة الجهلاء فيحشرون في عقولهم الفارغة أن موسى ومَن معه خطرٌ عليكم وعلى وطنكم الغالي، إن له أجندة سياسية وينفذ أغراضاً خارجية تضر بالوطن ومصالحه

والعجيب من تلك المسرحية الهابطة أنْ يبدو الأمر وكأنه تشاور، يقول فرعون وملؤه {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} وكأن هناك شورى ورأى لجموع المطحونة في آتون الفقر والذل، وكأنَّ فرعون لا يسوسهم بهواه المطلق ولا يرضى أن يسمع نَفَسَ أي واحدٍ منهم، وكأنه لم يحلم يوما بأن طفلا من بني إسرائيل يقوِّض ملكه، فقام الصبح يذبّح أبناء أمةٍ بأكملها.. ولكنَّ القطيع ألف تلك المسرحية حتى صدقها بعضهم وصار يعدها من محاسن ملك سيده الطاغية. ولعل في هذا أيضا نكتةً لطيفةً في قول فرعون { ذروني} الذي تكلمنا عنه آنفا.

وحين بلغ موسى عليه السلام ما قاله الفاجر فرعون {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)}، ومَن يعيذ المظلومين من تجبر الظَالمين سوى الله تعالى؟ ومن يجيرهم سوى الحق سبحانه؟

وخطابُ موسى عليه السلام هو لكل المؤمنين في كل العصور ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا} (١٢٨ الأعراف) .وإننا مع موسى تستعيذ {مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ} ..قال السعدي رحمه الله يحمله تكبره وعدم إيمانه بيوم الحساب على الشر والفساد، ويدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريبًا في القاعدة.

و الله تعالى يقول وقوله الحق لكل متكبرٍ ، متجرأٍ على الظلم والإجرام، لا ليذكر أن هناك يوماً يُحاسَب فيه الجميع؛ {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ

وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ } (إبراهيم ٤٢ ٤٧).

وكل خطيئةٍ تبدأ حين لا يؤمن المرء أن هناك حساباً، أو يتناسى ذلك، فيفعل ما يفعل من الظلم والإجرام دون إدراك العواقب.

ولذلك كان التأكيد على عقيدة الإيمان بالبعث والحساب من أولويات القرآن العظيم بدءاً من سورة الفاتحة التي وصفت الرب تبارك وتعالى في أول ما وصفته به من الصفات بأنه { ملك} و{ مالك يوم الدين} أي يوم الجزاء والحساب، ثم جعلت سورة البقرة أهم صفات المفلحين أنهم { وبالآخرة هم يوقنون} ولم تكتفِ الآية هنا بالإيمان حتى اشترطت اليقين بالآخرة والحساب والجزاء، لأن فعْل الإنسان كله ومنهجه في الحياة يُبنى على مدى يقينه بالجزاء في الآخرة، فإن ختم الله على قلبه وكفر بيوم الدين، صار مجرما ضالاً هالكا يفعل ما يشاء دون أي خشيةٍ أو حياء..

قال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ } (ص ٢٦)..

{ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ } (المطففين ٤ ٦)..

بين موسى عليه السلام وفرعون.

وفي الإشارة الكريمة في تسمية السورة ب الزخرف إيحاء قوي بعمق التناول الذي يفضح ذلك البريق الكاذب والأفق الخادع لكلماتٍ وأفكارَ ومظاهرَ يبرز بها الباطل في كل زمانٍ و كل مكان..

يقول تعالى

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٦) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤٨) وَقَالُوا يَاأَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (٤٩) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (٥٠) وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (٥٦)} (الزخرف ٤٧ ٥٦).

جاء في تفسير الآيات

ذكر تعالى أنه أرسل موسى بآياته وهي المعجزات التي كانت مع موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه أي قومه، فقال موسى إني رسول رب العالمين، فلما جاءهم بتلك الآيات إذا هم منها يضحكون، قيل إنه لما ألقى عصاه صار ثعبانا، ثم أخذه فعاد عصا كما كان ضحكوا، ولم عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت ضحكوا، فإن قيل كيف جاز أن يجاب عن لما التي تفيد الشرط، ب إذا الذي يفيد المفاجأة؟ قلنا لأن الإيحاء بفعل المفاجأة جاء معها، كأنه قيل فلما جاءهم بآياتنا لم يكن المفترض على قومٍ يعقولون أن يضحكوا ولكن كانت المفاجاة أن يضحكوا بدلا من أن يفكروا ويؤمنوا.

ثم قال {وما نريهم من آيةٍ إلا هي أكبرُ من أختِها} والمعنى أنه أريد المبالغة في كون كل آيةٍ من تلك الآيات بالغةً إلى أقصى الدرجات في الفضيلة، فبعض الناس ينظرون إلى المعجزة و يقولون إن هذه أفضل من الثانية، ويقول الآخرون لا بل الثانية أفضل، و يقول آخرون لا بل الثالثة أفضل، وحينئذ تصير كل واحدة من تلك الأشياء مقولا فيه إنه أفضل من غيره.

ثم قال تعالى {وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون} أي يرجعون عن الكفر إلى الإيمان وعن الضلالة إلى الهدى والحق، قال المفسرون ومعنى قوله وأخذناهم بالعذاب أي بالأشياء التي سلطها عليها كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وغيرها، كما يقول سبحانه «فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالْجَرادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفادِعَ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ» (١٣٣ الأعراف).

ثم قال تعالى {وقالوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ } أَيِ يا أيها الْعَالِمُ، قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَكَانَ عُلَمَاءُ زَمَانِهِمْ هُمُ السَّحَرَةَ، وهو عندي مرجوح بإيحاء النص وباطن المعنى، فكأن غاية فهمهم واستقبالهم لما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات والحجج الدالة على الحق أنها سحرٌ، فقد قال الحكماء تظهر النفوس في فلتات اللسان. وقيل هنا إنها إشارةٌ كاشفةٌ عما فى نفوسهم من إصرارٍ على الكفر، وإن نطقت ألسنتهم بغير ذلك. فهم لا يرون فى موسى إلا ساحرا كبيرا، وأنه قادر بسحره هذا

على أن يسوق إليهم البلاء، وأن يمسكه إذا شاء. فهم بهذه الصفة يتعاملون معه. أما دعواه بأنه رسولٌ من رب العالمين، فهذا ادعاءٌ لم يصحّ عندهم، وإن قبلوه منه، فهو إلى أن ينكشف البلاء عنهم وحسب. كقوله تعالى في الذين كذّبوا نبيه الخاتم { يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكرُ إنَّك لمجنون} (الحجر ٦). أي نزل عليه الذكر في اعتقاده وزعمه.

وفي الآية الأخرى «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ» (١٣٤ ١٣٥ الأعراف) .

والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه، فهم أمام البلاء، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء. ومع ذلك يقولون له «يا أَيُّهَا السَّاحِرُ» ويقولون كذلك «ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ» وهو يقول لهم إنه رسول «رَبِّ الْعالَمِينَ» لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص ولكن لا الخوارقُ ولا كلامُ الرسول مسَّ قلوبَهم، ولا خالطتها بشاشةُ الإيمان، على الرغم من قولهم «إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ».. فقد كانوا عازمين على خلاف الهدى ولكنهم يطلبون فقط رفع العذاب، ففي كل مرة يطلبون من موسى الدعاء برفع الضر مع وعدهم بالإيمان ثم يرجعون في وعدهم ويصرون – من سفههم ونكاية الله فيهم على ضلالهم.

ثم ذكر معاملة فرعون مع قومه أولئك الذين يشبهونه ويشبههم في الدنس والسفاهة فقال {ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي}. قيل كانت الأنهار تجري تحت قصره، وحاصل الأمر أنه احْتَجَّ بكثرة أمواله وقوة جاهه، ولم يحتجّ بفضيلة نفسه. كما قال تعالى عن هذا الفاجر {فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأعْلَى } (النَّازِعَاتِ ٢٣ ،٢٤).. فلم يكتفِ باستعبادهم حتى نادى بالألوهية فيهم حتى يروا كل نعمةٍ هم فيها هى منه كذبا وادعاءً.

وهنا يبرز فرعون في جاهه وسلطانه، وفي زخرفه وزينته، يخلب عقول الجماهير الساذجة بمنطقٍ سطحي، ولكنه يَرُوج بين الجماهير المستَعْبدة في عهود الطغيان، والمخدوعة بالأبهة والبريق.

وهو بالضبط ما استخدمه فرعون ليسيطر على شعبه، فلم يكن له حجةً إلا أن ينفجر غاضبا في وجه أولئك الرعاع كما يوحي بذلك استعمال كلمة نادى الموحية بارتفاع الصوت مذكرا إيَّاهم بأنه يملك مصر ويملكهم،وكذا يذكّرهم بأن له السطوة والتمكن فوق رقابهم. يكفي ذلك ليجعل كل ما يجيء من الفرعون تفضلاً ومِنّةً يَمُنُّها على الشعب المملوك ، وكونه لم يقتل أيّاً منهم فهو عفوٌ ورحمةٌ، وحنوٌ يحنوه على الشعب البائس..ورتّلِ إذا شئت قوله تعالى يصف هذا المتغطرس وهو يولّي الناس ظهره ويصيح فيهم { وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}..

إن ملك مصر وهذه الأنهار التي تجري من تحت فرعون، أمرٌ قريبٌ مشهودٌ للجماهير، يبهرها وتستخفها الإشارة إليه. فأما ملك السماوات والأرض وما بينهما ومصر لا تساوي هباءة فيه فهو أمر يحتاج إلى قلوبٍ مؤمنةٍ تحسه، وتعقد الموازنة بينه وبين ملك مصر الصغير الزهيد والجماهير المستَعْبدة المستَغْفلة يغريها البريق الخادع القريب من عيونها ولا تسمو قلوبها ولا عقولها إلى تدبر ذلك الملك الكوني العريض البعيد ومن ثَمَّ عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب ويستغفلها بالبريق القريب إنها الحقيقة التي رسمها القرآن بكل تفاصيلها ورتوشها لتنير الطريق لأمثالنا حتى لا يقعوا في مثل ما وقع فيه أولئك السفهاء.

ومن عجيب المعرفة في علم النفس الحديث ما يسمى ب متلازمة ستوكهولم **Stockholm syndrome** وهي ظاهرة نفسية تصيب الفرد عندما يتعاطف أو يتعاون مع عدوه أو مَن أساء إليه بشكل من الأشكال، أو يُظهر بعض علامات الولاء له مثل أن يتعاطف المُختَطَف مع المُختَطِف. وتسمى أيضاً برابطة الأَسْر أو الخطف وقد اشتهرت في العام ١٩٧٣ للميلاد حيث تُظهر فيها الرهينة أو الأسيرة التعاطف والانسجام والمشاعر الإيجابية تجاه الخاطف أو الآسر، تصل لدرجة الدفاع عنه والتضامن معه. هذه المشاعر تعتبر بشكل عام غَيْرَ منطقية ولا عقلانية في ضوء الخطر والمجازفة اللتين تتحملهما الضحية، إذ أنها تَفهم بشكل خاطئ عدم الإساءة من قبل المعتدي إحساناً ورحمة. وقد سجلت ملفات الشرطة وجود متلازمة ستوكهولم لدى ٨ من حالات الرهائن.

وعلى صعيد المجتمع، يمكن ملاحظة هذا التأثير في الأنظمة القمعية، عندما لا تملك السلطة شرعيتها من أغلبية الشعب، فتصبح وسيلة الحكم القمعية ضاغطةً على أفراد المجتمع، ولمدة طويلة، يطور خلالها الافراد علاقة خوف من النظام، فيصبح المجتمع ضحية النظام، ويدرك النظام هذه الحالة مع الوقت، حتى يتقن لعبة ابتزاز المجتمع. فيعتاد الشعب على القمع والذل لدرجه تجعله يخشى من التغيير حتى وإن كان للأفضل، ويظل يدافع عن النظام القمعى ويذكر محاسنه القليله جدا دون الالتفات إلى مظاهر القمع والفساد الكثيرة.

ومن قصص الاستبداد العجيبة التي تؤكد تحليلنا هذا ؛ القصة التي أرَّخها (سنوحي) طبيب الفرعون (أمفسيس) الذي عاش في القرن العاشر قبل الميلاد وتم اكتشاف مذكرات سنوحي بين الكتب الهيروغليفية وهي مذكرات كُتبت بأسلوب رائع وبديع وتم ترجمتها إلى لغات عالمية حية.

يقول سنوحي في إحدى مذكراته: (كنت أمشي في شارع من شوارع مصر وإذا بالرجل الشريف الثري المعروف (إخناتون) ملقى على الأرض مضرجًا بالدماء وقد قُطعت يده ورجله من خلاف وجدع أنفه، وليس في جسمه مكان إلا وفيه طعنة رمح وضربة سوط ، وكان قاب قوسين أو أدنى من الموت فحملته إلى دار المرضى وجاهدت لإنقاذه من الموت ، وبعد شهرين أو أكثر وعندما أفاق من غيبوبته قص علي قصته المحزنة المفجعة قائلًا:

لقد أمرني الفرعون أمفسيس أن أتنازل له عن كل شبر من أرض أملكه ، وأن أهبه أزواجي وعبيدي وكل ما أملك فاستجبت بشرط أن يترك لي داري التي أسكنها ومعشار ما أملكه من الذهب والفضة لأستعين بها ، فاستثقل هذا الشرط وأخذ كل شيء وفعل بي تلك الأفاعيل.

دارت الأيام وإخناتون يعاني الفقر والحرمان وكل أمله الاقتصاص من الفرعون الظالم.

مات الفرعون وحضرت مراسيم الوفاة بصفتي كبير الأطباء فكان الكهنة يلقون خطب الوداع مادحين الراحل العظيم يقولون: (يا شعب مصر لقد فقدت الأرض والسماء وما بينهما قلبًا كبيرًا كان يحب مصر وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجماد ، كان للأيتام أبًا وللفقراء عونًا، وللشعب أخًا ولمصر مجددًا، كان أعدل الآلهة..) .

يضيف سنوحي كنت أصغي للكهنة وكنت أندب حظ مصر وشعبها المسكين وهو يرزح تحت سياط الفرعون والكهنة ، وكانت الجماهير المحتشدة التي لم يسلم منهم واحدا من بطش فرعون وظلمه تجهش بالبكاء ، سمعت صوت رجل يبكي كما تبكي الثكلى وقد علا بكاؤه الأصوات ، فنظرت فإذا صاحب البكاء هو إخناتون المعوق العاجز الذي كان مشدودًا على ظهر حمار ، فأسرعت إليه لأهدئه فقد ظننت أنه يبكي فرحًا بموت ظالم ظلمه ، لكن إخناتون خيب آمالي عندما صرح عليّ بقوله: (يا سنوحي لم أكن أعلم أن أمفسيس عادل وعظيم وبار بشعبه إلا بعد ما سمعت من كهنتنا ، وها أنا أبكي لأنني حملت في قلبي حقدًا على هذا الإله العظيم بدلا من الحب والجلال .. حقا لقد كنت في ضلال كبير).

يقول سنوحي: (كنت انظر إلى أعضائه المقطوعة ووجهه المشوه وأنا حائر فيما أسمع وكأنه قرأ ما في خلدي) ، وإذ به يصرخ فيّ بملء شدقيه (لقد كان أمفسيس على حق فيما فعل لأنني لم أستجب إلى أوامر الآلهة ، وهذا جزاء من يعصي الإله الذي خلقه وأحبه..).

يعلق الباحث ناقل القصة فيقول لقد كان عهد أمفسيس أسوأ عهد عرفته مصر في تاريخ الفراعنة الذين حكموا مبتدئا من الأسرة الأولى حتى الأسرة الخامسة التي كان أمفسيس أول أفرادها.وقد مات أمفسيس وترك مصر خرابا .. ومع هذا بكته الجماهير متأثرة برثاء الكهنة وخطبهم ..نعم هكذا يفعل التضليل بعقول الناس عندما يصدر من أفواه قوم يتظاهرون بالدين.. وإن الكثير من الناس اليوم يشبهون اخناتون..فهم يصفقون لمن يظلمهم، لكنَّ الفرق أن الفراعين قد كثروا وتكاثروا..

قال بعض العارفين ما من نفس إلا وفيها ما في نفس فرعون، غير أن فرعون قَدَر فأظهر، وغيره عجز فأضمر.

قال ابن تيمية -رحمه الله وذلك أن الإنسان إذا اعتبر وتعرف نفسه والناس، وسمع أخبارهم، رأى الواحد منهم يريد لنفسه أن تطاع وتعلو بحسب قدرته. فالنفس مشحونة بحب العلو والرياسة، بحسب إمكانها، فتجد أحدهم يوالى من يوافقه على هواه، ويعادى من يخالفه في هواه، وإنما معبوده ما يهواه ويريده، قال تعالى {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} (الفرقان ٤٣). والمخذول من الناس في هذا الباب سواء فمن وافق هواهم كان ولياً، وإن كان كافراً مشركاً، ومَن لم يوافق هواهم

كان عدوا، وإن كان من أولياء الله المتقين، وهذه هي حال فرعون. والواحد مِن هؤلاء يريد أن يطاع أمره بحسب إمكانه، لكنه لا يتمكن مما تمكن منه فرعون من دعوى الإلهية، وجحود الصانع. وهؤلاء وإن كانوا يقرون بالصانع لكنهم إذا جاءهم من يدعوهم إلى عبادته وطاعته المتضمنة ترك طاعتهم، فقد يعادونه، كما عادى فرعونُ موسى. انتهى كلامه.

ونعود للآيات وقول فرعون{ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} في عمقٍ آخر ونقول ومَن أنكر على فرعون هذا الملك الذي له؟ إنه هو الذي ينكر على نفسه هذا الملك، بعد أن رأى كيف تهزه الأحداث، وتزلزله النكبات، وتكاد تبتلعه الأمواج المضطربة، وهو لا يملك لذلك دفعا فأين سلطانه؟ وأين جبروته؟ لقد تعرّى من كل شيء، وأصبح فى هذه المحنة نبتة هزيلة، تعصف بها الرياح فيما تعصف به من نبات وأعشاب إنه يلوذ بموسى عدوّه، طالبا أن يمد إليه يده ليدفع عنه هذا البلاء الذي نزل به.

إن فرعون هنا يفكر بصوت عال كما يقولون فهو بهذا الحديث إلى قومه، يكشف عما يشعر به من ضياع لسلطانه، وذهاب لهيبته. وهو بهذا الحديث يتحسس وجوده الذي ذهب، وسلطانه الذي ضاع. تماما كما يفعل من صحا من حلم مزعج، رأى فيه أنه سقط من قمة جبل فتحطم، وتبدّد أشلاء، إنّه ليتحسس جسده ليرى إن كان حيّا أو هو فى عالم الأموات، وإن كان هو فى يقظة أو فى حلم .

وفى قوله تعالى «أَفَلا تُبْصِرُونَ» طلب من فرعون لمزيد من الصفعات على وجهه، ليتأكد له أنه موجود على قيد الحياة، وأنه لا يزال قائما على كرسى الملك. وإن من شك فى ذلك فلينظر. فها هو ذا فرعون. وها هو ذا عرش فرعون. وها هو ذا قائم على كرسى مملكته إنه الغريق الذي احتواه اليمّ، وقد يئس الذي ينظرون إليه من نجاته،. وهو يهتف بهم أنا هنا. ما زلت حيّا. فلا تهيلوا التراب علىّ .

إنه الخوف العميق والوسواس الذي يلازم الطاغية مريض العقل والروح من زوال ملكه فيظل يصيح (أنا هنا. أنا على الكرسي) ويرى في أي بعوضةٍ تدور في قصره تهديدا على ملكهوكرسيه.

ثم يرد فرعونُ الفاجرُ حجةَ نبي الله موسى والحق الذي جاء به ليس بالحجة فهو لا يملكها ولا يقترب حتى من فهم معنى الحجة في ذاتها فضلا عن الاتيان بها يرد الحجة بالإهانات والتنقُّصات الشخصية التي تدل على خللٍ ونقصٍ عميق في النفس والاخلاق والأدب. يقول {أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مَهِينٌ ولا يكاد يُبِين} بمعنى بل أنا خير .. وعنى بكونه {مهين} كونه فقيرا ضعيف الحال، وبقوله { ولا يكاد يبين} حُبْسَةً كانت في لسانه عافاه الله منها،.. قال ابن كثير رحمه في تفسيره وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذبٌ واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعينٍ كافرةٍ شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الأبصار والألباب.

لقد نفذ القرآن الكريم بهذه الكلمات القليلة، إلى أغوار النفس الإنسانية ورصد حركاتها وسكناتها، وكشف عما يندس فى مساربها من خواطر وتصورات، وما يزدحم فى أعماقها من رؤى وخيالات. وهذا وجه من وجوه الإعجاز القرآنى، يطالع من ينظر فيه متأملا، آيات بينات، تشهد بأن هذا القرآن هو من كلام رب العالمين.

فكل ما استطاعه الفرعون أمام تهديد موسى عليه السلام له ولملكه الفاجر هو أن يُضحِك قومَه العبيد بتنقُّص نبي الله موسى ووصفه بالعُسرة في لسانه وأنه كان فترة من الزمن ألسغُ له رتَّةٌ في الكلام كما ذكر القرآن عنه قوله { أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}.. قال الحسن البصري رحمه الله وإنما سأل موسى عليه السلام في قوله { واحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لساني يَفْقَهُوا قَوْلِي}؛ سأل زوالَ ما يتعذر معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخَلْقِية التي ليست من فعل العبد لا يُعاب بها ولا يُذَمُّ عليها، وفرعونُ وإنْ كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء. اهـ نقله ابن كثير.

هكذا يحاول هذا الفاسد الفاشل التخلص من الحجة والآيات الواضحة بالتهكم من الحق وحملته. وهو ديدنُ إعلام المُفسدين المستبدين في كل زمانٍ ومكانٍ حينما يفتقرون إلى الحجة ويستخفون بعقول الدهماء بالسخرية والاستهزاء.

وتأمل معي ما حدث مع النبي الخاتم سيدنا رسول الله وسجّله القرآن العظيم من قول الكفار مبينين مباني إعلامهم وأسسه {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} (فصلت ٢٦).
قال الطبري ما ملخصه قالوا للذين يطيعونهم من أوليائهم لا تسمعوا لقارئ هذا القرآن إذا قرأه، ولا تصغوا له، ولا تتبعوا ما فيه فتعملوا به. (وَالْغَوْا فِيهِ) يقول الغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرؤه فلا تسمعوه، ولا تفهموا ما فيه. انتهى. وقد قالوا في سيدنا الله صلى الله عليه وسلم وحاشاه مما يقولون قالوا هو ساحر، وقالوا هو مجنون، وقالوا هو كاذبٌ على الله.. وغير ذلك إلى أن قال الله تعالى فيه {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} (الحجر ٩٥).. فكان الاستهزاء من الحق وأهله حيلة الإعلام الفاشل العاجز عن مقارعة الحجة بالحجة، وهى طريقة أهل الباطل في مقارعة الحق.
وهنا يبدأ فرعونُ حملته الإعلامية القذرة باستدلالات يلفظها المنطق ، وطلباتٍ تعجيزية لا تمُتُّ لمضوع النقاش بصلةٍ، هكذا يريد إعلام الفاسد الطاغوت أن يُدَوِّخ الحقيقة ويرميها في غياهب الضياع فلا يتفطن لها أحد من كثرة التشنيع والتذويب في مواضيع تافهة تستهلك العقل والوقت، يقول لموسى عليه السلام {فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}. قيل والمراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحدا منهم رئيسا لهم سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة.. وحاصل الكلام يرجع إلى حرف واحد وهو أن فرعون كان يقول أنا أكثر مالا وجاها، فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولا من الله.. ثم المقدمة الفاسدة هي قوله من كان أكثر مالا وجاها فهو أفضل، وهي عين المقدمة التي تمسك بها كفار قريش في قولهم { لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم} (الزخرف ٣١).، وهل مقياس العظمة والاستحقاق بينهم المال والجاه والنسب دون نفس المستحق وعلو خُلُقِه وعقله.
وهل هكذا وبذلك العَرَضُ التافه الرخيص أسورة من ذهب تصدِّق رسالةَ رسولٍ أسورة من ذهب تساوي أكثر من الآيات المعجزة التي أيد الله بها رسوله الكريم
ثم قال {أو جاء معه الملائكة مقترنين}؛ قال الزجاج معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته. وهو طلبٌ تعجيز وتشغيبٍ على الحق بمراهناتٍ لا طائل منها.

لذلك يصف القرآن هذه الطريقة التي نجحت في استمالة الجهلاء وأتباع المصالح وخادمي لقمة العيش من الشعب بأنها (استخفاف بعقولهم) أودى بهم إلى طاعة هذا الفرعون الغبي الفاسد ، وتُذَيَّل الآية بمعنىً لطيف يشخِّص بكل دقةٍ سببَ انقياد أولئك المُغَيَّبين لهذا الفرعون مع وضوح البينات على فساده وغباوته.. إنهم ببساطة قومٌ فاسقون ، يسعون وراء مصالحهم وشهواتهم وفُتاتٍ قليلٍ يلقيه إليهم الفرعونُ فيلحسون نعاله. {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ}. قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ الْمَعْنَى فَاسْتَجْهَلَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ لِخِفَّةِ أَحْلَامِهِمْ وَقِلَّةِ عُقُولِهِمْ، وَقِيلَ اسْتَخَفَّ قَوْمَه أَيْ وَجَدَهُمْ خِفَافَ الْعُقُولِ. وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّه يَجِبُ أَنْ يُطِيعُوهُ، فالمعنى أنه وَجَدَهُمْ خِفَافَ الْعُقُولِ فَدَعَاهُمْ إِلَى الْغِوَايَةِ فَأَطَاعُوهُ.

واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه فهم يعزلون الجماهير أولا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يضبطون حياتهم بميزان الإيمان. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح. ومن هنا يعلل القرآن استجابة الجماهير لفرعون فيقول «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ. إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ» . أي كانوا على ما كان عليه فرعون من سفاهة، وجهل، فراجت عندهم هذه البضاعة الفاسدة وهكذا يستغلظ الضلال، وتنتشر سحبه القاتمة فى المواطن التي تقبل الباطل، وتستجيب له. تماما كالبرك والمستنقعات، تتداعى عليها الهوامّ والحشرات، وتتوالد وتتكاثر. وإنها ليست مسئولية داعية الضلال وحده، بل هى كذلك مسئولية الذين يستجيبون له، ولا ينكرون عليه المنكر الذي يدعوهم إليه. ومن هنا كان الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر مسئولية منوطة بكل مجتمع إنسانىّ، فى أفراده وجماعاته، إذ كانت الجماعة أشبه بالجسد، فيما يعرض له من عوارض العلل والآفات. فأى عضو فى الجماعة،

يعرض له عارض من عوارض الفساد، يهدد الجماعة كلها بتلك الآفة، التي إن لم تجد من يعالجه منها، سَرَت عدواها فى المجتمع كله، وتهددت وجوده.

وهكذا تكون النتيجة والعاقبة حين أطاعوا هذا الفاسد الفاشل أن يدخلوا وراءه البحر دون أدنى تفكير أو جزءٍ من عقلٍ أو أناةٍ، ليهلكوا جميعا ويغوروا في أعماق الأمواج، وهو جزاءُ من لغى عقله واتبع هذا الشيطان الهالك مع عدم وجود أدنى حجةٍ له، ومع فساده واستعباده الناس واعتناءهم في حياتهم والاستئثار بكل شيءٍ دونهم وكما قال تعالى {فلما آسفونا} أى أغضبونا. {انتقمنا منهم }. {فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ} والسلف كل شيء قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف، والسلف أيضا مَن تقدم من آبائك وأقاربك واحدهم سالف.. فعلى هذا قال الفراء والزجاج يقول جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون، أي جعلناهم سلفا لكفار أمة محمد عليه السلام. وقوله {ومثلا للآخرين}، يريد عِظةً لمن بقي بعدهم، وآيةً وعبرة. والله أعلم.

إن القرآن العظيم يعرض علينا (مثلاً) خالدا للضلال والسفاهة لا يتمثل في فرعون وحاشيته فحسب، بل يمتد عميقاً في هذا الشعب الذي استعبده فرعون بأساطيره الكاذبة وسطوته الغاشمة على مدى آلاف السنين ليغدو مسخاً لا روح فيه، ويصير النورَ في خضم ظلماته مجرد سحر، ويصير الحقُ وآياته البيّنات مزحةً منها يضحكون. هذا التكوين الفاسد لجيلٍ خرَّبه فرعون على عينِهِ، واستعمل فيه كامل أدوات الإفساد ومسْخ العقول لا يمكن أن يخرج منه خيرٌ أبدا، ولذلك صار والعياذ بالله محطَّ غضب الرب تبارك وتعالى وفي هذا يقول {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} . نعم. لم يبقِ منهم أحدا، فلا خير فيهم، {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} (الأنفال ٢٣).

وروى أهل السير فيما صح أنه كان الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه يحدث أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا، فقالوا له يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنّ منه شيئا؛

قال الطفيل فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا فَرقا من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه.

قال فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة، قال فقمت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله.

قال فسمعت كلاما حسنا، قال فقلت في نفسي واثُكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته، وإن كان قبيحا تركته .فسمع رضي الله عنه من النبيﷺ فأسلم.

فما كان على أولئك المغفلين إلا أن يسمعوا بتجرد، ويُعمِلوا عقولهم، فلو فعلوا ذلك لفهموا الحق وآمنوا به، ولكن الله يهدي من يشاء، { أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج ٤٦).

والحق إني لتزلزلني تلك الآيات في سورة هود والتي تجمل الموقف بصورةٍ مروعة في آياتٍ ولا أروع {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} (هود ٩٦ ١٠٢).

وهو خير ختام لهذه الآيات التي تشخص بكل عبقريةٍ أدواءً اقتنصت المجتمعات وسرت في أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه على الخصوص حتى تكاد تهلكها.

فهلّا أخذنا من القرآن العِبرة والمَثل وأصلحنا ديننا وحياتنا. أم أننا سندفن رؤوسنا في التراب ونحفظ المصحف في المتحف التاريخي، وننكر ديننا وكلام ربنا مدَّعين أنه نزل لقومٍ غيرنا، وأنه كان لكفار قريش وذهب حينما ذهبوا.. وإن قلنا ذلك وعملنا به فماذا بقي فينا من دين الله تعالى؟

اللهم اغفر لنا وارحمنا، وعافنا واعف عنا. وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

راجعنا في مقالنا هذا من كتب التفاسير

- تفسير العلامة الفخر الرازي (مفاتح الغيب)
- تفسير الإمام العلامة ابن كثير.
- تفسير الإمام ابن جرير الطبري .
- تفسير العلامة القرطبي (جامع البيان)
- في ظلال القرآن لسيد قطب .
- التفسير القرآني للقرآن لدكتور عبد الكريم الخطيب.
- رحمهم الله جميعا وجزاهم عنا خيرا.

معنى الضلال في القرآن الكريم.

يقول العلامة السمين الحلبي (المتوفى ٧٥٦ هـ) في كتابه الماتع (عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ) في مادة (ضلَّ) واستعمالاتها في القرآن العظيم

قوله تعالي }ولا الضالين{ (الفاتحة ٧). قيل هم النصارى، }والمغضوب عليهم{ (الفاتحة ٧). هم اليهود، ورُوِيَ مرفوعا، واسْتُدِلَّ له بقوله تعالى في حق النصارى }قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرًا وضلوا عن سواء السبيل{ (المائدة ٧٧). وفي حق اليهود }من لعنه الله وغضب عليه{ (المائدة ٦٠).

والضلال في الأصل إما العدول عن الطريق المستقيم وإما الغيبوبة والضياع، والأول يقابله الهداية، والثاني يقابله الوجدان.

والضلال يقال لكل عدولٍ عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا.

قال بعضهم لأن الطريق المستقيم صعبُ السلوكِ أو ممتنعٌ إلا علي مَنْ عصم الله تعالي. ومن ثَمَّ قال عليه الصلاة والسلام (استقيموا ولم تحصوا).وقال تعالي {إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا} (فصلت ٣٠). ولهذا رُوِي أن بعض الصلحاء رأي رسول الله صلي الله عليه وسلم في منامه فقال (يا رسول الله رُوِي لنا أنك قلت شيبتني هودٌ وأخوتها. فما الذي شيَّبَك منها؟ فقال قوله تعالي {فاستقم كما أمرت} (هود ١١٢).

قال وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم سهوًا كان أو عمدًا، يسيرًا كان أو كبيرًا صح استعمال الضلال فيمن يوجد منه خطأٌ ما من غيرِ قصدٍ، وما كان الخطأ منه متعمدا، الكفار كذلك وإن كان بين الضلالين بون بعيد.

قال ألا تري الآيات {ووجدك ضالًا فهدي} (الضحى ٧). أي غير مهتدٍ إلي ما سبق إليك من النبوة. {قال فعلتها إذًا وأنا من الضالين} (الشعراء ٢٠). وقال {إن أبانا لفي ضلال مبينٍ} (يوسف ٨). تنبيهًا أن ذلك منهم مقصوده السهو وليس الضلال الكاشف للهالكين. انتهي.

ولا شك أن الله تعالي يقول في حق عباده ما شاء . وأما تفسير قوله {ووجدك ضلًا فهدي} لحسنٌ جدًا، وهو الذي ينبغي أن لا يجوز غيره. ومثله ما قال الهروي أي لا تعرف شريعة الإسلام فهداك لها، وهو مثل قوله تعالي {وعلمك ما لم تكن تعلم} (النساء ١١٣).ومثله قوله تعالي {ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان} (الشورى ٥٢).

وقيل الضلال هنا معناه الضياع. يروي أنه ضلَّ (أي ضاع) من جده عبد المطلب وهو صغيرٌ في بعض شعاب مكة، فرده أبو جهلٍ. وقيل بل أضلته حليمة عند باب الكعبة فرده الله عليها.وهذا ونحوه لا بأس به.

وأما ما يُروَي عن بعض المفسرين أنهكان علي دين قومه أربعين سنةٍ، فإن عني خلوهم من علم الشريعة التي طريقها السمع فُمُسَلَّمٌ، وإن عني غير ذلك فقد برأه الله من ذلك، وهو سوء فهمٍ وأدبٍ منهم.

وأما أمر موسي عليه السلام حين قال {قال فعلتها إذًا وأنا من الضالين} (الشعراء ٢٠)،. يقصد قتله القبطي خطأً، فإن حال فعله ذلك كان حال صباه ولم تكن وصلت إلي شريعةٍ بعد.

قلتُ جامعه والأحسن أن يُقال الضلال هنا معناه الخطأ الغير متعمد.

وأما قول إخوة يوسف عن أبيهم {إن أبانا لفي ضلال مبينٍ} (يوسف ٨). فإن كانوا غير أنبياء، ويقصدون أنه عليه السلام في نظرهم كان في بُعْد عن عادة الناس في محبة أولادهم.

وتأويل الضلال بالخطأ هنا أولى عندي والله أعلم.

وأما قوله تعالي {لا يضل ربي ولا ينسى} (طه ٥٢). أي لا يغفل عن شيءٍ .

وقوله {أن تضل إحداهما} (البقرة ٢٨٢). أي تنسي بدليل قوله {فتذكر إحداهما الأخرى}.

والضلال من وجهٍ آخر ضربان ضلالٌ في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الوحدانية ومعرفة النبوة المشار إليهما بقوله تعالي {ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالًا بعيدًا} (النساء ١٣٦). أو ضلالٍ في العلوم العملية كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات. قوله {في العذاب والضلال البعيد} (سبأ ٨). أي في عقوبة الضلال البعيد.

وقوله تعالى {أئذا ضللنا في الأرض} (السجدة ١٠). أي غبنا وهو على معنى الضياع والهلاك، وهو كنايةً عن الموت وهلاك البدن في التراب لا يبقى منه شيءٌ. يقال (أضللتُ اللبن في الماء) أي ضيعته فيه فلا يعرف الماء من اللبن.

وقوله تعالى {ألم يجعل كيدهم في تضليلٍ} (الفيل ٢). أي في تضييعٍ وبطلانٍ.

وقوله {وضلوا عن سواء السبيل} (المائدة ٧٧). قيل أخطأوه، وقيل أضلوا غيرهم. انتهى بتصرف وشرح.

{وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}

قَالَ تَعَالَى {وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الحجرات ١١)

قَسَّمَ سبحانه الْعِبَادَ إِلَى تَائِبٍ وَظَالِمٍ، وَمَا ثَمَّ قَسْمٌ ثَالِثٌ الْبَتَّةَ، وَأَوْقَعَ اسْمَ الظَّالِمِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَلَا أَظْلَمَ مِنْهُ، لِجَهْلِهِ بِرَبِّهِ وَبِحَقِّهِ، وَبِعَيْبِ نَفْسِهِ وَآفَاتِ أَعْمَالِهِ.

وَفِي (الصَّحِيحِ) عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».

وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَعُدُّونَ لَهُ صلى الله عليه وسلم فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ» مِائَةَ مَرَّةٍ، وَمَا صَلَّى صَلَاةً قَطُّ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} (النصر ١) إِلَى آخِرِهَا، إِلَّا قَالَ فِيهَا «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي».

وَصَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ، قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ».

فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى أَعْلَمِ الْخَلْقِ بِاللَّهِ وَحُقُوقِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ جَلَالُهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ، وَأَعْرَفِهِمْ بِالْعُبُودِيَّةِ وَحُقُوقِهَا وَأَقْوَمِهِمْ بِهَا. (انتهى من المدارج ١/١٩٧).

مع الصبر والصابرين.

في قوله تعالى {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)}.

قال العلماء الصَّبر في اللغة الحَبْس والكفّ في ضيق، ومنه قيل فلانٌ صُبِرَ إذا أُمسِك وحُبِس للقتل.

قال تعالى {واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي} (الكهف) ، أي احبس نفسك معهم.

فالصَّبر حبس النَّفس عن الجزع والسّخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، أى حبسها عن التقصير في الطاعة أو التمادي مع شهوتها بالباطل.

قال الشاعر الصّبر مثلُ اسمه مُرٌّ مَذاقته .. لكنْ عواقبُهُ أَحلَى من العسلِ.

ثم قسموا الصبر إلى صبرٍ على ترك المحارم والمآثم؛ وهو قريبٌ من الورع والتقوى، وصبرٍ على فعل الطاعات والقربات؛ وهو نوع شكرٍ لله تعالى على نعمه. وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب. وربما كان أقلها لأنه من مقتضيات الإيمان بالقضاء والقدر. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إنما الصبر عند المصيبة الأولى .

جاء في بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣/ ٣٧١) للفيروز آبادي

قال بعض المشايخ (أظنه يقصد العلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية) وكان صبر يوسف عن طاعة امرأة العزيز أكمل من صبره على إلقاءِ إخوته إِيّاه في الجُبّ، وبيعهم إِيّاه، وتفريقهم بينه وبين أَبيه، فإِنَّ هذه أُمور جرَت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصّبر. وأَمّا صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا، ومحاربةٌ للنَّفس، ولا سيّما مع أَسبابٍ تقوّى معها داعية الموافقة؛ فإِنّه كان شابًّا، وداعية الشابّ إِليها قوَّته؛ وكان عَزَبًا ليس له ما يعوّضه ويَرُدّ شهوته؛ وغريبًا، والغريب لا يستحى فى بلدِ غُربته ممّا يستحى منه بين أَصحابه وأَهلِه؛ ويحسبونه مملوكًا، والمملوك ليس وازعه كوازع الحرّ؛ والمرأَة جميلة وذات مَنْصِب، وقد غاب الرّقيب، وهى الدّاعية له إِلى نفسها، والحريصة على ذلك أَشدّ الحرص، ومع ذلك توعّدته بالسجن إِن لم يفعل. فمع هذه الدّواعى كلّها صبر اختيارًا، وإِيثارًا لما عند الله. وأَين هذا من صبره فى الجُبّ على ما ليس من كسبه؟

قال الإِمام أَحمد رحمه الله ذكر الله تعالى الصّبرَ فى القرآن في نحوٍ من تسعين موضعًا، وهو واجب بإِجماع الأُمّة. وهو نصف الإِيمان؛ فإِنَّ الإِيمان نصفان نصفٌ صبر، ونصف شُكر.

وهو في القرآن على ستَّة عشر نوعا

الأَوّل الأَمر به نحو قوله تعالى {يآ أَيُّهَا الذين آمَنُواْ استعينوا بالصبر والصلاة}، وقوله تعالى {اصبروا وَصَابِرُواْ}، وقوله تعالى {واصبروا إِنَّ الله مَعَ الصابرين}، {واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله}.

الثاني النّهى عن ضدّه كقوله {فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ العزم مِنَ الرسل وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}، وقولِه {فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار}، فإِن تَوْلية الأَدبار ترك الصّبر والمصابرة.

الثالث الثَّناء على أَهله كقوله {الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار}، وقوله {والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولائك الذين صَدَقُواْ وأولائك هُمُ المتقون}. وهو كثير النَّظائر فى التنزيل.

الرّابع إِيجاب معية الله للصابرين التى تتضَمّن حفظهم ونصرهم وتأْييدهم، كقوله {واصبروا إِنَّ الله مَعَ الصابرين}.

الخامس إيجاب محبّته لهم، كقوله {والله يُحِبُّ الصابرين}.

السّادس إخباره بأَنَّ الصبر خير لهم، كقوله {وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ}، وقوله {وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ}.

السّابع إِيجابه الجزاء لهم بأَحسن ما كانوا يعملون.

الثامن إِيجابه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله {إِنَّمَا يُوَفَّى الصابرون أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

التاسع إِطلاق البُشرَى لأَهل الصّبر، كقوله {وَبَشّرِ الصابرين}.

قال الفيروز آبادي ثمّ الصّبر ينقسم بنوع آخر من القسمة على ثلاثة أَنواع صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله.

فالأَوّل الاستعانة به، ورؤية أَنَّه هو المصبِّر، وأَنَّ صبر العبد بربّه لا بنفسه، كما قال تعالى {واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله}، يعنى إِنْ لم يُصَبِّرك هو لم تصبر.

والثَّانى أَن يكون الباعث على الصّبر محبّة الله وإِرادة وجهه، والتقرّب إِليه، لا إِظهار قوّة النفْس، والاستحماد إِلى الخلق، وغير ذلك من الأَغراض.

والثالث دوران العبد الذي مع الأَحكام الدينيّة صابرًا نفسه معها، سائرًا بسَيرها، مقيمًا بإِقامتها، يتوجّه معها أَينما توجّهت ركائبها، وينزل حيث استقلَّت مضاربُها. فهذا معنى كونه صابرًا مع الله، قد جعل نفسه وَقْفا على أَوامره ومحابّه. وهو أَشدّ أَنواع الصّبر وأَصعبها. وهو صبر الصدّيقين.

والصّبر على الطَّلب عنوان الظَّفر، وفى المِحَن عنوان الفَرَج.

وفى كتاب الأَدب للبخاريّ سئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن الإِيمان فقال   الصّبر والسّماحة . (قال الألباني فيه حديث قوي بمجموع طرقه، وضعَّفه غيره).

وهذا من أَجمع الكلام، وأَعظمه برهانًا، وأَوعاه لمقامات الإِيمان من أَوّلها إِلى آخرها؛ فإِن النَّفس يراد منها شيئان بذل ما أُمِرَت به وإِعطاؤه، فالحامل عليه السّماحة؛ وتركُ ما نُهِيَتْ عنه والبعد عنه، فالحامل عليه الصّبر. وقد أَمر الله سبحانه فى كتابه بالصّبر الجميل الذي لا شكوى معه، والصّفح الجميل الَّذى لا عِتاب معه، والهجرِ الجميل الذي لا أَذى معه.

وقال ابن عُيَيْنَة فى قوله تعالى {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ} أَخذوا برأْس الأَمر فجعلهم رؤوسا.

واعلم أَنَّ الشكوى إِلى الله عزَّ وجلّ لا تُنافى الصّبر؛ فإِنَّ يعقوب عليه السلام وَعَد بالصّبر الجميل، والنبيّ إِذا وَعَدَ لا يُخلف، ثمّ قال {إِنَّمَآ أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى الله}،وكذلك أَيّوب عليه السّلام أَخبر الله عنه أَنه وجده صابرًا مع قوله {مَسَّنِيَ الضر وَأَنتَ أَرْحَمُ الراحمين}، وإِنَّمَا ينافي الصبر شكوى الله لا الشكوى إِلى الله؛ كما رأَى بعضهم رجلاً يشكو إِلى آخر فاقةً وضرورة، فقال يا هذا، تشكو من يَرْحَمُكَ إِلى مَنْ لا يرحمك ثمّ أَنشده

وإِذا اعْتَرَتْكَ بليّةٌ فاصبِر لها .. صَبْرَ الكريمِ فإِنَّه بك أَرحمُ.

وإِذا شكوتَ إِلى ابن آدم إِنّما .. تشكو الرّحيم إِلى الَّذى لا يرحمُ.

معية الله سبحانه العامة والخاصة.

في قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة/١٥٣)

يقول علماء أهل السنة أن المعية إذا أُطلقت في القرآن فلها اعتباران

معيةٌ عامةٌ للناس جميعاً ومعناها علم الله المحيط بكل ما خلق ورعايته وتدبيره. كما في قوله تعالى { يَعْلَمُ مَا يلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا ينْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعرجُ فِيهَا وَهو مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الحديد ٤) ، وكما في قوله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (المجادلة ٧).

ومعيةٌ من الله تعالى خاصةٌ بعباده المصطفَين وعباده المؤمنين، ومعناها العناية والرعاية والولاية ورفع مكانتهم وجبر خواطرهم والانتصار لهم. كما قال تعالى {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} (البقرة ١٩٤)، {وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال ٤٦)، {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (النحل ١٢٨).

من بلاغة الآيات المتشابهة.

نلاحظ أنَّ الآية التي شابهت هذه الآية من سورة البقرة {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} (البقرة ٤٥) اختلفت في تذييلها مع اختلافها في المستهل مع هذه الآية فقد خاطبت هنا الذين آمنوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (البقرة ١٥٣).

والفرق كما بيَّنه بعض المحققين أنَّ الآية الأولى (البقرة ٤٥) نزلت في مخاطبة اليهود، وفيها إشارة توبيخٍ لقلة إيمانهم وضعف يقينهم وخشوعهم، فكان تذييلها مُشعِراً بذلك؛ كأنه قيل لهم، استعينوا بالصبر والصلاة ولا يستطيع ذلك إلا أهل الخشوع منكم وهم القلة.

أما الآية الثانية (البقرة ١٥٣) ففي أولها تقريظ الأمة المحمدية التي توجه لها الخطاب ثم في آخرها الوعد والبشرى على صبرهم. ففرق ما بين الخطابين بعيدٌ وجمالية الدلالة القرآنية مُدهِشة.

إثبات عذاب القبر.

في قوله تعَالَى {وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَلكِنْ لا تَشْعُرُونَ}.

قال العلامة الجصاص فِيهِ إخْبَارٌ بِإِحْيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الشُّهَدَاءَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ سَيُحْيَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ هَذَا مراده لما قال {ولكن لا تشعرون} لأنه إخْبَارٌ بِفَقْدِ عِلْمِنَا بِحَيَاتِهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ الْحَيَاةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ شَعَرُوا بِهِ وَعَرَفُوهُ قَبْلَ ذَلِكَ.

فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ الْحَيَاةُ الْحَادِثَةُ بَعْدَ مَوْتِهِمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَإِذَا جَازَ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُونَ قَدْ أُحْيُوا فِي قُبُورِهِمْ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ مُنَعَّمُونَ فِيهَا جَازَ أَنْ يَحْيَا الْكُفَّارُ في قبورهم ليعذَّبوا.

وَهَذَا يُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يُنْكِرُ عَذَابَ الْقَبْرِ. انتهى [1]

---

[1] أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (١/ ١١٥)

التوكل، لطائف ودقائق.

قال تعالى { وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ }

يقول الإمام القشيري عند هذه الآية في لطائف الإشارات

التوكل تفويض الأمور إلى الله. وحقّه وأصله علم العبد بأنّ الحادثات كلّها حاصلة من الله تعالى، وأنه لا يقدر أحد على الإيجاد غيره.

فإذا عرف هذا فهو فيما يحتاج إليه إذا علم أن مراده لا يرتفع إلا من قبل الله حصل له أصل التوكل. وهذا القدر فرض، وهو من شرائط الايمان، فإن الله تعالى يقول «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» »

وما زاد على هذا القدر وهو سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطرار فهى أحوال تلحق بالتوكل على وجه كماله.

فإن تقرّر هذا فالناس فى الاكتفاء والسكون على أقسام، ولكلّ درجة من هذه الأقسام اسم إمّا من حيث الاشتقاق، أو من حيث الاصطلاح.

فأول رتبة فيه أن يكتفى بما فى يده، ولا يطلب زيادة عليه، ويستريح قلبه من طلب الزيادة. وتسمى هذه الحالة (القناعة)، وفيها يقف صاحبها حيث وُهِبَ، ويقنع بالحاصل له فلا يستزيد. ثم اكتفاء كلّ أحد يختلف فى القلة والكثرة، وراحة قلوب هؤلاء فى التخلص من الحرص وإرادة الزيادة درجاتٌ أيضاً.

ثم بعد هذا سكون القلب فى حالة عدم وجود الأسباب، فيكون مجردا عن الشيء، ويكون فى إرادته متوكلا على الله. وهؤلاء متباينون فى الرتبة، فواحدٌ يكتفى بوعده سبحانه، فيسكن عند فقد الأسباب بقلبه ثقةً منه بوعد ربه. ويسمى هذا (توكلا)، ويُقال على هذا إن التوكل سكون القلب بضمان الربّ، أو سكون الجأش فى طلب المعاش، أو الاكتفاء بوعده عند عدم نقده، أو الاكتفاء بالوعد عند فقد النقد.

وألطف من هذا أن يكتفى بأنْ يعلم حاله، فيشتغل بما أمره الله ويعمل على طاعته ولا يراعى إنجاز ما وعده بل يَكِلُ أمره إلى الله. وهذا هو (التسليم).

وفوق هذا (التفويض) ، وهو أن يَكِلَ أمره إلى الله، ولا يقترح على مولاه بحال، ولا يختار ويستوى عنده وجود الأسباب وعدمها، فيشتغل بأداء ما ألزمه الله ولا يفكر فى حال نفسه، ويعلم أنه مملوك لمولاه والسيّد أولى بعبده من العبد بنفسه.

فإذا ارتقى عن هذه الحالة، وجد راحةً فى المنع واستعذب ما يستقبله من الرّدّ. وتلك هى (مرتبة الرضا)، ويحصل له فى هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائفه مالا يحصل لمن دونه من الحلاوة فى وجود المقصود.

بعد هذا الموافقة وهى ألا يجد الراحة فى المنع، بل يجد بدل هذا عند نسيم القرب زوائد الأنس بنسيان كلّ طلب، ونسيان وجود سبب، أو عدم وجود سبب فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند برد الرضا وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجابا فكذلك أهل الأنس بالله. بنسيان كلّ فقد ووجد، وبالتغافل عن أحوالهم فى الوجود والعدم يعدون النزول إلى استلذاذ المنع، والاستقلال بلطائف الرضا نقصانا فى الحال.

فيُقال شرط التوكل أن يكون كالطفل فى المهد لا شيء من قبله إلا أن يُرضعه من هو فى حضانته .

ويقال التوكل زوال الاستشراف، وسقوط الطمع، وفراغ القلب من تعب الانتظار.

ويقال التوكل السكون عند مجارى الأقدار على اختلافها.

ويقال إذا وثق القلب بجريان القِسمة لا يضره الكسب، ولا يقدح فى توكله.

قلتُ ناقله هذه نقطة هامة جدا توضح أن التوكل الصوفي الحق لا يتعارض مع الكسب، ولا يتعارض معه الكسب.

قال ويُقال عوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا، وإذا منعوا صبروا. وخواصّهم إذا أعطوا آثروا، وإذا منعوا شكروا. انتهى.

والواقع أن القشيري هنا متأثر بالآراء الكثيرة التي أدلى بها الشيوخ فى هذا الموضوع، وعلى وجه الخصوص بشيخه الدقاق، الذي يقول (كما في رسالة القشيري) التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفى بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه، ويقول كذلك التوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية.

ويقول كذلك التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين.

حكم السعي بين الصفا والمروة.

يقول الله تعالى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨) {} (البقرة ١٥٨، ١٥٩).

وإنما الاختلاف الواقع بين العلماء في السعي بين الصفا والمروة هو حكمه من الحج والعمرة وليس في كونه من الشعائر، فإن الآية أثبتته بالنص حين قالت {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}.

(أ) فذهب ابن عمر، وجابر، وعائشة من الصحابة رضي الله عنهم، ومالك، والشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين عنه إلى أن السعي (ركن) من أركان الحج.

بحيث لو ترك الحاج السعي بين الصفا والمروة، بطل حجه ولا يجبر بدم، ولا غيره.

عن عائشة رضى الله عنها قالت طاف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاف المسلمون، فكانت سُنّة، فلعمري ما أتمّ الله حج من لم يطف بين الصفا والمروة (رواه مسلم).

وعن حبيبة بنت أبي تِجْرَأة قالت دخلتْ على دار أبي حسين نسوةٌ من قريش، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطوف بين الصفا والمروة وهو يسعى، يدور به إزاره من شدة السعي، وهو يقول لأصحابه اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي (رواه أحمد وصححه الألباني بمجموع طرقه كما في الإرواء).

وقد رجَّح البخاري (وجوبه) بترجمته في الصحيح قبل الحديث الذيذكرناه آنفاً عن عائشة رضي الله عنها .

(ب) وذهب أبو حنيفة، والثوري، والحسن إلى أنه واجب، وليس بركن [1]، لا يبطل الحج أو العمرة بتركه، وأنه إذا تركه وجب عليه دمٌ.

ورجح صاحب المغني ابن قدامة رحمه الله هذا الرأي فقال

١ وهو أولى، لان دليل من أوجبه، دل على مطلق الوجوب، لاعلى كونه لا يتم الواجب إلا به.

٢ وقول عائشة رضي الله عنها في ذلك مُعارَض بقول من خالفها من الصحابة.

٣ وحديث بنت أبي تجرأة، قال ابن المنذر يرويه عبد الله بن المؤمل، وقد تكلموا في حديثه. وهو يدل على أنه مكتوب، وهو الواجب.

٤ وأما الآية فإنها نزلت لما تحرج ناس من السعي في الاسلام، لما كانوا يطوفون بينهما في الجاهلية، لأجل صنمين، كانا على الصفا والمروة.

(ج) وذهب ابن عباس، وأنس، وابن الزبير، وابن سيرين، ورواية عن أحمد أنه سنة، لا يجب بتركه شئ. وَمُعَوَّلُ مَنْ نَفَى وُجُوبَهُ وَرُكْنِيَّتَهُ أمران

أحدهما قوله تعالى {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا} ورفع الجناح من أحكام المباحات دون الواجبات.

والثاني أن ابن عباس وابن مسعود قَرَء {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن لاَّ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}. بزيادة لا التي تدل على إباحة ترك السعي بينهما.

قلتُ وليس في قوله {فَلاَ جُنَاحَ} دليل على إباحته دون وجوبه؛ لخروجه على سببٍ أفضتُ فيه آنفاً. وأما قراءة ابن مسعود، وابن عباس {فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن لاَّ يَطَّوَّفَ بِهِمَا} فقراءةٌ شاذةٌ، فلا حجة فيها على سقوط فرض السعي بينهما.وكذلك لأن (لا) هنا عند بعض النحاة صلةٌ في الكلام إذ تقدمها

---

(1) الفرق بين الركن والواجب عند الأحناف أن الركن يساوي الفرض الذي يبطل العمل بتركه ولا يُجبَر. وأما الواجب فهو أقل من الفرض. وهو ما ثبت بدليل فيه شبهةٌ ويسمى فرضاً عملياً. بمعنى أنه يعامل معاملة الفرائض في العمل. فيُأثَم بتركه. ولا يبطل العمل بتركه.

بجَحْد، مثل قوله تعالى {مَا مَنَعَكَ أَنْ لا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} (الأعراف ١٢) بمعنى ما منعك أن تسجد، وكما قال الشاعر

ما كان يرضى رسول الله فعلهم .. والطيبان أبو بكر ولا عُمَرُ. (أي وعمر).

ويكون عندي والله أعلم الرأي الأخير أضعف الآراء في حكم السعي بين الصفا والمروة. وللوجهين الأولين وجاهةٌ وقبولٌ، وأرجح الأخذ بالأول (بأنه ركنٌ) والاتساع بالفتوى بالرأى الثاني (بالوجوب وجبره بالدم) من باب التيسير.

تأملات قرآنية

{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (١١)} (سورة العاديات)

{و} الواو هنا واو القسم يقسم ربنا تبارك وتعالى ب{العاديات} جمع (العادية) وهى الخيول التي تعدو في سبيل الله جهادا. والضبح هو صوت أنفاسها المتعالية في كرها وفرها، {والموريات} جمع (مورية) وهى التي تشعل الأرض بحوافرها تقدحها { قدحا} كما يقدح الزند النار، { والمغيرات} جمع (مغير) أي التي تغير على أعداء الحق {صبحا} ناشطة في أول الصباح لتنشر نور الحق صداحا وتدفع عنه ظلمة الباطل { فأثرن} أي الخيل الناشطة في سبيل الله تثير بصباحها {نقعا} غبار الحرب والجهاد { فوسطن به جمعا} أي توسطت جمع الظلام بنقع كرها وفرها، والنار التي تقدحها حوافرها.

قال أهل المعاني (القسم هو بالخيل جملة لأنها تعدو ضابحة قديما وحديثا، وهي حاصرة البلاد وهادمة الممالك، وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة. وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وإبراهيم وعبيد بن عمير الْعادِياتِ في هذه الآية الإبل لأنها تضبح في عدوها، قال علي والقسم بالإبل العاديات من عرفة

ومن مزدلفة إذا وقع الحاج وبإبل غزوة بدر فإنه لم يكن في الغزوة غير فرسين فرس المقداد وفرس الزبير بن العوام.

قال ابن عطية والظاهر في الآية، أن القسم بالخيل أو بالإبل أو بهما..

قال والقسم واقع على قوله {إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «أتدرون ما الكنود؟ قالوا لا يا رسول الله، قال هو الكفور الذي يأكل وحده ويمنع رفده، ويضرب عبده» . وقد يكون من المؤمنين الكفور بالنعمة، فتقدير الآية إن الإنسان لنعمة ربه لكنود، وأرض كنود لا تنبت شيئا، وقال الحسن بن أبي الحسن الكنود اللائم لربه الذي يعد السيئات وينسى الحسنات، والكنود العاصي بلغة كندة، ويقال للبخيل كنود، وقال الفضيل الكنود الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة ويعامل الله على عقد عوض، وقوله تعالى {وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ} يحتمل الضمير أن يعود على الله تعالى، وقاله قتادة أي وربه شاهد عليه، وتفسير هذا الخبر يقتضي الشهادة بذلك، ويحتمل أن يعود على «الإنسان» أي أفعاله وأقواله وحاله المعلومة من هذه الأخلاق تشهد عليه، فهو شاهد على نفسه بذلك، وهذا قول الحسن ومجاهد، والضمير في قوله تعالى {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لشديد } عائد على «الإنسان» لا غير، والمعنى من أجل حب الخير إنه لَشَدِيدٌ، أي بخيل بالمال ضابطٌ له، والْخَيْرُ المال على عرف ذلك في كتاب الله تعالى، قال عكرمة الْخَيْرُ حيث وقع في القرآن فهو المال، ويحتمل أن يراد هنا الخير الدنياوي من مال وصحة وجاه عند الملوك ونحوه، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك، فأما المحب في خير الآخرة فممدوحٌ له مرجوٌ له الفوز.

وقوله تعالى {أَفَلا يَعْلَمُ إذا بُعثِر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور}، توقيف على المآل والمصير أي أفلا يعلم مآله فيستعد له، و «بعثرة ما في القبور» تقصيه مما يستره والبحث عنه، وهذه عبارة عن البعث والحساب، و«تحصيل ما في الصدور» تمييزه وكشفه ليقع الجزاء عليه من إيمان وكفر ونية، ويفسره قول النبي صلى الله عليه وسلم «يُبعَث الناس يوم القيامة على نياتهم».

ثم استؤنف في الخبر الصادق، الجزم بأن الله تعالى خبير بهم {يَوْمَئِذٍ}، لكن خصص يَوْمَئِذٍ لأنه يوم المجازاة، فإليه طمحت النفوس، وهذا وعيد مصرح.) [١]

دور علم أسباب النزول في توجيه النص القرآني.

عند وقوفنا عند قوله تعالى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ.. الآية ١٥٨/البقرة}

نقف أمام نصٍ انفتح على قرينةٍ خارجية لتوجيه تأويله. فالمفاتيح الدلالية من داخل النص لم تمكِّنَّا من توجيهه، وكان لابد من قرينةٍ خارجيةٍ تمثلت في سبب النزول، وقرينة الحال للمخاطَبين بالنص القرآني، وملابساته وقت نزوله. وهنا يقف النص نفسه مطالبا بالتدخل لتوجيهه.

يقول العلامة السيوطي عند حديثه عن علم أسباب النزول [٢]:

زَعَمَ زَاعِمٌ أَنَّهُ لَا طَائِلَ تَحْتَ هَذَا الْفَنِّ لِجَرَيَانِهِ مَجْرَى التَّارِيخِ وَأَخْطَأَ فِي ذَلِكَ بَلْ لَهُ فَوَائِدُ مِنْهَا مَعْرِفَةُ وَجْهِ الْحِكْمَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى تَشْرِيعِ الْحُكْمِ.. وَمِنْهَا الْوُقُوفُ عَلَى الْمَعْنَى وَإِزَالَةُ الْإِشْكَالِ قَالَ الْوَاحِدِيُّ لَا يُمْكِنُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ دُونَ الْوُقُوفِ عَلَى قِصَّتِهَا وَبَيَانِ نُزُولِهَا.

وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ بَيَانُ سَبَبِ النُّزُولِ طَرِيقٌ قَوِيٌّ فِي فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ.

وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ مَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْآيَةِ فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ يُورِثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ.

وَقَدْ أَشْكَلَ عَلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ مَعْنَى قَوْلِهِ تعالَى {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا} الآيَةَ، وَقَالَ لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ فَرِحَ بِمَا أُوتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ حَتَّى بَيَّنَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ حِينَ سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ وَأَرَوْهُ أَنَّهُمْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ. أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ.

وَحُكِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ وَعَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ الْخَمْرُ مُبَاحَةٌ وَيَحْتَجَّانِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} الآية وَلَوْ عَلِمَا سَبَبَ نُزُولِهَا لَمْ يَقُولَا

---

[١] تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٥١٣) باختصار وتصرف يسير

(٢)الإتقان في علوم القرآن (١/ ١٠٧)

ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لَمَّا حُرِّمَتِ الْخَمْرُ كَيْفَ بِمَنْ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَاتُوا وَكَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ وَهِيَ رِجْسٌ؟ فَنَزَلَتْ. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمَا.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ} فَقَدْ أَشْكَلَ مَعْنَى هَذَا الشَّرْطِ عَلَى بَعْضِ الْأَئِمَّةِ حَتَّى قَالَ الظَّاهِرِيَّةُ بِأَنَّ الْآيِسَةَ لَا عِدَّةَ عَلَيْهَا إِذَا لَمْ تَرْتَبْ. وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ سَبَبَ النُّزُولِ وَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي عِدَدِ النِّسَاءِ قَالُوا قَدْ بَقِيَ عَدَدٌ مِنْ عِدَدِ النِّسَاءِ لَمْ يُذْكَرْنَ الصِّغَارُ وَالْكِبَارُ فَنَزَلَتْ. أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ عَنْ أُبَيٍّ. فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ الْآيَةَ خِطَابٌ لِمَنْ لَمْ يَعْلَمْ مَا حُكْمُهُنَّ فِي الْعِدَّةِ وَارْتَابَ هَلْ عَلَيْهِنَّ عِدَّةٌ أَوْ لَا؟ وَهَلْ عِدَّتُهُنَّ كَاللَّاتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوْ لَا؟ فَمَعْنَى {إِنِ ارْتَبْتُمْ} إِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكُمْ حُكْمُهُنَّ وَجَهِلْتُمْ كَيْفَ يعتدون فَهَذَا حُكْمُهُنَّ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى {فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} فَإِنَّا لَوْ تُرِكْنَا وَمَدْلُولَ اللَّفْظِ لَاقْتَضَى أَنَّ الْمُصَلِّيَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ اسْتِقْبَالُ الْقِبْلَةِ سَفَرًا وَلَا حَضَرًا وَهُوَ خِلَافُ الْإِجْمَاعِ فَلَمَّا عُرِفَ سبب نزولها علم أَنَّهَا فِي نَافِلَةِ السَّفَرِ أَوْ فِيمَنْ صَلَّى بِالِاجْتِهَادِ وَبَانَ لَهُ الْخَطَأُ عَلَى اخْتِلَافِ الرِّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} الآية فَإِنَّ ظَاهِرَ لَفْظِهَا لَا يَقْتَضِي أَنَّ السَّعْيَ فَرْضٌ وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَدَمِ فَرْضِيَّتِهِ تَمَسُّكًا بِذَلِكَ وَقَدْ رَدَّتْ عَائِشَةُ عَلَى عُرْوَةَ فِي فَهْمِهِ ذَلِكَ بِسَبَبِ نُزُولِهَا وَهُوَ أَنَّ الصَّحَابَةَ تَأَثَّمُوا مِنَ السَّعْيِ بَيْنَهُمَا لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ. فَنَزَلَتْ.. إلخ كلامه رحمه الله تعالى. (١)

فرض بيان العلم وتحريم كتمانه.

قال تعالى { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥)} (البقرة ١٧٤، ١٧٥).

---

(١) وبفضل الله تعالى لي حديثٌ طويل النفس عن آليات فهم وتوجيه معاني القرآن العظيم في كتابٍ أعده منذ زمنٍ عن تدبر القرآن العظيم من خلال نظرةٍ شموليةٍ من داخل النص وخارجه.

وهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الَّتِي أَرَادَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ لَوْلَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى مَا حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثًا .

قال القرطبي وَتَحْقِيقُ الْآيَةِ هُوَ أَنَّ الْعَالِمَ إِذَا قَصَدَ كِتْمَانَ الْعِلْمِ عَصَى، وَإِذَا لَمْ يَقْصِدْهُ لَمْ يَلْزَمْهُ التَّبْلِيغُ إِذَا عُرِفَ أَنَّهُ مَعَ غَيْرِهِ. وَأَمَّا مَنْ سُئِلَ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِ التَّبْلِيغُ. انتهى كلامه.

قال الشيخ العلامة محمد عبده رحمه الله هنا كلاما نفيساً

إِنَّ الْعِبْرَةَ فِي الْآيَةِ هِيَ أَنَّ حُكْمَهَا عَامٌّ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهَا خَاصًّا، فَكُلُّ مَنْ يَكْتُمُ آيَاتِ اللهِ وَهِدَايَتَهُ عَنِ النَّاسِ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِهَذِهِ اللَّعْنَةِ. وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْوَعِيدُ وَأَشْبَاهُهُ حُجَّةً عَلَى الَّذِينَ لَبِسُوا لِبَاسَ الدِّينِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَانْتَحَلُوا الرِّيَاسَةَ لِأَنْفُسِهِمْ بِعِلْمِهِ، حَاوَلُوا التَّحَيُّلَ مِنْهُ فَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْكِتْمَانَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا إِذَا سُئِلَ الْعَالِمُ عَنْ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى فَكَتَمَهُ.

وَأَخَذُوا مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ قَاعِدَةً؛ هِيَ أَنَّ الْعُلَمَاءَ لَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ نَشْرُ مَا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى وَدَعْوَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ وَبَيَانُهُ لَهُمْ، وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يُجِيبَ إِذَا سُئِلَ عَمَّا يَعْلَمُهُ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ عَالِمٌ غَيْرُهُ، وَإِلَّا كَانَ لَهُ أَنْ يُحِيلَ عَلَى غَيْرِهِ.

وَقَدْ رَدَّهَا أَهْلُ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ فَقَالُوا

إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يَكْتَفِ بِالْوَعِيدِ عَلَى الْكِتْمَانِ، بَلْ أَمَرَ بِبَيَانِ هُدَاهُ لِلنَّاسِ، وَبِالدَّعْوَةِ إِلَى الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْعَدَ مَنْ يَتْرُكُ هَذِهِ الْفَرِيضَةَ، ذَكَرَ لَهُمُ الْعِبَرَ فِيمَا حَكَاهُ عَنِ الَّذِينَ قَصَّرُوا فِيهَا مِنْ قَبْلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} (آل عمران ١٨٧) إلخ..

وَقَوْلِهِ {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} إِلَى قَوْلِهِ فِي الْمُتَفَرِّقِينَ عَنِ الْحَقِّ - {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (آل عمران ١٠٤، ١٠٥).

وَقَوْلِهِ {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} إِلَى قَوْلِهِ فِي عِصْيَانِهِمُ الَّذِي هُوَ سَبَبُ لَعْنَتِهِمْ { كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ} (المائدة ٧٨، ٧٩) إلخ.

فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَعَنَ الْأُمَّةَ كُلَّهَا لِتَرْكِهِمُ التَّنَاهِيَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

نَعَمْ إِنَّ هَذَا فَرْضُ كِفَايَةٍ إِذَا قَامَ بِهِ الْبَعْضُ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ، وَلَكِنْ لَا يَكْفِي فِي كُلِّ قُطْرٍ وَاحِدٌ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَقُومَ بِهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى لِتَكُونَ لَهُمْ قُوَّةٌ وَلِنَهْيِهِمْ وَأَمْرِهِمْ تَأْثِيرٌ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ هَذَا فِي تَفْسِيرِ {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ} (آل عمران ١٠٤) إلَخْ.

قال وَمَا وَرَدَ مِنْ تَدَافُعِ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فِي الْفَتْوَى فَإِنَّمَا هُوَ فِي الْوَقَائِعِ الْعَمَلِيَّةِ الِاجْتِهَادِيَّةِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلنَّاسِ، لَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى مَقَاصِدِ الدِّينِ الثَّابِتَةِ بِالنُّصُوصِ وَسِيَاجِهَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ.

وَذَهَبَ بَعْضُ المؤولين مَذْهَبًا آخَرَ هُوَ أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ مَخْصُوصٌ بِالْكَافِرِينَ، فَتَرْكُ الْمُؤْمِنِ فَرِيضَةً مِنَ الْفَرَائِضِ كَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يَسْتَحِقُّ

بِهِ وَعِيدَ الْكَافِرِينَ فَيُلْحِقُهُ بِالْكُفَّارِ. وَهَذَا كَلَامٌ قَدْ أَلِفَتْهُ الْأَسْمَاعُ، وَلَكِنَّهُ إِذَا عُرِضَ عَلَى اللهِ فِي الْآخِرَةِ وَعَلَى كِتَابِهِ فِي الدُّنْيَا يَظْهَرُ أَنَّهُ لَا قِيمَةَ لَهُ، وَإِذَا بَحَثْتَ فِيهِ يَظْهَرُ لَكَ أَنَّ الَّذِي يَرَى حُرُمَاتِ اللهِ تُنْتَهَكُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، وَدِينَ اللهِ يُدَاسُ جِهَارًا بَيْنَ يَدَيْهِ، وَيَرَى الْبِدَعَ تَمْحُو السُّنَنَ، وَالضَّلَالَ يَغْشَى الْهُدَى، وَلَا يَنْبِضُ لَهُ عِرْقٌ وَلَا يَنْفَعِلُ لَهُ وِجْدَانٌ، وَلَا يَنْدَفِعُ لِنُصْرَتِهِ بِيَدٍ وَلَا بِلِسَانٍ، هُوَ هَذَا الَّذِي إِذَا قِيلَ لَهُ إِنَّ فُلَانًا يُرِيدُ أَنْ يُصَادِرَكَ فِي شَيْءٍ مِنْ رِزْقِكَ أَوْ يُحَاوِلُ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَيْكَ عِنْدَ الْأُمَرَاءِ وَالْحُكَّامِ، تَجِيشُ فِي صَدْرِهِ الْمَرَاجِلُ وَيَضْطَرِبُ بَالُهُ وَيَتَأَلَّمُ قَلْبُهُ، وَرُبَّمَا تَجَافَى جَنْبُهُ عَنْ مَضْجَعِهِ، وَهَجَرَ الرُّقَادُ عَيْنَيْهِ، ثُمَّ إِنَّهُ يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ وَيُعْمِلُ الْفِكْرَ فِي اسْتِنْبَاطِ الْحِيَلِ وَإِحْكَامِ التَّدْبِيرِ لِمُدَافَعَةِ ذَلِكَ الْخَصْمِ أَوِ الْإِيقَاعِ بِهِ، فَهَلْ يَكُونُ لِدِينِ اللهِ تَعَالَى فِي نَفْسِ مِثْلِ هَذَا قِيمَتُهُ؟

وَهَلْ يُصَدَّقُ أَنَّ الْإِيمَانَ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِهِ، وَالْبُرْهَانَ عَلَيْهِ قَدْ حَكَمَ عَقْلَهُ، وَالْإِذْعَانَ إِلَيْهِ قَدْ ثَلَّجَ صَدْرَهُ؟ سَهُلَ عَلَى مَنْ نَظَرَ فِي بَعْضِ كُتُبِ الْعَقَائِدِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى أَسَاسِ الْجَدَلِ أَنْ يُجَادِلَ نَفْسَهُ وَيَغُشَّهَا بِمَا يُسَلِّيهَا بِهِ مِنَ الْأَمَانِي الَّتِي يُسَمِّيهَا إِيمَانًا، وَلَكِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهَا فَنَاقَشَهَا الْحِسَابَ وَرَجَعَ إِلَى عَقْلِهِ وَوِجْدَانِهِ لَعَلِمَ أَنَّهُ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، وَأَنَّهُ يَعْبُدُ شَهْوَتَهُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَأَنَّ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي سَرَدَهَا الْكِتَابُ سَرْدًا،

وَأَحْصاهَا عَدًّا وَأَظْهَرُهَا بَذْلُ الْمَالِ وَالنَّفسِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَنَشْرِ الدَّعْوَةِ وتَأْيِيدِ الْحَقِّ كُلُّهَا بَرِيئَةٌ مِنْه، وَأَنَّ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ كُلَّهَا رَاسِخَةٌ فِيهِ.

فَلْيُحَاسِبِ امْرُؤٌ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُحَاسَبَ، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ قَبْلَ حُلُولِ الْأَجَلِ لَعَلَّهُ يَتُوبُ عَلَيْهِ وَهُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. [1]

قلتُ وفي ذلك يقول عبد الله بن المبارك رحمه الله

وهل أفسد الدين إلا الملوكُ .. وأحبارُ سَوْءٍ ورهبانُها.

وباعُوا النفوسَ ولم يَرْبَحُوا ..ولم تغلُ في البيْع أثمَانُهَا.

لقدْ رتعَ القومُ في جِيفَةٍ .....يَبِينُ لذي العَقْلِ إنْتَانُهَا.

حرمانُ العلمِ مَن لا يستحقه أو مَنْ يفسد به واجبٌ.

وفي ظلال الآية قال العلامةُ الراغب

وليس ذلك (أي الحث على بيان الهدى والعلم) بمنافٍ منع حقائق الحكمة عمن لا يستحقها، فإن ذلك دعاء له أن يترشح لقبولها وحسن سماعها وحفظها لئلا يستعين بها في طريق الشر، فليس العلم بأهون على الله عز وجل من المال الذي هو عَرَض حاضر يأكل منها البر والفاجر، وقد منع أن يمكن منه السفيه الذي لا يحسن مراعاته، فقال {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا}. [2]

ومنه قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً. [3]

---

[1] نقله تلميذه محمد رشيد رضا في تفسير المنار (٢/ ٤٢)

[2] تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٣٥٦)

[3] هو عند مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع عن ابن مسعود موقوفاً: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة. بإسناد مرسل أو منقطع. وهو صحيح.

وَقَالَ علي بن أبي طالبٍ رضى الله عنه (حَدِّثِ النَّاسَ بِمَا يَفْهَمُونَ أَتُحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ). (١)

وَهذَا مَحْمُولٌ عَلَى بَعْضِ الْعُلُومِ، كَعِلْمِ الْكَلَامِ أَوْ مَا لَا يَسْتَوِي فِي فَهْمِهِ جَمِيعُ الْعَوَامِّ، فَحُكْمُ الْعَالِمِ أَنْ يُحَدِّثَ بِمَا يُفْهَمُ عَنْهُ، وَينْزِلَ كُلَّ إِنْسَانٍ مَنْزِلَتَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ تَعْلِيمُ الْمُبْتَدِعِ الْجِدَالَ وَالْحِجَاجَ لِيُجَادِلَ بِهِ أَهْلَ الْحَقِّ.

وَلَا يُعَلَّمُ الْخَصْمُ عَلَى خَصْمِهِ حُجَّةً يَقْطَعُ بِهَا مَالَهُ.

وَلَا السُّلْطَانُ تَأْوِيلًا يَتَطَرَّقُ بِهِ إِلَى مَكَارِهِ الرَّعِيَّةِ.

وَلَا يَنْشُرُ العلماءُ الرُّخَصَ فِي السُّفَهَاءِ فَيَجْعَلُوا ذَلِكَ طَرِيقًا إِلَى ارْتِكَابِ الْمَحْظُورَاتِ، وَتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

يُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (لَا تَمْنَعُوا الْحِكْمَةَ أَهْلَهَا فَتَظْلِمُوهُمْ وَلَا تَضَعُوهَا فِي غَيْرِ أَهْلِهَا فَتَظْلِمُوهَا). ولا يصح مرفوعاً.

ومثله مَا رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ (لَا تُعَلِّقُوا الدُّرَّ فِي أَعْنَاقِ الْخَنَازِيرِ)؛ يُرِيدُ تَعْلِيمَ الْفِقْهِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ.

وَقَدْ قَالَ سَحْنُونٌ إِنَّ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ). إِنَّمَا جَاءَ فِي الشَّهَادَةِ.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ وَالصَّحِيحُ خِلَافُهُ، لِأَنَّ فِي الْحَدِيثِ (مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ) وَلَمْ يَقُلْ عَنْ شَهَادَةٍ، وَالْبَقَاءُ عَلَى الظَّاهِرِ حَتَّى يَرِدَ عَلَيْهِ مَا يُزِيلُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (٢)

---

(١) وهو من أفراد البخاري عَن أبي الطُّفَيْل عَامر بن وَاثِلَة قَالَ: سَمِعت علياً يَقُول: حدثوا النَّاس بِمَا يعْرفُونَ، أتحبون أَن يكذب الله وَرَسُوله. رواه في كتاب العلم، باب من خص قوماً دون قوم في العلم، ذكره البخاري تعليقاً في أول الباب ثم عقبه بالإسناد. ولم يصح في المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وانظر " المقاصد الحسنة " للسخاوي صفحة ٩٣.

(٢) انظر تفسير القرطبي (٢/ ١٨٤).

مَن احتج بهذه الآية على قبول خبر الواحد، وعدم جواز أخذ الأجرة على التعليم.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهَذِهِ الْآيَاتِ فِي قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ..

يقولون إن الله تعالى أوجب على العلماء بيان أحكام الحق والهدى للناس، وجعلهم الطريق إلى معرفة الدين، وبذلك فقد أوجب العمل على مَن بلغه الدين عن طريقهم، وإنْ لم يبلغوا مبلغ التواتر. فدلَّ ذلك على قبول خبرهم.

فإذا اعترض معترضٌ وقال إنما القصد أنْ يكثروا الرواية للأحكام حتى تتواتر في نقلها، قلنا له هَذَا غَلَطٌ لِأَنَّهُمْ مَا نُهُوا عَنِ الْكِتْمَانِ إِلَّا وَهُمْ مِمَّنْ يَجُوزُ عَلَيْهِمُ الْكِتْمَانُ وَمَنْ جَازَ مِنْهُمُ التَّوَاطُؤُ عَلَى الْكِتْمَانِ جَازَ مِنْهُمُ التَّوَاطُؤُ عَلَى الْوَضْعِ وَالِافْتِرَاءِ فَلَا يَكُونُ خَبَرُهُمْ مُوجِبًا لِلْعِلْمِ.

وحجية خبر الواحد وإفادته للعلم مُقَرَّرةٌ تمامَ التقريرِ في كتاب الإحكام في أصول الأحكام للعلامة ابن حزمٍ رحمه الله. وهو من أعمدة كتب الأصول.

وكذا احْتَجُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَى التَّعْلِيمِ لِأَنَّ الْآيَةَ لَمَّا دَلَّتْ عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ كَانَ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَيْهِ أَخْذًا لِلْأُجْرَةِ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ. (١)

*****

على خطا التوحيد نسير.

يقول الله تعالى {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣)} (البقرة ١٦٣).

قال العلامة ابن جزي رحمه الله واعلم أن توحيد الخلق لله تعالى على ثلاث درجات الأولى توحيد عامة المسلمين وهو الذي يعصم النفس من الهلك في الدنيا، وينجي من الخلود في النار في الآخرة وهو نفي الشركاء والأنداد، والصاحبة والأولاد، والأشباه والأضداد. الدرجة الثانية توحيد الخاصة، وهو أن يرى الأفعال كلها صادرة من الله وحده ويشاهد ذلك بطريق المكاشفة لا بطريق الاستدلال

---

(١) انظر أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي (١/ ١٢٤)، وانظر تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٤/ ١٤١).

الحاصل لكل مؤمن، وإنما مقام الخاص في التوحيد يغني في القلب بعلم ضروري لا يحتاج إلى دليل، وثمرة هذا العلم الانقطاع إلى الله والتوكل عليه وحده واطراح جميع الخلق، فلا يرجو إلّا الله، ولا يخاف أحدا سواه إذ ليس يرى فاعلا إلّا إياه ويرى جميع الخلق في قبضة القهر ليس بيدهم شيء من الأمر، فيطرح الأسباب وينبذ الأرباب، والدرجة الثالثة ألّا يرى في الوجود إلّا الله وحده فيغيب عن النظر إلى المخلوقات، حتى كأنها عنده معدومة. وهذا الذي تسميه الصوفية مقام الفناء بمعنى الغيبة عن الخلق حتى أنه قد يفنى عن نفسه، وعن توحيده أي يغيب عن ذلك باستغراقه في مشاهدة الله.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله على أقسام الفناء في اصطلاح السالكين

أنه يراد به ثلاثة معان أحدها محمود والثاني منقوص والثالث إلحاد.

فالأول أن يفنى بعبادته عن عبادة ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وبمحبته عن محبة ما سواه وبخوفه عن خوف ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه وهذه حقيقة التوحيد الذي أرسل الله به الرسل وأنزل به الكتب وهذا حال الأنبياء وأتباعهم والفناء عن عبادة السِّوى يُقارنه البقاء بعبادته تعالى فهذا الفناء يقارنه البقاء وهو حقيقة قول لا إله إلا الله.

وأما النوع الثاني وهو الفناء عن شهود السوى ويسمى الاصطلام ومنه الفناء في توحيد الربوبية وهو أن يغيب بمشهوده عن شهوده وبمعبوده عن عبادته وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته فيفنى بالمعروف عن المعرفة والعارف.

وهذه الحال ليست واجبة ولا مستحبة وليست حال الأنبياء ولا السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ولا أكابر المشايخ الصالحين ولكن هو حالٌ يعْرِض لطائفةٍ من السالكين كما يُذكر عن أبي يزيد البسطامي رحمه الله وعن غيره أنه قال في هذا المشهد سبحاني أو ما في الجبَّة إلا الله ونحو ذلك.

.. لكن بكل حال ليس العبد مأمورًا بالمقام في هذه الحال وهي تُحمد من جهة انجذاب القلب إلى ربه ومن جهة توجُّهه إليه وتألُّهه إيَّاه ويسميها بعضُ الناس الجمع الأول..

وهذا المقام مما حققه الجُنيد رضي الله عنه وأمثاله من أئمة أهل الطريق الذين يُقتدى بهم الذين يلاحظون الأمرَ والنهي كالشيخ عبد القادر ونحوه من المتأخرين ..أي على كلِّ وليٍّ لله أن يتبع الأمر

والنهي الإلهي النبوي الشرعي المحمدي ويحكّم على نفسه الكتّاب والسنة ولا يخرج عن ذلك لا لذوقٍ يخالفه أو وجدٍ أو حالٍ أو مشهد أو غير ذلك بل يزن أذواقه ومواجيده وأحواله وحقائقه بالكتّاب والسنة...

وأصحاب هذا المشهد قد ينتقل أحدهم من هذا إلى الوحدة ولهذا يقولون السالك يشهد أولاً طاعة ومعصية ثم يشهد طاعةً بلا معصية ثم لا يشهد لا طاعة ولا معصية.

وقد يقول بعضهم يكون أولاً فقيرًا ثم يصير نبيًّا ثم يصير إلهًا وحينئذ يدخلون إلى النوع الثالث من الفناء وهو فناء المُلْحِدين الذين يقولون الوجود واحد كابن عَرَبِي وابن سَبْعِين وابن الفارض والقُونَوي والتِّلِمْساني وأمثالهم ممن يجعل الوجود الخالق هو الوجود المخلوق وربما جعلوه حالاً فيه ومذهبهم دائر بين الاتحاد والحلول ولكن قد لا يرضون لفظ الاتحاد بل يقولون الوحدة لأن الاتحاد يكون بين شيئين وهم يقولون الوجود واحد لا تعدد فيه. (١)

قال القشيري طيب الله ثراه

شرّف عباده المؤمنين غاية التشريف بقوله {وإلهكم}. وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا علامة من يعدّه من خاصّ الخواص أن يقول له عبدي، وذلك (أي قوله وإلهكم) أتمّ من هذا (أي قوله عبدي) بكثير لأن قوله «وَإِلَهُكُمْ» وإضافة نعته أتمّ من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لك بلا علّة، وكونك له عبد يعوّض كل نقصك وآفتك.

واسمه تعالى «الواحد» أى مَن لا مِثل له يدانيه، ولا شكل يلاقيه. لا قسيم يجانسه ولا قديم يؤانسه. لا شريك يعاضده ولا معين يساعده ولا منازع يعانده.

أحدىُّ الحق، صمدىّ العين، ديمومّى البقاء، أبدىّ العز، أزلىّ الذات.

واحدٌ في عز سنائه، فرد في جلال بهائه، وِتر في جبروت كبريائه، قديمٌ فى سلطان عزّه، مجيد في جمال ملكوته. انتهى (٢)

---

(١) الرد على الشاذلي في حزبيه وما صنفه في آداب الطريق (ص: ١٠١)

(٢) لطائف الإشارات = تفسير القشيري (١/ ١٤٣)

فمن رحمانية الله أن (تعرّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته، وأمارات وجوده، وسمات ربوبيته التي هى أقسام أفعاله. ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوحدانية بما أثبت فيها من براهين تلطفت عن العبارة، ووجوه من الدلالات تدقّ عن الإشارة، فما من عينٍ من العدم محصولة من شخص أو طلل، أو رسم أو أثر، أو سماء أو فضاء، أو هواء أو ماء، أو شمس أو قمر، أو قطر أو مطر، أو رمل أو حجر، أو نجم أو شجر إلا وهو على الوحدانية دليل، ولمن يقصد وجوده سبيل) [1]

حكم التقليد في الدين، والفرق بينه وبين الاتباع.

يقول المولى عز وجل {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)} (البقرة ١٧٠، ١٧١).

قال علماؤنا وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد، ونظيرها الآيات في سورة المائدة، وذلك أن الله سبحانه أخبر عن جهالة العرب فيما تحكمت فيه بآرائها السفيهة في البحيرة والسائبة والوصيلةكما في الآية {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣)}، و لهذا عقب على ذلك للذكر الحكيم {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)} (المائدة ١٠٤).، فاحتجوا بأنه أمر وجدوا عليه آباءهم فاتبعوهم في ذلك، وتركوا ما أنزل الله على رسوله وأمر به في دينه.

وقد تعلق قوم بهذه الآية في ذم التقليد لذم الله تعالى الكفار باتباعهم لآبائهم في الباطل، واقتدائهم بهم في الكفر والمعصية. وهذا هو التقليد المذموم في الباطل.

---

[1] ( ) المرجع السابق (١/ ١٤٤)

أما التقليد في الحق فمشروعٌ، وهو عصمة من عِصَم المسلمين يلجأ إليها الجاهل الذي لا يمتلك الأدوات اللازمة للاجتهاد وفهم نصوص الشريعة من الكتاب والسنة فيلجأ إلى تقليد عالمٍ أمينٍ كما في قوله تعالى {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (النحل ٤٣، الأنبياء ٧)..

واختلف العلماء في جواز التقليد في مسائل الأصول على ما يأتي، وأما جوازه في مسائل الفروع فصحيحٌ.

والتقليد عند العلماء حقيقته قبولُ قولٍ بلا حجة، وعلى هذا فمن قبل قول النبي صلى الله عليه وسلم من غير نظرٍ في معجزته يكون مقلدا، وأما من نظر فيها فلا يكون مقلدا، ويكون بعد قناعته بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام باجتهاد عقله وتأمل دلائل الحق وأماراته التي يحضنا القرآن العظيم على تتبعها ويرفع الله إيمان المؤمنين بتأملها؛ يكون بذلك متّبعاً وليس مقلدا، وهو فرقٌ لطيفٌ بين التقليد والاتباع يتحاشاه أهل البدع المعاصرة من العلمانية وغيرهم، فيخلطون بين التقليد الذي هو موضع نقاشٍ وخلاف، والاتباع المفروض على كل مسلم تجاه رسول وكتابه؛ هذا في العقيدة وأصول الدين.

(قَالَ ابْنُ دِرْبَاسٍ وَقَدْ أَكْثَرَ أَهْلُ الزَّيْغِ الْقَوْلَ عَلَى مَنْ تَمَسَّكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَنَّهُمْ مُقَلِّدُونَ. وَهَذَا خَطَأٌ مِنْهُمْ، بَلْ هُوَ بِهِمْ أَلْيَقُ وَبِمَذَاهِبِهِمْ أَخْلَقُ، إِذْ قَبِلُوا قَوْلَ سَادَاتِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ فِيمَا خَالَفُوا فِيهِ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ وَإِجْمَاعَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فَكَانُوا دَاخِلِينَ فِيمَنْ ذَمَّهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ { رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا}، وَقَوْلِهِ { إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ }.

ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ { قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ }، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّ الْهُدَى فِيمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَلَيْسَ قَوْلُ أَهْلِ الْأَثَرِ فِي عَقَائِدِهِمْ إِنَّا وَجَدْنَا أَئِمَّتَنَا وَآبَاءَنَا وَالنَّاسَ عَلَى الْأَخْذِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنَ الْأُمَّةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا وَأَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا} بِسَبِيلٍ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ نَسَبُوا ذَلِكَ إِلَى التَّنْزِيلِ وَإِلَى مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ، وَأُولَئِكَ نَسَبُوا إِفْكَهُمْ إِلَى أَهْلِ الْأَبَاطِيلِ، فَازْدَادُوا بِذَلِكَ فِي التَّضْلِيلِ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَثْنَى عَلَى يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْقُرْآنِ حَيْثُ قَالَ { إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ

قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ }.

فَلَمَّا كَانَ آبَاؤُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَنْبِيَاءَ مُتَّبِعِينَ لِلْوَحْيِ وَهُوَ الدِّينُ الْخَالِصُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ، كَانَ اتِّبَاعُهُ آبَاءَهُ مِنْ صِفَاتِ الْمَدْحِ.

وَلَمْ يَجِئْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ذِكْرُ الْأَعْرَاضِ وَتَعَلُّقِهَا بِالْجَوَاهِرِ وَانْقِلَابِهَا فِيهَا (يقصد عقائد المعتزلة مدعي العقل والتمنطق في الدين)، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لَا هُدَى فِيهَا وَلَا رُشْدَ فِي وَاضِعِيهَا.

قَالَ ابْنُ الْحَصَّارِ

وَإِنَّمَا ظَهَرَ التَّلَفُّظُ بِهَا (أي ألفاظ علم الكلام من العرض والجوهر وغيرها) فِي زَمَنِ الْمَأْمُونِ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ لَمَّا تُرْجِمَتْ كُتُبُ الْأَوَائِلِ (أي كتب الإغريق في الفلسفة والمنطق) وَظَهَرَ فِيهَا اخْتِلَافُهُمْ فِي قِدَمِ الْعَالَمِ وَحُدُوثِهِ. وَاخْتِلَافُهُمْ فِي الْجَوْهَرِ وَثُبُوتِهِ، وَالْعَرَضِ وَمَاهِيَّتِهِ، فَسَارَعَ الْمُبْتَدِعُونَ وَمَنْ فِي قَلْبِهِ زَيْغٌ إِلَى حِفْظِ تِلْكَ الِاصْطِلَاحَاتِ، وَقَصَدُوا بِهَا الْإِغْرَابَ (أي التنطع والأخذ بالغريب) عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ، وَإِدْخَالَ الشُّبَهِ عَلَى الضُّعَفَاءِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ.

فَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ ظَهَرَتِ الْبِدْعَةُ، وَصَارَتْ لِلْمُبْتَدِعَةِ شِيعَةٌ (أي ناس ينصرونهم ويظاهرونهم)، وَالْتَبَسَ الْأَمْرُ عَلَى السُّلْطَانِ (يقصد الخلفاء المأمون والمعتصم وغيره الذين نصروا عقائد المعتزلة، وصنعوا بها فتنةً لأهل السنة)، حَتَّى قَالَ الْأَمِيرُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَجَبَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ، وَضُرِبَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رضى الله عنه على ذلك فصبر وأقام الحق بصبره.

وَكَانَ مَنْ دَرَجَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ مُتَمَسِّكِينَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مُعْرِضِينَ عَنْ شُبَهِ الْمُلْحِدِينَ، لَمْ يَنْظُرُوا فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ، وَعَلَى ذَلِكَ الاتباع كَانَ السَّلَفُ. انتهى [1]

ثم أمر الإسلام الذين يملكون أدوات الاجتهاد أو بعضها بإعمال أدواتهم لفهم نصوص الشريعة، ومن لم يملك منهم ذلك فعليه أن يبحث عن العلماء الأمناء على شرع الله تعالى ويسألهم.

. راجع تفسير القرطبي ٢/٢١١.

وَالتقليد فِي اللُّغَة مَأْخُوذٌ مِنْ قِلَادَة الْبَعِير، فَإِنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ قَلَّدْتُ الْبَعِيرَ إِذَا جَعَلْتَ فِي عُنُقِه حَبْلًا يُقَادُ بِهِ، فَكَأَنَّ الْمُقَلِّدَ يَجْعَلُ أَمْرَهُ كُلَّهُ لِمَنْ يَقُودُهُ حَيْثُ شَاءَ.

قال القرطبي التقليد ليس طريقا للعلم ولا موصلا له، لا في الأصول ولا في الفروع، وهو قول جمهور العقلاء والعلماء.

قال وأما فَرْضُ الْعَامِّيِّ الَّذِي لَا يَشْتَغِلُ بِاسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ مِنْ أُصُولِهَا لِعَدَمِ أَهْلِيَّتِهِ فِيمَا لَا يَعْلَمُهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ فهو أَنْ يَقْصِدَ أَعْلَمَ مَنْ فِي زَمَانِهِ وَبَلَدِهِ فَيَسْأَلُهُ عَنْ نَازِلَتِهِ فَيَمْتَثِلُ فيها فتواه، لقوله تعالى {فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، وَعَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي البحث عن أَعْلَمِ أَهْلِ وَقْتِهِ، حَتَّى يَقَعَ عَلَيْهِ الِاتِّفَاقُ مِنَ الْأَكْثَرِ مِنَ النَّاسِ.

قلتُ الباحث وربما خرج العامي من ربقة التقليد باجتهاده في البحث عن أعلم أهل زمانه وآمنهم على دينه، فكان مجتهدا على قدر وسعه واستطاعته.

قال وَعَلَى الْعَالِمِ أَيْضًا فَرْضُ أَنْ يُقَلِّدَ عَالِمًا مِثْلَهُ فِي نَازِلَةٍ خَفِيَ عَلَيْهِ فِيهَا وَجْهُ الدَّلِيلِ وَالنَّظَرِ، وَأَرَادَ أَنْ يُجَدِّدَ الْفِكْرَ فِيهَا وَالنَّظَرَ حَتَّى يَقِفَ عَلَى الْمَطْلُوبِ، فَضَاقَ الْوَقْتُ عَنْ ذَلِكَ، وَخَافَ عَلَى الْعِبَادَةِ أَنْ تَفُوتَ، أَوْ عَلَى الْحُكْمِ أَنْ يَذْهَبَ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْمُجْتَهِدُ الْآخَرُ صَحَابِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ.

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى إِبْطَالِ التَّقْلِيدِ فِي الْعَقَائِدِ.

قَالَ عُثْمَانَ بْنِ عِيسَى بْنِ دِرْبَاسٍ الشَّافِعِيّ فِي كِتَابِ الِانْتِصَارِ لَهُ وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ يَجُوزُ التَّقْلِيدُ فِي أَمْرِ التَّوْحِيدِ، وَهُوَ خَطَأٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ}.

فَذَمَّهُمْ بِتَقْلِيدِهِمْ آبَاءَهُمْ وَتَرْكِهِمُ اتِّبَاعَ الرُّسُلِ، كَصَنِيعِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ فِي تَقْلِيدِهِمْ كُبَرَاءَهُمْ وَتَرْكِهِمُ اتِّبَاعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي دِينِهِ، وَلِأَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ تَعَلُّمُ أَمْرِ التَّوْحِيدِ وَالْقَطْعُ بِهِ، وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاللَّهُ يهدي من يريد. [١]

١() تفسير القرطبي (٢/ ٢١١)

وفي معنى قوله تعالى {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ (٢٢)} (الزخرف ٢٢). فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُ لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ سِوَى تَقْلِيدِ آبَائِهِمْ، وَمَعْنَى عَلَى أُمَّةٍ أي عَلَى طَرِيقَةٍ وَمَذْهَبٍ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ والأمة هنا هِيَ الطَّرِيقَةُ وَالدِّينُ.

يقول العلامة الشوكاني في فتح القدير (٤/ ٦٣٢) في ذم التقليد

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى بُطْلَانِ التَّقْلِيدِ وَقُبْحِهِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُقَلِّدَةِ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِقَوْلِ أَسْلَافِهِمْ، وَيَتَّبِعُونَ آثَارَهُمْ، وَيَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَإِذَا رَامَ الدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ أَنْ يُخْرِجَهُمْ مِنْ ضَلَالَةٍ أَوْ يَدْفَعَهُمْ عَنْ بِدْعَةٍ قَدْ تَمَسَّكُوا بِهَا وَوَرِثُوهَا عَنْ أَسْلَافِهِمْ بِغَيْرِ دَلِيلٍ نَيِّرٍ وَلَا حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ، بَلْ بِمُجَرَّدِ قَالَ، وَقِيلَ لِشُبْهَةٍ دَاحِضَةٍ، وَحُجَّةٍ زَائِفَةٍ، وَمَقَالَةٍ بَاطِلَةٍ، قَالُوا بِمَا قَالَهُ الْمُتْرَفُونَ مِنْ هَذِهِ الْمِلَلِ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ، أَوْ بِمَا يُلَاقِي مَعْنَاهُ مَعْنَى ذَلِكَ، فَإِنْ قَالَ لَهُمُ الدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ قَدْ جَمَعَتْنَا الْمِلَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَشَمِلَنَا هَذَا الدِّينُ الْمُحَمَّدِيُّ، وَلَمْ يَتَعَبَّدْنَا الله ولا تعبدكم ولا تعبد آبَاءَكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ إِلَّا بِكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَبِمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ، فَإِنَّهُ الْمُبَيِّنُ لِكِتَابِ اللَّهِ الْمُوَضِّحُ لِمَعَانِيهِ، الْفَارِقُ بَيْنَ مُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ، فَتَعَالَوْا نَرُدُّ مَا تَنَازَعْنَا فِيهِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ } فَإِنَّ الرَّدَّ إِلَيْهِمَا أَهْدَى لَنَا وَلَكُمْ مِنَ الرَّدِّ إِلَى مَا قَالَهُ أَسْلَافُكُمْ وَدَرَجَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ، نَفَرُوا نُفُورَ الْوُحُوشِ، وَرَمَوُا الدَّاعِيَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ بِكُلِّ حَجَرٍ وَمَدَرٍ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ { إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } وَلَا قَوْلَهُ {فَلا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً } فَإِنْ قَالَ لَهُمُ الْقَائِلُ هَذَا الْعَالِمُ الَّذِي تَقْتَدُونَ بِهِ وَتَتَّبِعُونَ أَقْوَالَهُ هُوَ مِثْلُكُمْ فِي كَوْنِهِ مُتَعَبِّدًا بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، مَطْلُوبًا مِنْهُ مَا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنْكُمْ، وَإِذَا عَمِلَ بِرَأْيِهِ عِنْدَ عَدَمِ وِجْدَانِهِ لِلدَّلِيلِ، فَذَلِكَ رُخْصَةٌ لَهُ لَا يَحِلُّ أَنْ يَتْبَعَهُ غَيْرُهُ عَلَيْهَا، ولا يجوز لهم الْعَمَلُ بِهَا، وَقَدْ وَجَدُوا الدَّلِيلَ الَّذِي لَمْ يَجِدْهُ، وَهَا أَنَا أُوجِدُكُمُوهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ فِيمَا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ رَسُولِهِ، وَذَلِكَ أَهْدَى لَكُمْ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، قَالُوا لَا نَعْمَلُ بِهَذَا وَلَا سَمْعَ لَكَ وَلَا طَاعَةَ، ووجدوا في صدورهم أعظم الْحَرَجِ مِنْ حُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يُسَلِّمُوا بذلك وَلَا أَذْعَنُوا لَهُ، وَقَدْ وَهَبَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ عصا

يوكؤون عَلَيْهَا عِنْدَ أَنْ يَسْمَعُوا مَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّة، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ إِمَامَنَا الَّذِي قَلَّدْنَاهُ وَاقْتَدَيْنَا بِهِ أَعْلَمُ مِنْكَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَذْهَانَهُمْ قَدْ تَصَوَّرَتْ مَنْ يَقْتَدُونَ بِهِ تَصَوُّرًا عَظِيمًا بِسَبَبِ تَقَدُّمِ الْعَصْرِ وَكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ هَذَا مَنْقُوضٌ عَلَيْهِمْ مَدْفُوعٌ بِهِ فِي وُجُوهِهِمْ، فَإِنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ فِي التَّابِعِينَ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ قَدْرًا، وَأَقْدَمُ عَصْرًا مِنْ صَاحِبِكُمْ، فَإِنْ كَانَ لِتَقَدُّمِ الْعَصْرِ وَجَلَالَةِ الْقَدْرِ مَزِيَّةٌ حَتَّى تُوجِبَ الِاقْتِدَاءَ، فَتَعَالَوْا حَتَّى أُرِيَكُمْ مَنْ هُوَ أَقْدَمُ عَصْرًا وَأَجَلُّ قَدْرًا، فَإِنْ أَبَيْتُم ذلك، ففي الصحابة رضي الله عنهم من هو أعظم قدرا من صاحبكم علما وفضلا وجلالة قدر، فَإِنْ أَبَيْتُمْ ذَلِكَ، فَهَا أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ هُوَ أَعْظَمُ قَدْرًا وَأَجَلُّ خَطَرًا وَأَكْثَرُ أَتْبَاعًا وَأَقْدَمُ عَصْرًا، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله نبينا ونبيكم ورسول اللَّهِ إِلَيْنَا وَإِلَيْكُمْ فَتَعَالَوْا فَهَذِهِ سُنَّتُهُ مَوْجُودَةٌ فِي دَفَاتِرِ الْإِسْلَامِ وَدَوَاوِينِهِ الَّتِي تَلَقَّتْهَا جَمِيعُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَعَصْرًا بَعْدَ عَصْرٍ، وَهَذَا كِتَابُ رَبِّنَا خَالِقِ الْكُلِّ وَرَازِقِ الْكُلِّ وَمُوجِدِ الْكُلِّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا مَوْجُودٌ فِي كُلِّ بَيْتٍ، وَبِيَدِ كُلِّ مُسْلِمٍ لَمْ يَلْحَقْهُ تَغْيِيرٌ وَلَا تَبْدِيلٌ، وَلَا زِيَادَةٌ وَلَا نَقْصٌ، وَلَا تَحْرِيفٌ وَلَا تَصْحِيفٌ، وَنَحْنُ وَأَنْتُمْ مِمَّنْ يَفْهَمُ أَلْفَاظَهُ وَيَتَعَقَّلُ مَعَانِيَهُ، فَتَعَالَوْا لِنَأْخُذَ الْحَقَّ مِنْ مَعْدِنِهِ وَنَشْرَبَ صَفْوَ الْمَاءِ مِنْ مَنْبَعِهِ، فَهُوَ أَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ، قَالُوا لَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ، إِمَّا بِلِسَانِ الْمَقَالِ أَوْ بِلِسَانِ الْحَالِ، فَتَدَبَّرْ هَذَا وَتَأَمَّلْهُ إِنْ بَقِيَ فِيكَ بَقِيَّةٌ مِنْ إِنْصَافٍ وَشُعْبَةٌ مِنْ خَيْرٍ وَمُزْعَةٌ مِنْ حَيَاءٍ وَحِصَّةٌ مِنْ دِينٍ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ. وَقَدْ أَوْضَحْتُ هَذَا غَايَةَ الْإِيضَاحِ فِي كِتَابِي الَّذِي سَمَّيْتُهُ «أَدَبَ الطَّلَبِ وَمُنْتَهَى الْأَرَبِ» فارجع إليه إن رمت أن تجلي عنك ظلمات التعصب وتنقشع لَكَ سَحَائِبُ التَّقْلِيدِ. انتهى.

الحكمة من تحريم لحم الخنزير والميتة والدم.

.(في قوله تعالى { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ } (البقرة ١٧٣

ونتحدث هنا عن الحكمة في التحريم، وليس العلة، ولا نجزم، ولهذا تفصيل ليس موضعه الآن.

وربما تكون الحكمة في تحريم ماذكر في الآية أما الميتة فلأنها قذرة نتنة، ولما فيها من ضرر، لأنها إمّا أن تكون قد ماتت لمرض قد أفسد تركيبها. وجعلها لا تصلح للبقاء. وإما لسبب طارئ.

فأما الأولى فقد خبث لحمها، وتلوث بجراثيم المرض، فيخاف من عدواها ونقل مرضها إلى آكليها.
وأما الثانية فلأنّ الموت الفجائي يقتضي بقاء المواد الضارّة في جسمها.
ولذلك يوجب الاسلام ذبح الحيوان بطريقة معينة (ذكاة الحيوان أو تذكيته) للتخلص من دمة، لما في الدم من مكروبات وجراثيم لذلك كانت حكمة الاسلام في تحريم أكل الميتة لما يحويه جسدها من هذه الجراثيم والميكروبات التي أتاح لها موت الجسد الانتشار فيه وتشكيل خطورة بالغة جراء أكلها.
وأمّا الدم المسفوح، فماذا يقول العلماء عن الدم؟ يحمل الدم سموماً، وفضلاتٍ كثيرة، ومركباتٍ ضارة، ذلك لأن إحدى وظائفه هي نقل فضلات الجسم وسمومه إلى أجهزة الإخراج ليتم التخلص منها، وأهم المواد التي يحويها الدم هي البولينا (اليوريا) وهي المُخرَجات النهائية الناتجة عن تقويض البروتينات.
فإذا ما تناول الإنسان كمياتٍ من الدم، فإن هذه المركبات تمتص في الجسم مرةً أخرى بدلا من إخراجها، ويرتفع مقدارها في الجسم، إضافةً إلى المركبات التي تنتج عن هضم الدم ذاته، مما يؤدي إلى ارتفاع نسبة اليوريا وتكوين مركبات نوشادر حمضية في الدم، وبالتالي إلى حدوث اعتلالٍ دماغي ينتهي بالغيبوبة، وهذا ما يحدث أيضاً نتيجة بلع الانسان لكميات كبيرة من دمه، نتيجة نزف من المرىء أو المعدة او الأمعاء.
وكذلك يعتبر الدم وسطاً ملائماً جداً، لنمو أنواع كثيرةٍ من الجراثيم القاتلة، وقد استفيد من هذه الخاصة في صنع مزارع الجراثيم من الدم.
هذا ما يقوله العلماء حول الدم حينما حرّمه الله عزَّ وجل، حرَّمه لحكمةٍ بالغةٍ.
وأما لحم الخنزير، فلأن غذاءه من القاذورات والنجاسات، وهو حيوان دنئ الخصال فينجس لذلك..
ولأن فيه ضررا، فقد استكشف الأطباء أنّ لحم الخنزير يحمل جراثيم شديدة الفتك، ويظهر أيضا أن المتغذي من لحم الخنزير قد يكتسب من طباع ما يأكله، والخنزير فيه كثير من الطباع الخبيثة.
يحمل جسم حيوان الخنزير مما يحمله من الأمراض الفتاكة طفيليات تعيش فى أمعائه وفى عضلاته مثل الدودة الشريطية التي تعيش على هيئة أكياس مثل دودة التريخينا ويبلغ طولها داخل الكيس

من (٢) الى (٣) أمتار إذا انفصل منها جزء اكتمل ليصنع كيسا ودودةً كاملةً ليكمل دورته المميتة، وهى موجودة أيضا داخل عضلات حيوان الخنزير.

وعندما تصل الأكياس الموجودة في لحم الخنزير الى معدة الانسان ويتم الهضم تنطلق اليرقات فتخترق جدار المعدة لتصل الى الدورة الدموية، وعن طريقها تصل الى جزاء من الجسم وأخطرها طبعا المخ ثم القلب والكبد والرئتين، وهى حينئذٍ مميتة. فالأكياس التي تصل الى العضلات تمو وتعمل اكياسا ينشأ عنها آلاما روماتيزمية مبرحة في العضلات المصابة من الإنسان مثل اللسان والحنجرة وعضلات الصدر بين الاضلاع والحجاب الحاجز والفكين والاذرع والأرجل وعضلات جدار البطن ويصاحب هذه الالام تورم واحتباسا للماء في الوجه وازدياد في عدد كرات الدم البيضاء وخصوصا الايزونوفيلية .

وقد تكون اعراض التسمم الناشىء أثناء فترة تكيس اليرقات شديدة (anaphylaxis) مع ظهور اعراض في الجهاز التنفسي أو غيبوبة اذا كان عدد اليرقات في الرئتين كبير..والذى يستوجب التفكير في حكمة الخالق سبحانه في تحريم لحم الخنزير أن هذه الأكياس لا يُعرف لها علاجٌ شافي حتى الآن، فمضادات الديدان المعروفة تسبب موت الدودة في طور نشاطها داخل الأعضاء المهمة مما يؤدي إلى انفجارها ودمار العضو أو صنع تلف قاتل داخل الكبد او القلب أو الرئتين .

وقد بيّن الله تبارك وتعالى الحكمة في تحريم لحوم الخنزير في قوله تعالى (فَإِنَّهُ رِجْسٌ)؛ أي أنه نجس، وهو ضار ومؤذٍ ونتن، وهذه العلة تُعتبر علةً ذاتيّةً؛ فهي قائمة لا تنفكّ أبداً عن لحم الخنزير.

وهذا يوضح أن العلّة في التحريم ليست علّةً عارضةً أو علّةً مُكتسبةً. فالعلة العارضة، كأكل الخنزير للقاذورات والقمامة والنفايات، يحدث في بعض الدول دون غيرها؛ لأن الدول في الغرب يُطعمون الخنزير الأعلاف الطيبة، ويُربّونها في حظائر صحيّة ونظيفة ومُغلقة ومُكيّفة، وعندها تنتفي العلة العارضة. و كذلك العلة في كون الخنزير رجس أيضاً ليست مُكتسبةً؛ فلا تزول بزوال سببها، كإصابة الخنزير ببعض الأمراض، مثل الأمراض الطُفيليّة، والأمراض البكتيريّة، والأمراض الفيروسيّة؛ لأنّ هذه الأمراض مُكتسبة ويُمكن السيطرة عليها سواءً بالعلاج بالمُضادّات الحيويّة التي تُستخدم ضدّ مُسبّبات

الأمراض السابقة، أو باستخدام اللّقاحات الوقائيّة، وهي شائعة الآن وتُستخدَم بشكل واسع، وبهذا كلّه تنتفي العلل المُكتَسبة ولا تكون عللاً صالحةً للتّحريم.

بانتفاء العلة العارضة وانتفاء العلّة المُكتسَبة ينتفي الحكم، وفي ذلك تكذيب لكلام الله تعالى الذي يتلوهُ المسلمون إلى قيام الساعة، وتبقى العلة الذاتيّة هي العلّة التي لا تنفك أبداً عن لحم الخنزير، وهي كونه نجساً في ذاته، وضارّاً ذاتيّاً، ومُؤذياً لمن يأكله أو يتعامل معه؛ بالتربية أو يتعامل مع لحمه جزارةً وأكلاً، فالعلة في كون الخنزير رجس هي الأصل في الحكم الشرعيّ وبقائه.

- أضرار لحم الخنزير والفرق بين لحم الخنزير واللحم الحلال.

يحتوي لحم الخنزير على الدهون بكميّة كبيرة، ويمتاز بأن الدهن فيه يدخل ضمن الخلايا العضليّة، كما تتواجد خارج خلاياه في الأنسجة الضامّة، بينما لحوم الأنعام تنفصل فيها الدهون عن النسيج العضليّ ولا تتموضع الدهون في باقي. وقد أثبتت الدراسات العلميّة أن الإنسان حينما يتناول دهون الحيوانات التي تأكل العشب فإن دهون الحيوانات آكلة العشب تُستَحلب في أمعاء الإنسان وتُمتَص وتتحوّل إلى دهون إنسانيّة، أمّا حينما يأكل لحوم الحيوانات التي تفترس وتأكل اللحوم فإن استحلاب دهونها يكون عسيراً في أمعاء الإنسان، ويتمّ امتصاص جُزيئات مادّة الغليسريدات الثلاثيّة الموجودة في دهن الخنزير كما هي إلى الأمعاء دون أن تتحول أو تترسّب في أنسجة جسم الإنسان، فتبقى كدهون حيوانيّة أو خنزيريّة.

ومن المُثير للدّهشة ملاحظة د.هانس هايترش التي يقول فيها إن الذين يأكلون شحوم الخنزير من أيّ منطقة من جسم الخنزير فإنّها تترسّب عند الإنسان في نفس المنطقة ذاتها عند الإنسان الآكل للحم الخنزير، وهكذا وجد د.هانس أنّ النّساء اللواتيّ يأكلن فخذ لحم الخنزير يُشاهد بكل وضوح لديهن تشوّه في الفخذين والإليتين، والكولسترول الناتج عن تحلّل لحم الخنزير في جسم الإنسان يظهر في دمه على شكل كولسترول جزئيّ؛ أي أنّه كولسترول كبير الذرّة، ممّا يُؤدّي ارتفاع الضغط الدمويّ بكثرة، ويُؤدّي كذلك إلى تصلُّب الشرايين، وهما عاملان من عوامل الخطورة التي تُعتَبر تمهيداً لاحتشاء عضلة القلب.

وقد توصل البروفيسور **Roff** إلى أنّ الكولسترول الموجود في الخلايا السرطانيّة الجوّالة يُشابه الكولسترول الذي يتشكّل عند تناول لحم الخنزير، ويُعتَبر لحم الخنزير لحماً غنيّاً بالمُركّبات التي تحتوي على نسبة عالية من الكبريت، ممّا يُؤثّر على قابليّة امتصاص الأنسجة الضامّة للماء، فتُصبح الأنسجة الضامّة كالإسفنج وتكتسب شكلاً كيسيّاً واسعاً، ممّا يُؤدّي إلى تراكم بعض المواد المُخاطيّة في الأوتار وفي الأربطة والغضاريف، ويُؤدّي ذلك إلى ارتخائها، ممّا يُهيِّئ للإصابة بالالتهابات، وخاصة الالتهاب المعروف بالتهاب المفاصل التنكسيّ؛ وهو يُصيب المَفاصل بين الفقرات خاصّةً، ويؤدّي كذلك إلى تنكّس في العظام.

والأنسجة المُحتوية على الكبريت تُصاب بالتعفّن والتخمّر، وتنتج عنها روائح كريهة تفوح بسبب انطلاق غاز كبريت الهيدروجين، وحتى الآنية المُحتوية على لحم الخنزير، وبالرغم من أنّها ربما تكون مُحكمة السدّ إلا أنّه يتوجّب إخراجها من الغرفة بعد أيام بسبب الروائح الكريهة.

وبالمقارنة مع اللحوم الأخرى تم إخضاعها لنفس التجربة، وُجِدَ أن لحم البقر مثلاً كان أبطأ تعفُّناً بشكل ملحوظ من التعفّن الكبير والسريع الذي يُصيب لحم الخنزير، ولم تنطلق من لحم البقر تلك الرّوائح النّتنة التي تنطلق وتفوح من لحم الخنزير.

ويحتوي لحم الخنزير كذلك على نسبة تُعتَبر نسبةً عاليةً من هرمونات النموّ ذات تأثير أكيد تُؤهّب وتُمهّد للإصابة بخامة النّهايات،وكذلك لها تأثير في زيادة نموّ دهون البطن (الكرش)،وكذلك زيادة مُعدلات النموّ خاصّةً الأنسجة المُهيِّئة للنموّ والتطوّر السرطانيّ.

وعن الأمراض التي يُسبّبها لحم الخنزير الخنزير.

يختصّ مُنفرداً بنقل ٢٧ مرضاً وبائيّاً إلى الإنسان، وصحيح أن بعض الحيوانات تُشاركه في نقل بقية الأمراض، لكن الخنزير يبقى المَخزن والمَصدر الرئيسيّ لنقل هذه الأمراض.

ويمكن أن تنتقل هذه الأوبئة من الخنزير إلى الإنسان بعدّة طرق

يمكن أن تنتقل عن طريق مُخالطة الخنزير أثناء تربيته أو أثناء التّعامل مع مُنتجاته، وهذه الأمراض والأوبئة تُصيب في أغلبها المهنيّين الذين يعملون مع الخنزير أو يتعاملون مع لحم الخنزير، وهم عمال

الزّرائب والمجازرو كذلك البيطريّون. يمكن أن تنتقل هذه الأوبئة والأمراض عن طريق تلوّث الطّعام وتلوث الشّراب بفضلات الخنزير، ومن هذه الأمراض الديدان والشّعيرات الحلزونية وغيرها.

يمكن أن تنتقل هذه الأوبئة والأمراض عن طريق تناول لحم الخنزير ومُنتجاته، وهذا يُؤكّد ما توصّل إليه العلماء؛ وهو أنّ الحظر المفروض على المسلمين بألا يُلامسوا لحم الخنزير أو يأكلوه ليس بحاجة إلى تبرير بعد كل هذه الأمراض التي تُصيب الإنسان نتيجة تعامله مع الخنزير، سواء كمهنة أو تناول لحمه. (١)

مسألة فقهية اجتماعية.

يقول تعالى {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) } (البقرة ١٧٧، ١٧٨).

وهنا مسألةٌ فقهيةٌ للمتأملين يطرحها العلامة أبو بكر الجصاص وغيره، وعنه ننقل يجيب عن سؤال هل المقصود هنا في {وآتى المال} الزكاة الواجبة أو الصدقة والتطوع؟

وقَوْله تَعَالَى {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى} يَحْتَمِلُ بِهِ أَنْ يُرِيدَ بِهِ الصَّدَقَةَ الْوَاجِبَةَ (الزكاة)، وَأَنْ يُرِيدَ بِهِ التَّطَوُّعَ.

١() راجع مشكورا :- مجموعة من طلاب العلم (١٩-٨-٢٠٠١)، "العلة في تحريم أكل لحم الخنزير"، إسلام ويب، اطّلع عليه بتاريخ ١٤-٣-٢٠١٧.

- أ.د/ حنفي محمود مدبولي (من أبحاث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتركيا ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م)، "الإعجاز العلمي في تحريم لحم الخنزير"، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة، اطّلع عليه بتاريخ ٢٤-٢-٢٠١٧م ص٣٠٧ وما بعدها.

- موقع الإسلام سؤال وجواب (٩-٤-٢٠٠٤)، "نصراني يسأل عن سبب تحريم لحم الخنزير"، الإسلام سؤال وجواب، اطّلع عليه بتاريخ ١٤-٣-٢٠١٧.

يقول وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهَا الْوَاجِبَةُ وَإِنَّمَا فِيهَا حَثٌّ على الصدقة ووعد بالثواب عليها.

وذلك لِأَنَّ أَكْثَرَ مَا فِيهَا أَنَّهَا مِنْ الْبِرِّ وَهَذَا لَفْظٌ يَنْطَوِي عَلَى الْفَرْضِ وَالنَّفْلِ إلَّا أَنَّ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ وَنَسَقِ التِّلَاوَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الزَّكَاةَ لقوله تعالى بعدها {وَأَقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ} فَلَمَّا عَطَفَ الزَّكَاةَ عَلَيْهَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ الزَّكَاةَ بِالصَّدَقَةِ الْمَذْكُورَةِ قَبْلَهَا.

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ أَرَادَ بِهِ حُقُوقًا وَاجِبَةً فِي الْمَالِ سِوَى الزَّكَاةِ نَحْوَ وُجُوبِ صِلَةِ الرَّحِمِ إذَا وَجَدَ رحمه ذَا ضُرٍّ شَدِيدٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ مَنْ قَدْ أَجْهَدَهُ الْجُوعُ حَتَّى يُخَافَ عَلَيْهِ التَّلَفُ فَيَلْزَمُهُ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا يَسُدُّ جَوْعَتَهُ.

وَقَدْ رَوَى شَرِيكٌ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ عَامِرٍ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ ، وَتَلَا قَوْله تَعَالَى {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} الْآيَةَ. [(١)]

قلتُ وهو حديثٌ ضعيفٌ.

وَرَوَى سُفْيَانُ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلم أَنَّهُ ذَكَرَ الْإِبِلَ فَقَالَ إنَّ فِيهَا حَقًّا. فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ إطْرَاقُ فَحْلِهَا وَإِعَارَةُ ذَلُولِهَا وَمِنْحَةُ سَمِينِهَا . رواه مسلم في الصحيح، وغيره [(٢)] . وطرق الفحل الناقة يطرقها طرقًا وطروقًا قعا عليها وضربها. وإطراق الفحل إعارته للضِّراب لإخصاب أنثى الحيوان.

---

(١) حديث ضعيف والصحيح أنه من قول الشعبي. والله أعلم.. انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٩/ ٣٧٠) يقول الألباني رحمه الله: أخرجه الترمذي (١/ ١٢٨)، والدارمي (١/ ٣٨٥)، وابن عدي (١٩٣/ ١) عن جمع، عن شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس مرفوعاً. وقال الترمذي:

"إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور؛ يضعف. وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي قوله، وهو أصح".

ميمون ضعيف؛ كما أفاده الترمذي، وجزم به في "التقريب".

وشريك - وهو ابن عبد الله القاضي -؛ سيىء الحفظ.

(٢)حديث صحيح. انظر إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٥/ ٣٤٦) للألباني رحمه الله يقول: أخرجه مسلم (٣/٧٤) والنسائي (١/٣٣٩-٣٤٠) والدارمي (١/٣٧٩-٣٨٠) من طريق عبد الملك بن أبي سليمان عن أبي الزبير عن

فَذَكَرَ فِي هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ أَنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ وَبَيَّنَ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ تَأْوِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ). الْآيَةَ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِقَوْلِهِ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ مَا يَلْزَمُ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى ذَوِي الْمَحَارِمِ الْفُقَرَاءِ، وَيَحْكُمُ بِهِ الْحَاكِمُ عَلَيْهِ لِوَالِدَيْهِ وَذَوِي مَحَارِمِهِ إذَا كَانُوا فقراء عاجزِين عَنْ الْكَسْبِ.

وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِهِ مَا يَلْزَمُهُ مِنْ إطعامِ الْجَائِعِ الْمُضْطَرِّ، وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِهِ حَقًّا مَنْدُوبًا إلَيْهِ لَا وَاجِبًا، إذْ لَيْسَ قَوْلُهُ فِي الْمَالِ حَقٌّ يَقْتَضِي الْوُجُوبَ إذْ مِنْ الْحُقُوقِ مَا هُوَ نَدْبٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ فَرْضٌ.

قلتُ متأمله الفقير وقد صرح القرآن العظيم بنوعين من الحقوق المالية أحدها الحق المعلوم المحسوب للزكاة، والثاني الحق المندوب إليه وهو متروك لظروف صاحبه ومقدار إيمانه وإحسانه.

ففي النوع الأول قال تعالى {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} (المعارج ٢٤، ٢٥).، وفي الثاني قال {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} (الذاريات ١٩).، وفرَّق بينهما بالتخصيص والبيان للحق في الأول بأنه (معلوم)، فتأمل رحمك الله.

قال الجصاص رحمه الله بسنده عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ). (١)

جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا أقعد لها يوم القيامة بقاع قرقر تطؤه ذات الظلف بظلفها، وتنطحه ذات القرن بقرنها ليس فيها يومئذ جماء ولا مكسورة القرن.
قلنا يا رسول الله وما حقها؟ قال: إطراق فحلها، وإعارة دلوها، ومنيحتها، وحلبها على الماء وحمل عليها في سبيل الله.
ولا من صاحب مال لا يؤدي زكاته إلا تحول يوم القيامة شجاعا أقرع يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفر منه، ويقال هذا مالك الذي كنت تبخل به، فإذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده في فيه فجعل يقضمها كما يقضم الفحل " ثم أخرجه مسلم والدارمي وأحمد (٣/٣٢١) من طريق بن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله الأنصاري يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: فذكره نحوه.
وأخرجه أبو داود (١٦٦١) بنحوه ولم يسق لفظه بتمامه.

(١) أخرجه الدَّارَقُطْنِي في الصيد والذبائح، ثُمَّ الْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنه فِي الْأُضْحِيَّةِ عَنْ الْمُسَيِّبِ بْنِ شَرِيكٍ عَنْ عُتْبَةَ بْنِ الْيَقْظَانِ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَلِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ، وَنَسَخَ صَوْمُ رَمَضَانَ كُلَّ صَوْمٍ، وَنَسَخَ غُسْلُ الْجَنَابَةِ كُلَّ غُسْلٍ، وَنَسَخَتْ الْأَضَاحِيُّ كُلَّ ذَبِيحٍ"، انْتَهَى. وَضَعَّفَاهُ، قَالَ الدَّارَقُطْنِيُّ: الْمُسَيِّبُ بْنُ شَرِيكٍ، وَعُتْبَةُ بْنُ الْيَقْظَانِ مَتْرُوكَانِ، انْتَهَى.

فَإِنْ صَحَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَائِرُ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ مَنْسُوخَةٌ بِالزَّكَاةِ، وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ مَرْفُوعًا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِجَهَالَةِ رَاوِيهِ فَإِنَّ حَدِيثَ عَلِيٍّ رضى الله عنه حَسَنُ السَّنَدِ، وَهُوَ يُوجِبُ أَيْضًا إثْبَاتَ نَسْخِ الصَّدَقَاتِ الَّتِي كَانَتْ وَاجِبَةً بِالزَّكَاةِ.

وَذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إلَّا مِنْ طَرِيقِ التَّوْقِيفِ، فَيُعْلَمُ بِذَلِكَ أَنَّ مَا قَالَهُ عَلِيٌّ هُوَ بِتَوْقِيفٍ مِنْ النَّبِيِّ صلّى الله عليه وسلم إيَّاهُ عَلَيْه.

وَحِينَئِذٍ يَكُونُ الْمَنْسُوخُ مِنْ الصَّدَقَاتِ صَدَقَاتٍ قَدْ كَانَتْ وَاجِبَةً ابْتِدَاءً بِأَسْبَابٍ تَقْتَضِي لُزُومَ إخْرَاجِهَا ثُمَّ نُسِخَتْ بِالزَّكَاةِ نَحْوَ قَوْلِهِ تعالَى {وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ}.

قلتُ متأمله على رأى مَن يرى نسخ هذه الآية بآية المواريث.

قال الجصاص وَنَحْوَ مَا رُوِيَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ} أَنَّهُ مَنْسُوخٌ عِنْدَ بَعْضِهِمْ بِالْعُشْرِ وَنِصْفِ الْعُشْرِ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ). أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ وَأَنَّهُ حَقٌّ وَاجِبٌ عِنْدَ الْقَوْمِ غَيْرُ الزَّكَاةِ

فَيَكُونُ الْمَنْسُوخُ بِالزَّكَاةِ مِثْلَ هَذِهِ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ فِي الْمَالِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ.

وَأَمَّا مَاذَكَرْنَا مِنْ الْحُقُوقِ الَّتِي تَلْزَمُ مِنْ نَحْوِ الْإِنْفَاقِ عَلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنْ التَّكَسُّبِ، وَمَا يَلْزَمُ مِنْ إطْعَامِ الْمُضْطَرِّ فَإِنَّ هَذِهِ فُرُوضٌ لَازِمَةٌ ثَابِتَةٌ غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ بِالزَّكَاةِ.

وَأَمَّا الْحُقُوقُ الَّتِي تَجِبُ بِأَسْبَابٍ مِنْ قِبَلِ الْعَبْدِ نَحْوَ الْكَفَّارَاتِ وَالنُّذُورِ فَلَا خِلَافَ أَنَّ الزَّكَاةَ لَمْ تَنْسَخْهَا. انتهى كلام الجصاص رحمه الله. (١)

وَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ فِي أَوَاخِرِ النِّكَاحِ مَوْقُوفًا عَلَى عَلِيٍّ.

راجع نصب الراية لأحاديث الهداية مع حاشيته بغية الألمعي في تخريج الزيلعي- جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (المتوفى: ٧٦٢هـ) (٤/ ٢٠٨)

(١)انظر أحكام القرآن للجصاص ت قمحاوي بدءا من (١/ ١٦٢)، بتصرف يسير وتعليقات.

والخلاصة بعد هذا النقاش العلمي الدسم أن الإسلام في عظمته التشريعية ومن أجل بناء دولة الإيمان لم يغفل الأمن الاجتماعي كحجر زاوية في بناء الدولة، بل إنه فرض التكافل الاجتماعي كوسيلة لتأمين المجتمع ضد الحقد والانهيار، فأوجب الإسلام حقوقا مالية على الأغنياء تُرَدُّ على الفقراء وقسم هذه الحقوق بين الواجب الفرض، وبين المندوب المستحب.

فجعل الزكاة،وكذلك إطعام الموشك على الهلاك، والقريب، وإعانة المضطر، وحقوق التراحم، والكفارات والنذور من الواجبات في مال الله الذي رزقه العباد.

كما في قوله عليه الصلاة والسلام «لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ طَاوٍ إِلَى جَنْبِهِ».

وجعل الصدقات وجبر خواطر الناس فيما زاد عن الزكاة والواجبات من المندوب إليها التي ترفع الإيمان في قلوب الأسخياء الجياد وتنشر المبرة والخير والمحبة والطمأنينة في ربوع المجتمع المسلم.

وتالله أننا دفعنا المجتمع لهاويةٍ سحيقةٍ يومَ أنْ بخل الغني بحق الله في ماله، وتوزعت القساوة في المجتمع بين فقيرٍ حاقدٍ ناقمٍ، وبين غنيٍ جاحدٍ غليظ القلب ضعيف اليقين.

وما أجمل ما قاله الحكماء إذا رأيتَ فقيرا معدما طال به الفقر والعوز، فاعلم أن هناك غنياً بخل بحق الله فيه فسرقه في بطنه.

ولذلك يقول رسولنا الكريم كما في صحيح مسلم وغيره ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي حقها إلا أُقْعِدَ لها يوم القيامة بقاعٍ قرقرٍ تطؤه ذات الظلف بظلفها، وتنطحه ذات القرن بقرنها ليس فيها يومئذ جماء ولا مكسورة القرن. (١)

(١) قال العلماء يقصد أن عذابه أن ينكفئ على أرض ملساء مستوية (= قاع قرقر) تمر عليه الإبل والبقر والغنم التي منع حقها بأظلافها تمزقه تروح وتجيء ، ثم تنطحه إلى أن تقوم الساعة.

قال صلى الله عليه وسلم ولا من صاحب مال لا يؤدي زكاته إلا تحول يوم القيامة شجاعا أقرع [1] يتبع صاحبه حيثما ذهب وهو يفر منه، ويُقال هذا مالك الذي كنت تبخل به، فإذا رأى أنه لا بد منه أدخل يده في فيه فجعل يقضمها كما يقضم الفحل [2] الحديث.

ويا له من مشهدٍ قويٍ مؤثّرٍ في عذاب أولئك الذين استأثروا برزق الله عليهم ولم يؤدوا حقه.

---

(١) الشجاع الأقرع هو الثعبان أو الحية القوية التي تقف على ذيلها مبارزةً

(٢) أي أدخل يده في فم الحية تقضمها حين لا يستطيع الفرار منها.

{فَإِذا جاءَتْهمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١)}

قال العلامة القرطبي (٧/ ٢٦٤) فِيهِ مَسْأَلَتَانِ

الْأُولَى قَوْلُهُ تَعَالَى (فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ) أَيِ الْخِصْبُ وَالسَّعَةُ. (قالُوا لَنا هذِهِ) أَيْ أُعْطِينَاهَا بِاسْتِحْقَاقٍ. (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ) أَيْ قَحْطٌ وَمَرَضٌ ..

وَهِيَ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ (يَطَّيَّرُوا بِمُوسى) أَيْ يَتَشَاءَمُوا بِهِ.

نَظِيرُهُ قوله تعالى {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ}.

وَالْأَصْلُ يَتَطَيَّرُوا أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الطَّاءِ.

وَقَرَأَ طَلْحَةُ تَطَيَّرُوا عَلَى أَنَّهُ فِعْلٌ مَاضٍ.

وَالْأَصْلُ فِي هَذَا مِنَ الطِّيَرَةِ وَزَجْرِ الطَّيْرِ، ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُمْ حتى قيل لكل مَنْ تَشَاءَمَ تَطَيَّرَ.

وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَتَيَمَّنُ بِالسَّانِحِ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الْيَمِينِ. وَتَتَشَاءَمُ بِالْبَارِحِ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْ نَاحِيَةِ الشِّمَالِ.

وَكَانُوا يَتَطَيَّرُونَ أَيْضًا بِصَوْتِ الْغُرَابِ، وَيَتَأَوَّلُونَهُ الْبَيْنَ.

وَكَانُوا يَسْتَدِلُّونَ بِمُجَاوَبَاتِ الطُّيُورِ بَعْضِهَا بَعْضًا عَلَى أُمُورٍ، وَبِأَصْوَاتِهَا فِي غَيْرِ أَوْقَاتِهَا الْمَعْهُودَةِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ.

وَهَكَذَا الظِّبَاءُ إِذَا مَضَتْ سَانِحَةً أَوْ بَارِحَةً، وَيَقُولُونَ إِذَا بَرِحَتْ مَنْ لِي بِالسَّانِحِ بَعْدَ الْبَارِحِ «هذا مثل يضرب للرجل يسئ الرجل فيقال له إنه سوف يحسن إليك. واصل ذلك أن رجلا مرت به ظباء بارحة فقيل له سوف تسنح لك فقال من لي .. إلخ.» .

إِلَّا أَنَّ أَقْوَى مَا عِنْدَهُمْ كَانَ يَقَعُ فِي جَمِيعِ الطَّيْرِ، فَسَمَّوا الْجَمِيعَ تَطَيُّرًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. وَتَطَيَّرَ الْأَعَاجِمُ إذا رأوا صبيا يذهب به إلى العلم بِالْغَدَاةِ، وَيَتَيَمَّنُونَ بِرُؤْيَةِ صَبِيٍّ يَرْجِعُ مِنْ عِنْدِ الْمُعَلِّمِ إِلَى بَيْتِهِ، وَيَتَشَاءَمُونَ بِرُؤْيَةِ السَّقَّاءِ عَلَى ظَهْرِهِ قِرْبَةٌ مَمْلُوءَةٌ مَشْدُودَةٌ، وَيَتَيَمَّنُونَ بِرُؤْيَةِ فَارِغِ السقاء (مفتوحة السين المهملة أي القربة)، ومتشائمون بِالْحَمَّالِ الْمُثْقَلِ بِالْحِمْلِ، وَالدَّابَّةِ الْمُوقَرَةِ «الموقرة التي أصابتها الوقرة وهى صدع في الساق»، وَيَتَيَمَّنُونَ بِالْحَمَّالِ الذي وضع حمله، وَبِالدَّابَّةِ يُحَطُّ عَنْهَا ثِقْلُهَا.

فَجَاءَ الْإِسْلَامُ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّطَيُّرِ وَالتَّشَاؤُمِ بِمَا يُسْمَعُ مِنْ صَوْتِ طَائِرٍ مَا كَانَ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (أَقِرُّوا الطَّيْرَ عَلَى مُكُنَاتِهَا «جمع مكنة أي أمكنتها وعشوشها»). وَذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ إِذَا أَرَادَ الْحَاجَةَ أَتَى الطَّيْرَ فِي وَكْرِهَا فَنَفَّرَهَا، فَإِذَا أَخَذَتْ ذَاتَ الْيَمِينِ مَضَى لِحَاجَتِهِ، وَهَذَا هُوَ السَّانِحُ عِنْدَهُمْ. وَإِنْ أَخَذَتْ ذَاتَ الشِّمَالِ رَجَعَ، وَهَذَا هُوَ الْبَارِحُ عِنْدَهُمْ.

فَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا بقول (أَقِرُّوا الطَّيْرَ عَلَى مُكُنَاتِهَا) هَكَذَا فِي الْحَدِيثِ. وَأَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ يَقُولُونَ (وُكُنَاتِهَا) قَالَ امْرُؤُ الْقَيسِ

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا.....

وَالْوُكْنَةُ اسْمٌ لِكُلِّ وَكْرٍ وَعُشٍّ. وَالْوَكْنُ مَوْضِعُ الطَّائِرِ الَّذِي يَبِيضُ فِيهِ وَيُفْرِخُ، وَهُوَ الْخَرْقُ فِي الْحِيطَانِ وَالشَّجَرِ. وَيُقَالُ وَكَنَ الطَّائِرُ يَكِنُّ وُكُونًا إِذَا حَضَنَ بَيْضَهُ.

وَكَانَ أَيْضًا مِنَ الْعَرَبِ مَنْ لَا يَرَى التَّطَيُّرَ شَيْئًا، وَيَمْدَحُونَ مَنْ كَذَّبَ به. قال المرقش

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وَكُنْتُ لَا .. أَغْدُو عَلَى وَاقٍ وَحَاتِمِ.

فَإِذَا الْأَشَائِمُ كَالْأَيَا .. مِنِ وَالْأَيَامِنُ كَالْأَشَائِمِ.

و الواق بكسر القاف الصرد وهو طائر أبقع ضخم الرأس. والحاتم الغراب الأسود.

وَقَالَ عِكْرِمَةُ كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَمَرَّ طَائِرٌ يَصِيحُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ خَيْرٌ، خَيْرٌ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا عِنْدَ هَذَا لَا خَيْرَ وَلَا شَرَّ.

قَالَ عُلَمَاؤُنَا وَأَمَّا أَقْوَالُ الطَّيْرِ فَلَا تعلُّقَ لَهَا بِمَا يُجْعَلُ دَلَالَةً عَلَيْهِ، وَلَا لَهَا عِلْمٌ بِكَائِنٍ فَضْلًا عَنْ مُسْتَقْبَلٍ فَتُخْبِرُ بِهِ، وَلَا فِي النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ، إِلَّا مَا كَانَ الله تعال خَصَّ بِهِ سُلَيْمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ، فَالْتَحَقَ التَّطَيُّرُ بِجُمْلَةِ الْبَاطِلِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَحَلَّمَ «أى ادعى الرؤيا كاذبا» أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ رَدَّهُ عَنْ سَفَرِهِ تَطَيُّرٌ). وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (الطِّيَرَةُ شِرْكٌ ثَلَاثًا وَمَا مِنَّا إِلَّا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ).

كذا في مسند أبى داود. قال ابن الأثير هكذا جاء في الحديث مقطوعا ولم يذكر المستثنى. أي إلا وقد يعتريه التطير، وتسبق إلى قلبه الكراهة، فحذف اختصار واعتمادا على فهم السامع .. وقوله ولكن الله يذهبه بالتوكل معناه أنه إذا خطر له عارض التطير فتوكل على الله وسلم إليه ولم يعمل بذلك الخاطر غفره الله له ولم يؤاخذه به .

وَرَوَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (مَنْ رَجَّعَتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ).

قِيلَ وَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ (أَنْ يَقُولَ أَحَدُهُمْ اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ ثُمَّ يَمْضِي لِحَاجَتِهِ).

وَفِي خَبَرٍ آخَرَ (إِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ). ثُمَّ يَذْهَبُ مُتَوَكِّلًا عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَكْفِيهِ مَا وَجَدَ فِي نَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ، وَكَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا يُهِمُّهُ.

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تفسير سورة الْمَائِدَةِ (٦/ ٥٩) الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَأْلِ وَالطِّيَرَةِ.

قال هناك

وَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْبَابِ طَلَبُ الْفَأْلِ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعْجِبُهُ أَنْ يَسْمَعَ يَا رَاشِدُ يَا نَجِيحُ، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

وَإِنَّمَا كَانَ يعجبه الفأل لأنه تَنْشَرِحُ لَهُ النَّفْسُ وَتَسْتَبْشِرُ بِقَضَاءِ الْحَاجَةِ وَبلُوغِ الْأَمَلِ، فَيَحْسُنُ الظَّنُّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَدْ قَالَ (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي).

وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَكْرَهُ الطِّيَرَةَ، لِأَنَّهَا مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الشِّرْكِ، وَلِأَنَّهَا تَجْلِبُ ظَنَّ السُّوءِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ الْفَرْقُ بَيْنَ الْفَأْلِ وَالطِّيَرَةِ أَنَّ الْفَأْلَ إِنَّمَا هو مِنْ طَرِيقِ حُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَالطِّيَرَةُ إِنَّمَا هِيَ مِنْ طريق الاتكال على شيءٍ سِوَاهُ.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ سَأَلْتُ ابْنَ عَوْنٍ عَنِ الْفَأْلِ فَقَالَ هُوَ أَنْ يَكُونَ مَرِيضًا فَيَسْمَعُ يَا سَالِمُ، أَوْ يَكُونَ بَاغِيًا «الباغي الذي يطلب الشيء الضال»، فَيَسْمَعُ يَا وَاجِدُ، وَهَذَا مَعْنَى حَدِيثِ التِّرْمِذِيِّ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ (لَا طِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ)، قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ (الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ).

رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَه، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَه، وَثَلَاثَةٌ لَا يَنَالُونَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَا، مَنْ تَكَهَّنَ أَوِ اسْتَقْسَمَ أَوْ رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ مِنْ طِيَرَةٍ. انتهى.

في معنى حديث.

جاء الأثر الشريف عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ، قَالَ أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ قَوْلُهُ تَعَالَى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} (المائدة ١٠٥). قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ «بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ». قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ. قَالَ «بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنْكُمْ» رواه الترمذي وقال «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

قال الشيخ عز الدِّين ابن عبد السلام في أماليه   حمل هذا الحديث على الإطلاق خطأ، بل هو مبنيٌّ على قاعدتين

إحداهما أنَّ الأعمال تشرف بثمراتها.

الثانية أنَّ الغريب في أول الإسلام هو كالغريب في آخره، وبالعكس لقوله   صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأ الإسلام غريب وسيعُود كما بدأ، فطوبى للغرباء .

من أمَّتي   أي المتفردين بالتقوى دُون أهل زمانه، إذا تقرر ذلك فنقول الإنفاق في أول الإسلام أفضل لقوله عليه السلام لخالد   لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه   أي مد الحنطة، وسبب ذلك أنَّ تلك النفقة أثمرت في فتح الإسلام وإعلاء كلمة الله ما لا تثمره غيرهاوكذلك الجهاد بالنفوس لا يصل المتأخرون فيه إلى فضل المتقدمين وقلَّة أنصارهم، فكان جهادهم أفضل؛ لأنَّ بذل النَّفس مع النصرة، ورجاء الحياة ليس كبذلها مع عدمها، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام. أفضل الجهاد كلمة حق عند سُلطان جائر لأنه أَيِسَ من حياته، وأما النَّهي عن المنكر بين ظُهور المسلمين وإظهار شعائر الإسلام فإنَّ ذلك شاق على المتأخرين لعدم المعين وكثرة النكير، فهم كالمنكر على الملك الجائر، ولذلك علل عليه الصلاة والسلام بكون القابض على دينهكالقابض على الجمر والقابض على الجمر لا يستطيع دوام ذلك لمزيد المشقة فكذلك المتأخر في دينه، وأما المتقدمون فليسوا كذلك لكثرة المعين، وعدم المنكر، فعلى هذا يُنزَّل الحديث . [1]

العلمانية نظرةٌ خاطفة.

العلمانية هي الترجمة الحرفية لكلمة (secularism) في الإنجليزية والتي تعني العالم والدنيوية ، وتعنى اصطلاحا سيطرة الأفكار والمذاهب الدنيوية على التفكير الإنساني في ضبط كل مناحي حياته، او

---

(1) انتهى من قوت المغتذي على جامع الترمذي لجلال الدين السيوطي (٢/ ٧٦٢)

بصورة أوضح هي فصل الجانب الروحي والديني تماما عن السيطرة على الحياة وطغيان الجانب النبوي البحت، بما يمثل فصلا للدين عن الحياة، أو كما يقال دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله .

(ومن الأساليب التي اتبعت في الفترة الأخيرة لمحاربة الإسلام من الناحية الفكرية، ما يمكن أن يسمى بعلمنة الإسلام، أي تجريده من الطابع (المقدس) كما يطلق عليه العلمانيون ونزع أي روابط تصله بالوحي الإلهي المنزل ثابت الصياغة والتحقق، وقد راجت في السنوات الأخيرة في بعض الدوائر الفكرية العلمانية مقولة تزعم أن (الإسلام دين علماني بالطبع) ، وتبرر هذه المقولة أمام الجمهور المسلم بأنها تعني أن الإسلام دين يتناول شؤون الحياة ويغطيها، ولا ينعزل عنها، وهو تصور ينسجم مع المفهوم العام حول الإسلام، ولكن تختلف الصورة عندما يبدأ الكتّاب العلمانيون في شرح وتوضيح أبعاد هذه المقولة؛ وهنا تتجلى ظاهرة علمنة الإسلام في إحدى أهم صورها، فالمعنى المتضمن في مقولة (إن الإسلام دين علماني) هو أن الإسلام غير محدد الملامح والقسمات، وأنه قابل للتغير والتشكل وفق الظروف والأحوال الجغرافية والتاريخية، وأنه في الواقع يترك مساحات واسعة من الشؤون الحياتية مفتوحة لكل اجتهاد ورأي أيًّا كان طالما أنه يحقق (المصلحة) ، وهي بدورها فكرة مبهمة، وإن تحددت أبعادها في الفكر العلماني بشكل مادي واضح، يقصرها على النواحي الاقتصادية أو القيمية المشابهة لقيم الغرب، وهكذا فإن المقولة التي تبدو في ظاهرها وكأنها تتوافق مع الأصل الإسلامي الذي يربط بين الدين والدنيا، فإنها في الواقع ترمي لتأسيس فصل الدين عن الحياة من خلال تمييع الإسلام نفسه، وتقليص مساحته، ورده إلى مجرد كيان هلامي شفاف أقرب إلى العدم، يتشكل مع كل ظرف وحال حتى لا يكاد يكون له وجود مستقل أو مميز أو هوية، وهذه المقولة تصل إلى علمنة الإسلام، أي تجريده من القداسة والصلة بالوحي الإلهي من خلال هذا الرد والانكماش والميوعة التي تفرض عليه..) انتهى

انظر مقال د. محمد يحي محاور علمنة الإسلام. نظرات في الأساليب الجديدة لغزو الإسلام مجلة البيان (١٠٠/ ١١٨) باب في دائرة الضوء.

المادية الشيء بالشيء يُذكر.

تنطلق الفلسفة الماديَّة في تفسير ظاهرة الإنسان حسب رؤيتها من حقيقةٍ أساسيَّة، ماهيتُها أسبقيَّة الطَّبيعة على الإنسان، ولذلك تُحاول التركيز على جانبِه المادِّي، فالإنسان موجودٌ مادِّي متجِّسد، يُشارك غيرَه مِن المخلوقات في بعض الصِّفات، يَخْضع للقوانين الطبيعيَّة وضرورات الحياة العضويَّة، باعتباره داخلاً في منظومةٍ من الآلِيَّات والحتميَّات تَسْري على كلِّ مادِّي، كالحاجة إلى الطَّعام والشراب، والنَّوم والتناسل، وغيرها، ولذلك حتَّى يَسْهل رَصْدُه لا بدَّ من الاعتماد على النَّماذج المستمَدَّة من العلوم الطبيعيَّة، وعلى هذا الأساس تَطْرَح الفلسفة المادية مفهومَ الإنسانية الواحدةِ الكامنة في الطبيعة، حيث ترى أنَّ الإنسان جزءٌ لا يتجزَّأ من الطبيعة، خاضعٌ لقوانينها، كامنٌ فيها، ليست عنده القدرةُ على تجاوُزِها، وهذا يقتضي بالضَّرورة أنَّ كل مشكلة تواجِه الإنسان يمكن تجاوزها بالاستِناد على الواقع المادِّي، دون الرُّجوع إلى نماذج مُتجاوِزة لهذا الواقع، مِمَّا يَعني أنَّ الإنسان يُنظَر إليه في هذا الإطار على أنَّه مُساوٍ لغيره من المخلوقات مِمَّن يشاركه وجودَه المادِّي، وهذا يثير بدوره إشكاليَّة التَّسوية، وهي من المفاهيم المتولِّدة من المرجعيَّة المادية، وتَعني التَّساوِي بين كلِّ المخلوقات، البشَر وغيرهم، مِمَّا يَعني الاقترابَ من حالة الطبيعة، والهجوم الشَّرس على الحالة الإنسانيَّة، ويصبح عندئذٍ مقصده وهدفه التطوُّر المادي، حتَّى يصبح مادَّة مَحْضة تَخْضع لقوانين الطَّبيعة لا يَستطيع تجاوُزَها، وفي هذا السِّياق يَبْرز مَفْهوم التَّفكيك الذي تُوصِّل له الفلسفة الماديَّة، ذلكم المفهوم المُتجاوز للحقيقة البشريَّة الجامعة بين الرُّوح والمادَّة، بِما يَجعله كائنًا متميِّزًا، لكونه يُمارس نشاطاتٍ تَتجاوز الإطارَ الماديَّ، بل عليه كما هو الحال بالنِّسبة للقِيَم الدينيَّة والخلُقيَّة وغيرها أن يطرحها جانبا.

فالفلسفة المادية تحوِّل الإنسان إلى جزء من كل فلا هوية له أو حدود أو إرادة مستقلة عن الكل المادي الذي ترد إليه، مما يعني إنكار الهوية المستقلة والمسؤولية الخلُقية والاختيار الحر.

وتطرح فلسفة الإسلام ـــــ مقابل الإنسان المادي أو الطبيعي ـــــ مفهوم الإنسان الإنسان، وهو إنسان داخله عناصر ربانية متجاوزة لقوانين الحركة التي تسري على الإنسان والحيوان ومتجاوزة للنظام

الطبيعي/المادي، هذه العناصر هي التي تشكل جوهر الإنسان والسمة الأساسية الإنسانية وغيره عن بقية الكائنات بوصفه إنساناً.

فالإنسان في الإسلام روح ومادة وكلاهما مهم على المستوى العقدي والتشريعي للإسلام. أما المادية فتراه مادة بلا روح، ولا يجب الاهتمام بذلك الجانب الروحي. إنما هو يأكل ويشرب ويتطور ويتناسل كمادة. وهو ما أنكره القرآن جملةً وتفصيلا.

راجع كتاب الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان عبد الوهاب المسيرى.

والمذهب المادي الذي هو أساس مهم من أساسات الإلحاد المعاصر، بمدارسه الفكرية المختلفة، يقول أن كل موجودات العالم تتكون من المادة ولا وجود لها خارج المادة، وأن الإنسان أيضا، لا يتكون من عنصري الروح و الجسد المادي فقط. ونجد أول أثر لهذا الفكر لدى أبيقور (٣٤٢ ـــــ ٢٧٠ ق. م) وكان أبيقور يقول بأن الأشياء في تحليلها النهائي تتكون من أجزاء صغيرة لا تخضع للمشاهدة. وقد قويت هذه النظرية في القرن الثامن عشر حين نشر هولباخ كتابه نظام الطبيعة ١٧٧٠. "

وانقسمت المادية في القرن العشرين إلى فرعين رئيسيين أولهما المادية الجدلية التي تعتبر الفلسفة الرسمية للعالم الشيوعي. وأخراهما ما يسمى بالمذهب الطبيعي.

إن الماديين يسلمون بوجود العقل ولكنهم يرون إن العقل محض وظيفة من وظائف الجسد المادي، ولا وجود للعقل خارج الجسد.

وصراع المذهب المثالي و المادية قديم قدم الفكر البشري. والمذهب المثالي، وإن لم يكن يدافع عن الدين، إلا أنه يستغل الفكر الديني فلسفياً، لأنه يقول بأن الحقيقة المطلقة غير مادية، على غرار ما يقوله الدين، وعلى العكس من هذا أتاحت المادية الأرضية الفرصة للإلحاد لأنها ترى أنه لا وجود لشيء خارج العالم المحسوس. وقد انتعشت هذه النظرية و تشبعت بظهور العلوم الطبيعية الحديثة في القرن الماضي. فبرزت المادية العلمية لتفسير العلوم الطبيعية. فوجدوا أن علم طبقات الأرض و نظرية الارتقاء الحياتي ؤكدان الفلسفة المادية تأييدا عظيما. وسلموا بان الحياة و العقل صور متطورة للمادة التي كانت بدون حياة في بداية الأمر. وقويت هذه الأفكار بنتائج علم الفيزياء الذي أكدت أبحاثه أن

الحياة العقلية مرتبطة بحجم المخ. وبالرغم من أن كبار محامي هذه النظرية، من أمثل كارل وات (١٠١٧ ـــــ ١٨٩٥) ولوديغ بشز (١٨٢٤ ـــــ ١٨٩٩)، لم يتمكنوا من توضيح حقيقة المخ، إلا أن الاعتقاد ساد، عقب ظهور نتائج الأبحاث الطبيعية، بأن العلوم الطبيعية الحديثة قد أصدرت حكمها لصالح الفلسفة المادية. وظل الاعتقاد سائداً ابتداء من القرن السابع عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر بأن الفلسفة المادية هي التي فتحت عالم العلم وانه لم يعد للدين من مكان علميا و منطقياً.

وكان المذهب المادي يتجه في اتجاهين فكريين. أولهما أن الكون وجود مادي محض ولذلك لا يمكن الاعتراف بوجود غير مادي كـــ(الله) بينما كان الاتجاه الفكري الآخر يقول إن جميع الوقائع الكونية لأسباب مادية و لذلك لا ضرورة للاعتراف بالرب و القيوم.

إن الاتجاه الفكري الأول في المذهب المادي ينكر وجود الله و ينفيه نفيا قاطعاً. أما الاتجاه الفكري الثاني فهو لا ينكر وجوده ولكنه يقول بأن النظام الكوني لا يحتاج إلى الله، عقب ظهوره للوجود للمرة الأولى. وقد عبر والتير (١٧٧٤ ـــــ ١٧٧٨) عن هذا الرأي حين قال إذا كان هناك من وجود لله فعلاقته بكوننا كعلاقة الساعة بصانعها. أما هيوم (١٧١١ ـــــ ١٧٧٦) فقد رفض هذا الإله الميت الذي لا يفيد ، وقال لقد شاهدنا الساعات وهي تصنع و لكننا لم نشاهد الكون وهو يُصنع " .

والاستشراق، ما هو؟

الاستشراق مفهوم واسع وله العديد من التعريفات فالدكتور عبد المتعال الجبري يعرفه قائلا المراد بالاستشراق دراسة علوم الشرق وأحواله ومعتقداته وبناته الطبيعية والعمرانية والبشرية ودراسة لغاته ولهجاته وطبائع الآمة الشخصية (فلكل أمة مشخصاتها) في كل مجتمع ودراسة الهيئات والتيارات الفكرية والمذهبية في شتي صورها وأنواعها. اهـ

انظر (الاستشراق وجه الاستعمار الفكري د\ عبد المتعال محمد الجبري مكتبة وهبة القاهرة ط١ ١٩٩٥ ص ١٣).

وقد صاحب الاستشراق منذ ظهوره حتى الآن وقد ظهر الاستشراق الديني منذ الحروب الصليبية فقد تركت تلك الحروب في نفوس الأوربيين آثار عميقة وصاحبها شعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة ونتلخص أهداف هذا الاتجاه كما يري د\محمود ماضي في:

•زعزعة إيمان المسلمين بقرآنهم ونبيهم صلي الله عليه وسلم.

•لتشكيك المسلمين في الشريعة الإسلامية.

•حجب محاسن الدين الإسلامي عن العقل المسيحي حتى لا يقتنعوا به ومن ثم يعتنقوه.

•زرع تخاذلا روحي وشعور بالنقص في النفوس المسلمة خاصة والشرقيين عامة١٠٥٥. انظر الوحي القرآني من منظور استشراقي د\ محمود ماضي ص ١٩ وما يليها.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى ...}

لله در العلامة ابن قيم الجوزية وهو يلقي خواطره المرهفة حول قول الله تعالى في سورة ق العظيمة {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} (ق ٣٧).

وَذَلِكَ أَن تَمام التَّأْثِير لما كَانَ مَوْقُوفا على مُؤثر مُقْتَضٍ، وَمحل قَابل، وَشرط لحُصُول الْأَثر. وَانْتِفَاء الْمَانِع الَّذِي يمْنَع مِنْهُ. تضمّنت الْآيَة بَيَان ذَلِك كُله بأوجز لفظ، وأبينه، وأدلّه على المُرَاد.

فَقَوله {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكرى} إِشَارَة إِلَى مَا تقدّم من أول السُّورَة إِلَى هَهُنَا. (قلتُ راقه أو الإشارة إلى القرآن كله، وهو أوفق)، وَهَذَا هُوَ الْمُؤثر.

وَقَوله {لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} فَهَذَا هُوَ الْمحل الْقَابِل، وَالْمرَاد بِهِ الْقلب الْحَيّ الَّذِي يعقل عَن الله، كَمَا قَالَ تَعَالَى {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً} أَي حَيّ الْقلب.

وَقَوله {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} أَي وجّه سَمعه وأصغى حاسّة سَمعه إِلَى مَا يُقَال لَهُ وَهَذَا شَرط التأثّر بالْكَلَام.

وَقَوله {وَهُوَ شَهِيدٌ} أَي شَاهد الْقلب حَاضر غير غَايِب؛ وَهُوَ إِشَارَة إِلَى الْمَانِع من حُصُول التَّأْثِير، وَهُوَ سَهْو الْقلب وغيبته عَن تعقّل مَا يُقَال لَهُ وَالنَّظَر فِيهِ وتأمّله. ا.ه.[1]

وإذا كنا قد صرنا في ذيل الأمم نزحف، وفي أغلال مهانتنا نرسف، ولكؤوس ذلنا نرشف؛ فإن ذلك كله لأننا ابتعدنا كثيراً عن مورد عزتنا، ومنبع قوتنا، وسبيل نجاتنا، وقوام حياتنا. كلام الله تعالى وكتابه الكريم، وآخر رسالات السماء إلى الأرض.

صار احتفاؤنا بكتاب الله استظهارا في المساجد والكتاتيب، واستكثارا من الختمات في شهر رمضان، وآياتٍ تُتلى على الأموات في سرادقات البدعة، ومدعي الشفاء من المس والجان في الخلوات.

ولعمري إنه لحقٌ أنها آيات تُتلى على أموات.

ومَن أكثر مواتا منا في ذنوبنا وابتعادنا عن صحيح ديننا وسنة نبينا.

ونحن نسمع الخطباء على المنابر يلوكون كل يوم قولة إمام أهل الحياء عثمان ذو النورين – رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا ما شبعت من كلام ربنا.

تصحيح في العمق

قال تعالى {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} (البقرة ٤٤).

إن الحق ثقيل على النفوس يخرجها عما تألف من لذة موهومةٍ للباطل، فإذا أراد الداعي إليه إخراج الناس عما تهواه أنفسهم تحيّلوا للانصراف عنه فإن وجدوا الداعي لا يأتي ما دعا إليه أو يخالفه تعللوا بذلك على الدعوة لا على الداعي وحسب، ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين .فكانت دعوة الذين يقولون ما لا يفعلون محاربة للدعوة ذاتها من حيث يدعون ولا يدرون.

[1] الفوائد لابن القيم (ص: ٣) بتصرف يسير.

تحسسوا النور

في قَوْلِهِ تَعَالَى في سورة يوسف على لسان يعقوب عليهما السلام {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ }.

إنه رجلٌ دهده الكبر عظامه وابيضت عيناه من الحزن على ولده الغائب من نحو أربعين عاما ، وهو موقن أن أولاده الآخرين هم من فعل بأخيهم ما فعلوا.. فهل يستسلم لليأس اللعين ويلقي قلبه في غياهب الدموع والصمت..

ليس يعقوب عليه السلام الذي يقتله اليأس..

فاليأس لدى المؤمنين شكٌ في يقينهم بالله الرحمن الرحيم الذي لا يغلق بابا إلا يفتح ألف بابٍ مكانه. .

ولكن منهج المؤمنين هو (تحسس) النور والنجاة و(شم) رائحة الفرج من عمق دخان الأزمات والأحزان.

المؤمن لا ييأس من (رَوْحِ اللَّهِ) مِنْ أَنْ يُرَوِّحَ اللَّهُ عَنه ما هو فيه مهما بلغ.

لأنه حسب يقينه بالله ربه { لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ }.

وصدق الذي قال لا كَرْب وهناك ربّ.

في معنى حديث.

وصدق فينا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ,لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله، والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم صلى الله عليه وسلم لغيركم من الناس أحرى ألا يقوم به . (١)

---

(١) الحديث عن معاوية رضى الله عنه في صحيح أبي داود – الصفحة أو الرقم 4597 :حكم الألباني المحدث :حسن وهو في صحيح الجامع ٢٦٤١، وأشار العلامة احمد شاكر في مقدمة عمدة التفاسير إلى صحته..

وفي معنى الحديث (وأنه سيخرج) أي سيظهر (في أمتي أقوام) أي جماعات (تجارى) بالتائين أي تدخل وتجري وتسري (بهم) أي في مفاصلهم وعروقهم. (تلك الأهواء) جمع هوى، وهى البدع التي كانت السبب في الافتراق، وضعت موضعها وضعاً للسبب موضع المسبب؛ لأن هوى الرجل هو الذي يحمله على الابتداع في العقيدة والقول والعمل. (كما يتجارى الكلب) بفتحتين داء يعرض للإنسان من عض الكلب الكلب أي المكلوب، وهو داء يصيب الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحداً إلا كلب، ويعرض له أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً، كذا في النهاية. (بصاحبه) أي مع صاحبه إلى جميع أعضائه أي مثل جرى الكلب في العروق، شبه حال الزاغين من أهل البدع في استيلاء تلك الأهواء عليهم، وفي سراية تلك الضلالة منهم إلى الغير بدعوتهم إليها، ثم تنفرهم من العلم وامتناعهم من قبوله حتى يهلكوا جهلاً، بحال صاحب الكلب وسريان تلك العلة في عروقه ومفاصله شبه الجنون، ثم تعديته إلى الغير فلا يعض المجنون أحداً إلا كلب أي جن، ويعرض له أعراض رديئة تشبه الماليخوليا مهلكة غالباً، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشاً، قاله الطيبي. وفي هذا التشبيه فوائد منها التحذير من مقاربة تلك الأهواء ومقاربة أصحابها، وبيان ذلك أن داء الكلب فيه ما يشبه العدوى فإن أصل الكلب واقع في الكلب، ثم إذا عض ذلك الكلب أحداً صار مثله ولم يقدر على الانفصال منه في الغالب إلا بالهلكة، فكذلك المبتدع إذا أورد على أحد رأيه وإشكاله فقلما يسلم من غائلته، بل إما أن يقع معه في مذهبه ويصير من شيعته، وإما أن يثبت في قلبه شكاً يطمع في الانفصال عنه فلا يقدر، هذا بخلاف سائر المعاصي، فإن صاحبها لا يضاره ولا يدخله فيها غالباً إلا مع طول الصحبة والأنس به، والاعتياد لحضور معصيته، وقد أتى في الآثار ما يدل على هذا المعنى، فإن السلف الصالح نهوا عن مجالستهم، ومكالمتهم، وكلام مكالمهم، وأغلظوا في ذلك، قاله الشاطبي وبسط الكلام في شرح رواية معاوية أيضاً. (١)

---

(١) إن شئت أن ترجع إلى كتابه الاعتصام (ج٢:ص٢٤٣، ٢٣١). راجع مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/ ٢٧٩)

الأيدي والأبصار

تاملت فسادنا وضعفنا وانتقالنا من فشل إلى فشل فوجدت الحل والعلاج في كلمتين في آية..

{وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ} (سورة ص ٤٥).

فما احوجنا إلى (ألأيدي والأبصار) أى إلى العمل البصيرة.

و الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْقُوَّةِ عَلَى تَنْفِيذِهِ.

ما احوجنا إلى يدٍ تشد وبصيرة نافذة تقود.

ولكننا وللأسف أيدى بلا عقول، او عقول بلا أيدي، أو لا أيدى ولا عقول.

الذكر والعزم

تأملت قوله تعالى في سورة طه {وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْماً} فوجدت كل ضعف ابن آدم من ناحيتين:

من ناحية (فنسي) فالإنسان كثير النسيان للنعمة وستر الله في المعصية وتحذيره الإنسان من الشر فيقع فيما لم يعد يذكر من كفر النعمة والوقوع في الفتنة والمعصية.

ثم هو قليل العزم ضئيل الصبر لا يصبر عن شهوةٍ ولا يصبر على بليةٍ ولا يصابر طاعة.

ولذلك مدح الله أهل الصبر وأهل الذكر.

ووجهنا لهزيمة ضعفنا في قوله تعالى ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾.

من روائع العلماء في التفسير

قال العلامة الشنقيطي بعد تفسيره لقوله تعالى في سورة محمد {إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى

بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَانَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ }

(اعلم أن كل مسلم، يجب عليه في هذا الزمان، تأمل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد.

لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو هذا القرآن وما يبينه به النبي صلى الله عليه وسلم من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم سنطيعكم في الأمر كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم.

وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه ، وأنه محبط أعمالهم. فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا سنطيعكم في بعض الأمر.) انتهى

ومن ذلك أيضاً :

ماذكره الشيخ الشنقيطي كذلك في سياق كلام طويل قيم نفيس في التنبيه على قضايا مهمة متعلقة بتفسير قوله تعالى (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد ٢٤) ؛ قال رحمه الله

(والله جل وعلا يقول في سورة القمر مرات متعددة {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}.

ويقول تعالى في الدخان {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}. ويقول في مريم {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا}.

فهو كتاب ميسر، بتيسير الله، لمن وفقه الله للعمل به، والله جل وعلا يقول (بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ}، ويقول {وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

فلا شك أن الذي يتباعد عن هداه ، يحاول التباعد عن هدى الله ورحمته.

ولا شك أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه، ليستضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار، والرشد من الغي.

قال الله تعالى {يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً}.

وقال تعالى {قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ}. وقال تعالى {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا} وقال تعالى {فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا} وقال تعالى {فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ}.

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله ليُستضاء به، ويُهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور. فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم

مثل النهار يزيد أبصار الورى ... نوراً ويعمي أعين الخفاش

{يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ}. {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ}.

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور، تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور.

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف، أنه يجب عليك الجد، والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما، علماً صحيحاً.

ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك، من ناسخ ومنسوخ وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين وأحوال الرجال، من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف، لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم.

فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي صلى الله عليه وسلم ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين.

وجميع الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف.) انتهى .

من أصول الاقتصاد في القرآن.

ومن أمثلة ذلك ماذكره الشنقيطي أيضاً عندماذكر أصول الاقتصاد في الإسلام عند تفسيره لقول الله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان ٦٧) ، فقد قال بعد كلام مهم يحسن الرجوع إليه في أضواء البيان

(ولا شكّ أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السمٰوات والأرض، على لسان رسوله ، ويكون كفيلاً بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية ، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعًا ؛ لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم، لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئًا منها يجوز شرعًا، لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية ، أو على غرر، لا تجوز معه المعاملة كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا، فإنك لا تكاد تجد شيئًا منها سالمًا من الغرر، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبيّ ، ومن المعلوم أن من يدّعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات، من المعاصرين أنه مخطىء في ذلك، ولأنه لا دليل معه بل الأدلّة الصحيحة على خلاف ما يقول، والعلم عند اللَّه تعالىٰ.).

وفي تفسير القرطبي لقول الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا} (الفرقان ٢٠)

ذكر مسائل متعلقة بأحكام الأسواق ، ومنها

(الرابعة خرّج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال «أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها». وخرّج البزّار عن سلمان الفارسيّ قال قال رسول الله «لا تكونن إن استطعتْ أوّل

من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها موكة الشيطان وبها ينصب رايته». أخرجه أبو بكر البرْقانيّ مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان النهدِيّ عن سلمان قال. قال رسول الله «لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ». ففي هذه الأحاديث ما يدلّ على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان. وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر كُره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدِّين تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُعصى الله فيها. فحق على من ابتلاَه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله اقتصَر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته.

الخامسة تشبيه النبيّ السوق بالموكة تشبيه حسن؛ وذلك أن الموكة موضع القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً. فشبّه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاَط الأصوات وغير ذلك بموكة الحرب ومن يصرع فيها.

السادسة قال ابن العربي أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة؛ ومن الأحاديث الموضوعة «الأكل في السوق دناءة».

قلت القرطبي ماذكرْته مشيخة أهل العلم فنعما هو؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيسارِيات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا. نعوذ بالله من سخطه.) انتهى.

ومن ذلك..

ما جاء في تفسير السعدي لقول الله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .

حيث قال (ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم، ويكونوا كفارا بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك، ساعون بما أمكنهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

وهذا الوصف عام لكل الكفار، لا يزالون يقاتلون غيرهم، حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصا، أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس، لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخيلهم عليهم، كل ما يمكنهم من الشبه، التي تشككهم في دينهم. ولكن المرجو من الله تعالى، الذي مَنّ على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه، أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر دينه، ويعلي كلمته.

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار، كما صدقت على من قبلهم إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام، بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرا، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

ودلت الآية بمفهومها، أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردته،وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة).

وجاء في فتح القدير للشوكاني.

في تفسيره لقول الله تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} .

قوله وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم الخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم أو لكل من يصلح له والخوض أصله في الماء ثم استعمل في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيها بغمرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول وقيل هو مأخوذ من الخلط وكل شيء خضته فقد خلطته ومنه خاض الماء بالعسل خلطه والمعنى إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء فدعهم ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا في حديث مغاير له أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك.

وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ويرد ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم وذلك يسير عليه غير عسير وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا.

ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة فإنه ربما يتفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه فيعمل بذلك مدة عمره ويلقى الله به معتقدا أنه من الحق وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر) انتهى.

قدرة المفسِّر على إفادة أهل مجتمعه.

ولذا فنحن أمام مسألةٍ مُهِمَّة و هي مدى قدرة المفسِّر على إفادة أهل مجتمعه و من يفسِّر لهم كلام الله تعالى ، إذ إن تفسير القرآن لا ينبغي أن يتحول إلى تفكيك رموز دون أن يكون لها هدايات و آثارٌ في توجيه الناس و دعوتهم إلى الله تعالى ، و تقريبهم إلى جنَّة الله و رضوانه هذا في الأصل – لكن ما نفتقده – أحياناً – هو غياب هذا الهدف عند البعض ، و لذا خرج هذا الموضوع الجميل لأنَّ ربط الواقع بكلام الله قليل و الله المستعان .

وكنت قد حاولت ربط الترف بالواقع من خلال فهم أسباب الترف و مظاهره و علاجه ، من خلال القرآن و ربط ذلك بالواقع فكان من أهمّ تلك المظاهر التي ذكرتها ووجدت المفسِّرين قد أشاروا إلى كثير منها ؛ وحيث إن الترف ظاهرةٌ متميّزةٌ لدى الأغنياء و الفقراء فلقد صوَّرت لنا الآيات في سورة يوسف بعض مظاهر الترف غير المألوفة في الأزمان السابقة سوى العلية من القوم و الطبقة الراقية منهم كما جاء في الآيات التالية يقول الله { وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٣٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ٣ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ٣٢ } ، يتجلى في هذه الآيات الكثير من الكماليات التي يسعى إليها المترفون ؛ وقد يحصلُ بعضها لهم نظراً لطبيعة الطبقية التي يعيشونها والمجتمع الذي يتعاملون معه دون أن يبحثوا عنها ، وقد تأتي بعد إجهاد المرء نفسه للكماليات على حساب الواجبات والمستلزمات الضرورية ، لكن المجتمع لا يرحمه – في نظره

فتلك القصة في ذكر امرأة العزيز توضح بعض اللمحات وتكشف النقاب عن كثيرٍ من الهنات لدى المترفين آمالاً وأعمالاً في القصور

يقول سيد قطب (لقد أقامت مأدبة في قصرها . وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية . فهن اللواتي يدعين في القصور . وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر . ويبدو أنهن يأكلن

وهن متكئاتٍ على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان . فأعدت لهن هذا المتكأ . وآتت كلَّ واحدةٍ منهن سكيناً تستعملها في الطعام – ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً ، وأن الترف في القصور كان عظيماً ؛ فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية – وبينما هنّ منشغلاتٍ بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ؛ فاجأتهنَّ بيوسف ..ثم قالت قولة المرأة المنتصرة ، التي لا تستحي من بنات جنسها وطبقتها ، والتي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها ..) .

وقد ندرك الترف في بعض الصور منها أنها أرسلت غيرها بالدعوة إيغالاً في السلطة وتميزاً بين نساء الطبقة ، ولإثبات القدرة والسيطرة على الأمور ، وأنهن لا يزلن في عداد طبقتها ولم تكن شاذةً عنهن بارتكابها هذا الخطأ

ومنها أن أعدت لهن المتكآت. يقول الألوسي (أي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد كما روي عن ابن عباس وهو من الإتكاء الميل إلى أحد الشقين .. وروي عن الحبر أيضاً أن المتكأ مجلس الطعام لأنهم كانوا يتكؤن كعادة المترفين المتكبرين) ، والتي لا توجد هذه – في الغالب إلا في بيوت الطبقة الأرستقراطية آنذاك وبعده ، وأعطت كلّ واحدةٍ من أولاءِ النسوة سكيناً مع كثرة الأكلة ووفرة أصناف الطعام ومع ذلك فالسكاكين والمتكآت متوفرة ، واعتمدت كذلك على عنصر المفاجأة { اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ} مما يؤكد أن العدد كبير والفرصة مواتيةٌ لدخوله ؛ لاكتمال العدد

ومنها التبجح في ارتكاب المنكر وإضماراً للشر وتبييتاً له {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ٣٢} ، يقول سيد قطب (فهذه البيئة التي تسمح بهذا . وذلك بيئةٌ خاصةٌ ؛ هي بيئة الطبقة المترفة دائماً) .

ومنها ضعف الغيرة في مواجهة الخيانات الزوجية فهنا كما يقول سيد (تبدو لنا صورة من الطبقة الراقية في الجاهلية قبل الآف السنين وكأنها هي هي اليوم شاخصةً رخاوةً في مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميلٌ إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله) .

وأحب إلى أشيد بماذكرته من الحاجة إلى ربط الآيات بالواقع و الحياة التي يعيشها الناس فكلام الله ليس مقصوراً على طائفةٍ أو زمن و الله المستعان . و الله يتولى الجميع بحفظه و توفيقه.

حفيظ عليم

تأملت كل أزمات مصر بل الوطن العربي كافة فوجدت حلها في كلمتين قالهما يوسف عليه السلام
{قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم }..
حفظ أمانة وضمير علم فهم ودراسة قبل أى قرار.
ونحن اليوم لا أمانة ولا علم؛ بل جهل وخيانة وفساد إلا من رحم الله تعالى.

من تأملات العظمة في كتاب الله وتوجيه الآيات المتشابهات.

ومن براعة الأداء القرآن ودقته نجد التركيب القرآني {مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} ورد في سورتىْ الحج آية (٥) ، و ق آية (٧)، بينما نجد التركيب القرآني {مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ} يرد في سورتى الشعراء آية (٧)، ولقمان آية (١٠).

هنا نتوقف عند تشاكل لفظي من ناحيةٍ ، وتباين معنوي من ناحية أخرى يصنع الثنائية المعهودة للتشابه وجود التشابه/ وحكمة التباين.

وبقليل تأملٍ للسياق الذي وردت فيه مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ في الآيات، وبعيدا عن مراعاة الفاصلة القرآنية ههنا نجد

١ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (الحج ٥).

٢ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (ق ٦، ٧).

نجد إن السياق في الآيتين سياق نظرٍ واعتبارٍ واستدلالٍ على وحدانية الخالق سبحانه وقدرته، وحين انفتاح العين المنصفة على آثار القدرة الربانية يليق بها أن ترى البهجة في خلق الله تعالى دليلا على عظمته وقدرته، فناسبه التعبير بوصف بهيج .

أما في الآيتين حيث نجد التركيب .. مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.. في الآيات

١ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) (الشعراء ٧، ٨).

٢ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١) (لقمان ١٠، ١١).

نجد السياق هنا سياق بيان لنعم الله تعالى وتواليها وكثرتها ، وحفظه تعالى لخلقه من الآفات التي تبيد الحياة، ووصف الكرم للنبات هنا لصيقُ سياقاً بوصف الكثرة المعبَّر عنه ب كم الخبرية،وكذلك بيان لنعمه تعالى في حفظ الحياة بحفظ السماوات وخلق الجبال الرواسي في الأرض ونزول الماء لينبت في الأرض أزواج النبات الكريم (الكثير المنافع والخيرات في مجالاتٍ كثيرة تحفظ الحياة وتميها).

فكان وصف بهيج أوفق لبيان عظمة القدرة الربانية، ووصف كريم أوفق لبيان عظمة النعم الإلهية ،وكلاهما جميل بليغ في الدلالة على وحدانية الله . والله أعلم.

على الأرض هونا

تأملت قوله تعالى { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} (٦٣ الفرقان)

فليس الإسلام ضوضاءاً يحدثها المتفلسفون .

ولا تشنجاتٍ يظهرها المتحذلقون .

وليس هو في احتقار الناس لأنك قد قصرت ثوبك واطلقت لحيتك .

إنما الإسلام ؛ بل الإيمان كله أن ترضى عن الله وتعبده وتتواضع له بقدر ما تستطيع.

قريبٌ مجيب

قال تعالى }وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ{ (البقرة ١٨٦)

للمتأمل أن يدرك كيف أن جواب الشرط في هذه الآية تقدم على فعله. حيث قال ربنا تبارك اسمه أجيب دعوة الداعي جوابا قدمه قبل إذا دعاني . وكأن الله سبحانه يجيبنا قبل أن ندعو .

فهل بعد ذلك إلا خسارة أهل الغفلة والبعد عن الله.

اللهم قربنا بك إليك. واجعلنا لك وإليك. ولا تجعل آمالنا إلا منك وبك وفيك. سبحانك لا نحصي ثناءا عليك.

كليم الله. القوى الأمين . وعنوان الرجولة والبطولة.

تلك بطولةٌ أخرى لقدوةٍ متجددةٍ من أصفياء الله تعالى وأنبيائه. وما أحوجنا إلى في هذه الأيام التي أخفينا فيها النماذج الصالحة العظيمة من حياتنا واستبدلناها بكل خسيسٍ ورديٍ من نماذج الفساد والسفاهة. بل لم نكتفِ بمَن ابتلانا الله بهم من السفهاء حتى استوردنا من الغرب كل غثٍ وسخيف.. ثم لا يأخذنا الإنفعال أسفاً على واقعنا السخيف، ونعود إلى الجمال والقوة والعفة والرجولة والأمانة والأدب الرباني الراقي الذي نتعلمه من (موسى).

هذه هى البطولة الحقيقية، وليست تلك الأوهام التي تعلق في أذهاننا عن هؤلاء المزيفين السخفاء من مشاهير السينما والكرة والسياسة.

إنها بطولة الأخلاق والمعاني الفاضلة التي تحيي في النفوس ذلك التكريم الإلهى للإنسان الذي خلقه الله بيديه ، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شئ، ثم استخلفه في الأرض . فإذا سما بعبوديته لله تعالى وإعماره الأرض بعمله الصالح فهو خير من الملائكة ولا أعز من ذلك. وإن هوى وأخلد إلى الطين واتبع الشهوات والشبهات فهو أرذل من الشياطين ولا كرامة.

وإن مَن يفهم حقيقة وجوده في ضوء هذه الحقائق ويتحقق من إنسانيته وإرادة الرحمة الإلهية العليا – سبحانه تكريمه وهداه وردّه إلى الجنة التي خرج منها أبواه معززاً مكرماً وقد اكتمل وجدانه لحقيقته واكتملت أحقيته بها. مَن يدرك هذا هو البطل حقاً. وهو الرجل الذي اكتملت رجولته .. تلك هى الرجولة وهؤلاء هم الرجال الحقيقيون ؛ ومَن عداهم فليبحث لنفسه عن كلمة تصفه. خصوصا وقد انتشر الشذوذ بيننا في الفكر والدين والروح وال....

جرجرنا الحديث ولكن كان لابد. ونعود إلى موسى في سورة القصص وبعد أن بلغ أشده (أوان شبابه وفتوته) في بيت فرعون – وهذا من كيد الأقدار.

قال ابن كثير أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه من ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

قال الله تعالى وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤القصص) .

وهنا الدرس أن كل شيٍ بقدر. فلولا ما حدث من موسى ولم يكن يقصده من قتل القبطي على وجه الشهامة ونخوة الرجال في دفع الظلم لما كان طريقه في الخروج من مصر ومروره بعد ذلك على الطور وتشريفه بمقام الرسالة والتكليم الإلهى.

وهكذا قدر الله غالب وقد أراد بموسى الحكمة(النبوة) والعلم. وحكم له حكما مسبقا حتى لا يسبق إلى أفكارنا السوء بشأن قضيته مع القبطي. حكم له بأرفع الأخلاق والآداب. حكم له ربه بأنه من المحسنين. وكل أنبيائه ورسله الكرام كذلك محسنون كما قال في يوسف .

والإحسان درجةٌ يرتقي فيها المؤمنون عن مجرد الأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة إلى فضاء الجمال الأخلاقي والأدبي الواسع فتراهم يرتفعون بتصرفاتهم إلى الأحسن دائمًا، وليس مجرد الحسن الذي هو ضد القبيح.

ثم نعود إلى موسى . وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (القصص١٥)

قال تعالى ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها أى في وقتٍ لا يكثر فيه الناس في شوارع المدينة. وقال القرطبي قيل لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون وفشا ذلك منه فأخافوه فخافهم فكان لا يدخل مدينة فرعون إلا خائفا مستخفيا. ولعل هذا يتلائم مع الآية قبلها ان الله عرفه الحق وآتاه الحكم والعلم فصار يرفض بعقله وقلبه ولسانه دين فوعون الفاسد وعبادته وأصنامه الهالكة، خاصةً وان موسى كان وقومه على دين يعقوب وبنيه يوسف وإخوته . قال الله تعالى فوجد فيها رجلين يقتتلان أي يتضاربان ويتنازعان هذا من شيعته أي إسرائيلي من قومه بنى اسرائيل الذين كانوا يعاملهم الفراعنة الأقباط أسوا معاملة وكانوا مستذلين لا كرامة لهم ولا حقوق؛ وهذا من عدوه أي قبطي (مصري. والقبط هم المصريون وليس النصارى وهو خطأ شائع).

فاستغاثه الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ أى فطلب الرجل الإسرائيلى من موسى ، أن ينصره على الرجل القبطى .والظاهر ان القبطى كان قويا وكان يغلب الإسرائيلي ويذله. وهنا تحرك في موسى غريزة الشهامة والرجولة في نصرة المظلوم والدفع عن الضعيف وهى شيمة الرجال الأبطال ..

فَوَكَزَهُ موسى فقضى عَلَيْهِ أى فاستجاب موسى لمن استنصر به ، فوكز القبطى ، أى فضربه بيده مضمومة أصابعها فى صدره ، فقضى عَلَيْهِ أى فقتله . وهو لا يريد قتله ، وإنما كان يريد دفعه

ومنعه من ظلم الرجل الإسرائيلي. والتعبير يشير إلى أن موسى كان على جانب عظيم من قوة البدن ، كما يشير أيضا إلى ما كان عليه من مروءة عالية . حملته على الانتصار للمظلوم بدون تقاعس أو تردد .

ولكن موسى بعد أن رأى القبطى جثة هامدة ، استرجع وندم ، وقال هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان أى قال موسى هذا الذى فعلته وهو قتل القبطى ، من عمل الشيطان ومن وسوسته ، ومن تزيينه . إِنَّهُ أى الشيطان عَدُوٌّ للإنسان مُضِلٌّ له عن طريق الحق مُبِينٌ أى ظاهر العداوة والإضلال .

وهذا يدل على علمه وحكمته . فحين اقترف خطأً لم يتكبر على الاعتراف به والتوبة منه. وقد علم بحكمته أن الإصرار والتبرير للاخطاء أكبر من أى خطأٍ مهما كان قدره. ولذلك استغفر ربه قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ خصوصا للمخبتين، المبادرين للإنابة والتوبة، وهذه بطولة اخرى وقدوة جميلة يقصها علينا القرآن في هذا الموقف مع نبى الله موسى بجانب ما احتواه هذا الموقف من الشهامة والمروءة ونجدة الضعيف.

ثم اتخذ القرار العظيم بعد هذا الموقف الذي جعل من الخطأ قوةً ودفعة في طريق الحق والفتوة الأخلاقية والبطولة الإنسانية.

فبعد الخطأ ومعرفته والاعتراف به والتوبة منه والتوقي من العودة فيه تصبح روح الإنسان أقوى ويقف على مستوى أعلى مما كان فيه لأنه تحقق من حاجته الدائمة إلى ربه والاستعانة به والتوبة إليه ثم حاجته الدائمة إلى تهذيب نفسه ومعاتبتها ومحاسبتها للوصول للأحسن.

هذه هى الخطيئة التي تجعل الإنسان أحسن لا تلك التي تصمه بالعار والنجاسة والهلاك مدى الحياة كما يعتقد النصارى. والدرس عندنا (خطيئة اعتراف وتوبة نجاة وفلاح) أما (خطيئة استكبار وتبرير كما فعل إبليس هلاك وضياع).

نعم اتخذ موسى وقد أثنى على ربه في نعمه وهو يشير ان فعلته بغير أمر ربه وغن لم يقصدها كانت سوء أدب مع الله المنعم بجميل وكثير النعم قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) . أي معينا للكافرين بك المخالفين لأمرك.

وهكذا يستحق موسى أن يكون كليم الله وصفيه من خلقه. لأنه عرف واعترف وحمل الكثير من جميل الشيم ومكارم الأخلاق التى يفصلها لنا القرآن لتكون لنا القدوة والمثل . والعبرة والدليل.

قال الله سبحانه فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨القصص)

قال ابن كثير يقول تعالى مخبرا عن موسى لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح في المدينة خائفا أي من معرة ما فعل يترقب أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر فمر في بعض الطرق فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى إنك لغوي مبين أي ظاهر الغواية كثير الشر ثم عزم على البطش بذلك القبطي فاعتقد الإسرائيلى لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه.

يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك.

ولعلى هنا أتوقف أمام قول الاسرائيلي لموسى إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) . لأستشف منه أن موسى كان قد بدأ الإصلاح في مجتمعه بالفعل ونشر الأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة قبل حتى ان تأتيه الرسالة. وهو ما يؤكد ما اعطاه الله حين بلغ أشده من الحكمة والعلم. كما قال ربنا اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (الأنعام١٢٤).

نعود لقصة موسى قال تعالى وجاء رجل . لعل وصفه بالرجولة لأنه خالف قومه في باطلهم واعجب ببطولة ورجولة موسى فقرر ان يدافع عنه وينصحه وهذه هى صفة الرجال في الدفاع عن الحق حتى وصفه ربه تعالى بحرصه الشديد على نصح موسى ونجاته بأنه من أقصى المدينة يسعى أى يسرع ويجري من أبعد حى في المدينة دفاعا عن حبه لموسى وأخلاقه. والعجيب انك تجد نفس الوصف مكررا في سورة يس لذلك الرجل الذي جاء ينصح قومه والمعنى الجميل واحد فيهما. قال الرجل يا موسى إن الملأ يأتمرون بك أي يتشاورون فيك ليقتلوك فاخرج أي من البلد إني لك من الناصحين .

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) . قال ابن كثير لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون دولته في أمره خرج من مصر وحده ولم يألف ذلك قبله بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة فخرج منها خائفا يترقب أي يتلفت قال رب نجني من القوم الظالمين أي من فرعون وملئه ذكروا أن الله بعث إليه ملكا على فرس فأرشده إلى الطريق فالله أعلم.

قلت هنا يبدا مشوار الرسالة والنبوة الطويل الذي يمتلأ بالمشقة والتعب والصبر والتحمل. لقد انتقل موسى من النعمة والاستقرار والرياسة إلى التشرد والتعب والصبر والخوف. لأن طريق الله ليس بالسهل وأهل كرامته لا تلقى إليهم الهداية والتكريم دون تعب وجهاد في الحق .

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا (العنكبوت ٦٩).. وهذه الآية الكريمة جاءت في ختام سورة العنكبوت، والتي افتتحت بقوله تعالى الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (العنكبوت ١ ٣).وكأن ختام سورة العنكبوت بهذه القاعدة القرآنية وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا هو جواب عن التساؤل الذي قد يطرحه المؤمن ـ وهو يقرأ صدر سورة العنكبوت التي ذكرنا مطلعها آنفاً ـ تلك الكلمات العظيمة ـ التي تقرر حقيقة شرعية وسنة إلهية ـ في طريق الدعوة إلى الله تعالى، وذلك السؤال هو ما المخرج من

تلك الفتن التي حدثتنا عنها أول سورة العنكبوت؟ فيأتي الجواب في آخر السورة، في هذه القاعدة القرآنية المحكمة وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا فلا بد من الجهاد - بمعناه العام؛ جهاد النفس عن الشهوات وجهاد الشيطان ومكابدة الصبر في الدعوة إلى الله - ولا بد من الإخلاص، عندها تأتي الهداية، ويتحقق التوفيق بإذن الله.

ولا بد لكل من أراد أن يسلك طريقاً أن يتصور صعوباته؛ ليكون على بينة من أمره، وهكذا هو طريق الدعوة إلى الله، فلم ولن يكون مفروشاً بالورود والرياحين، بل هو طريق تعب فيه آدم وناح لأجله نوح ورمى في النار الخليل وأضجع للذبح إسماعيل وبيع يوسف بثمن بخس ولبث في السجن بضع سنين .

جاء في ظلال القرآن إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف؛ وأمانة ذات أعباء؛ وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس آمنا. وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤهو كذلك تصنع الفتنة بالقلوب .

وقال الأديب البارع مصطفى لطفى المنفلوطي فيا من نصبت نفسك للدعوة، وأقمت نفسك مقام الرسل الدعاة الهداة تحمَّل كلَّ ما يلاقيك من المحن بقلب ثابت، وجأش رابط، ولا تزعزعنَّك الكروب؛ فإنها مربِّية الرجال، ومهذِّبة الأخلاق، ومكوِّنة النفوس.

وإن رجلاً لم تعركه الحوادث، ولم تجرِّبه البلايا لا يكون رجل إصلاح ولا داعي خَلْقٍ إلى حقٍّ؛ فوطِّن النفس على تحمُّل المكروه، وابذل كل ما تستطيع من قوة ومال يهدك الله طريقاً رشداً، ويصلح بك جماعات بل أمماً (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ). .

وإن في محمد صلوات الله وسلامه عليه لأقرب وخير وأرقى مثال للصبر من أجل نشر كلمة الحق والجهاد فيها حق الجهاد وهو القدوة والمثل لكل مَن حمل لواء الحق من بعده..

صلى الله على محمد وآله وعلى موسى وآله وسلم تسليما كثيرا.

كليم الله مرةً أخرى وعظمة الرجولة.

نعود بحول الله وقوته – فنقول

خرج موسى من مصر خائفا يترقب ، وهنا يبدأ مشوار النبوة ومشاق الدعوة إلى الله التي هى أشرف مهام البشرية. مشوارٌ مرهقٌ . وطريقٌ وعر. العقبات فيه كثير. وأولها اعتياد الناس العبودية للطواغيت كأمثال فرعون. واعتيادهم الركون إلى ما وجدوا عليه آبائهم وأسلافهم. اعتيادهم السهل من الشهوات و السخيف من الأفكار. صدق من قال ما حارب الدين مثل العادة. لقد خرج موسى – – ليستكمل طريقه إلى الله تعالى. طريقاً يصقل فيه رجولته ويستعد لتبعات التلقي عن الله، والوقوف شامخا بين السماء والأرض . يبلغ رسالة الله تعالى وتعاليمه لعباده، ويقيم دين الله في أرض الله سبحانه.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (القصص ٢٢).

قال القرطبي لما خرج موسى فارا بنفسه منفردا خائفا، لا شيء معه من زاد ولا راحلة ولا حذاء نحو مدين، للنسب الذي بينه وبينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخلوه من زاد وغيره، أسند أمره إلى الله تعالى بقوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل وهذه حالة المضطر. قال ورُوي أنه كان يتقوَّت ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خف قدميه. قال أبو مالك وكان فرعون وجه في طلبه وقال لهم اطلبوه في ثنيات الطريق، فإن موسى لا يعرف الطريق فجاءه ملك راكبا فرسا ومعه عصا ، فقال لموسى اتبعني فاتبعه فهداه إلى الطريق؛ قال مقاتل والسدي إن الله بعث إليه جبريل؛ فالله أعلم. وبين مدين ومصر ثمانية أيام؛ وهي قرية شعيب – سميت بسم مدين بن إبراهيم).

قلتُ وهكذا يوجه الله أنبياءه وأصفياءه للتضرع إليه ومناجاته وقت الشدة والرخاء.وكذلك يهدي الله تعالى أنبياءه ويثبت قلوبهم ويمهد لهم طريق النبوة بالرسل الكرام من الملائكة يدلونهم ويحيطونهم ويمنعونهم من كل سوء.. يقول تعالى   إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.(سورة غافر).

خرج موسى وعين الله سبحانه التي لم تزل تحوطه، ومازالت تكتنفه وتهديه. وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (القصص ٢٣)

قال ابن كثير -   أي لما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء وجد عليه أمة من الناس يسقون أي جماعة يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان أي تكفكفان(تمنعان) غنمهما أن ترِد (تشرب) مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا، فلما رآهما موسى رقَّ لهما ورحمهما، قال ما خطبكما ؟ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء (يصدر الرعاء أي يرجعون من سقيهم خوف الزحام أو يصرفوا مواشيهم عن الماء ، والرعاء جمع راعي)، وأبونا شيخ كبير(لا يقدر أن يسقي) أي فهذا الحال الملجئ لنا إلى ما ترى، قال الله تعالى   فسقى لهما . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذَنوباً (دلواً مليئا بالماء) واحداً حتى رويت الغنم. أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده صحيح .

قال القرطبي في تفسيره قالت فرقة من الناس   كانت الآبار مكشوفة، وكان زحم الناس يمنعهما، فلما أراد موسى أن يسقى لهما زحم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغلب الذي كان منه وصفته إحداهما بالقوة . وقالت فرقة   إنهما كانتا تتبعان فضالتهم في الصهاريج، فإن وجدتا في الحوض بقيةكان ذلك سقيهما، وإن لم يكن فيه بقيه عطشت غنمهما، فرق لهما موسى، فعمد إلى بئر كانت مغطاة والناس يسقون من غيرها، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة، قال ابن زيد ابن جريج   عشرة.

قال ابن كثير وقوله تعالى ثم تولى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير قال ابن عباس سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة، وقوله إلى الظل جلس تحت شجرة، وقال عطاء لما قال موسى رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير أسمع المرأة.

ولا ننسى عظمة أخلاق نبي الله موسى في هذا الموضع، وهو موضع القدوة والمثل العالى.يقول الزمخشري - في تفسيره والمعنى أنه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس مختلفة متكاثفة العدد ، ورأى الضعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم ، فما أخطأت همته في دين الله تلك الفرصة ، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع ، ولكنه رحمهما فأغاثهما ، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده ، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجبلة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتي من البطش والقوّة وما لم يغفل عنه ، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب ، ترغيباً في الخير ، وانتهاز فرصه ، وبعثاً على الاقتداء في ذلك بالصالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم.

وهنا نتوقف قليلا مع عظمة الاعجاز القرآني. لأنه ومع تلك الوجازة في الألفاظ، والعبقرية الجمالية في التعبير ، والجزالة في الأسلوب . يناقش القرآن ، وبكل عظمة وموضوعية قضيةً من أخطر قضايا مجتمعاتنا في العصر الحديث، ألا وهى قضية خروج المرأة للعمل . والتي تنشتت الآراء فيها متطرفةً ما بين متشددٍ لا يرى خروج المرأة من بيتها أساسا، وما بين متساهلٍ متحللٍ يرى خروج المرأة بلا مبرراتٍ ولا ضوابطٍ.

وكلاهما متطرفٌ وعلى خطأٍ في تلك المسألة التي يجيب عليها القرآن في أثناء قصصه الحق وبكل جمالٍ وبراعةٍ. ليعطي القرآن أسلوبه ميزةً إعجازيةً تمثل في طرحه لأعمق قضايا الفكر والاجتماع الإنساني والحكم الموضوعي فيها بصورةٍ قصصيةٍ أدبيةٍ بلاغية مشوقة فتخترق حواجز النفس الصحيحة والوجدان الواعي بلا أية عوائق لتستقر في الفكر والشعور.

وهكذا يجب أن نقرأ القصص القرآني الذي لم يكن أبدا للتسلية فقط، فقصص القرآن تثبيت للمؤمنين على طريق الحق، وحفزٌ لهم لفعل الخيرات ، وهداية لهم لأحسن الاعتقاد والفكر والعمل، وموعظة لهم بنهاية الظالمين وهداية المهتدين، وأخيرا هو تسليةٌ رائعة للمؤمنين وزيادة في الإيمان بعظمةكلام الله سبحانه. وهذا المعنى من قول ربنا في آخر سورة يوسف لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ..

نعود فنقول إن قضية خروج المرأة للعمل قد حسمتها تلك الآيات في سورة القصص، وبكل موضوعية وبلا تطرف بما يحقق المصلحة والخير والعفة والصلاح لكل المجتمعات الانسانية..لقد حصرت تلك الآيات العظيمة المسألة في سؤالين

أولهما لماذا تخرج المرأة للعمل في وجود الرجال ، وخاصةً أن البطالة ملأت الدنيا أجمعها ؛ فالأَوْلى خروج الرجال للعمل لا المرأة إذا كانت الحياة تضع – في مسيرتها الصحيحة – الأعباء وقيام الأسر على الرجال ؟

ثانيهما إذا أقررنا أن لخروج المرأة تزاحم الرجال في ميادين العمل والحياة آفاتٌ ومساوئ وأعراضٌ جانية خطيرة على الفرد (المرأة نفسها والرجال المحيطين بها) ، والأسرة (التي ينتقص من حقها النساء العاملات)، والمجتمع (الذي يشقى بأضرار وطوام الاختلاط ، وزيادة بطالة الرجال مما يعرضه لمفاسدهم وانتقاص وجود الأسر السوية في المجتمع)..

إذا أقررنا بهذا كله ومع ذلك قلنا بخروج المراة للضرورةكما نوضح، فما هى ضوابط خروج المرأة للعمل التي تكفل أقل قدر ممكن من الضرر على مجتمعاتنا؟

ويجيب علينا القرآن في طيات قصصه الحكيم الرائع. فيقول مجيبا على السؤال الأول

إن خروج المرأة للعمل مع وجود الرجال القادرون لهو أمر مستهجن تمجُّه الفِطرة السليمة والعقول المستنيرة، ولذلك عبر عنه الذكر الحكيم بالسؤال الصارخ – على لسان نبى الله موسى لما رأى بنتين تقفان بجوار الرجال تريدان أن تسقيا ، ولا تريدان مزاحمة الرجال فأشفق عليهما من هذا الموقف المتعب للنساء اللائي لا تساعدهن خِلقتهن الرقيقة على تحمل مشاق الرجال ومزاحمتهم في ميادين العمل.

فقال لهما ما خطبكما (والخطب الأمر الجلل الخطير. يقول ابن عطية – نقلا عن تفسير القرطبي في تفسير هذه الآية وكان استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مُصاب (أى من به مصيبة)، أو مضطهد، أو من يشفق عليه، أو يأتي بمنكر من الأمر. وهو نفس معنى التعبير الإنجليزي **what is the matter with you** للذين يفهمون الإنجليزية).. وهنا نعلم أنه ليس بالهين في المجتمعات الصحيحة خروج المرأة لمزاحمة الرجال بلا مبرر قوى وسبب مقنع. وهنا تجيب المرأتان في نفس الآية بسبب خروجهما للعمل أنه الضرورة .تقولان، وقد فهمتا غرض موسى من سؤاله المستنكر لخروجهما وأبونا شيخ كبير لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وليس له من ولد غيرنا، فهذا الحال هى الملجئ لنا إلى ما ترى. ولولا ذلك ما خرجنا..

فالقضية إذا أن خروج المراة للعمل يبيحه الإسلام ولكن للضرورة. فحين لا تجد المرأة البديل من عائلٍ يعولها أو يعول أبناءها أو إخوانها وأخواتها أو والديها فلها الحق في العمل ، ولها على المجتمع توفير العمل المحترم والآمن والغير شاق والذي يوفر لها ما تحتاج من قوت ، وأن يوفر لها ما يحفظ كرامتها وشرفها وعفتها، ويدافع عنها ضد مرضى القلوب والسفهاء الذين لا يرعون الله تعالى.. هذه الضرورة التي تلجأ المرأة للعمل، وهذه ما يجب أن تكون نظرة وفعل المجتمع تجاه النساء العاملات الذين لهم كل احترام وتقدير.

وأما جواب السؤال الثاني وهو عن ضوابط عمل المرأة بين الرجال؛ فتجيب عنه المرأتان الصالحتان في قصة موسى قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء. أى لا نسقى حتى ينصرف الرجال الذين يسقون من أهل الرعى حتى لا نزاحم الرجال ؛ فإننا ضعيفتان لا نستطيع أن نزاحمهم ، فلذلك كنّا نمنع غنمنا من السقى حتى ينصرفوا. فحين خروجهما للعمل كانت المرأتان تقفان بعيداً عن الناس تذودان قال الزمخشري والذود هو الطرد والدفع والمنع، وإنما كانتا تذودان؛ لأنّ على الماء من هو أقوى منهما فلا يتمكّان من السقي . وقيل كانتا تكرهان المزاحمة على الماء . وقيل لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم ، وقيل تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترا نفسيهما. اهـ.

وهكذا تعرف المرأة الصالحة جيدا ما خُلقت فيه ومن أجله فلا تتعدى حدود فطرتها الناعمة الرقيقة إلى فطرة الرجال الخشنة التى أعدها الله فيهم للمزاحمة والقوة في الحياة. وهذه أول ضوابط خروج المرأة للعمل. ثم هى تخرج محتشمة محترمة تحفظ حياءها ولا تبدي ما حرم الله من زينتها حتى لا تفتن ولا تُفتَن فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (الأحزاب ٣٢، ٣٣).. ثم الطلب الدؤوب للمرأة العاملة الصالحة أن تنأى بنفسها عن مزاحمة الرجال والاختلاط الغير مبرر بهم لأن فيه ما فيه من مفاسد على الفرد والأسرة والأمة. ثم ماذكرناه من فعل المجتمع الصالح تجاه المرأة العاملة الذي يتمثل فيماذكرنا بجانب مساعدتها الدائمة في حمل أعبائها وسلوك طريق اعفافها وتطوير الأخلاقيات العالية للتعامل معها بما يضمن شرفهاوكرامتها ، وهذا بالضبط ما فعله موسى وبكل روعة في جمال الأخلاق فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير. وبهذه الضوابط في فهم وتطبيق القضية يكون القرآن قد وضع الأسس السليمة للتعامل مع قضية عمل المرأة. ووضع خطا جديدا من خطوط المجتمع الفاضل كما يراه الإسلام العظيم .فالحمد لله رب العالمين..

راجعت في تفسير آيات هذا المقطع

١. تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر (١٩/ ٥٤٨)

٢. تفسير ابن كثير ت سلامة (٦/ ٢٢٦)

٣. تفسير الجلالين (ص ٥٠٩)

٤. تفسير القرطبي (١٣/ ٢٦٧)

٥. الكشاف تفسير الزمخشري (٥/ ١٣١، بترقيم المكتبة الشاملة آليا)

دروس آية

قال تعالى في سورة طه مخاطبا موسى عليه السلام {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي}.

-اذهب تحطم السلبية وتبني الإيجابية..

-أنت وأخوك تحطم الفردية وتبني الجماعية..

-بآياتي تحطم الجهل والعشوائية وتبني العلم والمنهجية..

-ولا تنيا تحطم الكسل وتبني الهمة والتضحية..

-في ذكري تحطم المادية وتبني الربانية..

بحث في حديث " أبي وأبوك في النار".

ما استفذني حقيقةً كي أبحث في هذه المسألة هو ما تصيَّده بعضُ المفسرين ثم صار ينقله بعضهم عن بعض وكأنه رأيٌ معتبر في تفسير قوله تعالى {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} (البقرة ١١٩)

فقد قال سبحانه {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ} أَيْ بِالْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ، متلبساً بالحق محُاوَطاً به في كل ما تقول وتفعل كما قال تعالى {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} (النجم ٣، ٤). وَفُسِّرَ الْحَقُّ هُنَا بِالصِّدْقِ وَبِالْقُرْآنِ وَبِالْإِسْلَامِ، والأمر على عمومه. وَ(بِالْحَقِّ) فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ أَرْسَلْنَاكَ وَمَعَكَ الْحَقُّ لَا يُفارقكَ.

{بَشِيرًا وَنَذِيرًا} أي بشيراً لمن اتبعك، ونذيراً لمن كفر بك، لأن تبشر الطائع المهتدي وتنذر العاصي الجاحد؛ لا لتجبر الناس على الإيمان، وهذه تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتسريةُ عنه، لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على الكفر. فلذلك قال بعدها {وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} أي ولا نسألك عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بلَّغتَ، وبَلَغْتَ جهدك في دعوتهم، كقوله تعالى في الآية الأخرى {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، وقوله {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ}، وقوله {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ}، وقوله {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}.

وقرأ الإمام (نافع) وحده (وَلا تَسْأَلْ) على النهى وجزم الفعل (ولا تَسأل)؛ قال الزمخشري وفيه من المبالغة في استعظام ما ينالهم من العقاب حتى إن السامع لخبره ليصيبه ما لا يقدر أن يتحمله من سماع

ذلك، كما تقول كيف فلان؟ سائلا عن الواقع في مصيبة، فيقال لك لا تسأل عنه أي إن حاله أشد من أن يُحكى. (١)

وهذا الذي رجحته ذكرته وحده في مقصود الآية يتفق مع جماليات البلاغة القرآنية واستقصائها لأفصح أساليب العربية، وقدذكر بعض المفسرين أن هذا المقطع {ولا تسألْ عن أصحاب الجحيم} على قراءة من جزم الفعل نزل في سؤال نبي الله – وحاشاه عن مصير أبويه؛ والعجب من تطاول هذا الذي تأوَّل ذلك، واستقطاعه النص من سياقه، وحشره لروايته فيما لم يُسَقْ له الكلام أصلاً، فكأنه فصل تفسير هذا الجزء عن الآيةكلها لأجل روايته الواهية تلك، ثم إن هذا التأويل – لو ساغ في إحدى القراءتين وليس ينطبق على قراءة الجمهور، ثم إن الرواية التي ساقوها في ذلك ضعيفة مرسلة من كل طرقها. فإن محمد بن كعب بن سليم القرظي تابعي. وقد أرسله، والمرسل لا تقوم به حجة، ثم هما – عند الطبري وغيره إسنادان ضعيفان أيضًا، بضعف راويهما موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي ضعيف جدا منكر الحديث، مترجم في التهذيب. وروى ابن أبي حاتم عن الجوجزاني قال سمعت أحمد بن حنبل يقول لا تحل الرواية عندي عن موسى بن عبيدة، قلنا يا أبا عبد الله، لا يحل؟ قال عندي، قلت فإن سفيان وشعبة قد رويا عنه؟ قال لو بان لشعبة ما بان لغيره ما روى عنه . وقال ابن معين لا يُحتج بحديثه . وقال أبو حاتم منكر الحديث . والحديث الآخر الذي أورده الطبري بإسناده عن داود بن أبي عاصم عن النبي صلوات الله عليه، وهو تابعي ثقة والحديث أيضا لا يصح لإرساله ولا تقوم به الحجة.. (٢)

---

١ راجع تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١/ ١٨٢) بتصرف وبيان.

٢ منقول من تحقيق العلامة الشيخ شاكر على تفسير الطبري = جامع البيان (٢/ ٥٥٨). وقد ذكر هذه الرواية كثير من المفسرين دون تعليق منهم. الزمخشري في الكشاف حـ١ صـ١٨١، ومنهم ابن الجوزى في زاد المسير حـ١ صـ ١٣٧، ومنهم السمرقندي في بحر العلوم حـ١ صـ ١١٥ ومنهم البيضاوي حـ١ صـ٣٩٢ ومنهم النسفى حـ١ صـ٦٨، ومنهم السمعاني حـ١ صـ١٣٢ والواحدي حـ١ صـ١٢٩، ومنهم الصنعاني حـ١ صـ٧٧، ومنهم ابن جزى في التسهيل حـ١صـ٥٩. وقد رد هذه الرواية كثير من المحققين من العلماء والمفسرين منهم القرطبي رحمه الله حـ٢ صـ٦٤، وابن عطية، وأبو السعود حـ١ صـ١٥٢، والآلوسى حـ١ صـ٣٧١، والثعالبي حـ١ صـ١٠٣، والخطيب الشربيني في السراج المنير حـ١ صـ٨٩.و غيرهم.

وبهذا يتبين سقوط هذا التأويل عقلا ونقلا، فلا يجوز تفسير الآية به عند التحقيق. وليس كل ماذكرته التفاسير يُنقل، وخصوصا إذا كان تحكما لا يتفق وسياق القرآن، فكيف إذا كان به من الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا منهجي والله المستعان.

ثم إنني رأيت في التحرير والتنوير حـ١ صـ ٣٩٨ ما مختصره وما قيل فهو استناد لرواية واهية ولو صحت لكان حمل الآية على ذلك مجافيا للبلاغة إذ قد علمت أن قوله (إنا أرسلناك) تأنيسٌ وتسكينٌ فالإتيان معه بماذكر المكدرات خروج عن الغرض وهو مما يعبر عنه بفساد الوضع. انتهى كلامه.

قال الأستاذ محمد عبده وقد فشا هذا القول، ولولا ذلك لم نذكره، وإنما نريد بذكره التنبيه على أن الباطل صار يفشو في المسلمين بضعف العلم، والصحيح يُهجَر ويُنسَى، ولا شك أن مقام النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في معرفة أسرار الدين وحكم الله في الأولين والآخرين ينافي صدور مثل هذا السؤال عنه، كما أن أسلوب القرآن يأبى أن يكون هو المراد منه. انتهى.

والتعبير عن الكافرين والمكذِّبين بكلمة {أصحاب الجحيم} إيذانٌ بأن أولئك المعاندين من المطبوع على قلوبهم، فلا يُرجَى منهم الرجوع عن الكفر والضلال إلى الإيمان والإذعان.

وقد قرأت لأحد العلماء كلاما نفيسا قال فيه [1]

ولا يجوز في الجملة القول في الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بشيء يؤدي إلى العيب والنقصان فيهم ، وقد أمرنا بحفظ اللسان عنهم ؛ لأن مرتبتهم أرفع ، وهم على الله أكرم ، وقد قال عليه السلام إذاذكر أصحابي فأمسكوا فلما أمرنا أن لا نذكر الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بشيء يرجع إلى العيب والنقص ، فلأن نمسك ونكف عن الأنبياء أولى وأحق فحق المسلم أن يمسك لسانه عما يخل بشرف نسب نبينا ـ عليه السلام ـ وليست من الاعتقاديات فلا حظ للقلب منها، وأما اللسان ، فحقه أن يُصان عما يتبادر منه النقصان ، خصوصاً إلى وهم العامة ، لأنهم لا يقدرون على دفعه وتداركه. انتهى.

---

١ نقلا عن روح البيان حـ١ صـ٣٩٥

وكلامٌ نفيسٌ نقتنصه للشيخ الشنقيطي رحمه الله في هذا الموضع أيضاً حول الرواية التي فيها قوله عليه السلام أبي وأبوك في النار .

قال رحمه الله ما ملخصه

وكل ماذكر في هذه الرواية يتعارض مع صريح القرآن الكريم مثل قوله تعالى { وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً } (الإسراء ١٥)، وقوله { لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون } (يس ٦)، وقوله تعالى {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى ..} (الملك ٨)، وقوله تعالى { ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون } (القصص ٤٦)، وقوله تعالى { وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير } (سبأ ٤٤)، وقوله تعالى { رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل } (النساء ١٦٥) وقوله تعالى { ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى } (طه ١٣٤)..

فهذا كله يجب تقديمه على أخبار الآحاد الدالة على تعذيب أهل الفترة، وقد صرحت بعض الأحاديث أنهم يُمتحنون يوم القيامة كماذكره ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لقوله تعالى في سورة الإسراء وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً

ثم يقول ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة في عرصات المحشر فمن أطاع دخل الجنة، وانكشف علم فيه بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً وانكشف علم الله فيه بسابق الشقاوة، وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة وهو الذي نصره الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب (الاعتقاد) وكذلك غيره. انتهى كلامه. ا.ه [١]

---

١ هذا ملخص كلام الشيخ الشنقيطي رحمه الله . في تفسيره أضواء البيان حـ٣ ص٦٥،٦٦ عند الكلام على قوله تعالى {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً}

وقيل في شرح حديث أبي وأبوك في النار أن الأب قد يطلق لغة واصطلاحاً على العم، فلعل المقصود بالأب هنا عمه أبو طالب. ذلك أن أبا طالب عرضت عليه كلمة التوحيد قبل أن يموت فأبى أن ينطلق بها، كأن هذا القول يشير إلى قوله تعالى {قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق} (البقرة ١٣٣) ومعلوم أن إسماعيل كان عماً ليعقوب عليهما السلام – وقد جاء في الحديث الصحيح   عم الرجل صنو أبيه . رواه الترمذي عن علي وصححه الألباني. وفي الحديث الحسن   العم والد و العم أب . (الصحيحة ١٠٤١).

وهذا الرأي وجيهٌ جداً ويجب أن يحمل عليه الحديث السابق جمعاً بين الأدلة وصيانةً لها عن التعارض. وأيضاً فتأويل الحديث ليوافق الكتاب أولى من تأويل الكتاب ليوافق السنة.

وعندي في هذا الحديث وجهٌ آخر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها للرجل ترطيبا لقلبه بعدما حزن حين قال له أبوك في النار. فكأنه قال أبي وأبوك في النار إن لم يؤمنا، وقامت عليهما الحجة، وهذا يبينه أحاديث الامتحان في المحشر والآيات حاكمة عليه.

ويؤيده ما رواه ابن ماجة بسند صحيح عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي كَانَ يَصِلُ الرَّحِمَ، وكَانَ وكَانَ، فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ «فِي النَّارِ» قَالَ فَكَأَنَّهُ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ أَبُوكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «حَيْثُمَا مَرَرْتَ بِقَبْرِ مُشْرِكٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ» قَالَ فَأَسْلَمَ الْأَعْرَابِيُّ بَعْدُ، وَقَالَ لَقَدْ كَلَّفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَبًا، مَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ كَافِرٍ إِلَّا بَشَّرْتُهُ بِالنَّارِ.

وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ لَهُ «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ».

قَالَ السُّيُوطِيُّ وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا حَمَّادُ بْنُ مَسْلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ، وَقَدْ خَالَفَهُ مَعْمَرٌ عَنْ ثَابِتٍ فَلَمْ يَذْكُرْهُ وَلَكِنْ قَالَ

إِذَا مَرَرْتُ بِقَبْرِ كَافِرٍ فَبَشِّرْهُ بِالنَّارِ ، وَلَا دَلَالَةَ فِي هَذَا اللَّفْظِ عَلَى حَالِ الْوَالِدِ، وَهُوَ أَثْبَتُ.

فَإِنَّ مَعْمَرًا أَثْبَتُ مِنْ حَمَّادٍ، فَإِنَّ حَمَّادًا تُكُلِّمَ فِي حِفْظِهِ، وَوَقَعَ فِي أَحَادِيثِهِ مَنَاكِيرُ، وَلَمْ يُخَرِّجْ لَهُ الْبُخَارِيُّ، وَلَا خَرَّجَ لَهُ مُسْلِمٌ فِي الْأُصُولِ إِلَّا مِنْ رِوَايَتِهِ عَنْ ثَابِتٍ.

وَأَمَّا مَعْمَرٌ فَلَمْ يتَكَلَّمْ فِي حِفْظِهِ، وَلَا اسْتُنْكِرَ شَيْءٌ مِنْ حَدِيثِهِ، وَاتَّفَقَ عَلَى التَّخْرِيجِ لَهُ الشَّيْخَانِ، فَكَانَ لَفْظُهُ أَثْبَتُ.

ثُمَّ وَجَدْنَا الْحَدِيثَ وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ بِمِثْلِ لَفْظِ مَعْمَرٍ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَخْرَجَهُ الْبَزَّارُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ، وَكَذَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ.

فَتَعَيَّنَ الاعْتِمَادُ عَلَى هَذَا اللَّفْظِ وَتَقْدِيمُهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَعُلِمَ أَنَّ رِوَايَةَ مُسْلِمٍ مِنْ تَصَرُّفِ الرُّوَاةِ بِالْمَعْنَى عَلَى حَسَبِ فَهْمِهِ.

عَلَى أَنَّهُ لَوْ صَحَّ يُحْمَلُ فِيهِ الْأَبُ عَلَى الْعَمِّ.

وَلِهَذَا قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي حَاشِيَةِ سُنَنِ ابْنِ مَاجَهْ

هَذَا مِنْ مَحَاسِنِ الْأَجْوِبَةِ، أَنَّهُ لَمَا وَجَدَ الْأَعْرَابِيَّ فِي نَفْسِهِ لَاطَفَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَدَلَ إِلَى جَوَابٍ عَامٍّ فِي كُلِّ مُشْرِكٍ وَلَمْ يَتَعَرَّضْ إِلَى الْجَوَابِ عَنْ وَالِدِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ.

وَقَالَ السيوطي وَلَمْ يُعْرَفْ لِوَالِدِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَالَةُ شِرْكٍ مَعَ صِغَرِ سِنِّهِ جِدًّا، فَإِنَّهُ تُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَحْيَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالِدِيهِ حَتَّى آمَنَا بِهِ، وَالَّذِي يَقْطَعُ بِهِ أَنَّهُمَا فِي الْجَنَّةِ.

وَمِنْ أَقْوَى الْحُجَجِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الْفَتْرَةِ، وَقَدْ أَطْبَقَ أَئِمَّتُنَا الشَّافِعِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الدَّعْوَةُ لَا يُعَذَّبُ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نبعث رسولا} (الإسراء ١٥) الْآيَةَ.

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي الْإِصَابَةِ وَرَدَ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ فِي حَقِّ الشَّيْخِ الْهَرِمِ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ، وَمَنْ وُلِدَ أَكْمَهَ أَعْمَى أَصَمَّ، وَمَنْ وُلِدَ مَجْنُونًا أَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْجُنُونُ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَأْتِي بِحُجَّةٍ وَيَقُولُ لَوْ عَقَلْتُ أَوْ ذُكِّرْتُ لَآمَنْتُ، فَتُرْفَعُ لَهُمْ نَارٌ وَيُقَالُ ادْخُلُوهَا، فَمَنْ دَخَلَهَا كَانَتْ لَهُ بَرْدًا

وَسَلَامًا، وَمَنِ امْتَنَعَ أُدْخِلَهَا كُرْهًا وَنَحْنُ نَرْجُو أَنْ يَدْخُلَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ وَآلُ بَيْتِهِ فِي جُمْلَةِ مَنْ يَدْخُلُهَا طَابِعًا إِلَّا أَبَا طَالِبٍ. انتهى [1]

قلتُ الباحث وَللحق فإن كُلُّ مَا وَرَدَ بِإِحْيَاءِ وَالِدَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِيمَانِهِمَا وَنَجَاتِهِمَا أَكْثَرُهُ - (عند جمهور العلماء) مَوْضُوعٌ مَكْذُوبٌ مُفْتَرًى، وَبَعْضُهُ ضَعِيفٌ جِدًّا لَا يَصِحُّ بِحَالٍ لِاتِّفَاقِ أئمة الحديث على وضعه كالدارقطني والجوزقاني و ابن شاهين والخطيب وبن عساكر وبن ناصر وبن الْجَوْزِيِّ وَالسُّهَيْلِيِّ وَالْقُرْطُبِيِّ وَالْمُحِبِّ الطَّبَرِيِّ وَفَتْحِ الدِّينِ بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ وَإِبْرَاهِيمَ الْحَلَبِيِّ وَجَمَاعَةٍ.

وقد خالفهم في ذلك السيوطي وقول ابن حجر - (يعني الهيتمي) وحديث إحيائهما حتى آمنا به، ثم توفيا حديث صحيح، وممن صححه الإمام القرطبيّ، والحافظ ابن ناصر الدين (ابن المنير).

ولكن هذا الأمر لا يترتب عليه كثير فائدة في العقيدة، ولكن ما ثبت في صحيح العقيدة هو وجوب تعظيم قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم في القلوب، ووجوب نصرته وعدم إيذائه في نفسه وفي أهله وفي صحبه وفيمن يحب، وأن مؤذي النبي ليس من أهل الإيمان.

اللهم صلى على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه حتى يرضي.

---

١ حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٤٧٧)

في قوله تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ}

يقول الله تعالى في سورة النساء {لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣)}.

قال الشيخ السعدي رحمه الله أي { لَّيْسَ } الأمر والنجاة والتزكية { بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ } والأماني أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة لو عورضت بمثلها لكانت من جنسها. وهذا عامّ في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟ فإن أماني أهل الكتاب قد أخبر الله بها أنهم قالوا { لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ } وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.وكذلك أدخل الله في ذلك من ينتسب إلى الإسلام لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان، لا يفيد شيئا إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها ولهذا قال تعالى { مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ } وهذا شامل لجميع العاملين، لأن السوء شامل لأي ذنب كان من صغائر الذنوب وكبائرها، وشامل أيضا لكل جزاء قليل أو كثير، دنيوي أو أخروي. والناس في هذا المقام درجات لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءا وذلك لا يكون إلا كافرا. فإذا مات من دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم. ومن كان عمله صالحا، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار فما يصيبه من الهم والغم والأذى و (بعض). الآلام في بدنه أو قلبه أو حبيبه أو ماله ونحو ذلك فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قيضها الله لطفا بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة. وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص. وقوله { وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا } لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله قد يكون له ولي أو ناصر أو شافع يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه. انتهى

وقرأت لابن الجوزي رحمه الله في صيد الخاطر كلاما دخل قلبي قال فيه:

كل ظالمٍ،وكذلك كل مذنبٍ ذنبًا مُعاقَبٌ على ظلمه في العاجل قبل الآجل، وهو معنى قوله تعالى {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} (النساء ١٢٣).

وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله، فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة، وقد قال الحكماء المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة.

وربما كان العقاب العاجل معنويًا، كما قال بعض أحبار بني إسرائيل يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني فقيل له كم أعاقبك وأنت لا تدري أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي؟

فمن تأمَّل هذا الجنس من المعاقبة، وجده بالمرصاد، حتى قال وهيب بن الورد، وقد سئل أيجد مَن يعصي لذةَ الطاعة ؟ قال ولا مَن هَمَّ (أي من هم بالمعصية).

فرب شخصٍ أطلق بصره، فحُرِم اعتبار بصيرته، أو أطلق لسانه، فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه، فأظلم سره، وحرم قيام الليل، وحلاوة المناجاة، إلى غير ذلك، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس.

وعلى ضده يجد مَن يتقي الله تعالى من حسن الجزاء على التقوى عاجلًا، كما في حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى النظرة إلى المرأة سهم مسموم من سهام الشيطان، من تركه ابتغاء مرضاتي، آتيته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه ."

ومثل هذا إذا تأمله ذو بصيرة، رأى الجزاء وفهم، كما قال الفضيل إني لأعصي الله عز وجل فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي.

وعن أبي عثمان النيسابوري أنه انقطع شعس نعله (أى سيره) في مُضِيِّه إلى الجمعة، فتعطل لإصلاحه ساعة، ثم قال إنما انقطع؛ لأني ما اغتسلت غسل الجمعة.

ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف عليه السلام {وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ} (يوسف ٢٠)،. امتدت أكفهم بين يديه بالطلب يقولون {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا} (يوسف ٨٨)،. ولما بغت عليه امرأة العزيز بدعواها {مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا} (يوسف ٢٥)،. أنطقها الحق بقولها {أَنَا رَاوَدْتُهُ} (يوسف ٥١).

ولو أن شخصًا ترك معصية لأجل الله تعالى، لرأى ثمرة ذلك،وكذلك إذا فعل طاعة، وفي الحديث إذا أملقتم، فتاجروا الله بالصدقة أملقتم أصابكم الفقر، فتاجروا الله بالصدقة أي عاملوه لزيادة الأرباح العاجلة.

ولقد رأينا من سامح نفسه بما يمنع منه الشرع طلبًا للراحة العاجلة، فانقلبت أحواله إلى التنغص العاجل، وعكِسَت عليه المقاصد.

ذلك هدى الله

نظرت في قَوْلِهِ تَعَالَى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الزُّمَرِ ٢٢)..

وَقَوله تَعَالَى (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ) (الْحُجُرَاتِ ٧).

ثم رأيت الإمام ابن الجوزي يقول يا مطرودًا عن الباب، يا محرومًا من لقاء الأحباب، إذا أردت أن تعرف قدرك عند الملك، فانظر فيما يستخدمك، وبأيِّ الأعمال يشغلك، كم عند باب الملك من واقفٍ، لكن لا يدخل إلا من عني به، ما كلّ قلبٍ يصلح للقرب، ولا كلّ صدرٍ يحمل الحبّ، ما كلّ نسيم يشبه نسيم السحر."

إنصافٌ كبير

تأملت إنصافَ كلام الله العظيم حين رفع من قدر المرأة ما لم يفعله أحد فجعلها المقدمة في معاني الهبة الربانية حين قدمذكرها في قوله تعالى يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور"..

{..عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ..}

تأمل قوله تعالى حين ذكر سبحانه عدة خزنة جهنم أعاذنا الله منها {.. عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31)} (المدثر 27 – 31)

{عليها تِسْعَةَ عَشَرَ} يعني الزبانية خزنة جهنم فقيل هم تسعة عشر ملكا وقيل تسعة عشر صفا من الملائكة والأول أشهر، {وَما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً} سبب الآية أنه لما نزل عليها تسعة عشر قال أبو جهل أيعجز عشرة منكم عن واحد من هؤلاء التسعة عشر أن يبطشوا به (؟) ، فنزلت الآية. ومعناها أنهم ملائكة لا طاقة لكم بهم، ورُوي أن الواحد منهم يرمي بالجبل على الكفار. (١)

{وَما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} وما جعلنا عددهم إلا العدد الذي اقتضى فتنتهم وهو التسعة عشر، وافتتانهم به استقلالهم واستهزاؤهم به واستبعادهم أن يتولى هذا العدد القليل تعذيب أكثر الثقلين، وقوله {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ} أي ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدق القرآن لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم. وَيَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً بالإيمان به، وبتصديق أهل الكتاب له. {وَلا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَالْمُؤْمِنُونَ} أي في ذلك وهو تأكيد للاستيقان، وزيادة الإيمان، ونفي لما يعرض للمتيقن المؤمن حيثما تعروه شبهة. {وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} أي شك أو نفاق، فيكون إخباراً بمكة عما سيكون في المدينة بعد الهجرة. {وَالْكافِرُونَ} الجازمون في التكذيب. {ماذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا} أي شيء أراد بهذا العدد المستغرَب استغراب المثل، وقيل لما استبعدوه حسبوا أنه مثل مضروب. {كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ} أي مثل ذلك المذكور من الإضلال والهدى يضل الكافرين ويهدي المؤمنين. {وَما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ} جموع خلقه على ما هم عليه.

---

١ تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل (2/ 429)

{إِلَّا هُوَ} سبحانه إذ لا سبيل لأحد إلى حصر الممكنات والاطلاع على حقائقها وصفاتها وما يوجب اختصاص كل منها بما يخصه من كم وكيف واعتبار ونسبة. {وَما هِيَ} أي وما سقر أو عدة الخزنة فيها أو السورة. {إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ} أي إلا تذكرة لهم. (١)

١ تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل (5/ 262)

بحث في قوله عليه السلام: " أنتم أعلم بأمر دنياكم"

جاء في صحيح مسلم

عَنْ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ «مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟» فَقَالُوا يُلَقِّحُونَهُ، يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا» قَالَ فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ فَقَالَ «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئًا، فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ». وَفِي رِوَايَةٍ إِذَا أمرتكم بشئ من دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشئ مِنْ رَأْيٍ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَفِي رِوَايَةٍ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ . (١)

قال العلامة النووي مترجما لذلك الحديث (بَابُ وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ شَرْعًا دُونَ مَاذَكَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ فِيهِ).

قلتُ ولهذه الترجمة فقهٌ كبير حيث هذا الفصل النافع بين ثلاث رتب لا تنفك بعضها من بعض

أولها ما كان فيه الحكم للدين مطلقا ولا عِبرة لقول أحد غير ما قال الله ورسوله، وذلك في أمور العقيدة والفقه والثابت من الأخلاق والمعاملات والآداب.

وثانيها ما كان فيه الحكم للزمن والتطور وقوانين الكون والسير في الحياة، بحيث لا يتعرض ذلك لما هو ثابت في روح الإنسان وضميره بشئ، وهو هنا المقصود بقوله عليه السلام أنتم أعلم بأمور دنياكم .

والرتبة الثالثة هو ما اختلط من أمر الدين وأمور الحياة، وهذا يكون فيه الدين (ضابطا) لا (حاكما) و(مهذبا) لا (مهيمنا) بحيث يكون الحكم فيه للمسألة والموقف والتفاصيل والظروف مع استصحاب كليات الدين في العقيدة والأخلاق والضمير الإنساني، وهو ما عناه ابن القيم نقلا عن جمهور أهل الفقه حيثما كانت المصلحة فثمَّ شرعُ الله .

---

(١)مسلم مع شرح النووي (١٥/ ١١٦) دار إحياء التراث العربي –بيروت

وحين تشريح ترجمة الإمام النووي (أي العنوان الذي وضعه) [(١)] للحديثالذي بين أيدينا نرى فقهه - رحمه الله حيث قسم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فعله إلى ثلاثة أقسام؛ قسمان ظاهران وقسم من لحوى الخطاب

١) (ما قاله ﷺ شرعا، وهذا واجب الامتثال بلا أي تردد.

٢) (ماذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي فيه، والقيد هنا أن يكون من قبيل الرأي لا من قبيل الوحي أو ضبط المنهج، وها القسم لا يجب اتباع قول رسول الله ﷺ فيه، وهو كما قال ﷺ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ .

٣) (القسم الثالث المقابل للشرط السابق وهو ماذكره ﷺ من معايش الدنيا ولكن على سبيل التوجيه والتعليم وضبط المنهج فيه، فهذا أقل درجاته أن يكون مندوب العمل به وإلا فهو دينٌ نتدين به وواجب.

---

(١)وعُنْوانُ الكتاب: مُشْتَقّ فيما ذكروا من المَعْنَى، وفيه لغات: عَنْوِنْتُ وعَنَّيْتُ وعَنَّنْتُ الكتاب: أى وَسَمْته بالعُنوان.. قال ابن سيده: العُنْوانُ والعِنْوانُ سِمَةُ الكِتابِ. انتهى من لسان العرب. والعنوان هو السمة التي تسم الكتاب أو الشيء وتدل عليه، كما شاع استخدامه في اللغة العربية المعاصرة في وصف الدلالة على كتاب أو مكان أو شيء. ومثله" الترجمة" وهى اصطلاح لعلماء الحديث، وهو ما دل على المعنى الإجمالي لأثر أو حديث شريف، يُقال ترجمة الحديث أي عنوانه.

وإنّ الترجمة في اللغة هي نقل الكلام من لغة إلى لغة وقد حكا ابن منظور فيلسان العرب أنّ المترجم هو المفسِّر، ولكنّ الترجمة في علم الحديث تأخذ معنى آخر وإن كان أصله قريبًا من المعنى اللغوي فتراجم الأبواب تعني عناوين الأبواب، ومن المواضيع التي بُحثت بعناية عند أئمة الحديث النبوي موضوع تراجم رواة الحديث وهو العلم الذي يُسمّى بعلم الرجال أو تراجم الرجال، ومعنى ترجمة الراوي: إيراد نبذة عن حياة الراوي وذكر صفاته وبعضٍ من مواقفه ومناقبه وأفعاله، بحيث يؤدّي هذا الكلام المحكي عنه إلى معرفة رتبته من الوثاقة أو الضعف، وهو ما يُسمّى بالجرح والتعديل ولا بدّ فيه من العدل والتثبّت وتحرّي الصحة والبعد عن الحسد، كما أنّه ذكر الصفات السيئة إن وجدت في الراوي ليس من باب الغيبة أو النميمة بل إنّه من الدين مع ضرورة الأخذ بقواعد الترجمة المنصوص عليها في كتب التراث لأنّ معرفة حال الرواة له تأثير كبير في معرفة درجة الحديث وبالتالي معرفة إمكانية العمل به أم لا . انظر صالح اللحيدان (١٤١٥)، كتب تراجم الرجال بين الجرح والتعديل (الطبعة ١)، السعودية-الرياض:دار طويق للنشر والتوزيع، صفحة ٢٠، جزء ١. بتصرّف.

وبهذا الفهم السابر مع ملاحظة أحيانا تداخل المراتب، وبيان الثابت من القابل للتغيير والتطور يكون الإسلام في نظرته الوسط قد حَلَّ مشكلة المشكلات من العراك بين الدين والحياة إلى الوئام والتركية بحيث تكتمل الحياة وترتقي بالإسلام.

قال النووي معلقا على الحديث الآنف قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رَأْيِي أَيْ فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَمَعَايِشِهَا لَا عَلَى التَّشْرِيعِ، أَمَّا مَا قَالَهُ بِاجْتِهَادِهِ ﷺ وَرَآهُ شَرْعًا فَيَجِبُ الْعَمَلُ بِهِ.. مَعَ أَنَّ لَفْظَةَ الرَّأْيِ إِنَّمَا أَتَى بِهَا عِكْرِمَةُ عَلَى الرواية بِالْمَعْنَى لِقَوْلِهِ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ قَالَ عِكْرِمَةُ أَوْ نَحْوُ هَذَا ، فَلَمْ يُخْبِرْ بِلَفْظِ النَّبِيِّ ﷺ مُحَقَّقًا. قَالَ الْعُلَمَاءُ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْقَوْلُ خَبَرًا منه ﷺ لا يجوز تخلفه، وَإِنَّمَا كَانَ ظَنًّا منه لا يتعلق بمقتضيات ومطلوبات الشريعةكَمَا بَيَّنَهُ الحديث فِي بعض الرِّوَايَاتِ من قوله عليه السلام فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ .

قَالُوا وَرَأْيُهُ ﷺ فِي أُمُورِ الْمَعَايِشِ وَظَنُّهُ كَغَيْرِهِ فَلَا يَمْتَنِعُ وُقُوعُ مِثْلِ هَذَا (أي الخطأ في الظن فيما ليس فيه وحي ولا هو مُتَعَلِّق بأمور الدين). وَلَا نَقْصَ فِي ذَلِكَ وَسَبَبُهُ تَعَلُّقُ هِمَمِهِمْ بِالْآخِرَةِ وَمَعَارِفِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قلتُ متأمله وظاهر الرواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ذلك على سبيل أنه الأمر من الدين يخبر به عن الشرع في ذلك، وإنما قال ذلك على عمومه ففهموا منه النهى وليس بذاك، ولذلك صحح لهم ذلك بعد ذلك.

وعلى ذلك فلا قدح في عمومية قوله تعالى {وما ينطقُ عن الهوى} أي في أمور الدين وما يخصها من أمور الحياة التي لا تستقيم بغير دينٍ ومنهج.

وخطورة هذا الحديث التي تمثل في استعماله من قبل المنحلين المرجئة الذين يريدون التفلت من العمل بمنهج الإسلام وأحكامه تحت أي ذريعة، حتى إنهم دندنوا حول الحديث كثيرا، فكلما واجهت أحدهم بمعاني الشرع قال لك أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ ، لخطورة هذا الأمر نناقش قضية تقسيم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية.

السنة التشريعية وغير التشريعية بدعة.

لقد دندن الملاحدة وتبعهم نفر من المسلمين طويلاً حول التشكيك في عصمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعنوا طعنا خفياً في قوله تعالى }وما ينطق عن الهوى{ محاولين بطرقهم الملتوية الزائغة أن ينقضوا السنة؛ والسنة هى الأصل الثاني بعد كتاب الله تعالى لدين الإسلام؛ ومن ثَمَّ فقد ظلوا يمهدون لهدم هذا الدين بعد تحييد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي بيان عملي وواقعي للقرآن الكريم.

وبطرحهم الخبيث؛ مدندنين حول تقسيم سنة رسول الله إلى تشريعية وغير تشريعية، وهو تقسيم أصولي محدَث لم يكن يقبله السلف الصالح ولا يذكرونه، وفيه نظرٌ كثير.

وهذا تقسيم باطل طار به العصرانيون (حاملو رايات تجديد أو قل تبديد الإسلام من أجل مواكبة العصر أو مواكبة هواهم وفكرهم) سبقهم إليه الإصلاحيون أصحاب مدرسة محمد عبده عندما قسموا السنة إلى سنة عملية يؤخذ بها في الأحكام الشرعيةكالعبادات وقضايا العقيدة الأساسية، وسنة غير عملية وهي الأحاديث القولية، ولا يلتزمون بها إلا ضمن شروط تنسجم مع قواعدهم العقلية، فأخرجوا منها قضايا السياسة والمجتمع.

(وقد اعتبر بعضهم أن العصمة تكون في أمور التبليغ فقط، وأن ما اندرج من السنة النبوية تحت أمور السياسة والمجتمع ليس ديناً. ومن ثَمَّ؛ فإنه موضوع للاجتهاد والشورى، والقبول والرفض، والإضافة والتعديل) .. (فالسياسة والحكم والقضاء وشؤون المجتمع ليست ديناً وشرعاً يجب فيها التأسي والاهتداء بما في السنة من وقائع، وأواصر، ونواهٍ وتطبيقات؛ لأنها أمور تقررت بناء على بينات قد نرى غيرها، وعالجت مصالح هي بالضرورة متطورة ومتغيرة) [(١)]

ويتوسع الدكتور محمد سليم العوّا في تقسيم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية، ويرى أن أغلب المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم، هو من النوع الثاني، فيقول (ويلاحظ أن كونَ أغلب تصرفات الرسول

---

[١] (انظر الإسلام والسلطة الدينية، د محمد عمارة، ص ١٠٤، ١٢٠.) وكذلك انظر مقال: ماذا وراء تقسيم السّنّة إلى تشريعية وغير تشريعية لعدنان أمامة – ١٤٣٥/٩/١٨ هـ من موقع المسلم على الشبكة الدولية).

مبناه التبليغ هو قولٌ يصل الباحث إلى خلافه عند إمعان النظر في الصحيح من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ بل الذي يغلب على الظن أن أغلب المروي عنه صلى الله عليه وسلم في شؤون الدنيا خارج نطاق العبادات والمحرمات ليس من الشرع اللازم). [1]

هذا، وإن شبهة تقسيم السنة إلى تشريعية وغير تشريعية، من أخبث الشبه التي رفعها أدعياء التجديد من العصرانيين .. وهذه الشبهة دعوة صريحة إلى رد السنن، وترك العمل بها، والتحاكم إليها، ثم إلى تفسير القرآن بالتفسيرات الشاذة، التي توافق أهواءهم، ثم إلى تركه وراءهم ظهرياً. [2]

وبذلك يرتمون في أحضان العلمانية سواءٌ عليهم صرحوا بذلك أم أنكروا [3].

يقولون لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بشراً يخطأ كما يخطأ البشر، وليس ما ينقله عن الله تعالى بصفته رسولاً كما ينقله عن الله بصفته بشراً يجتهد فيخطأ ويصيب، ويتعللون لذلك بما ورد في القرآن من عتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم على اجتهاداتٍ جاء التصحيح الرباني فيها.

ولكنهم لم يمعنوا النظر - لغرضٍ خبيثٍ في نفوسهم، أو لجهلٍ وشبهةٍ في هذه الآيات التي ظنوها جرما من رسول الله ﷺ استحق العتاب والعقاب ثم العفو عن ذلك العقاب بسوء أدبهم لم يمعنوا فهم الخطاب القرآني وضمه بعضه إلى بعض لفهم المراد من سياق ولغة القرآن ذاتها.

وأقول سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الواردة في كل ما هو دين هي وحيٌ يوحَى أو اجتهاد نبوي من فقه وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بمراد ربه من عباده؛ وقد وافقه ربه على ذلك، وأقره، وأمر بطاعته صلى الله عليه وسلم مطلقاً من غير قيد، ونبَّه أنه   عليه السلام لا يتقوَّل أبداً على ربه؛ بل هو أعلم الناس بالله تعالى ومراده من خلقه، فقد مدحه الله تعالى بالأمانة والصدق وأمر سبحانه في آياتٍ

---

[1] (راجع مجلة المسلم المعاصر، محمد سليم العوا، أكتوبر، ١٩٧٤م، ص ٤٨.)

[2] (راجع مناقشة هادئة لبعض أفكار الترابي، ص ٧٩، الأمين الحاج محمد أحمد.)

[3] (انظر مقال: ماذا وراء تقسيم السّنّة إلى تشريعية وغير تشريعية لعدنان أمامة | ١٤٣٥/٩/١٨ هـ من موقع المسلم على الشبكة الدولية).

محكاتٍ كثيرةٍ بأخذ كل ما أتى به في مثل قوله تعالى {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} (الحشر ٧)، وقوله {من يطع الرسول فقد أطاع الله} (النساء ٨٠)..إلخ تلك النصوص الصريحة حتى إننا نروي قول الإمام الشافعي رحمه الله لم أسمع أحداً نسبه الناس، أو نسب نفسه إلى علم يخالف في أن فرض الله عز وجل اتباع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والتسليم لحكمه.[١]

وقد دلّت أحوال الصحابة وأقوالهم وأفعالهم والأخبار المتواترة المنقولة عنهم على أنهم لم يكونوا يفرقون بين أقواله وأفعاله في وجوب المتابعة والتأسي، بل أجمعوا على حجية القسمين، وكانوا يتعاملون مع كل ما يصدر من نبيهم صلى الله عليه وسلم على أنه للاتباع والتأسي عملاً بقوله تعالى {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر} (الأحزاب ٣٨).

ولم يكونوا يفرقون بين ما يصدر منه في باب العبادات، وما يصدر منه في باب المعاملات، ولا بين ما يفعله بوصفه رسولاً، وما يفعله بوصفه إماماً وقاضياً وزوجاً ومربياً؛ بل كانوا يتابعونه ويقتدون به اقتداءً مطلقاً، وفي كل الأحوال، ودون أي استشكال أو استفصال وكمثال على ذلك ما أخرجه البخاري عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال اتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتماً من ذهب، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، ثم نبذه وقال «إني لا ألبسه أبداً» فنبذ الناس خواتيمهم.

وكان يوماً يصلي بأصحابه فخلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى القوم ذلك ألقوا نعالهم، فلما قضى صلاته قال «ما حملكم على إلقاء نعالكم؟» قالوا رأيناك ألقيت نعليك، قال «إن جبريل أخبرني أن فيهما قذراً».

هذا هو المنهج الذي سار عليه المسلمون سلفاً وخلفاً بشأن أفعاله وتصرفاته صلى الله عليه وآله وسلم، ولم نرَ العلماء يخرجون شيئاً منها عن دائرة التأسي والاقتداء، اللهم إلا الأفعال التي ثبت بالدليل أنها من خصائصه صلى الله عليه وسلم، كالجمع بين أكثر من أربع نسوة، والوصال في الصوم، فهذه لا يصح لغيره أن يتابعه فيها.

---

١ الشافعي، جماع العلم (١٢.١١).

وكذلك الأفعال التي كان يفعلها بمقتضى الجبلة والطبع، كالأكل والشرب والنوم، والأفعال التي كان يفعلها بمقتضى عادة العرب وأعرافهم السائدة، كلبس العمامة والجبة والرداء والإزار وإطالة الشعر والاكتحال ولبس الخاتم والركوب على الحمار والبعير ونحو ذَلِكَ، فهذه الأفعال قسمها الأصوليون إلى قسمين

١ـ قسمٌ جاء النص من النبي صلى الله عليه وسلم يأمر بِهَا، كالأكل باليمين، والشرب ثلاثاً، والنوم على الشق الأيمن، ولبس البياض (اللون الأبيض من الثياب)، وصبغ الشيب بغير السواد واستعمال الطيب، وإطلاق اللحية وحف الشارب ونتف الإبط وحلق العانة وقص الأظافر، أو ينهى عنه كجر الإزار، والأكل بالشمال والنفخ في الإناء، فهذه تجري عليها الأحكام التكليفية من الوجوب والاستحباب والحرمة والكراهةكغيرها من سائر الأحكام؛ فيعامل معاملة النصوص الشرعية في استنباط الأحكام منها، وتكون تشريعا لا خلاف في كونه كذلك.

٢ـ وقسم لم يأتِ نص مستقل يطلب فعلها أو تركها، فهي باقية على الأصل من حيث الإباحة للجميع؛ ويسميه الأصوليون (علماء أصول الفقه) استصحاب الأصل. وهذا القسم محل خلاف بين العلماء في مشروعية متابعة النبي صلى الله عليه وسلم فيه على جهة الندب على قولين

أ ـ أن التأسي والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في هذا النوع مندوب، وقد كان ابن عمر رضي الله عنهما يذهب هذا المذهب، وقد سُئل عن سبب لبسه للنعال السبتية وتصفيره لشعره فقال أما النعال السبتية فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النعال الَّتِي ليس فِيْهَا شعر ويتوضأ فِيْهَا، فأنا أحبُّ أن ألبسَها، وأما الصفرة فإنِّي رأيتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يصبغ بها فأنا أحب أن أصبغ بهَا (رواه البخاري).

ب ـ القول الثاني أنه لا يُشرَع التأسي والاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم فيما فعله بحكم الجبلة والطبع أو العادة والعرف دون دليل مستقل يطلب فعلها أو تركها، وهذا مذهب جمهور الصحابة ومنهم الفاروق وعائشة رضوان الله عليهم جميعاً، وهو المذهب الراجح لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد بأفعاله هذه القربة إلى الله، فلا نخالف قصده ونتقرب بها.

وأضاف العلماء إلى ما لا يُشرع فيه التأسي من أفعاله صلى الله عليه وسلم، مراعاة الزمان والمكان اللذين وقع فيهما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بحكم الاتفاق والمصادفة دون أن يقصدهما لذاتهما.

يقول الآمدي فلو وقع فعله في مكانٍ أو زمانٍ مخصوصٍ فلا مدخل له في المتابعة والتأسي، وسواء تكرر أو لم يتكرر، إلا أن يدل على اختصاص العبادة به، كاختصاص الحج بعرفات، واختصاص الصلوات بأوقاتها، وصوم رمضان). [١]

هذه الأفعال المتقدمذكرها هي فقط ما توقف عندها العلماء، وقالوا إنه لا يلزمنا الاقتداء بِهَا، وفصَّلوا بشأنها التفصيل المتقدم. ولم يرد عن أحد من علماء أصول الفقه أن هذه الأفعال من السنة غير التشريعية، بل كلهم عدَّها من السنة التشريعية، لأنها تندرج في قسم المباح، والإباحة أحد أقسام الحكم التكليفي.

أما ما كان من اجتهاده صلى الله عليه وسلم فيما لم يجد فيه نص فقد اجتهد بأمر الله وعلمه فيما علَّمه سبحانه من مراده تعالى في دينه ، وإنما جاء التصحيح الرباني ليس لخطأ وإنما هو تحسين لاجتهاد النبي لنقله من الصحيح إلى الأصح، ومن اجتهاد النبوة إلى إحاطةِ علمٍ وحكمةِ الإلهية؛ فليفهم هذا كل مؤمن وله بيان في تدبرٍ قوله تعالى {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (الأحزاب/٥)

قال شيخ المفسرين الطبري يقول الله تعالىذكره انسبوا أدعياءكم الذين ألحقتم أنسابهم بكم لآبائهم، يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ألحق نسب زيد بأبيه حارثة، ولا تدعه زيد بن محمد. وقوله (هُوَ أَقْسَطُ عِنْدِ اللَّه) يقول دعاؤكم إياهم لآبائهم هو أعدل عند الله، وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم ونسبتكم إياهم إلى من تبنَّاهم وادّعاهم وليسوا له بنين. انتهى.

---

[١] الإحكام في أصول الأحكام (١٥٨)

والتأمل هنا لمعنى قوله تعالى {هُوَ أَقْسَطُ} فالذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم باجتهاده كان قسطاً ونَصَفَةً، ولكن حينما يكون {عِندَ اللَّهِ} فعنده الأكثر قسطا والأعدل نظرا لعلمه المحيط سبحانه وحكمته البالغة. وهذا ليس فيه تخطئة لاجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو تهذيب لاجتهاده ورده للأعلى من التشريع، فتأمله فإن فيه معنىً قويا.

والقسم الآخر من فعل النبي صلى الله عليه وسلم بحكم العادة وتصرفه في شؤون الدنيا ما لا يُنسَب إلى الدين أو رسالة النبوة كواقعة تأبير النخل المشهورة فقد قال فيه عليه السلام أنتم أعلم بشؤون دنياكم ولم يقل دينكم فلنتنبه، فالدين لا يكون إلا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وكل ما كان من رسول الله في إطار تقويم أفعال الناس وضبط عباداتهم ومعاملاتهم فهو دين.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فليس فيه دليل على الفصل بين شؤون الدين والدنيا، وحجية الأولى دون الثانية، لأن الدين ـ حكماً ـ يشمل كل شيء، إنما المراد من الحديث أن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم الأساسية متجهة إلى أمور الدين وتعليم الناس إسلام الوجه لله، أما أمور الصناعة والفلاحة وخياطة الملابس وصنع السيوف وطبخ الأطعمة ونصب الخيام وتلقيح النخل وما ماثلها من معايش الدنيا فهى موكلة إلى الفكر البشري يمضي فيها على ما تعلمه ويطور ويعدل، لكن ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم أو نهى عنه منها مخصوصا فهو واجب الاتباع سواء كان ذلك في شؤون الدين أو الدنيا لأنه صار باختصاصه بالتنبيه والحكم يؤثر على أمرٍ ديني، والحديث المشتهر هنا يبين أن الناس أخطأوا حين عدوا ذكره صلى الله عليه وسلم لذلك من تبليغ الدين، فصححه لهم وأبان عن وجهه ومقصوده .

ومما يؤكد أن كل ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو من أمور الدين شيئان

الأول أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبين لنا فَرقًا واضحًا في سنته بين أمور الدنيا وأمور الدين، ولو كان مثل هذا التقسيم (سنة تشريعة وغير تشريعية) حقيقة قائمة لأوضح لنا كيف نميز بين القسمين تمييزًا لا نقع معه في لبس؛ لأن الحاجة لا شك ماسة لمثل هذا التمييز، فلما لَمْ نجد بيانًا عن الرسول مع قيام الحاجة إليه تأكدنا أن التقسيم إلى سنةٍ خاصة بأمور الدين، وسنة خاصة بأمور الدنيا تقسيم لا وجود له.

والقاعدة في أصول الفقه أنه (لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة)

وحتى أولئك الذين وَلَّدَ وَهْمُهُمْ هذا التقسيم، لم يستطع أحد منهم أن يقدم معيارًا صحيحًا للتمييز بين ما ظنوه سنة تشريعية وغير تشريعية، ولن يستطيعوا؛ لأن هذا التمييز لا يقوم إلا في أذهانهم فقط.

والثاني أن الصحابة والتابعين وأئمة المجتهدين والفقهاء وقادة الرأي والفكر خلال أربعة عشرة قرنًا، لم يعرف أحد منهم أنه ردَّ سنة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم بحجة أنها خاصة بأمور الدنيا، مع كثرة اختلافهم، ورَدِّ بعضهم على بعض عند تعارض الأدلة.

بمعنى أن تقسيم سنته (مما أُخِذ عنه في الدين) إلى تشريعية وغير تشريعية بحجة أن من سنته ما كان بحكم النبوة، وما كان بحكم القاضي، وما كان بحكم القائد، وغير ذلك.. فكله سنةٌ ودين، والتقسيم يفيد فقط في بيان تحقيق وتحرير مناط أحكام السنة لا في حجيتها في ذاتها.

بصيغة أخرى نستطيع أن نقول ان هذا التقسيم يفيد فقط في بيان ما يقع عليه الحكم بكل نص من نصوص السنة وظروفه وملابساته وليس إهمال الحكم بالكلية بدعوى أنه ليس من السنة التشريعية.

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن «كل ما قاله بعد النبوة وأُقِر عليه ولم ينسخ (أي بوحي من القرآن أو غيره) فهو تشريعٌ. لكن التشريع يتضمن الإيجاب والتحريم والإباحة، ويدخل في ذلك ما دل عليه من المنافع في الطب فإنه يتضمن إباحة ذلك الدواء والانتفاع به، فهو شرعٌ لإباحته، وقد يكون شرعا لاستحبابه..». [١]

«فحال التشريع فهو أغلب أحوال الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لأجله بعثه الله» [٢]

بمعنى طالما أنه صرح أن هذا دين فهو تشريع منه صلى الله عليه وسلم ما لم يميزه بأنه اجتهاده صلى الله عليه وسلم مما لا يلزم المسلمين كما فعل الحباب بن المنذر حين سأله عن موضع عسكره في غزوة بدر فقال يا رسول الله اهو مَنزلٌ أنزلك الله إياه أم هي الحرب والرأي والمكيدة ؟

---

١ مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٨/ ص ١١-١٢.

٢ مقاصد الشريعة الإسلامية للشيخ الطاهر بن عاشور، ص ٢٧.

فأجاب صلى الله عليه وسلم بل هي الحرب والرأي والمكيدة .

والشاهد هنا لنا أن الصحابة لم يكونوا يتفلسفون ويفرقون بين ما هو تشريعي وغير تشريعي في فعل رسول الله إلا بسؤاله سؤالاً مباشرا، طالما أنهم عرفوا أنه ليس مما هو من صريح أمر الدنيا والعادة أو صريح أمر الدين والوحي، فإذا اشتبه الأمر عندهم سألوه سؤالا مباشراً، وكان بيانه صلى الله عليه وسلم كذلك مباشرا.

وإن كانت البركة والفلاح عندهم في كل ذلك اتباعهم وتعظيمهم لفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حتى فيما فعله بحكم العادة أو البشرية لأنه صلى الله عليه وسلم ليس ككافة البشر فقد ربَّاه ربه وعلَّمه وحباه بما لم يعطِ إنسانا مثله، فكانت عاداته وأخلاقه وشمائله في أرقى وأحسن وأشرف مكان من عادات وصفات البشر.

فالخلاصة أن ما كان من رسول في إطار الدين فهو تشريعٌ {وما ينطق عن الهوى إنْ هو إلا وحى يوحى}، وما كان منه صلى الله عليه وسلم في إطار العادة وأمور الحياة التي لا تتعلق بالدين صراحةً فهو غير ملزمٍ تشريعياً وإن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أرقى وأشرف وأعلى البشر، وهو من حيث الأخلاق والشمائل تكليف تحسيني للارتقاء بالمؤمنين في معارج التزكية والخير.

وإن ما كان من مما ظُن عتابا لرسول الله على اجتهاده هو تعليم من الله لعباده، وتطور تشريعي راقي في الإسلام، وهو من جهةٍ أخرى بيان لعظمة رسول صلى الله عليه في فهم وفقه مقاصد الشريعة وروحها كما يظهر في قصة الأسارى يوم بدر أو في قصة الصلاة على المنافقين..

وكما يقول العلماء إنما خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم الأوْلى كما في قصة ابن أم مكتوم وسورة عبس ، وإنما أسهاه الله ليشرع لأمته كما في حديث ذي اليدين عن السهو في عدد ركعات الصلاة، أو ليكون نموذجا عملياً لاتباع وتطبيق شرع الله تعالى كما في قصة زيدٍ رضى الله عنه وزوجه، وغير ذلك مما ظنه بعضهم عتابا للرسول صلى الله عليه وسلم أو اتهاما له بالخطأ وحاشاه.

وإنني أؤكد على خبث غرض تلك الدعوات لتقسيم السنة ثم هدم كثيرا منها بتأولها على غير تأويل اليقين في نموذجية رسول الله، والالتزام بسنته والعمل بقوله وفعله، خصوصا وقد اكتمل الدين ولم يأتي في

القرآن نقضاً أو حتى إشارة للصد عن الالتزام ببعض سنة الرسول تحت أي بند، بل العكس صحيح، وقد قال الله تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)} (آل عمران ٣١). والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

بحث في قوله تعالى: {نساؤكم حرث لكم} الآية

علم التفسير علم دقيق الأغوار ولطيف المآخذ عظيم القدر، ويحتاج إلى دربةٍ ونظرٍ ثاقبٍ للتوفيق بين مناحي المعالجات والمقاربات المتنوعة التي يُقتَرَب بها من النص الحكيم.

فالحديث عن التفسير بالمأثور بمفرده حديث جائر يلغي دور النص ولغته وسياقه التركيبي والترتيبي بين النصوص الأخرى،وكذلك يلغي البنية الدلالية للنص؛ وهي الدلالات المقصودة من بنية النص ذاته وتركيبه البلاغي. ولكن بإعمال هذه المقاربات مجتمعة يتشكل لدينا (نظرةكلية) مبنية على نظام القرآن من داخل النص ومن خارجه تساعدنا على فهم معناه وتأويله على ما ينبغي في إطار موازنات عميقة تجمع ولا تفرّق من أجل الغاية الأسمى في فهم كلام الله.

وهنا يطالعنا مثالٌ لطيف في تأويل قوله تعالى {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (٢٢٣البقرة)

وسبب نزول هذه الآية ما روى -في الحديث المتفق عليه عن جابر بن عبد الله أن اليهود قالت إن الرجل إذا أتى المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول، وعابت على العرب ذلك، فنزلت الآية تتضمن الرد على قولهم.

وقالت أم سلمة وغيرها سببها أن قريشا كانوا يأتون النساء في الفرج على هيئات مختلفة، فلما قدموا المدينة وتزوجوا أنصاريات أرادوا ذلك، فلم ترده نساء المدينة إذ لم تكن عادة رجالهم إلا الإتيان على

هيئة واحدة وهي الانبطاح، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وانتشر كلام الناس في ذلك، فنزلت الآية مبيحة الهيئات كلها إذا كان الوطء في موضع الحرث.[1]

وَأخرج ابْن عَسَاكِر عَن جَابر بن عبد الله قَالَ كَانَت الْأَنْصَار تَأتي نساءها مضاجعة وَكَانَت قُرَيْش تشرح شرحاً كثيرا فتزوّج رجل من قُرَيْش امْرَأَة من الْأَنْصَار فَأَرَادَ أَن يَأْتِيهَا فَقَالَت لَا إِلَّا كَمَا يفعل، فَأُخْبر بذلك رَسُول الله فَأنْزل {فَأتوا حَرْثكُمْ أَنى شِئْتُم} أَي قَائِما وَقَاعِدا ومضطجعاً بعد أَن يكون فِي صمام وَاحِد [2]

وروى أحمد والترمذي بسند صحيح عن ابن عباس قال جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله، هلكت قال ما الذي أهلكك؟ قال حولت رحلي البارحة (يريد أنه أتاها في المحل المعتاد، لكن من جهة ظهرها) قال فلم يرد عليه شيئا. قال فأوحى الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية {نسؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم} أقبل وأدبر، واتق الدبر والحيضة . [3]

هذا من حيث النقل في سبب وملابسات نزول الآية. أما من حيث البنية اللغوية للآية

---

١ انظر (جامع الترمذي ٥/٢١٥-٢١٦ ح ٢٩٧٩- ك التفسير، ومن سورة البقرة) . وأحمد في مسنده (٦/٣١٨-٣١٩) , وأبو يعلى في المسند (١٢/٤٠٧ ح ٦٩٧٢) ، والطبري في (تفسيره ٢/٣٦٩) ، ، والدارمي في (سننه ١/٢٠٤-٢٠٥ ح ١١٢٤) ، والبيهقي في سننه (٧/١٩٥). قال الترمذي: هذا حديث حسن ... وصححه الألباني على شرط مسلم (آداب الزفاف ص ١٠٣) وللحديث شاهد من رواية ابن عباس – رضي الله عنه –، أخرجه أبو داود في سننه (٢/٦١٨-٦٢٠ ح ٢١٦٤) وفيه تفسير الآية بقوله: أي: مقبلات ومدبرات ومستلقيات، يعني بذلك: موضع الولد. (وانظر مرويات الدارمي في التفسير ص ١٠١-١٠٢ ح ١٥٩)

[2] انظر لتمحيص الروايات تفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٥٨٨) وما بعدها، وكذلك راجع الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (١/ ٦٢٦).

[3] المسند (١/٢٩٧) وسنن الترمذي برقم (٢٩٨٠). قال الحافظ في الفتح ٩/ ٢٥٧ (كتاب التفسير: سورة البقرة–باب نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) : أخرجه أحمد والترمذي من وجه صحيح عن ابن عباس قال: فذكره". (وحسنه الترمذي، وذكره الهيثمي وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٦/٣١٩)، وصححه أحمد شاكر في تعليقه على المسند، وحسنه الألباني في (آداب الزفاف) (٢٨ . ٢٩) وفي في صحيح سنن الترمذي.

قال الفخر الرازي حَرْثٌ لَكُمْ أَيْ مَزْرَعٌ وَمَنْبَتٌ لِلْوَلَدِ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ، فَفَرْجُ الْمَرْأَةِ كَالْأَرْضِ، وَالنُّطْفَةُكَالْبَذْرِ، وَالْوَلَدُ كَالنَّبَاتِ الْخَارِجِ، وَالْحَرْثُ مَصْدَرٌ، وَلِهَذَا وَحَّدَ الْحَرْثَ فَكَانَ الْمَعْنَى نِسَاؤُكُمْ ذَوَاتُ حَرْثٍ لَكُمْ فِيهِنَّ تَحْرُثُونَ لِلْوَلَدِ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ، وَأَيْضًا قَدْ يُسَمَّى مَوْضِعُ الشَّيْءِ بِاسْمِ الشَّيْءِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِكَقَوْلِهِ

فإنما هي إقبالي وَإِدْبَارُ وَيُقَالُ هَذَا أَمْرُ اللَّهِ، أَيْ مَأْمُورُهُ، وَهَذَا شَهْوَةُ فُلَانٍ، أَيْ مُشْتَهَاهُ، فَكَذَلِكَ حَرْثُ الرَّجُلِ مَحْرَثُهُ. [١]

{فَأْتُوا} كناية عن الجماع، وكما قال ابن عباس إن الله حيي كريم يكنّي.

فلفظة «الحرث» تعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة، إذ هو المزدرع، كذا قال جمهور المفسرين وعلى رأسهم الطبري، وهو دلالة اللغة التي لا محيص عنها، إذ كان قرآنا عربيا، وهى الدلالة أيضا في تكرارا لفظة الحرث في {حرثكم} بدلا من إضمارها، فلم يقل فأتوها، قال الراغب لِيُراعى المعنى المقصود بذلك، لئلا يُتَوَهَّم ما يتصوره قوم لم يتعمقوا النظر [٢] بأن المقصود إباحة الدبر.

وقوله {أَنَّى شِئْتُمْ} معناه عند جمهور العلماء من صحابة وتابعين وأئمة من أي وجه شئتم مقبلة ومدبرة وعلى جنب (ما دام في صمام واحد) كما أكدت الأخبار الصريحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبب نزولها، و{أَنَّى} إنما تجيء سؤالا أو إخبارا عن أمر له جهات؛ ومعناها هنا من أي وجهٍ شئتم. فهي أعم في اللغة من كيف ومن أين ومن متى، هذا هو الاستعمال العربي، وقد فسر الناس أَنَّى في هذه الآية بهذه الألفاظ.

وهنا تحقيق بليغ لابن جرير الطبري قال يعني تعالىذكره بذلك فانكحوا مزدرَع أولادكم من حيث شئتم من وجوه المأتى. قال وذلك أن أَنَّى في كلام العرب كلمة تدلّ إذا ابتدئ بها في الكلام على المسألة عن الوجوه والمذاهب. فكأن القائل إذا قال لرجل أنى لك هذا المال ؟ يريد من أيّ الوجوه لك. ولذلك يجيب المجيبُ فيه بأن يقول من كذاوكذا ، كما قال تعالىذكره مخبرًا عنزكريا في

---

[١] تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (٦/ ٤٢١)

[٢] تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٤٥٩)

مسألته مريم {أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} (آل عمران ٣٧). وهي مقاربة في المعنى أين و كيف ، ولذلك تداخلت معانيها، فأشكلت أَنَّى على سامعيها ومتأوِّليها، حتى تأوَّلها بعضهم بمعنى أين ، وبعضهم بمعنى كيف ، وآخرون بمعنى متى وهي مخالفة جميع ذلك في معناها، وهن لها مخالفات.. وقد فرَّقت الشعراء بين ذلك في أشعارها، فقال الكميت بن زيد

تَذَكَّرَ مِنْ أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ شُرْبُهُ .. يُؤَامِرُ نَفْسَيهِ كَذِي الهَجْمَةِ الأَبِلْ.

وقال أيضًا أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ آبَكَ الطَّرَبُ .. مِنْ حَيْثُ لا صَبْوَةٌ وَلا رِيَبُ.

فيجاء بـ أنى للمسألة عن الوجه، وبـ أين للمسألة عن المكان، فكأنه قال من أيّ وجه، ومن أي موضع راجعك الطرب؟ ا.ه [1]

وفسرها سيبويه ب «كيف» ومن أين باجتماعهما، وذهبت فرقةٌ ممن فسرها ب «أين» إلى أن الوطء في الدبر جائز، وهو خطأ واضحٌ من نواحي مقاربات النص. وأبعد قومٌ ففسروها ب متى أي في غير أوقات حرمة وطئها أي الحيضة ربطا بين هذه الآية وما سبقتها، وهو بعيد وفيه تكرار في المعنى والسياق بغير هذا التقدير متصل ومنطقي كما يأتي بإذن الله.

قال ابن جرير والذي يدل على فساد قول من تأول قول الله تعالى ذكره فأتوا حرثكم أنى شئتم ، كيف شئتم أو تأوله بمعنى حيث شئتم، أو بمعنى متى شئتم، أو بمعنى أين شئتم؛ أن قائلا لو قال لآخر أنى تأتي أهلك؟ ، لكان الجواب أن يقول من جهة قُبلها، أو من دُبُرها ، كما أخبر الله تعالى ذكره عن مريم إذْ سئلت {أَنَّى لَكِ هَذَا} أنها قالت {هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}. وإذ كان ذلك هو الجواب، فمعلومٌ أن معنى قول الله تعالى ذكره {فأتوا حرثكم أنى شئتم}، إنما هو فأتوا حرثكم من حيثُ شئتم من وجوه المأتى وأنّ ما عدا ذلك من التأويلات فليس للآية بتأويل.

وإذ كان ذلك هو الصحيح، فبيِّنٌ خطأ قول من زعم أن قوله {فأتوا حرثكم أنى شئتم}، دليلٌ على إباحة إتيان النساء في الأدبار، لأن الدُّبر لا مُحْتَرَثَ فيه، وإنما قال تعالى ذكره {حرث لكم}، فأتوا الحرث من

[1] انظر ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٣٩٧) مختصرا، وكذا راجع تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٢٩٩)

أيّ وجوه شئتم. وأيُّ مُحْتَرَث في الدُبر فيقال ائته من وجهه؟ وواضحٌ بما بيَّنا صحة معنى ما روي عن جابر وابن عباس من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين إذا أتَى الرجلُ المرأةَ من دُبرها في قُبُلها، جاء الولد أحول . ا.ه [1]

ومن جميل فهم المفسرين أن هَذِهِ الْجُمْلَةُ {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} بَيَانٌ لِلْجُمْلَةِ الْأُولَى التي قبلها، أَعْني قَوْلَهُ تعالى {فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ}. وَقَوْلُهُ أَنَّى شِئْتُمْ أَيْ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ شِئْتُمْ مِنْ خَلْفٍ، وَقُدَّامٍ، وَبَارِكَةً، وَمُسْتَلْقِيَةً ومضطجعة، إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِ الْحَرْثِ، وهو القبل، وفيه إشارة بليغة إلى تحريم الوطء في الدبر، وَأَنْشَدَ ثَعْلَبٌ إنّما الأرحام أرضو .. ن لَنَا مُحْتَرَثَاتٌ.

فَعَلَيْنَا الزَّرْعُ فِيهَا .. وَعَلَى اللَّهِ النَّبَاتُ.

وَقَدْ ذَهَبَ السَّلَفُ، وَالْخَلَفُ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَالْأَئِمَّةِ إِلَى مَاذَكَرْنَاهُ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَةِ، وَأَنَّ إِتْيَانَ الزَّوْجَةِ فِي دُبُرِهَا حَرَامٌ..

روى الطَّبَرَانِيُّ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ فِي دُبُرِهَا فَأَوْهَمَ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ.

وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، وَالدَّارِمِيُّ، وَالْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ مَحَاشُّ النِّسَاءِ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ.

---

[1] تفسير الطبري واحاشية شاكر (٤/ ٣٩٧) قال الشيخ محمود محمد شاكر معلقا على تناول الطبري الراقي للمسألة: حجة أبي جعفر في هذا الفصل من أحسن البيان عن معاني القرآن وعن معاني ألفاظه وحروفه وهي دليل على أن معرفة العربية، وحذقها والتوغل في شعرها وبيانها وأساليبها أصل من الأصول، لا يحل لمن يتكلم في القرآن أن يتكلم فيه حتى يحسنه ويحذقه. ورحم الله محمد ابن إدريس الشافعي حيث قال-فيما رواه الخطيب البغدادي عنه في كتاب "الفقيه والمتفقه": "لا يحلُّ لأحدٍ أنْ يُفْتِيَ في دِينِ اللهِ إلّا رجلًا عارفًا بكتاب الله: بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومشابهه، وتأويله وتنزيله ومكيّه ومدنيّه، وما أريدَ به ويكون بعد ذلك بصيرًا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناسخ والمنسوخ ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ويكون بصيرًا باللغة بصيرًا بالشعر، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن، ويستعمل هذا مع الإنصاف، ويكون بعد هذا مشرفًا على اختلاف أهل الأمصار وتكون له قريحةٌ بعد هذا. فإذا كانَ هكذا فله أنْ يتكلّم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكنْ هكذا، فليس له أن يفتي". انتهى.

فليت من يتكلم في القرآن والدين من أهل زماننا يتورع من مخافة ربه، ومن هول عذابه يوم يقوم الناس لرب العالمين. انتهى

وَأَخْرَجَ الشَّافِعِيُّ فِي الْأُمِّ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَأَحْمَدُ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجه، وَابْنُ الْمُنْذِرِ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ مِنْ طَرِيقِ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ «أَنَّ سَائِلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ إِتْيَانِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ، فَقَالَ حَلَالٌ أَوْ لَا بَأْسَ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ

كَيْفَ قُلْتَ؟ أَمِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا فنعم، أما مِنْ دُبُرِهَا فِي دُبُرِهَا فَلَا، إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ».

وَأخرج ابْن جرير وَابْن أبي حَاتِم عَن سعيد بن جُبَير قَالَ بَينا أَنا وَمُجاهد جالسان عِنْد ابْن عَبَّاس إِذْ أَتَاهُ رجل فَقَالَ أَلا تشفيني من آيَة الْمَحِيض قَالَ بلَى فاقرأ {ويسألونك عَن الْمَحِيض} إِلَى قَوْله {فأتوهن من حَيْثُ أَمركُم الله} فَقَالَ ابْن عَبَّاس من حَيْثُ جَاءَ الدَّم من ثمَّ أُمرت أَن تَأتي فَقَالَ كَيفَ بِالْآيَةِ {نِسَاؤُكُمْ حرث لكم فَأتوا حَرْثكُمْ أَنى شِئْتُم} فَقَالَ أَي وَيحك وَفِي الدبر من حرث ؟ لَو كَانَ مَا تَقول حَقًا لَكَانَ الْمَحِيض مَنْسُوخا، إِذا شُغل من هَهُنَا جِئْتَ من هَهُنَا ؟ وَلَكِن {أَنى شِئْتُم} من اللَّيْل وَالنَّهَار. انتهى [1]

وَأَخْرَجَ ابْنُ عَدِيٍّ، وَالدَّارَقُطْنِيُّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ نَحْوَهُ. وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَحَسَّنَهُ، وَالنَّسَائِيُّ، وَابْنُ حِبَّانَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وَسَلَّمَ «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى رَجُلٍ أَتَى امْرَأَةً فِي الدُّبُرِ».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي سُنَنِهِ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو. أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «الَّذِي يَأْتِي امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا هِيَ اللُّوطِيَّةُ الصُّغْرَى»».

وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ، وَالنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وَسَلَّمَ «مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا».

وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَعَبْدُ ابن حُمَيْدٍ، وَالنَّسَائِيُّ، وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْهُ قَالَ إِتْيَانُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ كُفْرٌ. وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ عَدِيٍّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ وَالْمَوْقُوفُ أَصَحُّ.

---

١ انظر الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١/ ٦٣٠)

وَقَدْ وردَ النَّهيُ عَنْ ذَلكَ مِنْ طَرقٍ مِنْهَا عِنْدَ الْبَزَّارِ عَنْ عمر مرفوعا، وعند النسائي مَوْقُوفًا، وَهُوَ أَصَحُّ. وَعِنْدَ ابْنِ عَدِيٍّ فِي الْكَامِلِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا، وَعِنْدَ ابْنِ عَدِيٍّ أَيْضًا عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا، وَعِنْدَ أَحْمَدَ عَنْ طَلْقِ بْنِ يَزِيدَ أَوْ يَزِيدَ بْنِ طَلْقٍ مَرْفُوعًا، وَعِنْدَ ابْنِ أَبِي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه عند عَلِيِّ بْنِ طَلْقٍ مَرْفُوعًا، وَقَدْ ثَبَتَ نَحْوُ ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَرْفُوعًا، وَمَوْقُوفًا..

قلتُ ولا حجة فيما خالف ذلك من رواياتٍ وأغلبها لا يصح عند التحقيق عن أصحابها، وهم قلة في إباحة الوطء في الدبر. [1]

قال الشوكاني رحمه الله

وَقَدْ قَدَّمْنَا مِثْلَ هَذَا، وَلَيْسَ فِي أَقْوَالِ هَؤُلَاءِ حُجَّةٌ أَلْبَتَّةَ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْمَلَ عَلَى أَقْوَالِهِمْ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى الْجَوَازِ، فَمَنْ زَعَمَ مِنْهُمْ أَنَّهُ فَهِمَ ذَلِكَ مِنَ الْآيَةِ فَقَدْ أَخْطَأَ فِي فَهْمِهِ. وَقَدْ فَسَّرَهَا لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكَابِرُ أَصْحَابِهِ بِخِلَافِ مَا قَالَهُ هَذَا الْمُخْطِئُ فِي فَهْمِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ،

---

[1] وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بن المسيب ونافع وابن عمرو وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الْمَاجِشُونِ أَنَّهُ يَجُوزُ ذَلِكَ، حَكَاهُ عَنْهُمُ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ: وَحُكِيَ ذَلِكَ عَنْ مَالِكٍ فِي كِتَابٍ لَهُ يُسَمَّى «كِتَابَ السِّرِّ» وَحُذَّاقُ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَمَشَايِخُهُمْ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ الْكِتَابَ، وَمَالِكٌ أَجَلُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كِتَابُ سِرٍّ، وَوَقَعَ هَذَا الْقَوْلُ فِي الْعُتْبِيَّةِ.

وَذَكَرَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: أَنَّ ابْنَ شَعْبَانَ أَسْنَدَ جَوَازَ ذَلِكَ إِلَى زُمْرَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَإِلَى مَالِكٍ مِنْ رِوَايَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي كِتَابِ: «جِمَاعِ النِّسْوَانِ وَأَحْكَامِ الْقُرْآنِ» وفي عزوه ذلك لكثير من الصحابة والتابعين نظر، إذ كان جمهورهم على تحريم إتيان الدبر.

وَقَالَ الطَّحَاوِيُّ: رَوَى أَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ قَالَ: مَا أَدْرَكْتُ أَحَدًا أَقْتَدِي بِهِ فِي دِينِي شَكَّ فِي أَنَّهُ حَلَالٌ، يَعْنِي: وَطْءَ الْمَرْأَةِ فِي دُبُرِهَا، ثُمَّ قَرَأَ: نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ثُمَّ قَالَ: فَأَيُّ شَيْءٍ أَبْيَنُ مِنْ هَذَا. قلتُ-متأمله: وليس والله ببين وإنما فيه نظر كثير، وهو وهمٌ في فهم الآية وتأويلها كما مر.

وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ، وَالدَّارَقُطْنِيُّ، وَالْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ عَنْ مَالِكٍ مِنْ طُرُقٍ: مَا يَقْتَضِي إِبَاحَةَ ذَلِكَ. وَفِي أَسَانِيدِهَا ضَعْفٌ.

وَقَدْ رَوَى الطَّحَاوِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ أَنَّهُ سَمِعَ الشَّافِعِيَّ يَقُولُ: مَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَحْلِيلِهِ وَلَا تَحْرِيمِهِ شَيْءٌ، وَالْقِيَاسُ أَنَّهُ حَلَالٌ. وَقَدْ رَوَى ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ. قلتُ-الباحث: وأكد البيهقي على استقرار مذهب الشافعي على التحريم وربما كان ذلك في مذهبه القديم وعدل عنه.

وقَالَ ابْنُ الصَّبَّاغِ: كَانَ الرَّبِيعُ يَحْلِفُ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ كَذَبَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَلَى الشَّافِعِيِّ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ الشَّافِعِيَّ نَصَّ عَلَى تَحْرِيمِهِ فِي سِتَّةِ كُتُبٍ مِنْ كُتُبِهِ.

راجع فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٦٠)، وتفسير ابن كثير ت سلامة (١/ ٥٨٨) وما بعدها.

وَمَنْ زَعَمَ مِنْهُم أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ أَنَّ رَجُلًا أَتَى امْرَأَتَه فِي دُبُرِهَا، فَلَيْسَ فِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ أَحَلَّتْ ذَلِكَ، وَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَقَدْ أَخْطَأَ، بَلِ الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ أَنَّ ذَلِكَ حَرَامٌ، فَكَوْنُ ذَلِكَ هُوَ السَّبَبُ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ نَازِلَةً فِي تَحْلِيلِهِ، فَإِنَّ الْآيَاتِ النَّازِلَةَ عَلَى أَسْبَابٍ تَأْتِي تَارَةً بِتَحْلِيلِ هَذَا، وَتَارَةً بِتَحْرِيمِهِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ فَسَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ بِغَيْرِ مَا تَقَدَّمَ.. [1]

قال الأستاذ محمد عبده إن جنون المسلمين بالرواية، هو الذي حمل بعضهم على تفسير الآية بهذا المعنى الذي تتبرأ منه عبارتها العالية، ونزاهتها السامية، ولم يلتفتوا إلى ذوق التعبير ومراعاة الأدب في بيان هذه الأحكام كما رأوا في الآية الكريمة، فقد فاتهم فهم حكمها، كما فاتهم حكمتها ونزاهتها وأدبها.

قلتُ وهذا كلام صحيح في جملته على ما في لفظ محمد عبده غفر الله له من تجاوز وعنف في الخطاب.

ويعلق صاحب المنار إن ما اختاره الأستاذ الإمام في تفسير (أنى شئتم) هو المأثور عن أئمة السلف والخلف، وهو ظاهر من لفظ الآية لا يشتبه فيه من له ذوق العربية، والروايات متعارضة متناقضة وأصحها حديث جابر عند الشيخين وأهل السنن وغيرهم، وهو أن سبب نزولها حظر اليهود إتيان الحرث بكيفية غير المعهودة عندهم، وزعمهم أن الولد يجيء أحول إذا كان العلوق بالوقاع من الطرف الآخر، وتكذبهم التجارب، وأما ما روي في إباحة الخروج عن سنة الفطرة فلا يصح منه شيء

، ولئن صح سندا فهو لن يصح متنا، ولا نخرج عن هدي القرآن ومحجته البيضاء لرواية أفراد قيل إنه لا يعرف عنهم ما يجرح روايتهم.

ويؤيد التفسير المختار قوله تعالى بعد ما تقدم (وقدموا لأنفسكم واتقوا الله) إلخ.

فهذه أوامر تدل على أن هنا شيئا يرغب فيه وشيئا يرغب عنه ويحذر منه، أما ما يرغب فيه فهو ما يقدم للنفس وهو ما ينفعها في المستقبل، ولا أنفع للإنسان في مستقبله من الولد الصالح، فهو ينفعه في دنياه كما هو ظاهر، وفي دينه من حيث إن الوالد سبب وجوده وصلاحه، وقد ورد في الحديث إن الولد الصالح من عمل المرء الذي ينفعه دعاؤه بعد موته، ولا يكون الولد صالحا إلا إذا أحسن والداه تربيته،

---

١ راجع فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٦٣) المصدر نفسه.

فالأمر بالتقديم للنفس يتضمن الأمر باختيار المرأة الودود الولود التي تعين الرجل على تربية ولده بحسن خلقها وعملها، كما يختار الزراعة في الأرض الصالحة التي يرجى نماء النبات فيها وإيتاؤه الغلة الجيدة، ويتضمن الأمر بحسن تربية الولد وتهذيبه، وأما ما يحذر منه ويتقى الله فيه فهو إخراج النساء عن كونهن حرثا بإضاعة مادة النسل في المحيض أو بوضعها في غير موضع الحرث،وكذلك اختيار المرأة الفاسدة التربية، وإهمال تربية الولد فإن الأمر بالتقوى ورد بعد النهي عن إتيان النساء في المحيض والأمر بإتيانهن من حيث أمر الله تعالى وهو موضع الحرث والأمر بالتقديم لأنفسنا، فوجب تفسير التقوى بتجنب مخالفة هذا الهدي الإلهي. ا.ه[1]

قال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان قوله تعالى {فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله} لم يبين هنا هذا المكان المأمور بالإتيان منه المعبر عنه بلفظة حيث ولكنه بين أن المراد به الإتيان في القبل في آيتين.

إحداهما هي قوله هنا {فأتوا حرثكم} لأن قوله {فأتوا} أمر بالإتيان بمعنى الجماع وقوله {حرثكم} يبين أن الإتيان المأمور به إنما هو في محل الحرث يعني بذر الولد بالنطفة، وذلك هو القبل دون الدبر كما لا يخفى، لأن الدبر ليس محل بذر للأولاد، كما هو ضروري.

الثانية قوله تعالى {فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم} لأن المراد بما كتب الله لكم الولد على قول الجمهور وهو اختيار ابن جرير. انتهى.

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن ابن عباس (فأتوهن من حيث أمركم الله) يقول في الفرج لا تعدوه إلى غيره فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى. انتهى [2]

وؤكد هذا المعنى الشريف للآيات، وهو استنباط عميق يراعي دور القرآن في بناء الشخصية المسلمة والمجتمع المؤمن على دعائم راسخةٍ نبيلةٍ؛ أقول ؤكد هذا المعنى سياق الآية متصلا بما قبلها كما اتصلت بما

---

١ تفسير المنار (٢/ ٢٨٨)

٢ الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور للدكتور بشير حكمت ياسين(١/ ٣٣٦).

بعدها بما بينه صاحب المنار فالآية قبلها يقول تعالى {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)} وهو أمرٌ رباني رحيم للمؤمنين يراعي فيها طهارة المؤمن عن القذر ونجاته من ملابسة ما يمرضه، وتنزهه عن إهدار ماء الحياة في غير موضعه في زمنٍ تكون مناعة الجهاز التناسلي للمرأة هي أضعف ما يكون وتكون الميكروبات الفتاكة تملأ فرجها،وكذلك الألم يتلبسه في كل موضع، فيمنعه الله تعالى عن ملابسة الفرج في زمن حيضها رحمةً منه للزوج والزوجة وحفظا لهما على السواء في لفتةٍ علمية رائعة في كلام الله تعالى وأمره الحكيم.

ثم يتعلق الأمر بذات الرحمة الربانية وفقه التشريع الإسلامي الحكيم فيمتد الحكم إلى فائدةٍ علمية أخرى لحفظ النسل وكذلك حفظ الصحة، فيتصل السياق القرآني أنه حين طهارة المرأة من الحيض يحل للزوج إتيانها ولكن في حيث أمر الله وهو الحرث المعد لاستقبال حفظ النوع البشري والذي وظيفته جهزته كي يتحمل الجماع بلا ضرر ولا ضرار، في حين يمنع الشرع الإتيان في الدبر الذي وظيفته في الإخراج وليس الجماع وذلك يجعل استعماله في غير ما خُلق له غاية المضرة فقد أثبت الأطباء - وأنا بالمناسبة طبيب أن ذلك يؤدي إلى نتائج وخيمة تبدأ بالالتهابات الشنيعة للدبر وللعضو الذكري حيث الميكروبات الفتاكة التي لا تلائم طبيعة الجماع وحيث الاحتكاك الشديد في غير وجود مسهلات العملية في مكان ليس معدا لذلك ثم ارتخاء صمامات الدبر، والإصابة بأنواع الدوالي فيه والبواسير، إلى أنواع السرطانات الجلدية من الاحتكاك الشديد في مكان لم يعد لذلك.

فهل هناك أحكم من هذا السياق القرآني واتصاله في رحمةٍ ربانية ممتدة عبر آيات الذكر الحكيم، ولذلك تختَم الآية السابقة بقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢)}

قال صاحب المنار {إن الله يحب التوابين} الذين إذا خالفوا سنة الفطرة بغلبة سلطان الشهوة فأتوا نساءهم في زمن المحيض أو في غير المأتى الذي أمر الله به، يرجعون إليه تائبين ولا يصرون على فعلهم السيئ {ويحب المتطهرين} من الأحداث والأقذار، ومن إتيان المنكر، بل هؤلاء أحب إليه من الذين يقعون في الدنس ثم يتوبون منه، ثم قال تعالى {نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم} بيَّن في الآية

السابقة حكم المحيض، وأحل غشيان النساء بعده، وبيَّن في هذه الآية حكمة هذا الغشيان التي شرع الزواج لأجلها، وكان من مقتضى الفطرة وهي الاستنتاج والاستيلاد؛ لأن الحرث هو الأرض التي تستنبت، والاستيلاد كالاستنبات، وهذا التعبير على لطفه ونزاهته وبلاغته وحسن استعارته تصريح بما فهم من قوله عز وجل {فأتوهن من حيث أمركم الله} أو بيانٌ له، فهو يقول إنه لم يأمر بإتيان النساء الأمر التكويني بما أودع في فطرة كل من الزوجين من الميل إلى الآخر، والأمر التشريعي بما جعل الزواج من أمر وأسباب المثوبة والقربة إلا لأجل حفظ النوع البشري بالاستيلاد، كما يحفظ النبات بالحرث والزرع، فلا تجعلوا استلذاذ المباشرة مقصودا لذاته فتأتوا النساء في المحيض حيث لا استعداد لقبول زراعة الولد وعلى ما في ذلك من الأذى، وهذا يتضمن النهي عن إتيانهن في غير المأتى الذي يتحقق به معنى الحرث. ا.ه[1]

وأختم هذا المبحث بطريفةٍ ذكرها الطباطبائي المفسر الشيعي أن ما استقر عليه مذهب الإثنا عشرية نقلا عن أئمتهم جواز إتيان المرأة في دبرها مع الكراهة الشديدة ولم يتعلقوا في تجويزهم بهذه الآية {نساؤكم حرث لكم..} وإنما استدلوا بقول لوط عليه السلام في الآية {إن هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين} حيث عرض عليهم بناته وهو يعلم أنهم لا يريدون الفروج، ولم ينسخ الحكم بشئ من القرآن. [2]

أقول هذا انتكاس في الفهم أعاذنا الله منه فإنه فيه من القدح في لوط عليه السلام ، وعدم فهم قضية النسخ التي لا تُنسَخ فيها الأخبار والقصص، بجانب الاستدلال البعيد جدا.

وفي خلاصة هذا البحث وهذه المقاربة لنظام القرآن الذي يُراعي فيه جانب الرواية مضبوطا بجانب الدراية ومحفوظا بمقاصد الشرع وسياق الدين؛ تناولنا الآية من حيث سبب النزول والروايات المتعارضة فيها ورجحنا ما رجحه جمهور العلماء وأئمتهم بناءً على البنية اللغوية والدلالية، والتحليل السياقي للآيات، وربط مقاصد الشريعة بمقاصد القرآن بعامة من خلال هذه الآية.

---

١ تفسير المنار (٢/ ٢٨٧) المرجع السابق

٢ الميزان في تفسير القرآن ٢/٢٢٤ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.

ومن هنا نعلم أن تدبر وفهم القرآن على وجهه ليس مهمةً سهلة، وأن كلام المفسرين لا يؤخذ على علته، وأن الدرس المتجدد للقرآن لترجيح معانٍ على معانٍ هو مطلب ملح للمخلصين من الباحثين. والله وحده الهادي إلى سواء الصراط.

إن للسياق القرآني والقرائن الخارجية والداخلية للنص الحكيم دور مهم جدا في تدبر القرآن العظيم.

وهنا قرينة الحال أو سياق الحال – أيا كان الاصطلاح والذي يُعنى بالخطاب في لغته ودلالته بغض النظر عن بنيته السطحية، فمثلا في قوله تعالى {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} (الدخان ٤٩) ليست على ظاهرها في البنية السطحية للنص وإنما هي على معنى التهكم والتبكيت في العذاب، استفدنا ذلك سياقها في حال ذكر عذاب المكذبين { ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ} (الدخان ٤٨ – ٥٠) ويسمي ذلك بعض العلماء النظر في البنية العميقة للنص.

وقرأ بعضهم «ذُقْ إِنَّكَ» بِفَتْحِ الْأَلِفِ. وَالْمَعْنَى فِي فَتْحِهَا ذُقْ بِهَذَا الْقَوْلِ الَّذِي قُلْتَهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ كَسَرَ حَكَى قوله، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا جَهْلٍ لقى النبي صلّى الله عليه قال فأخذه النبي صلّى الله عليه فَهَزَّهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ أَوْلَى لَكَ يَا أَبَا جَهْلٍ أَوْلَى.. فَأَنْزَلَهَا اللَّهُ كَمَا قَالَهَا النبي صلّى الله عليه. ورد عليه أبو جهل، فقال والله مَا تَقْدِرُ أَنْتَ وَلَا رَبُّكَ عَلَيَّ، إِنِّي لَأَكْرَمُ أَهْلِ الْوَادِي عَلَى قَوْمِهِ، وَأَعَزُّهُمْ فَنَزَلَتْ كَمَا قَالَهَا قَالَ فَمَعْنَاهُ فِيمَا نَرَى وَاللَّهُ أعلم أنه توبيخ أي ذُقْ فَإِنَّكَ كَرِيمٌ كَمَا زَعَمْتَ. وَلَسْتَ كَذَلِكَ. انتهى [1]

ولنضرب مثالا آخر في قوله تعالى {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) الآيات} (المدثر ١، ٢)، فانظر رحمك الله من فسرها يأيها المتدثر بثيابه عند نومه. ثم قال كان متدثرا في قطيفة.

وانظر من تأمل هذا الخطاب الجميل وتذوقه فرأى فيه ملاطفةً حانيةً من ربٍ ودود لعبده وخليله يقول له وبكل حبٍ لمَّا رأى من ارتجافه وشدة أمر الوحى في أوله عليه، وحرى به ذلك لعظمة ما أوكل إليه من مهمة، جاء له هذا الخطاب القرآني ملاطفاً وكأنه يربت على كتفيه ويثبته ويهيئه لرسالته الثقيلة يقول قم أيها النومان، قم فأنذر فقد مضى وقت النوم وقد هُيئت لأمرٍ عظيم.

---

[1] معاني القرآن للفراء (٣/ ٤٣)

وهذا كما لاطف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ابن أبي طالب بكل حب وحنانٍ لما رآه وقد خاصم زوجه فاطمة عليها السلام. فَجَاءَهُ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَهُوَ مُضْطَجع قد سقط رِدَاؤُهُ عَن شقِّه فَأَصَابَهُ تراب، فَجعل رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول قُم أَبَا تُرَاب، قُم ابا تُرَاب . (رواه البخاري ومسلم).

وكذلك مثل ملا طفته لأبي حذيفة ابن اليمان وقد أرسله لمهمة شاقة في عزوة الخندق ثم جاءه بالخبر وهو يرجف من البرد والخوف، فأعطاه برده الشريف فنام فيه حتى أصبح وجاء رسول الله يلاطفه ليوقظه يقول قم يا نومان. (والقصة في صحيح مسلم وغيره).

ثم إن الله تعالى حين يقول لنبيه وخليله عليه السلام {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)} (المزمل ١، ٢). فإن وراء الكلمات مدحاً عظيما..

قال العلامة ابن عطية نداء للنبي صلى الله عليه وسلم، واختلف الناس لم نودي بهذا، فقالت عائشة والنخعي وجماعة لأنه كان وقت نزول الآية متزملا بكساء، والتزمل الالتفاف في الثياب بضم وتشمير، ومنه قول امرئ القيس (الطويل).

كأن أبانا في أفانين ودقة .. كبير أناس في بجاد مُزَمَّلِ. أي ملفوف، وإنما هو نعت لكبير، فهو عليه السلام على قول هؤلاء، إنما دعي بهيئةٍ في لباسه.

وقال قتادة، كان تزمل في ثيابه للصلاة واستعد فنودي على معنى يا أيها المستعد للعبادة المتزمل لها، وهذا القول مدح له صلى الله عليه وسلم. وقال عكرمة معناه {يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} للنبوءة وأعبائها، أي المتشمر المجدّ. اهـ. [١]

فتأمل استشفاف ما وراء التفسير والحل المجرد لمعاني الكلمات، ومراعاة روح الخطاب في قول ابن عطية (فهو عليه السلام على قول هؤلاء، إنما دعي بهيئةٍ في لباسه). فلابد إذن من وجود مقصد بلاغي في هذا النداء والخطاب بهذه الطريقة الحانية الملاطِفة، على عكس ما يتوهمه الذين أهملوا فهم

---

[١] تفسير ابن عطية (المتوفي ٥٤٢هـ) = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٨٦).

السياقي الخطابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم هنا فتبجحوا بكلام فيه إساءة ادب تنم عن تقصير في البحث والفهم.

كما قال الزمخشري في تفسيره بكل سوء أدب تأنفه اللغة ويانفه تذوق معاني القرآن الصحيح وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما بالليل متزمّلا في قطيفة، فنبه ونودي بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم، كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن.

ألا ترى إلى قول ذى الرمّة وكائن تخطّت ناقتي من مفازة .. ومن نائم عن ليلها متزمّل ا.ه.

ورد عليه العلامة الجميل ابن المنير السكندري فشفانا بعلمه وادبه وقال قال الزمخشري «هو المتلفف في ثيابه كالمدثر ونودي بما يهجن إليه .. الخ» قال أحمد (أى ابن المنير) أما قوله الأول أن نداءه بذلك تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالأبيات المذكورة. فخطأ وسوء أدب. ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له في الإكرام والاحترام علم بطلان ما تخيله الزمخشري، فقد قال العلماء أنه لم يخاطب باسمه نداء، وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراما له وتشريفا، فأين تداؤه بصيغة مهجنة من نسائه، باسمه، واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذما في جفاة حفاة من الرعاء، فأنا أبرأ إلى الله من ذلك وأربأ به صلى الله عليه وسلم، ولقدذُكِّرت بقوله أوردها سعد وسعد مشتمل..

ما وقعت عليه من كلام ابن خروف النحوي يرد على الزمخشري ويخطئ رأيه في تصنيفه المفصل، وإجحامه في الاختصار بمعاني كلام سيبويه، حتى سماه ابن خروف البرنامج، وأنشد عليه

أوردها سعد وسعد مشتمل .. ما هكذا تورد يا سعد الإبل.

وأما ما نقله أن ذلك كان في مرط عائشة رضى الله عنها فبعيد، فان السورة مكية، وبنى النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها بالمدينة. والصحيح في الآية ماذكره آخرا، لأن ذلك كان في بيت خديجة عند ما لقبه جبريل أول مرة، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة، والله أعلم. ا.ه. (١)

---

١ تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٦٣٤) وحاشية ابن المنير عليه.

وهذه من المعاني التي يستشعرها الذين مرسوا على تذوق اللغة العربية ودقائقها، ودائما ما نقول إن ما نحتاجه حقا هو تدبر القرآن بمعنى النظر فيما وراء الكلمات والجمل وليس الحل الجامد لمعاني المفردات على ظواهرها فقط، وإن كان مفتاحا للفهم لا كل الفهم. وصدق سلفنا العظيم حين كانوا يقولون لا يفقه الرجل حتى يرى للقرآن أوجها . وهذا هو الحديث عن أن للقرآن ظاهر هو حل ألفاظه مجردان وباطن وهو فقه القرآن بلغته وخطابه وتدبر معانيه ومقاصده.

ولعل هذه المباحثات التي نبحثها في الآية هى من وحى الإيمان برسالة التدبر في العودة بالقرآن لحياتنا فاعلاً مؤثراً.

وما يعنينا هنا هو تثوير معالم لمنهجية فعالة في تدبر كتاب الله تعالى تخرج من تحت عباءة شيوخنا المفسرين الكبار، وتصنع لها شخصيتها الخاصة في تدبر وإحياء وجود كتاب الله في حياتنا، كل ذلك مع الاستغفار لشيوخنا، وتقبيل أيديهم لفضلهم علينا.

نكتة لغوية في معنى (أو) في بعض آيات القرآن. ؟

يقول الشعراوي في تفسيره وقوله تعالى أَوْ يَزِيدُونَ (الصافات ١٤٧). هل الحق سبحانه لا يعرف عدد هؤلاء القوم على وجه التحديد؟ نعم يعرفهم، ولو أراد لذكرهم لنا تحديداً، إنما قوله أَوْ يَزِيدُونَ (الصافات ١٤٧). ليس للدلالة على الزيادة، إنما لتأكيد العدد السابق المائة ألف، كما أعطيت فلاناً حقه ويزيد، فأنت لا تحدثُ عن الزيادة إنما تؤكد على العدد، وأنه غيْرُ ناقص؛ لأن الألفَ يُطلَق أيضاً على ما يقرب الألف مثل تسعمائة وتسعة وتسعين، إذن فالزيادة هنا تؤكد تمام العدد.

وأرى الشعراوي نقله عن ابن قيم الجوزية (المتوفى ٧٥١هـ) في كتابه (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) وقريب من هذا لفظة أو في قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة (البقرة ٧٤). وقوله وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون (الصافات ١٤٧). هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة، فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها، وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها، فذكر أو ها هنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة، والله أعلم.

وموضوع أن (أو) في قوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) بمعنى بل التي للإضراب ، روي ذلك عن ابن عباس و قاله أبو عبيدة والفراء .

وفي لسان العرب و أو تكون بمعنى بل في توسع الكلام ، قال ذو الرُّمة

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى وصورتها أو أنت في العين أملح

يريد بل أنت .

قال أبو جعفر النحاس وهذا خطأ عند أكثر النحويين الحذاق ولو كان كما قالا لكان وأرسلناه إلى أكثر من مائة ألف واستغنى عن أو.

وكذا رد ابن جِنّيْ استشهاد الفراء ببيت ذي الرمة فقال (أو) إذا كانت هنا على بابها من الشك كانت أحسن معنى وأعلى مذهبا ، ألا ترى أنه لو أراد بها معنى بل ، فقال بل أنت في العين أملح لم يف بمعنى أو في الشك ، لأنه إذا قطع بيقين أنها في العين أملح كان في ذلك سرف منه ، ودعاء إلى التهمة في الإفراط له ، وإذا خرج الكلام مخرج الشك كان في صورة المقتصد غير المتحامل ولا المتعجرف .

فكان أعذب للفظه وأقرب إلى تقبل قوله ، وبعد فهذا مذهب الشعراء أن يظهروا في هذا ونحوه شكا وتخالجا ليُرُوا قوةَ الشَبَه واستحكام الشبهة ، ولا يقطعوا قطع اليقين البتة فينسبوا بذلك إلى الإفراط وغلق الاشتطاط ، وإن كانوا هم ومن بحضرتهم ومن يقرأ من بعد أشعارهم يعلمون ألا حيرة هناك ولا شبهة ، ولكن كذا خرج الكلام على الإحاطة بمحصول الحال

وقال المبرد في المقتضب إن قوما من النحويين جعلوا (أو) في هذا الموضع بمنزلة بل ، وهذا فاسد عندنا من وجهين

أحدهما أن (أو) لو وقعت في هذا الموضع بمنزلة بل لجاز أن تقع في غير هذا الموضع ، وكنت تقول ضربت زيدا أو عمرا ، وما ضربت زيدا أو عمرا على غير الشك ، ولكن على معنى (بل) ، فهذا مردود .

والوجه الآخر أن (بل) لا تأتي في الواجب في كلام واحد إلا للإضراب بعد غلط أو نسيان ، وهذا منفي عن الله عزوجل . .

ومن الكتب المختصرة الجميلة في ايضاح دلالات الحروف كتاب الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، فقدذكر فيه صاحبه سبعة أو ثمانية معان من معاني حرف (أو).

من روائع التدبر

قال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم

{اللهُ نُورُ السَّموات وَالأرْضِ} (النور ٣٥)..

وسر هذا التناسق والتناسب بين الآيات أن الجزاء من جنس العمل. فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه. (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٤٨)

حياة الإيمان ونوره.

قال تعالى ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(الأنعام ١٢٢). [١]

وفي قوله تعالى ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾قال ابن جرير فجعله جل ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيدِه وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤديه إلى نجاته، بمنزلة الميْت الذي لا ينفع نفسه بنافعةٍ، ولا يدفع عنها مكروها.

وقوله ﴿ فأحييناه ﴾أي فهديناه للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضارّ نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سَخَط الله وعقابه في آجله وعاجله. فجعل إبصاره الحق تعالىذكره بعد عَمَاه عنه، ومعرفته بوحدانيته وشرائع دينه بعد جهله بذلك، حياةً وضياءً يستضيء به المؤمن فيمشي على قصد السبيل، ومنهج الحق والخير في الناس.

وليس هذا أبداً﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾، أى لا يدري كيف يتوجه في حياته، وأيَّ طريقٍ يأخذ، لشدة ظلمة الليل وإضلاله الطريق. فكذلك هذا الكافر الضال في ظلمات الكفر، لا يبصر رشدًا ولا يعرف حقًّا، يعني في ظلمات الكفر. انتهى [٢]

وهذا المثل القرآني العظيم يحرك العقول الشريفة والقلوب الشفيفة إلى تصور هذا المعنى؛ مشهدا فائق النقاء والوضوح يرتسم في جانبين متضادين لؤكد ضرورة اتباع منهج الله تعالى في تقويم الحركة على الأرض.

---

١ وقال سبحانه:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾(الرعد: ١٦)، وقال عز وجل:﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾(فاطر: ١٩، ٢٠)، وقال جل ذكره:﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾(غافر: ٥٨)

٢ تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٢/ ٨٨) بتصرف يسير جدا.

وكما يقول البلاغيون فهو تشبيهٌ أو استعارة تمثيلية تنتزع مجموع صورةٍ كلية في طرف المُشبَّه، وصورةٍ أخرى مثلها في طرف المشبَّه به لرابطٍ يجمعهما فيَبِين المعنى من مجموع الصورتين لا من مفردات التشبيه في كلا الطرفين.

فهو إذن تشبيهُ حالةٍ بحالةٍ، وليس شيئا بشيء. ومن تصور الحالتين يتضح المعنى.

فهذا طرفٌ يظهر فيه ميتٌ لا يستطيع أن يدفع عن نفسه مكروها ولا يجلب لها نفعا قد سُلب الفعل والحركة؛ حتى وإن اكتسب الإرادة فهو أيضا في ظلماتٍ لا يستطيع معها الرؤية أو التحرك. وفي خضم هذا ربما جاءه الله تعالى بالحياة التي تعطيه معنى الفعل والحركة وجلب النفع وتجنب الضرر، ثم أعطاه الله تعالى النور الذي يمشي به في هذه الحياة فلا يتخبط ولا يتعثر ويرى ما حوله ويدركه. هذه الصورة في الطرف الأول.

وفي الطرف الآخر هذا الكافر العبثي المعاند الذي لا يدرك من معنى الحياة الحقيقي سوى الاندفاع في رغبات جسده، ولا تقوى روحه لدناءتها على تحريكه إلى خيرٍ ينفعه، أو دفع ضررٍ يناله من شهواته؛ فهو بمنزلة الميت الذي لا تقوى روحه على ضخ الحياة في فكره وبصيرته. فإذا جاءت الحياة من الله تعالى بتقوية هذه الروح بالحق الإلهي الذي هو التوحيد، وإنارتها بالنور الرباني الذي هو الشريعة والمنهج؛ قام ومضى في طريق الحياة بنور ربه يشق به طريق الناس بلا عثرةٍ ولا هلاك.

ومن مجموع الصورتين ينشأ المعنى خالصا أن الحياة الحقيقية التامة الفاعلة الخيِّرة والنور الخالص الذي يزيل معاني الظلم والظلام هو في توحيد الله واتباع منهج الله وكتبه ورسله.

وهذا الأسلوب الراقي من مخاطبة الوجدان والعقل والمخيلة تستخدمه البلاغة القرآنية كثيراً على منوال أرقى الأساليب البلاغية عند العرب؛ بل إن حبكة القرآن لهذه الطريقة واستدعاءها لمخيلة المتلقي لا يمكن أن تُضاهَى.

فمن أمثال هذه الطريقة في التشبيه عند العرب قول الشاعر وأظنه طرفة بن العبد

وأشدُّ مَا ألقاهُ من ألم الجوى .. قرب الحبيب وَمَا إليهِ وُصُولُ.

كالعيس فِي الْبَيْدَاء يَقْتُلُهَا الظما .. والماءُ فَوق ظُهُورهَا مَحْمُولُ.

العلامة الطبري ومعنى "أنّي".

قال العلامة ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٣٩٧)

القول في تأويل قوله تعالى {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (٢٢٣البقرة)

يعني تعالى ذكره بذلك نساؤكم مُزدَرَعُ أولادكم، فأتوا مُزدرعكم كيف شئتم، ومن أين شئتم. وإنما عني بـ الحرث المزدَرَع، و الحرث هو الزرع، ولكنهن لما كان النساء من أسباب الحرث، جُعِلْن في الآية حرثًا ، ومعنى الكلام مفهوم.

قال يعني تعالى ذكره بذلك فانكحوا مزدرَع أولادكم من حيث شئتم من وجوه المأتى. و الإتيان في هذا الموضع، كناية عن اسم الجماع.

قال وأما الذين قالوا معنى قوله أنى شئتم ، كيف شئتم مقبلة ومدبرة في الفرْج والقُبُل، فإنهم قالوا إن الآية إنما نزلت في استنكار قوم من اليهود، استنكروا إتيان النساء في أقبالهن من قِبل أدبارهن. قالوا وفي ذلك دليل على صحة ما قلنا، من أن معنى ذلك على ما قلنا.

قال أبو جعفر والصواب من القول في ذلك عندنا قولُ من قال معنى قوله أنى شئتم ، من أيّ وجه شئتم. وذلك أن أنَّى في كلام العرب كلمة تدلّ إذا ابتدئ بها في الكلام على المسألة عن الوجوه والمذاهب. فكأن القائل إذا قال لرجل أنى لك هذا المال ؟ يريد من أيّ الوجوه لك. ولذلك يجيب المجيبُ فيه بأن يقول من كذاوكذا ، كما قال تعالى ذكره مخبرًا عن زكريا في مسألته مريم (أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) (سورة آل عمران ٣٧). وهي مقاربة أين و كيف في المعنى، ولذلك تداخلت معانيها، فأشكلت أنَّى على سامعيها ومتأوِّليها، حتى تأوَّلها بعضهم بمعنى أين ، وبعضهم بمعنى كيف ، وآخرون بمعنى متى وهي مخالفة جميع ذلك في معناها، وهن لها مخالفات.

وذلك أن أين إنما هي حرف استفهام عن الأماكن والمحال وإنما يستدل على افتراق معاني هذه الحروف بافتراق الأجوبة عنها. ألا ترى أن سائلا لو سأل آخر فقال أين مالك ؟ لقال بمكان كذا ، ولو قال له أين أخوك ؟ لكان الجواب أن يقول ببلدة كذا أو بموضع كذا ، فيجيبه بالخبر عن محل ما سأله عن محله. فيعلم أن أين مسألة عن المحل.

ولو قال قائل لآخر كيف أنت ؟ لقال صالح، أو بخير، أو في عافية ، وأخبره عن حاله التي هو فيها، فيعلم حينئذ أن كيف مسألةٌ عن حال المسؤول عن حاله.

ولو قال له أنَّى يحيي الله هذا الميت؟ ، لكان الجواب أن يقال من وجه كذا ووجه كذا ، فيصف قولا نظيرَ ما وصف الله تعالى ذكره للذي قال (أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا) (سورة البقرة ٢٥٩). فعلا حين بعثه من بعد مماته. وقد فرَّقت الشعراء بين ذلك في أشعارها، فقال الكميت بن زيد تَذَكَّرَ مِنْ

أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ شُرْبُهُ .. يُؤَامِرُ نَفْسَيهِ كَذِي الهَجْمَةِ الأبِلْ.

وقال أيضًا أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ آبَكَ الطَّرَبُ .. مِنْ حَيْثُ لا صَبْوَةٌ وَلا رِيَبُ.

فيجاء بـ أنى للمسألة عن الوجه، وبـ أين للمسألة عن المكان، فكأنه قال من أيّ وجه، ومن أي موضع راجعك الطرب؟

والذي يدل على فساد قول من تأول قول الله تعالى ذكره فأتوا حرثكم أنى شئتم ، كيف شئتم أو تأوله بمعنى حيث شئتم أو بمعنى متى شئتم أو بمعنى أين شئتم أن قائلا لو قال لآخر أنى تأتي أهلك؟ ، لكان الجواب أن يقول من قُبُلها، أو من دُبُرها ، كما أخبر الله تعالى ذكره عن مريم إذْ سئلت (أَنَّى لَكِ هَذَا) أنها قالت (هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ).

وإذ كان ذلك هو الجواب، فمعلومٌ أن معنى قول الله تعالى ذكره فأتوا حرثكم أنى شئتم ، إنما هو فأتوا حرثكم من حيثُ شئتم من وجوه المأتى وأنّ ما عدا ذلك من التأويلات فليس للآية بتأويل.

وإذ كان ذلك هو الصحيح، فبيِّنٌ خطأ قول من زعم أن قوله فأتوا حرثكم أنى شئتم ، دليلٌ على إباحة إتيان النساء في الأدبار، لأن الدُّبر لا مُحْتَرَث فيه، وإنما قال تعالى ذكره حرث لكم ، فأتوا الحرث من أيّ وجوهه شئتم. وأيُّ مُحْتَرَث في الدُبر فيقال ائته من وجهه؟ وبيِّنٌ بما بينا، صحةُ معنى ما روي عن

جابر وابن عباس من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين إذا أتَى الرجلُ المرأةَ من دُبرها في قبُلها، جاء الولد أحول .

قال الشيخ محمود محمد شاكر معلقا على تناول الطبري الراقي للمسألة

حجة أبي جعفر في هذا الفصل من أحسن البيان عن معاني القرآن وعن معاني ألفاظه وحروفه وهي دليل على أن معرفة العربية، وحذقها والتوغل في شعرها وبيانها وأساليبها أصل من الأصول، لا يحل لمن يتكلم في القرآن أن يتكلم فيه حتى يحسنه ويحذقه. ورحم الله ابن إدريس الشافعي حيث قال فيما رواه الخطيب البغدادي عنه في كتاب الفقيه والمتفقه .

لا يحلُّ لأحدٍ أنْ يُفْتِي في دِينِ اللهِ إلّا رجلًا عارفًا بكتاب الله بناسخه ومنسوخه ومحكمه ومشابهه، وتأويله وتنزيله ومكيّه ومدنيّه، وما أُريدَ به ويكون بعد ذلك بصيرًا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالناسخ والمنسوخ ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ويكون بصيرًا باللغة بصيرًا بالشعر، وما يحتاج إليه للسنة والقرآن، ويستعمل هذا مع الإنصاف ويكون بعد هذا مشرفًا على اختلاف أهل الأمصار وتكون له قريحةٌ بعد هذا. فإذا كانَ هكذا فله أنْ يتكلّم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكنْ هكذا، فليس له أن يفتي .

فليت من يتكلم في القرآن والدين من أهل زماننا يتورع من مخافة ربه، ومن هول عذابه يوم يقوم الناس لرب العالمين. انتهى

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً }

قال ربنا تبارك وتعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }(البقرة ٢٠٨، ٢٠٩).

قال العلامة ابن جرير الطبري إن الله جل ثناؤه أمر الذين آمنوا بالدخول في العمل بشرائع الإسلام كلها، وقد يدخل في الذين آمنوا المصدِّقون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، والمصدقون بمن قبله من الأنبياء والرسل، وما جاءوا به، وقد دعا الله عز وجل كلا الفريقين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده، والمحافظة على فرائضه التي فرضها، ونهاهم عن تضييع شيء من ذلك، فالآية عامة لكل من شمله اسم الإيمان ، فلا وجه لخصوص بعض بها دون بعض.[١] .

ويقول العلامة الراغب عنى ب(السِّلم) سِلْمَ العبدِ اللهَ عز وجل، وذلك أن الإنسان في كفره، وكفران نعمة الله كالمحارب له، ولهذا يسمى الكافر المحارب في نحو قوله {الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، وسِلم العباد لله على ثلاثة أضرب، ضرب يتقدمه إلى الإيمان؛ وهو الإسلام الذي سلم به من الله أن يراق دمه ويُسلب ماله وهو المغني بقوله عليه السلام أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم .

وضربان يكونان بعد الإيمان، أحدهما أن يسْلَم من سخط الله بارتسام أوامره وزواجره طوعاً أو كرهاً. والثاني أن يسلم من الشيطان وأوليائه، ويسلم أمره لله فيما يجري من قضائه، وبه يحصِّل دارَ السلام المذكورة في قوله تعالى {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ} وهذا غاية ما ينتهي إليه للعبد من المنازل الثلاث، وإن كان لكل منزلةٍ منها درجاتٌ، وهذا السلم هو الذي تمناه يوسف عليه السلام بقوله {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} أي كامل التسليم لله وحده، وهى أرقى درجات الإيمان. انتهى [٢]

---

[١]. راجع تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٤/ ٢٥٦)

[٢] تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٤٣٢) بتصرف يسير.

لطيفةٌ.

أهدى الخليفة العباسي المتوكل الشّاعرَ البحتري فرساً ، فمات الفرس في اليوم نفسه ..

فأنشد البحتري مخاطباً المتوكل

أهديتني أُعجوبةً بينَ الخلائقِ نادرة.

فرساً كأن هبوبَها مثلُ الرياح الطائرة.

في ليلةٍ قطعَ المسافةَ من هنا للآخرة.

التكبر شيمة أهل النقص.

وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة؟ إن الله تعالى — على علوِّ شأنه، وبَسْطةِ مُلْكه، وقدرته على جميع خلقه — يُوَاجَه بالتاء والكاف، ولو كان في الكناية بالهاء رِفْعةٌ وجَلالةٌ وقَدْر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحقَّ بذلك ومقدَّمًا فيه،وكذلك رسولُه ﷺ والأنبياء قبله عليهم السلام وأصحابُه رضي الله عنهم والتابعون لهم بإحسان رحمة الله عليهم، وهكذا الخلفاء فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزَّك الله، ويا عمرُ أصلحك الله، وما عاب هذا أحد، وما أَنِف منه حسيب ولا نسيب، ولا أباه كبيرٌ ولا شريف .وإني لأعجب من قومٍ يرغبون عن هذا وشبهه، ويحسبون أن في ذلك ضَعَةً أو نقيصةً أو حَطّاً أو زِرايةً، وأظنُّ أن ذلك لعجزهم وفُسُولتهم وانخزالهم وقلتهم وضُئُولتهم وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم، وأن هذا التكلُّف والتجبُّر يمحوان عنهم ذلك النقص، وذلك النقص ينتفي بهذا الصَّلَف، هيهات !لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخُيَلاء ومن مَقابح الزَّهْو والكبرياء.

وقد قال بعض السلف الصالح ما تَعاظَم أحد على مَن دونه إلا بقدر ما تَصاغَر لمَن فوقه .

والتصاغر دواء النفس، وسجية أهل البصيرة في الدنيا والدين، ولذلك قال ابن السَّمَّاك للرشيد وقد عجِب من رقته، وحسن إصاخته لموعظته، وبليغ قبوله لقوله، وسرعة دمعته على وجنته : «يا أمير

المؤمنين، لَتواضعُك في شرفك أشرفُ من شرفك، وإني أظن أن دمعتك هذه قد أطفأتْ أوديةً من النار وجعلتْها بردًا وسلاما».

(الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، ص٣٩ ، ط. هنداوي/ مصر)

وللخليل بن أحمد الفراهيدي إمام العربية يقول

ليس التطاولُ رافعًا من جاهلٍ ...وكذا التواضعُ لا يضرُّ بعاقلٍ.

لكن يُزادُ إذا تواضع رفعةً .... ثم التطاولُ ما لهُ من حاصلٍ.

وأبو الطيب يقول في الكبر وأهله وزهوهم الفارغ

مَلأى السنابلِ تخني بتواضعٍ ... والفارغاتُ رؤوسهنّ شوامخُ.

وقال ابن عبد ربه الأندلسي

مَعَ الْأَرْضِ يَا بْن الْأَرْضِ فِي الطّيَرَانِ.... أَتَأْمُلُ أَنْ تَرْقَى إِلَى الدبرَانِ.

فواللهِ مَا أَبْصَرْتُ يَوْمًا مُحَلّقًا... وَلَوْ حَلّ بَيْنَ الْجَدْي وَالسّرطَانِ.

حَمَاهُ مَكَانُ الْبُعْدِ مِنْ أَنّ تَنالَه... بِسَهْمٍ مِنَ الْبَلْوَى يَدُ الْحَدَثَانِ.

في تحقيق معنى قوله تعالى: {كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ}.

وهنا نتعرض لقوله تعالى في سورة الأعراف

{كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)}

قال أبو جعفر الطبري في تفسيره وهو محل المناقشة هنا يعني تعالى ذكره هذا القرآن، يا محمد، كتاب أنزله الله إليك. {فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ} قال أبو جعفر والمعنى فلا يضق صدرك، يا محمد، من الإنذار به مَنْ أرسلتك لإنذاره به، وإبلاغه مَنْ أمرتك بإبلاغه إياه، ولا تشك في أنه من عندي،

واصبر للمضيّ لأمر الله واتباع طاعته فيما كلفك وحملك من عبء أثقال النبوة، كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن الله معك.

و الحرج ، هو الضيق، في كلام العرب، وقد بينا معنى ذلك بشواهده وأدلته في قوله (ضَيِّقًا حَرَجًا) (سورة الأنعام ١٢٥).

ثم روى بأسانيده هذا القول عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي (فراجعه مشكورا)

ثم قال وهذا الذيذكرته من التأويل عن أهل التأويل، هو معنى ما قلنا في الحرج ، لأن الشك فيه لا يكون إلا من ضيق الصدر به، وقلة الاتساع لتوجيهه وجهته التي هي وجهته الصحيحة. وإنما اخترنا العبارة عنه بمعنى الضيق ، لأن ذلك هو الغالب عليه من معناه في كلام العرب، كما قد بيناه قبل.

و قوله {لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} يعني بذلك تعالىذكره هذا كتاب أنزلناه إليك، يا محمد، لتنذر به من أمرتك بإنذاره، (وذكرى للمؤمنين) وهو من المؤخر الذي معناه التقديم. ومعناه كتاب أنزل إليك لتنذر به ، وذكرى للمؤمنين ، فلا يكن في صدرك حرج منه .

وإذا كان ذلك معناه، كان موضع قوله (وذكرى) نصبًا، بمعنى أنزلنا إليك هذا الكتاب لتنذر به، وذكر به المؤمنين.

ولو قيل معنى ذلك هذا كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه، أن تنذر به، وذكّر به المؤمنين كان قولا غير مدفوعة صحته .انتهى.

وهنا ملاحظات ١ كيف وجَّه الطبري وغيره الحرج هنا إلى معنى الشك، وليس معنى الضيق الذي هو أصل معناه في اللغة واستعمالات القرآن.

٢ ثم إن معنى الشك الذي هو تساوي الكفتين في نقيضين ههنا معنى مشكل لا يليق بمقام النبوة إطلاقا وخاصة أن نسبة الشك هنا للرسول في القرآن ؟

٣ إن السياق في الآية وقرائن الدلالة لا ترجح ما اتجه المفسرون إليه بل تضاده وتأمل بعدذكر الحرج قوله تعالى

{لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} (الأعراف ٢) وهنا يمكن للدرس اللغوي أن يصرفنا تماما عن تفسير نُسِب للتابعين أو حتى للحبر ابن عباس – رضى الله عنه، والمجة لكلام الله وعصمة أنبيائه على الجميع

٤ وخصوصا إذا تم جمع الآيات التي تبين مدى حرص الرسول على تبليغ القرآن وهداية الخلق حتى كاد أن يهلك نفسه حسرات عليهم فلعله المقصود من معنى الحرج في هذه الآية ؛ ويعضده ما جاء في لحاق هذه الآية من قوله تعالى {وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٣) وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ} (الأعراف ٢ ٥). حيث جعل الذكرى تنفع للمؤمنين أو الذين أقام الله في قلوبهم الهداية، ثم تحدثت الآيات عن هلاك من يهلك عن بينة بعد أمر الله للجميع بامتثال أمره وجهاد النبي العظيم في تبليغ هذا الأمر، لذلك عقب الكلام بما يدل على أن مَن هلك قبلهم اعترفوا بظلمهم أنفسهم حين نبذوا دعوة الرسول ﷺ .

وأما حين يحتج أحدهم ويقول أن وصف الشك ورد في كتاب الله مخاطبا رسوله حين قال تعالى في أكثر من آية {فلا تكُ من الممترين}؛ قلنا هو تجاهل للغة القرآن، واستعماله لدلالات الكلمات، فمعنى الامتراء هنا هو المحاجة والجدال للدفاع عن شيٍ فيه مرية إما لنصرة حق أو لنصرة باطل .

قال الراغب الأصفهاني (المتوفى ٥٠٢هـ)

والامتراء والمُمَارَاة المحاجّة فيما فيه مرية. قال تعالى {قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ} (مريم/ ٣٤)، ، {بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ} (الحجر/ ٦٣)، ، {أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى} (النجم/ ١٢)، ، {فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً} (الكهف/ ٢٢). والمِرْيَةُ التّردّد في الأمر، وهو أخصّ من الشّكّ...انتهى.

فالحديث عن المراء حديث عن جدال ونهى الرسول عن المراء والامتراء في بعض المواضع هو نهى عن الجدال وحسم لمادته في أمورٍ شدَّد الله تعال على أنها من الثوابت التي لا تحتاج لجدال؛ فأصل الإيمان بها موجود حتى في قلوب المشركين كما في قوله تعالى { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ} (النمل ١٤)،، ولذلك النهى عن المرية فيها هو نهى عن

التردد الذي يمثله اللين وجلسات الجدال، بل الصدع بالحق بكل قوةٍ، وفيه حثٌّ قرآني وتجديد لهمة الرسول ﷺ على الصدع بالحق بغير لينٍ ولا تردد، يفهمه العلماء الربانيون المُرَبُّون للعباد في كل زمان.

وبذلك يتبين لنا أن الشك بمعنى تساوي طرفين نقيضين في العلم هو ضد الإيمان ولا يجوز تفسير الحرج في الآية به إطلاقا.

أما الشك الوارد في الآية { فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} (يونس ٩٤) فإن الحديث كان في السباق عن بني اسرائيل وكيف أنهم جاءتهم الآيات والعلم ومع ذلك كفروا، ولذلك حث نبيه على تقريرهم بما في كتبهم من العلم الذي كفروا به، وجاء في اللحاق عدم الإكثار من جدالهم لأن الذين حق عليهم من الله من الله الكفر لا يؤمنون ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ، فالآية أيضا فيها رحمةٌ ولطف من الله بنبيه ﷺ الذي حمَّل نفسه ما لا يطيق في الأمل في إيمان اولئك الجاحدين، والخطاب الرباني هنا لنبيه وخليله خطاب تسليةٍ وحوارٌ حول جهود الرسول في إصلاح أولئك الفاسدين ثم هو بعد ذلك خطاب عام للنهى عن الشك أو التردد في حكمة الله تعالى وأحكامه، ونظير ذلك قوله تعالى

{وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣) أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الأنعام ١١١ - ١١٥).

ولعل هذا يفتح باب التأمل في (مستويات الخطاب في القرآن الكريم) وله تفصيله في غير هذا الموضع.

نرجع إلى الآية المباركة ولنتأمل كيف يفتح العلامة ابن عطية أفقه رويداً في تأمل النص الكريم فيقول نُهِي النبي أن يبرم أو يستصحب من هذا الكتاب أو بسبب من أسبابه حرجا، ولفظ النهي هو للحرج، ومعناه للنبي .

وأصل الحرج (أى في اللغة) الضيق، ومنه الحرجة الشجر الملتف الذي قد تضايق، و «الحرج» هاهنا يعم الشك والخوف والهم وكل ما يضيق الصدر، وبحسب سبب الحرج يفسر الحرج هاهنا، وتفسيره بالشك قلقِ، والضمير في مِنْهُ عائد على الكتاب أي بسبب من أسبابه، و «من» هاهنا لابتداء الغاية، وقيل يعود على التبليغ الذي يتضمنه معنى الآية، وقيل على الابتداء. قال وهذا التخصيص كله لا وجه له إذ اللفظ يعم الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأجله، وذلك يستغرق التبليغ والإنذار وتعرض المشركين وتكذيب المكذبين وغير ذلك. انتهى)

وما يفتح شهيتنا لهذا التأمل هو قول ابن عطية «الحرج» هاهنا يعم الشك والخوف والهم وكل ما يضيق الصدر، وبحسب سبب الحرج يفسر الحرج هاهنا، وتفسيره بالشك قلقِ. انتهى

أقول أى أن توجيه تفسير الحرج بالشك لا يريح صدر ابن عطية لمخالفته لمعناه اللغوي بتخصيصه بلا مخصِّص كذلك لما فيه من التعرض لمقام اليقين في قلب رسول الله.

ثم نجد من قراءتنا للقرآن توجيه جميل ومطرد في آيات كُثُرٍ لمعنى الحرج يعتبر بحد ذاته من تفسير القرآن بالقرآن الذي هو أرقى أنواع التفاسير لأنه يخرج عن الظنية والتقول إلى شبه اليقين من جمع آيات الله تعالى بعضها مع بعض وفهمها في سياق بعضها البعض، ثم إعمال للوحدة العضوية والتكاملية في كتاب الله تعالى، ويتفق مع ذلك كله مع البنية اللغوية لمعنى الحرج واستعمالها في كتاب الله تعالى، وهو منهج يبحث في لغة القرآن وأثرها في فهم كتاب الله تعالى. كل ذلك في مقابل نقول عن ابن عباس رضى الله عنه وبعض التابعين لا سبيل إلى رفعها إلى رسول الله لتصير حتى على مستوى الظن العلمي.

أعود فأقول الحرج أصله في اللغةكما مر من الضيق.

وأما عن استعماله في لغة القرآن قال الرغب أصل الحرج والحراج مجتمع الشيئين، وتصور منه ضيق ما بينهما، فقيل للضيق حرج، وللإثم حرج، قال تعالى {ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا} (النساء/٦٥)،

وقال }وما جعل عليكم في الدين من حرج{ (الحج/٧٨)، وقد حرج صدره، قال تعالى }يجعل صدره ضيقا حرجا { (الأنعام/١٢٥)، أي ضيقا بكفره، لأن الكفر لا يكاد تسكن إليه النفس لكونه اعتقادا عن ظن، وقيل ضيق بالإسلام كما قال تعالى }ختم الله على قلوبهم { (البقرة/٧)، وقوله تعالى { فلا يكن في صدرك حرج منه{ (الأعراف/٢)، قيل هو نهي، وقيل هو دعاء، وقيل هو حكم منه، نحو }ألم نشرح لك صدرك{ (الشرح/١)، والمتحرج والمتحوب المتجنب من الحرج والحوب. انتهى)

ثم لننظر سويا في كتاب الله تعالى لندرك المقصود من الحرج أو الضيق في الآية الكريمة

}وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ { (النحل ١٢٧).

}وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ{ (النمل ٦٧ ٧٠).

}فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ { (الحجر ٩٤ ٩٩).

}.. إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا { (الكهف ٥، ٦). و باخع نفسك أى مهلكها أسفا وحرصا على إيمانهم.

}لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ{ (الشعراء ٣، ٤). أخبر عن قدرته على تحصيل مراده من عباده، فهو قادر على أن يؤمنوا كرها لا طوعاً بآياتٍ من السماء ترهبهم فلا يكفرون.

}أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ{ (فاطر ٨).

}مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى { (طه ٢، ٣).

}وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ{ (فاطر ٢٢ ٢٦).

}فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ{ (الغاشية ٢١، ٢٢).

}قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ{ (الأنعام ٣٣ ٣٥).

}وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٢٣) (لقمان ٢٣).

فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{ (يس ٧٦)..

كل هذه الآيات ونظيرها تبين لنا تفصيلاً معنى الحرج الذي في آية الأعراف، مما يجعل تخصيصها بالشك الذي لا يليق في خطاب النبي طريق تعسفٍ وقصور في فهم كتاب الله تعالى .

فرسول الله هو اليقين ذاته وحين يغلي هذا اليقين في نفسه الشريفة ينتشر في الأرض وجداناً وحركةً وفعلاً لا يهدأ ليدخل الناس جميعاً لو استطاع في دين الله الله تعالى ورحمته لذلك يصف ربه تلك الغيرة والتضحية والعظمة في همته في دين الله تعالى بقوله }وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧) ثم يرشده إلى الرفق بنفسه الشريفة في هذه الدعوة ويقول له قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ{ (الأنبياء ١٠٧ - ١١٢).

فالخطاب الرباني لمحمد في هذه الآيات ونظيرها خطاب شفقةٍ ورفقٍ ودعوة إلى التريث والرفق بالنفس في هذه المهمة الشاقة لأن الإيمان والكفر بيد الله تعالى ابتداءً ولا سبيل لتغيير قدره وقضاءه في الناس إلا له سبحانه، وكأنه سبحانه وله المثل الأعلى يقول لخليله (ارفق بنفسك، لا تهلكها في الغيرة والسعى على نشر الدعوة، لأن إيمان من يؤمن وكفر من يكفر بيدي، فلا تكثر من جدال الكافرين الذين يعلمون في قرارة نفوسهم أنه الحق من ربك ولكنهم في شكهم يترددون، دعهم وما يفترون، ولا تحزن من تكذيبهم فهم لا يدعونك كاذباً ولكنهم يكذبون الحق الذي جئت به، لا تحزن من مكرهم لك فإن ربك معك، ولا يحزنك كفرهم؛ فقط بيِّن لهم دعوة الحق ولا تماريهم كثيراً ، واثبت بكل يقينك وتوكلك على الله امام مكرهم وكيهم فلن يصلوا إليك، فكم أهلكنا من هو أشد منهم ، وفي النهاية كل موكول إلى اختياره..).

كان ذلك خلاصة خطاب قرآني تكرر لرسول الله تعالى في كتابه ملئٌ بالشفقة على رسول الله ورحمته، وتسليته، وحفزه إلى التبليغ غير المبالغ فيه عن ربه، والرفق بنفسه وبغيرته على دين الله سبحانه، والوقوف على أرضٍ راسخةٍ من القوة في دين الله وليس الهم والشعور المستمر الذي يلازم العظماء بالتقصير ،والألم بتكذيب قومه وكيدهم ومكرهم له.. ذلك كله هو الحرج الذي نهاه ربه عنه في الآية الكريمة وكله متعلق بجانب النذارة والتحذير من الشرك بالله الذي جاء به ليقف منفردا ليس معه إلا ربه يجابه تحجر عادات وصخرية عقولٍ وقلوبٍ صنعتها مئات ؛ بل آلاف السنين.

فهل نفهم القرآن من لغته وسياقة آياته وسياقه العام وفقه الدعوة وفقه مراتب الخطاب الرباني وغاياته أم نقف مكتوفي الأيدي عند حل معاني الألفاظ ولو إلى ما لا ترتضيه اللغة العربية في أبسط تحليلاتها(؟).

المصادر.

(١) تفسير الطبري   جامع البيان ت شاكر (١٢/ ٢٩٥)

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص ٧٦٦)

(٣) تفسير ابن عطية   المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢/ ٣٧٢) دار الكتب العلمية بيروت.

وابن عطية هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى ٥٤٢هـ) من علماء اللغة والتفسير المفردين.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني - نسخة محققة (١/ ٢٢٣) ط دار القلم دمشق.

استراتيجية (تحييد النص) عند شياطين الفكر

إن الاستراتيجية الأكثر مكراً والأهم في الحرب على الإسلام واجتثاث جذوره الفكرية تتمثل في (الحرب من الداخل) والتي يتولى كبرها جماعةٌ من المنتسبين لهذا الدين زوراً من أذناب الفكر الغربي.

أولئك (المذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) [1] كما وصفهم القرآن العظيم ينتهجون ببساطة منهجية (تمييع الدين) وخلق (دين بديل). تلك المنهجية التي ينتهجها المضلّلون (بكسر اللام الأولى وفتحها) من العلمانيين والعصرانيين وأمثالهم وأفراخهم تقوم فيما تقوم على أسسٍ، لعل أولاها (تحييد النصوص المقدسة في الإسلام) أو بمعنى آخر (التشكيك في النصوص ونزع فاعليتها في الواقع الفكري وفي الحياة). وهو بعينه الحديث عن مفهومهم لل(ثابت) و(المتحول أو المتغير) في التعامل مع نصوص الدين الإسلامي. أو بعبارةٍ أخرى الحديث عن حدود (المحكم) و(المتشابه) في مستويات الفهم المتباينة للنصوص المقدسة في الإسلام (أعني القرآن والسنة).

وبصورةٍ أوضح فإن منهجيتهم تتكأ بصورة رئيسةٍ على

١- التشكيك في حدود المحكم (الثابت في معناه الذي لا مطمع للتأويل فيه)

---

(١) من قوله تعالى {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (١٤٣)} [النساء: ١٤٢، ١٤٣]

قال الطبري :

وإنما عنى الله بذلك أن المنافقين متحيّرون في دينهم، لا يرجعون إلى اعتقاد شيء على صحة، فهم لا مع المؤمنين على بصيرة، ولا مع المشركين على جهالة، ولكنهم حيارَى بين ذلك، فمثَّلهم المثلُ الذي ضُرب لهم عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: مَثَلُ المنافق كمثل الشَّاة العائرة بين الغنمين، تَعِير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، لا تدري أيَّهما تَتْبع!

قال الزمخشري في الكشاف: ومعنى (مُذَبْذَبِينَ) ذبذبهم الشيطان والهوى بين الإيمان والكفر، فهم متردّدون بينهما متحيرون. وحقيقة المذبذب الذي يُذَبُّ عن كلا الجانبين أى يُرَدُّ ويُدْفَع فلا يستقرّ في جانبٍ واحد، وقرأ ابن عباس (مُذَبْذِبِينَ) بكسر الذال على أنها اسم الفاعل، بمعنى يذبذبون قلوبهم أو دينهم أو رأيهم. انتهى بتلخيص.

قلتُ: وهو وصفٌ كاشفٌ لحال أولئك المنافقين الذي تعروا عن قيمهم وحضارتهم وأخلاقهم وعقيدتهم ولم يستطيعوا أن يصبحوا في الجانب الآخر مع الحضارات الأخرى والثقافات الأخرى بكلياتهم، فلا هم عُرْبٌ ولا هم صاروا بكلهم من الغرب.

٢- توسيع دائرة المتشابه (المشتبه في معانيه والذي يتم إعمال آليات معينة لترجيح المراد منه) في الدين الإسلامي.

٣- رد المتشابه إلى حالة الاشتباه التي فقط تشكك في مرادات النصوص بلا حلول ولا منهج ثابت في ضبط طريقة التلقي وليس رد المتشابه إلى المحكم من دين الله تعالى كما يفعل أهل العلم.

٤- ومثل هذا التذويب لمعاني الدين يجعل أكثر الإسلام (مشكلاً، وقابلاً للتعدد بالنسبة للأفهام، وحمالاً لأوجهٍ حتى درجة التناقض).

٥- ثم يجعلون من ذلك الاشتباه وسيلةً لإعمال (التأويل المذموم)، وهو إعمال آليات (غير متفَق عليها لتوجيه معاني النصوص حسب الأهواء)، وتوسيع دوائر هذا التأويل حتى تتسع للمتناقضات أحياناً.

٦- ومن ثَمَّ يفقد النص فاعليته ووجوده الواقعي في ركامٍ من التأويلات التي يحتملها النص - بزعمهم.

٧- وحين لا يكون تأويلٌ هو أكثر إلزاماً من تأويلٍ آخرٍ ، فإن درجة الحجية بين التأويلات تتساوى، وهنا ربما يكون مقصود النص الرباني - عندهم شيئاً وضده في ذات الوقت تعالى الله عما يقولون فيكون العمل بالشئ وضده في كلتا الحالين دينٌ لا يسع أحد أن ينكره.

٨- بل يتذرع أولئك المحتالون بأن الدين واسع ورحيم، وأن اختلاف الفقهاء رحمة ، والواقع أنها عبارة تعبر عن نصف الحقيقة، وما أخفوه وراءها هو الباطل بعينه. فالحق لا يتعدد في نفسه، ولهذا تفصيلٌ كبير في كتابنا هذا بإذن الله.

٩- وبمثل تلك الطريقة يتوه دين الله تعالى في تأويل المتأولين تحت دعاوى أن (الدين للجميع)، وأن الفهم في دين الله - بأى طريقةٍ ولو كانت من باب الضلال حقٌ للجميع، فالجميع حينها محقون في فهومهم أياً تكون لنصوص الدين. والحق ليس عند أحدٍ بعينه.

١٠- وهنا يبرز بصورةٍ جيدة معنى عنوان هذا الكتاب (اصنع دينك)، فكل الذي عليك هو أن تأتي إلى نصوص الدين في القرآن والسنة وتفهمها بالطريقة التي تريد لتصنع معتقداتك

بنفسك ولا يلومك أحد، والكل دين {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} [الجاثية ٢٣] قال الطبري في تفسيرها معنى ذلك أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئا إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرِّم ما حَرَّمَ، ولا يحلل ما حَلَلَ، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به. ا.هـ.

١١- وهذه هي بعينها الطريقة الخبيثة التي يؤصلها من يتحدثون عن (إنسانية الدين) أو (أنسنة الدين) أيا كان الاصطلاح المتعالم عليه هنا بمعنى أن الدين بنصوصه من الكتاب والسنة ثابت (ستاتيكي كما يصطلحون static)، ولكن فهومنا هي المتحركة (الديناميكية dynamic)، فإن الذي يصنع التطبيق الفعلي لنصوص الدين على أرض الواقع هو فهمنا لتلك النصوص. وإلى هنا الكلام حق؛ ولكن يُراد به باطل. لماذا؟

لأن الحديث هنا ليس عن فهمٍ صحيح منضبط للنصوص هو الحق أو أقرب مع الاجتهاد المخلص؛ في مقابل فهومٍ يكتنفها الخطأ أو الخبث لنصوص الدين.

فإن من المسلمات البدهية أن الحق في حين كونه حقا لا يتعدد في ماهيته، وإلا بطل الحديث عن الدين أصلاً الذي هو في أصل معناه اعتقاد للحق وعمل به.

ولنقف على مثالٍ واحدٍ - الآن لهذا الفكر الخبيث، فنقرأ سويا لأدونيس (علي أحمد سعيد) [١] قوله في إحدى محاضراته لا يوجد ما يسمى تجديد للدين. فكل تجديد للدين هو دينٌ جديدٌ، لكنْ يمكن أن

---

(١) علي أحمد سعيد إسبر المعروف باسمه المستعار أدونيس (١ يناير ١٩٣٠) شاعر سوري - لبناني، ولد في قرية قصابين التابعة لمدينة جبلة في سوريا. تبنّى اسم أدونيس (تيمناً بأسطورة أدونيس الفينيقية) الذي خرج به على تقاليد التسمية العربية منذ العام ١٩٤٨. لم يعرف أدونيس مدرسة نظامية قبل سن الثالثة عشرة، حفظ القرآن على يد أبيه، كما حفظ عددًا كبيرًا من قصائد الشعراء القدامى. وفي ربيع ١٩٤٤ ألقى قصيدة وطنية من شعره أمام شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية حينذاك، والذي كان في زيارة للمنطقة. نالت قصيدته الإعجاب، فأرسلته الدولة إلى المدرسة العلمانية الفرنسية في طرطوس، فقطع مراحل الدراسة قفزاً، وتخرج من جامعة دمشق متخصصاً في الفلسفة سنة ١٩٥٤. درّس في الجامعة اللبنانية، ونال درجة الدكتوراه في الأدب عام ١٩٧٣ من جامعة القديس يوسف، وأثارت أطروحته الثابت والمتحول سجالاً طويلاً. بدءاً من عام ١٩٥٥, تكررت دعوته كأستاذ زائر إلى جامعات ومراكز للبحث في فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة وألمانيا. تلقى عدداً من الجوائز العالمية وألقاب التكريم وتُرجمت أعماله إلى ثلاث عشرة لغة.

نغير تأ ويلنا للدين. فكل تأ ويل هو تقويل للنص. نأوِّل النص أي نفرض عليه أن يقول شيئا مختلفا. فالتأ ويل تقويل.

وأضاف أي نص مهما كان عظيما إذا مرَّ في عقلٍ صغير فإن هذا النص يصغر، وإذا مر في عقل كبير فهذا النص على العكس يكبر.

وتابع قائلا ليس هناك إسلام حقيقي وإسلام غير حقيقي إنما قد يكون هناك مسلمون معتدلون، ومسلمون متطرفون تبعا لقراءاتهم وتأ ويلاتهم . لكن الإسلام واحد. .

ونلحظ هنا أن الرجل كان صريحا في فضح استراتيجية القوم في (تمييع الدين)، ونظرية (اصنع دينك كما تشاء، وفصِّل شريعيتك على مقاسك)، وفي النقطة الأخيرة يشير إلى ماذكرته آنفا من طريقتهم في تحييد فاعلية النص الكريم، وتحجيمه في إطار نصوصي جامد يقولبه (أى يضعه في قالب الفعل والوجود على أرض الواقع) فقط ال التأويل الذي يضع الصورة النهائية لما يجب اتباعه.

لكن أدونيس لم يكتف بالنقد وتشريح الواقع الثقافي والمعرفي للمنطقة العربية بل عرض أيضا نواة مشروعه الخاص (أو لعله ليس الخاص، فالرجل من أيقونات الحداثيين والعَلَمَانيين في المنطقةكلها) للحداثة العربية. ونخَّص رؤيته في أربع نقاط.

قال أول قطيعة يجب أن تقوم في الثقافة العربية الراهنة هي القطيعة مع القراءة السائدة للدين وقراءة جديدة للدين، تفصل كاملا بين الدين والدولة ،لأن الإسلام رسالة وليس دولة .

وأضاف ليس هناك أي نصٍ ينص على أن الإسلام دولة أو على أن الدين دولة. والرسول تحدث في جميع الأشياء حتى في الأشياء الخصوصية للإنسان الفرد لكنه لم يتحدث مرة احدة عن الدولة الإسلامية التي يجب أن تُقام.

فلو لاحظت معي خطورة هذا الرجل الذي نشأ وقد حفظ القرآن وتعلم اللغة ثم تمرد على اسمه العربي ليعتنق الشعر ابتداءً ثم يُرسل بعد ذلك من أجل سبكه وصناعته على أعين الغرب الملحد ليدرس في مدرسة علمانية كبيرة، ثم تتبناه الدول الاستخرابية لتعلمه الفلسفة من أجل أن تصنع رمحا موجها في ظهر الحضارة والثقافة الإسلامية، فيكون الرجل الذي يضرب الفكر الإسلامي وبكل قوة من داخله. وهكذا تم صناعة مجموعة كبيرة من مفكري العرب ليكونوا شوكةً في حلق الإسلام. فتأمل.

وعن النقطة الثانية قال يجب أن تنشأ جبهة مدنية علمانية [١] على المستوى العربي تكون شكلا جديدا من انتقاد الموروث، وإعادة النظر فيه والتأسيس لقيمٍ جديدة وعلاقاتٍ إنسانيةٍ جديدة والمجتمع الجديد.

وتابع النقطة الثالثة هي تحرير الثقافة العربية من الوظيفية. كل شيء من أجل الثقافة، لكن الثقافة هي من أجل الحرية ، يعني مزيد من الحرية، ومزيد من المعرفة، ومزيد من انفتاح الآفاق.

وختم بقوله النقطة الرابعة أنْ لا مفر لنا من الديمقراطية لأنه بدون الديمقراطية لا حرية ولا حقوق ولا مساواة. [٢]

انتهى كلام واحد من أشهر المفكرين والأدباء الذين نذروا أنفسهم لخدمة العلمانية في الشرق الأوسط، والرجل في أواخر عمره يقف صريحا تجاه مشروع يجمع معظم القوم في أصوله.

وهذا المشروع الآثم يقوم على

(١) التلاعب بمفهوم الثبات والمرونة في التعامل مع نصوص الشرع.

---

(١) العلمانية (بفتح العين واللام والميم) وبالإنجليزية secularism نشأت في الغرب كرد فعل تجاه تسلط الكنيسة على مفاتيح الحياة ، وتحكمها في عقول الناس وحيواتهم، فرفضت تدخل الدين في الحياة، وصار كما يقولون (ما لقيصر لقيصر وما لله لله) بمعنى أن يكون الدين فقط علاقة روحية داخل دور العبادة ولا علاقة له بالأخلاق أو منهج حياة الناس أو سياساتهم أو دولتهم.

والمعنى الحرفي للكلمة جاءت من كلمة (عالم) بفتح اللام وليس من كلمة(علم) بكسر العين كما يُتوهم.

فالمعنى هو ترجيح الحكم لما يخص العالم والدنيا وليس الروح والدين. وهو قريب المعنى من المادية ويتداخلان في المفهوم كثيرا.

وبهذا المفهوم في نشأة العلمانية فإن الإسلام يضادها كل الضدية. فهو دينٌ حاكمٌ عزيز يأبى إلا أن ينظم حياة الناس في تفاصيلها بهدى الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه وينفعه، وإذا تم إنكار هذا المعنى فإنكار الإسلام من أساسه لأنه اتهام للرب العظيم بالجهل بخلقه وعدم نفعهم وإصلاحهم- حاشا لله- وكذلك فالإسلام لم يكن عدوا للعلم أو لمصلحة الناس وخيرهم ، وبذلك فأسباب نشأة العلمانية غير مبررة في الإسلام.

(٢) من ندوة بعنوان " أدونيس يدعو إلى "قطيعة" مع الموروث المتراكم وإحياء البحث والتفكير Thu Feb 5, 2015 من موقع " رويتر عربي " على الشبكة الدولية للمعلومات وعنوانها على شبكة الانترنت https://www.aljarida.com/articles/1462456897168707200/

(٢) جعل النص عنصر جامد وكلمات ميتة يحييها التأويل الذي يضع الشكل النهائي لتطبيق الدين على أرض الواقع.

(٣) ومن ثَمّ فهم الدين بطريقة مختلفة عن فهم الذين نزل فيهم القرآن أنفسهم، بل تخطأتهم ووضع معاني جديدة لدين الله، هى في الحقيقة تصنع (دينا جديدا)؛ كما صرح الرجل نفسه.

(٤) وإذا سهُل تمييع القرآن وفصله عن الحياة بهذه الطرق الخبيثة، ففصل السنة والطعن بها أيسر، ومن ثَمَّ الهجوم الكامل والشامل على تراث الإسلام العلمي بأكمله حتى إذا دُمِّر التراث صار المسلمون بغير تراث ولا جذور، فلا يجد إلا حضن الغرب وثقافته وحضارته ملاذا.

(٥) وهى النقطة الخامسة أن يحل محل المشروع الإسلامي والعلم الإسلامي والقيم الإسلامية قيم الديموقراطية والحرية (كما يراها الغرب وأولها طبعا التحرر من الدين) والعلمانية والمدنية، وهى قيمٌ مستوردة تماما من الغرب بمفهومها الذي يقصده.

(٦) كل ذلك في إطار تعالمي [١] فكري تحرري براق يتلألأ للقلوب الغافلة والعقول التابعة والأفئدة الخاوية والأهواء الحاكمة الفاسدة فتصنع منه الغاية والنموذج.

ولكن الله تعالى لأولئك المارقين بالمرصاد، وهو حسبنا ونعم الوكيل. {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (62)} (الحج 62) فالحق واحد، والنور واحد ، والباطل يتعدد، والظلمات كثيرة. {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (38) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

---

(١) التعالم هو ادعاء العلم.

الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُم مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)} (يونس 35 41).

هكذا كل جاحد يتبعون ما يظنونه صحيحا غير متيقنين ولا باحثين عن الحق، بل هم في حين يدَّعون العقلانية والسفسطة الفارغة أول الناس انقيادا لرؤوسهم الضلَّال ينتصرون لآراءٍ سقيمة لمجرد أنها تمنحهم رونقاً كاذباً من التعالم والتثاقف الممزوج بزئبقيةٍ في الفهم، وميوعةٍ في التفسير، وتسلطٍ بغيضٍ في التأويل.

وما ادعاء البحث عن الحريات والدفاع عن العقل والمنطق والبرهان إلا شعار كاذب يزينون به تفاهاتهم الفكرية. ومَن يشكك في كلامي هذا فلينظر كيف أنهم الآن - يحاولون تأييد أفكارهم بالصوت المرتفع، والتهكم على العلماء الأجلاء وحروبهم الكلامية معهم بغير الحديث المتصل ابتداءاً عن برهان صحيح، وإنما هو تلاعب بالألفاظ الموهِمة، والاتهامات المرسَلة بغير أدلةٍ، ورشق الخصم بكل رذيلةٍ، وعدم السماح بمناقشة أدلة وبراهين الخصوم.

وما ذلك إلا لأن القوم لا يملكون من الحجج والبراهين إلا كقصور الرمال على شاطئ بحرٍ شديد المد.

وإذا أردت أن تدرك ما يفعل أولئك المتمسحين بالتسامح والعقلانية والدفاع عن رحمة الله بالبشر فإقرأ ما فعله أسلافهم (المعتزلة) حين تمكنوا من الوصول إلى بلاط الخلافة في عهد الدولة العباسية (تحديداً في عهد المأمون والمعتصم)، وأرادوا فرض أفكارهم (التنويرية التحررية) بكل قوةٍ وبطشٍ تخيله إنسان حتى إنهم كانوا يعذبون مخالفيهم ويهددونهم في النفس والمال والولد، ولقد قتل في هذه الفتنة (التنويرية) آلاف من علماء المسلمين الأفذاذ، وعُذِّب فيها وسُجن إمام المسلمين أحمد بن حنبل.

وما ذلك إلا من أجل فرض سفسطة فلسفية فارغة عن كلام الله تعالى هل مخلوق أم غير مخلوق ( ). هذه الهرطقة لا تمس من قريب أو بعيد ما يطلبه المسلم العادي من فهم لدين الله تعالى والعمل به. ولو عرضت تلك السفسطة التي قُتل وعُذب فيها الكثيرون على أستاذ جامعي اليوم ما فهم من أبعادها الكثير.

ذلك هو التنوير، والتحرر الفكري، ورفض التراث – كما يردد أولئك الفاسدون على حقيقته المقذذة التي يأباها ذوق وفطرة وعقل كل مسلم جميل بسيط في تلقيه عن الله ورسوله.

{يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33)} (التوبة 32، 33).

يقول ربنا تبارك وتعالى في سورة آل عمران وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا. الآية 103 . [١]

فمن لم يعتصم بالقرآن فهو في هلاك وشقاء ، وكيف نعتصم بالقرآن ونحن في منأى عن فهمه وتدبره وإيجاد مكانٍ له في حياتنا مراقبا لمنهجها وحركاتها وسكناتها يهديها سواء السبيل..؟؟

ثم الصورة الثانية لانتكاستنا ألا وهى الفهم المغلوط ، أو المغالِط للقرآن وتوجيهه حيث الجهل أو الأهواء والبدع.

ففي الأولى (أى الفهم المغلوط) يكون الجهل بكتاب الله وعلومه وضوابط فهمه هو الآفة التى تجعل من القرآن حجةً لفهمٍ باطل يودي بصاحبه موارد الهلكة والخذلان ؛ كما حدث مع الخوارج وأذنابهم في فهم كتاب الله مقتطعا بعضه عن بعض ، فكانت الكارثة وتكفير المسلمين ثم استحلال دمائهم وأموالهم .. وفي الثانية (أى الفهم المغالِط) يكون الهوى مسيطرا على صاحبه يجره كما يشاء حتى إنهم ليفسرون

---

١ جاء في تفسير ابن كثير بتصرف يسير 2/89. {بِحَبْلِ اللَّهِ} قِيلَ أَيْ: بِعَهْدِ اللَّهِ.. وقيل يَعْنِي: الْقُرْآنَ، كَمَا فِي حَدِيثِ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ، عَنْ عليٍّ مَرْفُوعًا – والأصح فيه الوقف – فِي صِفَةِ الْقُرْآنِ: "هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمتِينُ، وَصِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ".وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ خَاصٌّ بِهَذَا الْمَعْنَى، فَقَالَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ: بسنده، عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كِتَابُ اللهِ، هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأرْضِ" .. وَرَوَى ابْنُ مَرْدُويَه بسنده، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمتِينُ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ وهُوَ الشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، ونَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ" . وُروي مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ نَحْوُ ذَلِكَ. وَقَالَ وَكِيعٌ: حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود رضى الله عنه : إِنَّ هَذَا الصِّرَاطَ مُحْتَضَرٌ تَحْضُرُهُ الشَّيَاطِينُ، يَا عَبْدَ اللَّهِ، بِهَذَا الطَّرِيقِ هَلُمَّ إِلَى الطَّرِيقِ، فَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ فَإِنَّ حَبْلَ اللَّهِ الْقُرْآنُ]

كلام الله سبحانه وتعالى لصالح أهواءهم ويضلهم الله على علمٍ ، ثم يحملون هم لواء الإضلال لغيرهم بفهمهم المضلِّلِ المهلِك لكتاب الله سبحانه وتعالى، كما تفعل الروافض والصوفية الباطنية وغيرهم ..

ثم إن المحكم والمتشابه في القرآن الكريم هو موضع زلِق من مواضع البحث والتدبر .وهو مدخل لمعرفة الثابت من المتغير في دين الله تعالى، وباحكام هذا المبحث يتم إغلاق قضية انفتاح النصوص وتمييعها من الجذور. وفي هذا الموضع يقف عليه مَن يقف مِن أهل العلم متحيرا قلقاً أن يأتى فيه بغير الحق أو أن يضل فيبني كثيرا من الأصول الفاسدة على أساس من سوء فهمه لهذه القضية .

فالجميع سواءً أهل الحق أو أهل الباطل يدَّعون لذلك فهما خاصا ، وتصنيفا معينا للمحكم والمتشابه ينبني عليه بعد ذلك فهمهم للقرآن وتأ ويلهم لمعانيه فينجى مَن ينجى ويهلك مَن يهلك..

ولعل الآية الكريمة التي طالعتنا في أوائل سورة آل عمران تكشف باباً كبيراً من أبواب الهدايات الربانية، و كذلك تكشف جانبا كبيرا من أساليب تلبيس المبطلين حول معاني القرآن العظيم وطرائق الاستدلال الخاطئ أو المتعمد بها.

يقول ربنا تبارك وتعالى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (آل عمران7)}

فعلمنا من هذه الآية أن هناك في كتاب آيات محكمات، وهى أم الكتاب أى معظمه وأكثره، وهناك آيات متشابهات وهى على النقيض من المحكمات أو على خلافها في المدلول. وأن الذين يحملون في قلوبهم الزيغ والهوى يتبعون المتشابه لغرضين خبيثين هما ابتغاء الفتنة لأنفسهم وللناس بغير حق، وابتغاء تأ ويله على غير وجه الحق، أو تأ ويل ما لا سبيل إلى تأ ويله. وأن الراسخون الثابتون في معرفة الحق والعمل به فيردون المتشابه إلى المحكم، ويؤمنون بأن الجميع من عند الله تعالى، فيسلمون لربهم، ويدعون ربهم التوفيق للحق والثبات عليه واجتناب الزيغ والفتنة وأن يقوموا لله تعالى على قدم العبودية واليقين.

من هذه المعاني ننطلق في بحثٍ جامعٍ نقف فيه على منهجية أهل السنة والجماعة في تفسير مفهوم ومدلول المحكم والمتشابه في كتاب الله تعالى، مع دراسةٍ مبدئية لأصناف المتشابه بحسب ما نتوصل إليه من تحديد معالم التشابه وخطوطه العامة في هذا البحث وربطه بصناعة الدين البديل.

وتنبع خطورة هذا البحث أن التشابه في كتاب الله تعالى وسوء توجيهه قد صار بنيةً تحتية ينشأ على أساساتها كل بنيانٍ للتأويل المنحرف الذي يخدم أهواء الفرق المذهبية الضالة في القديم (من الخوارج والمعتزلة والمرجئة والشيعة وغيرهم)،وكذلك المذاهب الحديثة المعادية للدين (من العلمانية، والحداثة وغيرها) .

والتأويل في أبسط تعريفاته عند متأخري العلماء هو صرف اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى مجازي يحتمله .. فإن كان هناك قرينة صحيحة لذلك فهو تأويل صحيح وإلا فهو مجرد تحكم باطل . وإن كان اللفظ لا يحتمل هذا المعنى في أصل وضعه اللغوي فهو عبثٌ باطل لا يسمى علماً من الأساس.

(وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلَالَةٍ تُوجِبُ ذَلِكَ وَهَذَا هُوَ التأويل الذي تنازع النَّاسُ فِيهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ وَالطَّلَبِيَّةِ فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ مِنْهُ الَّذِي يُوَافِقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ). انتهى [١]

هذين المشار إليهما من التأويل الباطل، والعبث في توجيه متشابه آيات الله تعالى كانا ولا يزالا هما مبدأ الفتنة الأول والمعول الذي يهدم به ذوو الأهواء صحيح الدين لصالح فهومهم القاصرة وأهوائهم المُضِلَّة.

وعلى ذلك يتفق كل باحثٍ في أصول الفرق والمذاهب.

ومن هنا كان البدء في تحديد المفاهيم الصحيحة للإحكام والتشابه في كتاب الله تعالى، والتأويل المستساغ، ونقيضه المذموم، والاختلاف المأجور، وعكسه الاختلاف المنبوذ هو الخطوة الأهم نحو

---

[١] ابن أبي العز الحنفي –شرح الطحاوية – ط دار السلام (ص: 21)

تشكيل وعيٍ صحيحٍ تجاه إشكالياتٍ كبيرةٍ في فهم وتوجيه معاني كتاب الله تعالى، وطرق الاستدلال بآيات الله تعالى في أبواب العلم والعمل المختلفة.

وإني لأذكر للإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في (الاعتصام) قوله وَمِثَالُ مَا يَقَعُ فِي الْعَقْلِ من البدع، أَنَّ الشَّرِيعَةَ بَيَّنَتْ أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ فِي دِينِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء 15)، وَقَالَ تَعَالَى {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} (النساء 59)، وَقَالَ {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} (الأنعام 57)، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ.

فَخَرَجَتْ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ فِرْقَةٌ زَعَمَتْ أَنَّ الْعَقْلَ لَهُ مَجَالٌ فِي التَّشْرِيعِ، وَأَنَّهُ مُحَسِّنٌ وَمُقَبِّحٌ، فَابْتَدَعُوا فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَيْسَ فِيهِ. وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْخَمْرَ لَمَّا حُرِّمَتْ، وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ - فِي شَأْنِ مَنْ مَاتَ قَبْلَ التَّحْرِيمِ وَهُوَ يَشْرَبُهَا - قَوْلُهُ تَعَالَى {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا} (المائدة 93). الْآيَةَ. تَأَوَّلَهَا قَوْمٌ - فِيمَا ذُكِرَ - عَلَى أَنَّ الْخَمْرَ حَلَالٌ، وَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ قَوْلِهِ فِيمَا طَعِمُوا.

فَذَكَرَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، قَالَ شَرِبَ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ الْخَمْرَ وَعَلَيْهِمْ يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، فَقَالُوا هِيَ لَنَا حَلَالٌ. وَتَأَوَّلُوا هَذِهِ الْآيَةَ {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا} (المائدة 93) الْآيَةَ. قَالَ فَكَتَبَ فِيهِمْ إِلَى عُمَرَ.

قَالَ فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَيْهِ أَنِ ابْعَثْ بِهِمْ إِلَيَّ قَبْلَ أَنْ يُفْسِدُوا مَنْ قِبَلَكَ (أي قبل أن يفسدوا عندك)، فَلَمَّا قَدِمُوا إِلَى عُمَرَ اسْتَشَارَ فِيهِمُ النَّاسَ، فَقَالُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَرَى أَنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَشَرَعُوا فِي دِينِهِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، وَعَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَاكِتٌ، قَالَ فَمَا تَقُولُ يَا أَبَا الْحَسَنِ؟ فَقَالَ أَرَى أَنْ تَسْتَتِيبَهُمْ فَإِنْ تَابُوا جَلَدْتَهُمْ ثَمَانِينَ لِشُرْبِهِمُ الْخَمْرَ، وَإِنْ لَمْ يَتُوبُوا ضَرَبْتَ أَعْنَاقَهُمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَشَرَعُوا فِي دِينِ اللَّهِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ.

فَهَؤُلَاءِ اسْتَحَلُّوا بِالتَّأْوِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ بِنَصِّ الْكِتَابِ، وَشَهِدَ فِيهِمْ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَغَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ، بِأَنَّهُمْ شَرَعُوا فِي دِينِ اللَّهِ، وَهَذِهِ هِيَ الْبِدْعَةُ بِعَيْنِهَا، فَهَذَا وَجْهٌ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ بَعْضَ الْفَلَاسِفَةِ الْإِسْلَامِيِّينَ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ هَذَا، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَشْرَبُهَا لِلنَّفْعِ لَا لِلَّهْوِ، وَعَاهَدَ اللَّهَ عَلَى ذَلِكَ، فَكَأَنَّهَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَدْوِيَةِ أَوْ غِذَاءٌ صَالِحٌ يَصْلُحُ لِحِفْظِ الصِّحَّةِ. وَيُحْكَى هَذَا الْعَهْدُ عَنِ ابْنِ سِينَا.

وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ كَلَامِ النَّاسِ مِمَّنْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَسْتَعِينُ فِي سَهَرِهِ لِلْعِلْمِ وَالتَّصْنِيفِ وَالنَّظَرِ بِالْخَمْرِ، فَإِذَا رَأَى مِنْ نَفْسِهِ كَسَلًا أَوْ فَتْرَةً شَرِبَ مِنْهَا قَدْرَ مَا يُنَشِّطُهُ وَيَنْفِي عَنْهُ الْكَسَلَ، بَلْ ذَكَرُوا فِيهَا أَنَّ لَهَا حَرَارَةً خَاصَّةً تَفْعَلُ أَفْعَالًا كَثِيرَةً تُطَيِّبُ النَّفْسَ، وَتُصَيِّرُ الْإِنْسَانَ مُحِبًّا لِلْحِكْمَةِ، وَتَجْعَلُهُ حَسَنَ الْحَرَكَةِ، وَالذِّهْنِ، وَالْمَعْرِفَةِ، فَإِذَا اسْتَعْمَلَهَا عَلَى الِاعْتِدَالِ عَرَفَ الْأَشْيَاءَ، وَفَهِمَهَا، وَذَكَّرَهَا بَعْدَ النِّسْيَانِ.

فَلِهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَانَ ابْنُ سِينَا لَا يَتْرُكُ اسْتِعْمَالَهَا - عَلَى مَا ذُكِرَ عَنْهُ - وَهُوَ كُلُّهُ ضَلَالٌ مُبِينٌ، عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَلَا يُقَالُ إِنَّ هَذَا دَاخِلٌ تَحْتَ مَسْأَلَةِ التَّدَاوِي بِهَا. وَفِيهَا (أي في التداوي بالخمر) خِلَافٌ شَهِيرٌ، لِأَنَّا نَقُولُ إِنَّمَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ سِينَا أَنَّهُ كَانَ يَسْتَعْمِلُهَا اسْتِعْمَالَ الْأُمُورِ الْمُنَشِّطَةِ مِنَ الْكَسَلِ وَالْحِفْظِ لِلصِّحَّةِ، وَالْقُوَّةِ عَلَى الْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْأَعْمَالِ، أَوْ مَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ، لَا فِي الْأَمْرَاضِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْأَجْسَامِ. وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي اسْتِعْمَالِهَا فِي الْأَمْرَاضِ لَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ مُتَقَوِّلُونَ عَلَى شَرِيعَةِ اللَّهِ مُبْتَدِعُونَ فِيهَا، وَقَدْ تَقَدَّمَ رَأْيُ أَهْلِ الْإِبَاحَةِ فِي الْخَمْرِ وَغَيْرِهَا، وَلَا تَوْفِيقَ إِلَّا بِاللَّهِ. انتهى[1]

فتأمل رحمك الله وعافاك كيف أن هوى أولئك وشهواتهم زينت لهم استحلال ما عُلِم من الدين بالضرورة حرمته، فاستباحوا الحرام بالتأويل الفاسد والعقل الذي صنع لهم ديناً يخالف دين الحق يتبعون فيه المتشابه { ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله}. وهو ما أشرنا له بأنه (صناعةٌ لدينٍ بديل)؛ دين الهوى وتشهي النفوس.

(وَهَذَا الَّذِي أَفْسَدَ الدُّنْيَا وَالدِّينَ. وَهَكَذَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي نُصُوصِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَحَذَّرَنَا اللَّهُ أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَهُمْ. وَأَبَى الْمُبْطِلُونَ إِلَّا سُلُوكَ سَبِيلِهِمْ، وَكَمْ جَنَى التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنْ

---

[1] الاعتصام للشاطبي ت الهلالي (2/ 526-528).

جِنَايَةٍ. فَهَلْ قُتِلَ عُثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ وَكَذَا مَا جَرَى فِي يَوْمِ الْجَمَلِ، وَصِفِّينَ، وَمَقْتَلِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْحَرَّةِ؟ وَهَلْ خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ، وَاعْتَزَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، وَرَفَضَتِ الرَّوَافِضُ، وَافْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ؟). [١]

أقول وهل استحل المتطرفون اليوم دماء إخوانهم المسلمين إلا بذلك التأويل المذموم الذي يردون به محكم آيات الله تعالى وسنة الرسول بالمتشابه الذي تلقت به أذهانهم المريضة، فيردون المحكم إلى المتشابه فيضلون به ضلالاً مبيرا. وعلى نقيضهم استحل المُرجِئة حرمات الله تعالى بدعوى أن الدين يسر وأن الإيمان مجرد تصديقٌ في القلب وعلاقة القلب بين الرب وخلقه فلا شريعة ولا التزام يؤثر فيه.

يقول العلامة الشاطبي عن الاجتهاد الغير معتبر شرعا والذي يفضي بصاحبه إلى الهلكة والإهلاك يَعْرِضُ فِيهِ أَنْ يُعْتَقَدَ فِي صَاحِبِهِ أَوْ يَعْتَقِدَ هُوَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الِاجْتِهَادِ وَأَنَّ قَوْلَهُ مُعْتَدٌّ بِهِ، وَتَكُونُ مُخَالَفَتُهُ تَارَةً فِي جُزْئِيٍّ وَهُوَ أَخَفُّ، وَتَارَةً فِي كُلِّيٍّ مِنْ كُلِّيَّاتِ الشَّرِيعَةِ وَأُصُولِهَا الْعَامَّةِ، كَانَتْ مِنْ أُصُولِ الِاعْتِقَادَاتِ أَوِ الْأَعْمَالِ، فَتَرَاهُ آخِذًا بِبَعْضِ جُزْئِيَّاتِهَا (قلتُ الباحث يقصد أدلةً جزئيةً مثل نصوص خاصة منزوعة من سياقها) فِي هَدْمِ كُلِّيَّاتِهَا (يقصد كليات الشريعة وأصولها العامة ومقاصدها) حَتَّى يَصِيرَ مِنْهَا إِلَى مَا ظَهَرَ لَهُ بِبَادِيءِ رَأْيِهِ (من غير تعمقٍ وفهم للأدلة في سياقها الكلي مجتمعةً) مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ بِمَعَانِيهَا وَلَا يرجع رجوع الافتقار إليها.

ويعلق محقق الكتاب وقد عرفت في كتاب الأدلة من كتاب الموافقات للشاطبي أنه يجب اعتبار الجزئيات بكلياتها، فلا ينقض جزئي قاعدةكلية، فمسألة العسل الذي لم يوافق الرجل الذي أرشده إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشربه ولم يُرح له بطنه لعلةٍ أخرى في بطنه لا ينقض مع قوله تعالى {فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ} القاعدة الكلية، وهي أن الشارع لا يخبر خبرًا يغاير المخبَرُ عنه، ولا بد من رجوع الدليل الجزئي إلى كلي آخر بأن يقيد هذه المطلق، ويُقال فيه ما لم يكن الرجل عنده مشكلةٌ أخرى

---

[١] شرح الطحاوية – ط الأوقاف السعودية (ص: 154)

مثلًا أو يوكل فهمه إلى الله العالم بما أراد بهذه الجزئيات، مع أن الآية ليس فيها تعميم نفعه لجميع الناس.

قال ومن الشاهد للمؤلف ما قاله بعض من يدعي لنفسه الفهم والاستنباط في الشريعة في هذا الزمان أنه لا يوجد حكم شرعي في غير العبادات إلا وهو قابل للتغيير، ويستدل على ذلك بأمور ككون الأحكام تتغير بتغير الزمان، وقوله صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بشيء من أمور دنيا كم، فإنما أنا بشر وقوله أنتم أعلم بشؤون دنيا كم ، وقولهم درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، وهكذا أخذ بهذه الأمور على غير وجهتها، ولم يرجع إلى أهل العلم بها ليفهم معناها، فهدم بهذا الشريعةكلها، ولم يبق بيده من كلياتها سوى أن الشريعة وُضعت للمصحة، وطبعًا المصلحة هي ما يوافق هواه، وما يظهر له ببادئ الرأي؛ لأنه لا يفهم مقاصد الشريعة إلا ما يزعمه هو مقصدًا ومصلحة. بل يرجع إليها رجوع الاستظهار بها على صحة غرضه في النازلة؛ فالمقصود إنما هو تنزيل الدليل عنده على وفق غرضه، وتحكيم هواه في الدليل، فيكون الدليل تبعًا لهواه. انتهى بتصرف يسير.

ويتابع الشاطبي قوله عن هذا الذي يزعم الاجتهاد وهو غير كفوٍ لما يدعيه أنه لا يُسَلِّمُ لِمَا رُوِيَ عَنْهُمْ (أي السلف الصالح) فِي فَهْمِ الأدلة، وَلَا يرجعُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي أَمْرِهَا كَمَا قَالَ {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} الْآيَةَ [النِّسَاءِ ٥٩] .

وَيكُونُ الْحَامِلُ عَلَى ذَلِكَ بَعْضَ الْأَهْوَاءِ الْكَامِنَةِ فِي النُّفُوسِ، الْحَامِلَةِ عَلَى تَرْكِ الِاهْتِدَاءِ بِالدَّلِيلِ الْوَاضِحِ وَاطِّرَاحِ النَّصَفَةِ ، وَالِاعْتِرَافِ بِالْعَجْزِ فِيمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ عِلْمُ النَّاظِرِ.

وَيُعِينُ عَلَى هَذَا الْجَهْلِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَتَوَهُّمِ بُلُوغِ دَرَجَةِ الِاجْتِهَادِ بِاسْتِعْجَالِ نَتِيجَة طلَبِ العلم، (فهذا التوهم يجعله يفهم أنه لا يخاطر بعمله، ولو كان يفهم أنه يخاطر ما خاطر)؛ فَإِنَّ الْعَاقِلَ قَلَّمَا يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ فِي اقْتِحَامِ الْمَهَالِكِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ مُخَاطِرٌ.

وَأَصْلُ هَذَا الْقِسْمِ مَذْكُورٌ فِي قَوْلِهِ تعالَى {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} الْآيَةَ [آلِ عِمْرَانَ ٧] .

وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، ثُمَّ قَالَ فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ . رواه البخاري عن عائشة رضى الله عنها.

قال الشاطبي وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تعالَى {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آلِ عِمْرَانَ ٧] ؛ فَجَعَلَ الْمُحْكَمَ وَهُوَ الْوَاضِحُ الْمَعْنَى الَّذِي لَا إِشْكَالَ فِيهِ وَلَا اشْتِبَاهَ هُوَ الأُمُّ والأصل الْمَرْجُوعَ إِلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ {وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ} [آلِ عِمْرَانَ ٧] ، يُرِيدُ وَلَيْسَتْ بِأُمٍّ وَلَا مُعظَمٍ، فَهِيَ إِذًا قَلَائِلُ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ اتِّبَاعَ الْمُتَشَابِهِ مِنْهَا شَأْنُ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ عَنِ الْحَقِّ وَالْمَيْلِ عَنِ الْجَادَّةِ، وَأَمَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، فَلَيْسُوا كَذَلِكَ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِاتِّبَاعِهِمْ أُمَّ الْكِتَابِ وَتَرْكِهِمُ اتِّبَاعَ الْمُتَشَابِهِ. انتهى. (١)

التأويل المذموم: حقيقته وخطورته.

(لقد جرت التأويلات الفاسدة فتناً عظيمة على الإسلام والمسلمين، وأخرجت الكثير منهم عن عقيدتهم السليمة إلى عقائد ما أنزل الله بها من سلطان، ولقد عبر عن بعض مضار التأويلات الفاسدة العلامة ابن أبي العز، في معرض رده على الذين يؤولون رؤية الله تعالى في قوله (وجوه يومئذ ناضرة (٢٢) إلى ربها ناظرة (سورة القيامة)

فقال (وهى من أظهر الأدلة، وأما من أبى تحريفها بما يسميه تأويلاً، فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب أسهل من تأويلها على أرباب التأويل، ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص.

وهذا الذي أفسد الدنيا والدين، وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم،وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية فهلقتل عثمان إلا بالتأويل الفاسد؟،وكذا ما جرى في يوم الجمل وصفين ومقتل الحسين والحرة. وهل

---

(١)الموافقات لأبي اسحق لشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، حققه وعلق عليه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م ،(٥/ ١٤٥).

خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد)ا.هـ. (من شرح الطحاوية)

لقد كثر الجدال والخصام بين أهل السنة من جانب، وبين المخالفين لهم ممن تأثر بعلم الكلام والفلسفات من جانب آخر في قضية التأويل.

فما هو التأويل، وما المراد به عند هؤلاء الفرق من الأشعرية والماتريدية والمعتزلة وغيرهم ممن اقتحم التأويلات الفاسدة ؟

حقيقة التأويل في أساس إطلاقه يشمل أمرين

الأمر الأول تطلق كلمة التأويل ويراد بها ما تؤول إليه حقيقة ذلك الشيء ومصيره وعاقبته.

الأمر الثاني تطلق هذه الكلمة ويراد بها معرفة ذلك الشيء ومفهم تفسيره وبيانه، سواء وافق ظاهره الصواب أو خالفه، وكثير من المفسرين يستعمل كلمة التأويل بمعنى التفسير فيقول تأويل هذه الآية كذا أي تفسيرها، فإن وافق الحق فهو مقبول وصحيح، وإن خالفه فهو باطل.

وقد ورد ذكر كلمة التأويل في القرآن الكريم في عدة آيات، قال تعالى

ذلك خير وأحسن تأويلا أي عاقبة التحاكم إلى الله ورسوله عند التنازع هو أحسن مآلاً وعاقبة، ومنه قوله تعالى هل ينظرون إلا تأويله ، أي عاقبة تأويله، وجميع ما ورد في القرآن الكريم من معاني التأويل فهي تطلق بهذا المعنى.

وورد في السنة عن النبي هذا المعنى حيث روى سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال سئل رسول الله عن هذه الآية قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم من تحت أرجلكم ، فقال (أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد) ، أي لم يأت وقت ظهور حقيقة العذاب ومصير المخاطبين وما تؤول إليه عاقبتهم.

وورد في السنة النبوية أيضاً استعمال التأويل بمعنى التفسير والمعرفة كما في دعائه لابن عباس بقولة (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ، أي فهمه معرفة الدين.

وهذه المعاني للتأويل هي التي كانت معروفة عند السلف قبل ظهور أهل الكلام والفلسفات العقيمة، وقبل ظهور الخصام والجدال في معاني التأويل.

قال ابن القيم

(وأما المعتزلة والجهمية وغيرهم من فرق المتكلمين فمرادهم بالتأويل صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه وما يخالف ظاهره، وهذا هو الشائع في عرف المتأخرين من أهل الأصول والفقه، ولهذا يقولون التأويل على خلاف الأصل والتأويل. وهذا التأويل هو الذي صنف في تسويغه وإبطاله من الجانبين، فصنف جماعة في تأويل آيات الصفات وأخبارها، كأبي بكر بن فورك وابن مهدى الطبري وغيرهما، وعارضهم آخرون فصنفوا في إبطال ذلك التأويل، كالقاضي أبى يعلى والشيخ موفق الدين بن قدامة، وهو الذي حكى عن غير واحد، إجماع السلف على عدم القول به)

وقد بين ابن القيم انقسام التأويل إلى صحيح وباطل وأنه ينحصر في هذين القسمين فقال وعلى هذا يبنى الكلام في الفصل الثاني، وهو انقسام التأويل إلى صحيح وباطل.

ذكر أن كل ما ورد من الروايات عن الصحابة وفيهاذكر التأويل، أن المراد به حقيقة المعنى وما يئول إليه في الخارج أو المراد به التفسير، ذكر أمثلةكثيرة على هذا، وأن تأويلهم من جنس التأويل الذي يوافق الكتاب والسنة أو أن لهم وجهة نظر قوية لا تخرج عن الحق .

وأما التأويل الباطل فقدذكر له عدة أنواع منها

أحدها ما لم يحتمله اللفظ بوضعه، كتأويل قوله (حتى يضع رب العزة عليها رجله) بأن الرجل جماعة من الناس، فإن هذا لا يعرف في شيء من لغة العرب ألبته.

الثاني ما لم يحتمله اللفظ ببنيته الخاصة من تثنية أو جمع، وإن احتمله مفرداً كتأويل قوللما خلقت بيدي بالقدرة.

الثالث ما لم يحتمله سياقه وتركيبة وإن احتمله في غير ذلك السياق، كتأويل قوله هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك بأن إتيان بعض آياته التي هي أمره، وهذا يأباه السياق كل الإباء.

الرابع ما لم يؤلف استعماله في ذلك المعنى في لغة المخاطب وإن ألف في الاصطلاح الحادث، فذكر أن هذا النوع لم يؤلف استعماله في لغة العرب وإن كان معهوداًَ في اصطلاح المتأخرين، ومثل لهذا بتأويل الجهمية والفلاسفة والمعتزلة لقول الله تعالى ثم استوى على العرش بأن المعنى أقبل على خلق العرش، فإن هذا لا يعرف في لغة العرب، بل ولا غيرها من الأمم، أن من أقبل على الشيء يقال قد استوى عليه، فلا يقال لمن أقبل على الرجل قد استوى عليه ولا لمن أقبل على الأكل قد استوى على الطعام.

الخامس ما ألف استعماله في ذلك المعنى لكن في غير التركيب الذي ورد به النص، فيحمله المتأول في هذا التركيب الذي لا يحتمله على مجيئه في تركيب آخر يحتمله، وهذا من أقبح الغلط والتلبيس، ومثل لهذا بتأويل اليد بالنعمة، والنظر إلى الله بانتظار الثواب.

السادس كل تأويل يعود على أصل النص بالإبطال فهو باطل، كتأويل قوله (أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل) ، بحمله على الأمة المملوكة، فإن هذا التأويل مع شدة مخالفته لظاهر اللفظ يرجع على أصل النص بالإبطال وهو قولة (فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها) ومهر الأمة إنما هو للسيد، فقالوا نحمله على المكاتبة، وهذا يرجع على أصل النص بالإبطال من وجه آخر، فإنه أتى بأي الشرطية التي هي من أدوات العموم، وأكدها بما المقتضية تأكيد العموم، وأتى بالنكرة في سياق الشرط وهى تقتضي العموم، وعلق بطلان النكاح بالوصف المناسب له المقتضى لوجود الحكم بوجوده وهو نكاحها نفسها، ونبه على العلة المقتضية للبطلان وهي افتياتها على وليها، وأكد الحكم بالبطلان مرة بعد مرة ثلاث مرات، فحمله – أى المؤول ذلك على صورة لا تقع في العالم إلا نادراً يرجع على مقصود النص بالإبطال .. إلى آخر الأوجه التيذكرها ابن القيم للتأويل الباطل.

وكان السلف يدركون الفرق بين التأويل بمعنى التفسير وفهم المراد من الكلام الذي هو باستطاعة الإنسان الوصول إليه وهذا هو التأويل المقبول عند السلف وبين التأويل بمعنى معرفة ما يؤول إليه المراد من الكلام سواء كان في الدنيا أو في الآخرة من الأمور الغيبية، الذي ليس باستطاعة الشخص معرفته إلا بعد ظهوره ووضوح حقيقته.

وأمثلة هذا النوع كثيرة يمثلها الإخبار بالمغيبات التي ستحدث في الدنيا أو في الآخرة، ويمثلها كذلك معرفة صفات الله حقيقتها وكيفياتها.

وأهل السنة لا يتعدون هذه المفاهيم الواضحة المشرقة البعيدة عن التكليفات والتأويلات الباطلة.

ولو وقف الخلف عند المكان الذي وقف فيه السلف لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً ولكنهم تجاوزوا النصوص وقدموا عليها عقولهم ومفاهيمهم القاصرة وتأويلاتهم الباطلة، فجاءت خليطاً مشوهاً.

والتأويل في عرف هؤلاء المتأخرين يراد به (صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك، فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهرة تأويلاً على اصطلاح هؤلاء، وظنوا أن مراد الله تعالى بلفظ التأويل ذلك، وأن للنصوص تأويلاً يخالف مدلولها لا يعلمه إلا الله ولا يعلمه المتأولون) .

فالمتأخرون يريدون بالتأويل عدم إجراء النص على ظاهره والإتيان له بمعنى يحتمله، ليتوافق مع تأويلهم الذي حرفوه عن معناه الصحيح، وهذا هو التأويل الباطل.

وقد رفض السلف تأويل الخلف بالمعنى الذي قرره هؤلاء، لأنه تحريف للنصوص وإبعاد للمراد منها، خصوصاً وأن تلك النصوص ظاهرة الدلالة لا خفاء فيها ولا احتمال، فإن كل ما جاء في القرآن والسنة من الوضوح وتحديد المراد ما لا يحتمل التلاعب به ولا بمعاينة، لأنه نزل على قوم أدركوا المراد به وآمنوا به وأطمأنت قلوبهم، ولم يحتاجوا إلى التأويلات التي اخترعها زعماء التعطيل.

فإنه على حسب مفهومهم ما من نص إلا وهو يحتمل التأويل، وبالتالي فلا تتم الثقة بأي نص على ظاهره، فإذا ورد النص بقول وجاء ربك

قالوا جاء أمره، وإذا ورد النصإن الله سميع بصير ، قالوا سميع بلا سمع، بصير بلا بصر بل بذاته ورحمة الله إرادة الثواب، واليد النعمة. إلى غير ذلك من تلك التأويلات التي ملئوا بها كتبهم، استناداً إلى أن العقل

هو الفاصل والمقدم على النقل، فلا حرج بعد ذلك أن تؤول نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الذين يقتدي بهم

على حسب ما تراه العقول، فصار هؤلاء المؤولة أشر من المعطلة، قال ابن القيم رحمة الله (فصل في بيان أن التأويل شر من التعطيل) .

وتحت هذا العنوان قال عن التأويل (فإنه يتضمن التشبيه والتعطيل والتلاعب بالنصوص وإساءة الظن بها، فإن المعطل والمؤول قد اشتركا في نفى حقائق الأسماء والصفات، وامتاز المؤول بتلاعبه بالنصوص وإساءة الظن بها، ونسبة قائلها إلى التكلم بما ظاهرة الضلال والإضلال) .

وقال ابن أبى العز

(فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل أنه صرف اللفظ عن ظاهرة، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص وقالوا نحن نتأول ما يخالف قولنا فسموا التحريف تأويلاً، تزييناً له وزخرفة ليقبل) إلى أن قال

(فمن التأويلات الفاسدة تأويل أدله الرؤية وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى تكليماً ولم يتخذ إبراهيم خليلاً) .

وما زعمه المؤولة من أن نصوص الصفات في القرآن والسنة لا تعرف إلا بالتأويل زعم مردود، إذا أريد أن معاني تلك الصفات معروفة، أما إذا أريد بأنها لا تعرف بمعنى أننا لا نعرف كيفيتها فهذا حق، ولكنهم لا يريدونه.

وعموماً فكل تأويل يوافق دلالة الكتاب والسنة فهو مقبول وصحيح، وكل تأويل يخالفهما فهو تأويل فاسد فاتح لباب الزندقة، مهيئ للتفلت من قبول الشرع، ومسبب للحيرة والاضطراب).

خطورة ما يسمّى " القراءة المعاصرة " للقرآن.

لقد أخطأ بعض الذين يفرحون بكلمة التجديد أو المجدّد أو المفكر الإسلامي. تلك الكلمات التي يطلقها الناس في عصرنا على من يتبنى فكرة بحقٍ أو بغير حق ، مع أن التدبر للقديم يجود بجواهر كريمة تدل على عمق العلماء في مجموعهم ، و تحثهم على عدم الانشغال عن رسالتهم في هداية الخلق بما كفاهم الله تعالى مؤونته بحثا وتمحيصا وتحقيقا ؛ لا سيما وقد اكتمل الدين بالقرآن الكريم ، وسنة الرسول الأمين

، وفهم السلف الصالحين) . وإذا كان القرآن يجود بدرره ومناسبته لكل عصر وأوان فإن (التجديد) الذي نقصد لا يعني (التبديد) لقواعد وضوابط المنهج الصحيح في تأمل وتدبر وفهم وتفسير كتاب الله ، وإنما هو إعمال لقواعد فهم كتاب الله من كتاب الله ذاته ومن السنة وفهم اللغة التي جاء بها الذكر الحكيم..

و أود التنبيه على ما يسمى ب(القراءة المعاصرة) للقرآن الكريم والتي هى في الحقيقة عبارة عن محاولات (مُغرِضة) (فتَّانة) لقراءة القرآن وفق فلسفات وأفكار مارقة تخرج به عن مقصوده والهدف الذي جاء من أجله إلى (ميوعة) و(تضليل) و(تماهي) فكري يذيب قدرة القرآن على أن يكون (أصلا) و(مصدرا أوحدا) وكتاب (نور وحياة) ليجعله مجرد (كتاب فلسفة) لا دور له في حياة المسلمين .

وهذه (استراتيجية) استشراقية غربية قام على حمل أولويتها وتنفيذها بحرفيتها أبناء من جلدتنا (تلوثوا) ب(عبادة الفكر الغربي) فقصدوا إلى تلويث كل المسلمين بما تلوثوا به ؛ وحيث إنهم فشلوا في التشكيك في القرآن وحربه وجها لوجه ؛ لذلك عمدوا إلى إماهة هداياته في بحور الفلسفة الضالة..

إن مركب (القراءة المعاصرة) يعتبر حلقة من سلسلة صراع طويلة، وله جذوره التي بدأت من أكثر من سبعين عاماً . فهو حلقة من سلِسلة تعود بدايتها إلى كتابات علي عبد الرزاق وطه حسين.

لقد ألف الأول على عبد الزاق كتابه الإسلام وأصول الحكم نفى الأسس التي يقوم عليها نظام الحكم في الإسلام، بينما ألف الثاني طه حسين في الشعر الجاهلي الذي روج فيه لآراء المستشرق الإنجليزي مارجليوث إذ طعن في كتابه أصول ومصداقية الشعر الجاهلي مستخدماً المنهج الديكارتي بحجة مواكبة الحضارة الغربية والسير في ركاب حركة التنوير التي تمسحت بالعقل والعقلانية.

ثم جاء محمد أحمد خلف الله وألف كتاب الفن القصصي في القرآن وطعن في واقعية الأحداث الواردة في القصص القرآنية.

ثم آزره أمين لطفي الخولي الذي انتهج سبيلاً أدبياً في الحديث عن الدراسات القرآنية ليُخرج النص القرآني عن كونه كتاباً منزلاً من عند الله إلى كونه نصا أدبياً محضا.

ثم تطورت اللعبة فنُحت لها هذا المصطلح الخلَّاب   قراءة معاصرة   ، ولعب أدوار حلقاتها كلاً من حسن حنفي، ونصر حامد أبو زيد وسيد محمود القمني ومحمد شحرور وطيب تيزيني.

فمنهم من اتخذ في كتاباته طابعاً فلسفياً ومنهم من اتخذ طابعاً أدبياً في قالب فلسفي، كل ذلك مع أسلوب ماكر في اصطناع المصطلحات الغامضة كالغنوصية، والأيستمولوجية ، والأمبريقية، والأنسنة، والإسلاموية، والسلفوية، والماضوية، والمستقبلوية، والأنطولوجية، والبلشفية، والمنشفية، والديالكتيكية، والسيوكولاستيكية، والزمكانية، والميكانزماتية، والسيميولوجية، والهرمونوطيقية، والديماغوجية .. الخ وألفاظ كثيرة غيرها انبهر منها كثير من السذج من المثقفين وظنوها (علماً) فلاكتها ألسنتهم في المجالس ورسمتها أقلامهم في الكتب لكي يقال عنهم متنورون . متحضرون. عصريون.

وقد تبنى جميعهم فيها المنهج المادي الديالكتيكي التاريخي الماركسي.

ولم تكن كتاباتهم هذه وليدة الدراسات الاستشراقية فقط بل كانت متممة وداعمة لها فسميت بعد ذلك بـ الدراسات الشرق أوسطية ؛ وكانت الغاية منها هدم مفاهيم القرآن ومبادئ الإسلام وإحلال المبادئ الماركسية محلها، ولكنهم سلكوا لذلك سبيلاً ظنوا أنهم يبدعون فيه، فادعوا بأنهم يواكبون الحداثة وروح العصر ويسيرون في طريق التقدم والتطور ومعانقة المستقبل، فرفعوا شعار (العلمية والموضوعية) وجعلوه حكراً عليهم مقابل نعتهم لغيرهم بالجهالة والجمود والسذاجة والعمالة والتخلف والظلامية والتحجر و.... كما فعل ـ على سبيل المثال ـ نصر حامد أبو زيد في قراءاته المعاصرة لمقاصد الشريعة وأصول الفقه والقواعد الشرعية وكانت مجلة العربي الكويتية تنشر مقالاته.

ولعل من المفيد ذكره بيان أن هذا (الموكب المريب) نشط في وقت يسعى فيه أعداء الإسلام لتغيير صورة الإسلام على النمط الغربي أو على النمط الأمريكي تحت شعار ما سمّوه (العولمة) في محاولة لرسم صورة جديدة للإسلام تتوافق مع المخططات السياسية للقرن الواحد والعشرين.

وإليك نموذج صارخ لمثل هذه المحاولات الآثمة في تدمير دين الله ..

(ونموذج لحداثي ماركسي من الذين اتخذوا الدراسات الإسلامية ميدانًا لهذا التأويل العبثي . يقول عن القرآن الكريم الذي يؤمن المؤمنون كل المؤمنين أنه وحي سماوي، وتنزيل إلهي معجز وخالد . يقول هذا الحداثي عن القرآن إنه نص بشري، ومُنْتَج ثقافي . لا قداسة له وأن بينه وبين الشعر الجاهلي وخاصة شعر الصعاليك شبهًا كبيرًا وبنص عباراته التي لا تحتاج إلى تعليق يقول

من الواقع تكوَّن النص (القرآن)،، ومن لغته وثقافته صيغت مفاهيمه، فالواقع هو الذي أنتج النص . الواقع أولاً، والواقع ثانيًا، والواقع أخيرًا.

لقد تشكل القرآن من خلال ثقافة شفاهية . وهذه الثقافة هي الفاعل، والنص منفعل ومفعول . فالنص القرآني في حقيقته وجوهره مُنْتَج ثقافي.

والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة فترة تزيد على العشرين عامًا .. فهو ديالكتيك صاعد وليس ديالكتيكا هابطًا . والإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يطمس هذه الحقيقة . والفكر الرجعي في تيار الثقافة العربية هو الذي يحوّل النص من نص لغوي إلى شيء له قداسته.

والنص القرآني منظومة من مجموعة من النصوص، وهو يتشابه في تركيبته تلك مع النص الشعري، كما هو واضح من المعلقات الجاهلية مثلاً، والفارق بين القرآن وبين المعلقة من هذه الزاوية المحددة يتمثل في المدى الزمني الذي استغرقه تكوّن النص القرآني . فهناك عناصر تشابه بين النص القرآني ونصوص الثقافة عامة، وبينه وبين النص الشعري بصفة خاصة . وسياق مخاطبة النساء في القرآن، المغاير لسياق مخاطبة الرجال، هو انحياز منه لنصوص الصعاليك .

هذا عن القرآن . أما عن النبوة والرسالة و الوحي . فإنها عند هذا الحداثي الماركسي ظواهر إنسانية، وثمرة لقوة المخيلة الإنسانية، وليس فيها إعجاز ولا مفارقة للواقع وقوانينه . فالأنبياء مثل الشعراء والمتصوفة، مع فارق في درجة المخيلة ، فقط لا غير . وبنص عباراته

إن الأنبياء والشعراء والعارفين قادرون دون غيرهم على استخدام فاعلية المخيلة في اليقظة والنوم على السواء . ومن حيث قدرة المخيلة وفاعليتها، فالنبي يأتي على رأس قمة الترتيب، يليه الصوفي العارف، ثم يأتي الشاعر في نهاية الترتيب.

وتفسير النبوة اعتمادًا على مفهوم الخيال معناه أن ذلك الانتقال من عالم البشر إلى عالم الملائكة انتقال يتم من خلال فاعلية المخيلة الإنسانية، التي تكون في الأنبياء أقوى منها عند سواهم من البشر . إنها حالة من حالات الفاعلية الخلاقة، فالنبوة، في ظل هذا التصور، لا تكون ظاهرة مفارقة . وهذا كله يؤكد أن ظاهرة الوحي لم تكن ظاهرة مفارقة للواقع، أو تمثل وثبًا عليه وتجاوزًا لقوانينه، بل كانت جزءًا من مفاهيم الثقافة ونابعة من مواضعاتها

وبعد تحويل القرآن إلى نص بشري . والوحي والنبوة إلى قوة في المخيلة الإنسانية . يذهب هذا الحداثي الملركسي إلى تطبيق التاريخية والتاريخانية على معان ومضامين وأحكام القرآن كل معانيه ومضامينه وأحكامه من العقائد إلى الأحكام وحتى القيم والأخلاق والقصص الأمر الذي يعني نسخ كل مضامين القرآن وتجاوزها . فيقول

. فالقرآن خطاب تاريخي، لا يتضمن معنى مفارقًا جوهريًا ثابتًا .

وليس ثمة عناصر جوهرية ثابتة في النصوص . فالقرآن قد تحوّل من لحظة نزوله من كونه (نصًا إلهيًّا). وصار فهمًا (نصًّا إنسانيًّا).، لأنه تحول من التنزيل إلى التأ ويل.

وهذه التاريخية تنطبق على النصوص التشريعية، وعلى نصوص العقائد والقصص . وهي تحرك دلالة النصوص وتنقلها في الغالب من الحقيقة إلى المجاز . .

هكذا، تم العبث الحداثي بالثوابت والمقدسات القرآن . والنبوة والرسالة . والوحي على هذا النحو اللامعقول

قال تعالي { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ} (الزمر ٦٠).

وقال تعالى {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ} (غافر ٣٥).

وقال تعالى {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} (غافر ٧٠ ٧٢).

وقال تعالى {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} (النحل ٢٣ ٢٥). ا.هـ.

ومن لابد أن نفهم القرآن على أضواء الإيمان . فالإيمان قبل القرآن وهى تلك النظرة الشمولية للقرآن في إطار المبادئ العامة للإسلام . ومن خلال نظرة عامة فاحصة تجد الارتباطات في بنية القرآن كوحدة واحدة وليس كأجزاء متناثرة متبعثرة لا تقيم بناءا متماسكا وهو ما تنزه كلام الله وكتابه عنه أتم تنزيه.

وقد مَنّض الله على ببحث منهجية متكاملة لقراءة كتاب الله تعالى من داخله وتوسع منهج تفسير القرآن بالقرآن إلى قراءة شمولية تعتمد لغة القرآن مرجعا لها حتى نكسر شوكة المناهج المنحرفة في تأويل كتاب الله . والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه. والحمد لله رب العالمين ....

من المصادر

(كتاب مفهوم النص للهالك نصر حامد أبو زيد (ص ٥٦، ٣٨) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠ م).

منقد الخطاب الديني لنصر حامد أبو زيد (ص ٨٣، ٩٤، ٨٢ ٨٤) طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م.

وكتاب مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية (ص ٣٠ ٣١) للدكتور محمد عمارة.

والكتاب الرائع (أعلام وأقزام في ميزان الإسلام) للدكتور سيد حسين العفاني (٢/ ٥ ٧) دار ماجد عسيري جدة السعودية ط. الأولى ٢٠٠٤.

وقفة مع آيةٍ، وعمقٌ في تشخيص الداء.

قال {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) } (البقرة ٤٤).

ومع أن هذا النص القرآني كان يواجه ابتداء حالة واقعة من بني إسرائيل، فإنه في إيحائه للنفس البشرية، ولرجال الدين بصفة خاصة دائم لا يخص قوماً دون قوم ولا يعني جيلا دون جيل ، فلا تمنع

خصوصية الخطاب القرآني من عموميته، وبهذا يكون لكل من يحسن القول، ولا يحسن العمل، ويندب الناس إلى الخير، ويأمرهم به، ولا ينظر إلى نفسه، ولا يحملها على أخذ حظها من هذا الخير الذي يدعو إليه. وفى ذلك ظلم للنفس، وخسران مبين.

يقول تعالى أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون

الكلام موجه إلى بني إسرائيل في عهد رسول الله – وقد طفق في هذه الآيات يوبخهم على سيرتهم المعوجة في الدين ، ويهديهم إلى طريق الخروج منها .ثم إن هداية الخطاب عامة لكل أمةٍ أعطاها الله تعالى منهجاً فحادت عنه وخاصةً أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وهذا من قولهم إِيَّاكِ أَعْنِي واسْمَعِي يا جَارَة.

(وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه. وقيل كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدّقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرّقوها خانوا فيها. وعن محمد بن واسع بلغني أنّ ناسا من أهل الجنة اطلعوا على ناس من أهل النار فقالوا لهم قد كنتم تأمروننا بأشياء عملناها فدخلنا الجنة. قالوا كنّا نأمركم بها ونخالف إلى غيرها.)

قال ابن عاشور في التنوير (٤٧٤/١) وهو اعتراض بين قوله تعالى {وأقيموا الصلاة } وقوله {واستعينوا بالصبر والصلاة} . ووجه المناسبة في وقوعه هنا أنه لما أمرهم بفعل شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذيَّل ذلك بقوله سبحانه واركعوا مع الراكعين ليشير إلى صلاتهم التي يفعلونها ، أصبحت لا تغني عنهم ، ناسب أن يزاد لذلك أن ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائمين به على ما ينبغي ، فجيء بهذا الاعتراض ، وللتنبيه على كونه اعتراضا لم يقترن بالواو لئلا يُتَوَهَّم أن المقصود الأصلي هو التحريض على الأمر بالبر وعلى ملازمته ، والغرض من هذا هو النداء على كمال خسارهم ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ليستحقوا بذلك ما يُعوَّضون عليه من مراتب ورواتب . فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها الناس .اهـ.

قال الشوكاني في الفتح (٥٤/١) والهمزة في قوله تعالى {أتأمرون الناس بالبر }.. للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين ، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه ، بل بسبب ترك فعل البر المستفاد من قوله وتنسون أنفسكم مع التطهر بتزكية النفس والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاما للناس وتلبيسا عليهم كما قال أبو العتاهية

وصفتَ التقى حتى كأنك ذو تقى وريح الخطايا من ثيابك يسطع

والبر الطاعة والعمل الصالح ، والبر سعة الخير والمعروف ، والبر الصدق..

والنسيان (بكسر النون) هو هنا بمعنى الترك أي وتتركون أنفسكم.

والتلاوة القراءة ، وهي المراد هنا وأصلها الاتباع ، يقال تلوته إذا اتبعته ، وسمي القارئ تاليا والقراءة تلاوة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض على النسق الذي هو عليه .

وقوله تعالى وأنتم تتلون الكتاب جملة حال مشتملة على أعظم تقريع وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت . أي كيف تتركون البر الذي تأمرون الناس به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل وشدة الوعيد عليه ، كما ترونه في الكتاب الذي تتلونه والآيات التي تقرءونها من التوراة .

وقوله تعالى {أفلا تعقلون} استفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم ، وهو أشد من الأول وأشد ، وأشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم ، فاستنكر عليهم أولا أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم في ذلك ، الأمر الذي قاموا به في المجامع ونادوا به في المجالس إيهاما للناس بأنهم مُبلِّغون عن الله ما تحمَّلوه من حججه ، ومبيِّنون لعباده ما أمرهم ببيانه ، وموصِّلون إلى خلقه ما استودعهم وائتمنهم عليه ، وهم أترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه ، ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبيِّنةً لحالهم وكاشفةً لعوارهم وهاتكةً لأستارهم ، وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة والخصلة الفظيعة على علمٍ منهم ومعرفةٍ بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمةٍ لتلاوته ، وهم في ذلك كما قال المعري

وإنما حمَّل التوراةَ قارئُها... كسبَ الفوائدِ لا حبَّ التلاواتِ.

ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع ، ومن توبيخ إلى توبيخ فقال إنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلا بينكم وبين ذلك مانعاً لكم عنه زاجرا لكم منه ، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم .

والعقل في أصل اللغة المنع ، ومنه عقال البعير ؛ لأنه يمنعه عن الحركة ، ومنه العقل في الدية لأنه يمنع ولي المقتول عن قتل الجاني .

والعقل نقيض الجهل ، ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواقعة هذه الحال المزرية ، ويصح أن يكون معنى الآية أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من العلم ا.ه.

إن الحق ثقيل على النفوس يخرجها عما تألف من لذة موهومةٍ للباطل ، فإذا أراد الداعي إليه إخراج الناس عما تهواه أنفسهم تحيّلوا للانصراف عنه فإن وجدوا الداعي لا يأتي ما دعا إليه أو يخالفه تعللوا بذلك على الدعوة لا على الداعي وحسب، ولا يعودون يثقون في الدين بعد ما فقدوا ثقتهم برجال الدين .فكانت دعوة الذين يقولون ما لا يفعلون محاربة للدعوة ذاتها من حيث يدعون ولا يدرون .

يقول صاحب الظلال –

إن الكلمة لتنبعث ميتة، وتصل هامدة، مهما تكن طنانة رنانة متحمسة، إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها. ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق. عندئذ يؤمن الناس، ويثق الناس، ولو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريق. إنها حينئذ تستمد قوتها من واقعها لا من رنينها وتستمد جمالها من صدقها لا من بريقها. إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة، لأنها منبثقة من حياة.

والمطابقة بين القول والفعل، وبين العقيدة والسلوك، ليست مع هذا أمراً هيناً، ولا طريقاً معبداً. إنها في حاجة إلى رياضة وجهد ومحاولة. وإلى صلة بالله، واستمداد منه، واستعانة بهديه فملابسات الحياة وضروراتها واضطراراتها كثيراً ما تنأى بالفرد في واقعه عما يعتقده في ضميره، أو عما يدعو إليه غيره.

يقول العلامة الشعراوي

إن الدين كلمة تقال. وسلوك يفعل. فإذا انفصلت الكلمة عن السلوك ضاعت الدعوة. فالله يقول { ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (الصف ٢ ٣) .فما لم ترتضه أنت كسلوك لنفسك. لا يمكن أن تبشر به غيرك. لذلك نقرأ في القرآن الكريم لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً } (الأحزاب ٢١).

فمنهج الدين وحده لا يكفي. إلا بالتطبيق. ولذلك كان رسول الله لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه، فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولا وعملا، وكان عمر بن الخطاب . حين يريد أن يقنن أمراً في الإسلام يأتي بأهله وأقاربه ويقول لهم لقد بدا لي أن آمر بكذاو كذا، والذي نفسي بيده من خالف منكم لأجعلنَّه نكالا للمسلمين. وكان عمر بن الخطاب بهذا يقفل أبواب الفتنة، لأنه يعلم من أين تُأتي.

ولذلك يقول الحق {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ } (فصلت ٣٣) . فالشرط الأول هو الدعوة إلى الله. والشرط الثاني العمل الصالح، وقوله إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ لم ينسب الفضل لنفسه أو لذاته؛ ولكنه نسب الفضل إلى الإسلام .

إن آفة رجال الدين حين يصبح الدين حرفة وصناعة لا عقيدة حارة دافعة أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم يأمرون بالخير ولا يفعلونه ويدعون إلى البر ويهملونه ويحرفون الكلم عن مواضعه ويؤولون النصوص القاطعة خدمة للغرض والهوى، ويجدون فتاوى وتأويلات قد تتفق في ظاهرها مع ظاهر النصوص، ولكنها تختلف في حقيقتها عن حقيقة الدين، لتبرير أغراض وأهواء لمن يملكون المال أو السلطان كما كان يفعل أحبار يهود

قال تعالى {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ }

قال صاحب المنار ٢٤٧/١ الخطاب في هذه الآيات عام لليهود الذين كان هذا حالهم ، وعبرة لغيرهم ، لأنه مُنبِئٌ عن حال طبيعية للأمم في مثل ذلك الطور الذي كانوا فيه ، ولذلك كان القرآن هداية للعالمين إلى يوم الدين ، لا حكاية تاريخ يقصد بها هجاء الإسرائيليين ، فلتحاسب أمة نفسها في أفرادها ومجموعها ؛ لئلا يكون حالها كحال مَن ورد النص فيهم ، فيكون حكمها عند الله كحكمهم ؛ لأن الجزاء على أعمال القلوب والجوارح ، لا لمحاباة الأشخاص والأقوام أو معاداتهم .ا.هـ.

روى أحمد وغيره عن أنس بن مالك أن رسول الله قال رأيت ليلة أسري بي رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب .

وقال أسامة بن زيد سمعت رسول الله يقول يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه (أي تتقطع أمعاؤه) في النار ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه . وقال شعبة عن الأعمش فيطحن فيها كما يطحن الحمار برحاه (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

قال القرطبي (٣٤٥/١) فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالما بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه وإنما ذلك ؛ لأنه كالمستهين بحرمات الله تعالى ومستخف بأحكامه وهو ممن لا ينتفع بعلمه قال رسول الله أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه . انتهى

فاعلم وفقك الله تعالى أن التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر لا بسبب الأمر بالبر ، ولهذا ذم الله تعالى في كتابه قوما كانوا يأمرون بأعمال البر ولا يعملون بها وبخهم به توبيخا يتلى على طول الدهر إلى يوم القيامة فقال أتأمرون الناس بالبر الآية .

وقال أبو الأسود الدؤلي

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ

وابدأ بنفسك فانهها عن غيّها فإن انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يُقبَل إن وعظتَ ويُقتدَى بالقول منك ويَنفَعُ التعليم

وقال أبو عمرو بن مطر حضرتُ مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد ، فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير ، فسكت حتى طال سكوته ، فناداه رجل كان يُعرَف بأبي العباس ترى أن تقول في سكوتك شيئا ؟ فأنشأ يقول

وغيرُ تقيٍ يأمر الناس بالتقى   طبيبٌ يداوي والطبيب مريضُ

قال فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج . (قلت (جامعه)   هكذا وعظ بسكوته فشفى وهكذا درب العلماء الأتقياء).

قال إبراهيم النخعي إني لأكره القصص لثلاث آيات ، قوله تعالى أتأمرون الناس بالبر الآية ، وقوله لم تقولون ما لا تفعلون ، وقوله وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه .

وقال الحسن لمطرف بن عبد الله عظ أصحابك ، فقال إني أخاف أن أقول ما لا أفعل ، قال يرحمك الله ، وأينا يفعل ما يقول ويود الشيطان أنه قد ظفر بهذا ، فلم يأمر أحد بمعروف ولم ينه عن منكر .

وقال مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن سمعت سعيد بن جبير يقول لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحد بمعروف ، ولا نهى عن منكر . قال مالك وصدق ، من ذا الذي ليس فيه شيء ا. هـ.

وفي قوله تعالى: {وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ}

نكتةٌ عقدية لطيفة، فقد احتج المعتزلة بمثل هذه الآية أن الله لا يحب الفساد بمعنى لا يريده فصارت إرادة الفساد من العبد دون الله تعالى الذي كل إرادته خيرٌ، وهذا قولٌ مردودٌ وعقيدة فاسدة تجعل العبد مشاركا لله تعالى في الإرادة وحاشاه ذلك.

والذي عليه التحقيق عند أهل السنة والجماعة أن محبة الله تعالى هي بمعنى إرادته الشرعية فالله يحب الخير والعدل لعباده ويرضاه منهم ويريده لهم إرادةً شرعيةً بمعنى يأمرهم به، أما الإرادة الكونية (أو المشيئة) بمعنى تقديره عليهم، فهو سبحانه يقدر على عباده الخير والشر سواء.

(والفرق بين الإرادتين أن الإرادة الكونية لا بد فيها من وقوع ما أراده الله تعالى، ولا يلزم أن يكون هذا الأمر الواقع محبوبًا عند الله تعالى، وأما الإرادة الشرعية، فلا بد أن يكون المراد فيها محبوبًا لله، ولكن لا يلزم وقوعه، فقد يقع المراد، وقد لا يقع (بحسب اختيار العبد بتوفيق الله له). والإرادة

الكونية تجتمع مع الإرادة الشرعية في مثل إيمان المؤمن وطاعة المطيع (فلولا أن يشاء الله تعالى ما يحبه للعبد ما أطاع) ، وتنفرد الإرادة الكونية في مثل كفر الكافر، ومعصية العاصي (فالله لا يحب الكفر والعصيان ولكن يقدرهما على العبد) ، وتنفرد الإرادة الشرعية في مثل إيمان الكافر وطاعة العاصي (فالله يريد ويحب إيمان الكافر وطاعة العاصي وتوبته ولكن ربما لا يشاء ولا يقدر لهم الإيمان والطاعة). [1]

---

(1)(شرح العقيدة الطحاوية؛ لابن أبي العز الحنفي، جـ ١، صـ ٦٦:٦٨) مع الشرح.

لمسة بيانية في آيتين من متشابهات القرآن.

لمسات بيانية جميلة تجدها في تدبر كتاب الله تعالى الذي تشابهت آياته في الحسن والإحكام.

ما وجه الإختلاف من الناحية البيانية بين آية ٦٢ في سورة البقرة، وآية ٦٩ في سورة المائدة؟

والآية في سورة المائدة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)، بينما قرينتها في سورة البقرة { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)}. الآيتان فيهما تشابه واختلاف وزيادة في إحداها عن الأخرى.

أولا من حيث الإعراب والتقديم والتأخير، ودوره في صياغة المعنى والدلالة؟

النصب في الصابئين ليس فيه إشكال (إذ هو من باب العطف على اسم إن الناصبة)، وإنما الرفع هو الذي كثيراً ما يُسأل عنه. والرفع في آية سورة المائدة من حيث الناحية الإعرابية ليس فيه إشكال عند النحاة لأنهم يقولون على غير إرادة (إنّ)، على محل إسم إنّ (فكأنها لم تكن عاملة في الصابئين ، و الصابئون معطوفة على محل اسمها الذي هو مبتدأ قبل دخول إن). أي يجعلونه مبتدأ جملةٍ مستأنفة على تقدير والصابئون كذلك. لكن ما النكتة البيانية في ذلك حتى لو خرّجناها نحوياً؟ فالإعراب فرع المعنى. لماذا رفع الصابئون ؟ (إنّ) تفيد التوكيد فمعناه أن هنا قِسم مؤكّد وقسم غير مؤكد. (الصابئون) غير مؤكدة، والباقي مؤكد لماذا؟ لأنهم دونهم في المنزلة. فهم أبعد المذكورين ضلالاً.

يقول المفسرون أن هؤلاء يعبدون النجوم. صبأ في اللغة أي خرج عن المِلّة، أو الدين. فالصابئون خرجوا عن الديانات المشهورة، ودخلوا في الوثنية البغيضة، هؤلاء أبعد المذكورين عن رقي الإيمان، والباقون أصحاب كتاب، فالذين هادوا والنصارى والذين آمنوا أتباع رسالات وكتب سماوية وإن ضلوا، ولقد عاب القرآن على اليهود إذ صححوا مذهب الشركين على دين الإسلام، وكانوا أولى باتباع دين محمد والأنبياء قبله أو حتى عدم نصرة الوثنية عليه. فوجب هنا ألا يوضع الجميع في سلةٍ واحدة، فمن كان عندهكتاب وجاءه رسول، وإن حرَّف وبدل أولى ممن عبد الوثن والطاغوت، ويرسم معالم هذا

الإنصاف التشكيل النحوي في الآية الكريمة التي فصلت الصابئين عن أهل الكتاب في الإعراب، وهو بعينه ما عناه الجرجاني في نظريته الشهيرة عن النظم.

لماذا لم يأت بها مرفوعة ووضعها في نهاية الترتيب؟ هنا ندخل في مسألة التقديم والتأخير وليست في مسألة المعنى. وهي ليست الآية الوحيدة التي فيها تغيّر إعرابي. في آية التوبة وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ (٣) التوبة فقد عدلت الآية عن إعراب ورسولَه على النصب مع أنه يمكن العطف على لفظ الجلالة الله المنصوب إعراباً، وإنما عُطف على المحل، أي (ورسوله كذلك بريء) لأن براءة الرسول ليست نداً لبراءة الله تعالى، ولكنها تبع لها، براءة الله تعالى هي الأولى ولو كانت ورسولَه على النصب تكون مؤكدة ومقارنة لبراءة الله، فإشارة ذلك إلى أن براءته ليست بمنزلة براءة الله ، وإنما هي دونها فرفعت ورسولُه) على غير إرادة (إنّ).

حتى في الشعر العربي إن النبوةَ والخلافةَ فيهمُ.. والمكرماتُ وسادةٌ أطهارُ.

قال المكرماتُ بالرفع، ولم يقل المكرماتِ نصبا بالعطف على اسم إن ؛ لأن المكرمات وهؤلاء السادة لا يرتقون لا إلى النبوة ولا إلى الخليفة. هذه الدلالة موجودة في الشعر ففهمها العرب.

وفي سورة الحج تحدثت الآيات عن مطلق الايمان والكفر والحساب يوم القيامة لذلك لما بدأ ذكرهم أولاً بالتأكيد جمعهم جميعاً بحرف العطف حتى يأتي معنى كلمة يفصل بينهم. لاحظ الآية {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)} ، إذن هنا لا مجال ولا معنى لفصل المؤمنين لأن الفصل سيكون يوم القيامة. وهنا في آية المائدة إن الذين آمنوا لهم حكم، وهؤلاء لهم حكم مقيّد إذا فعلوا هذا معناه أنه سينحازون الى الإيمان والاسلام. لكن هنا ليس هناك كلام على الايمان أو غيره وإنما كلام على الفصل، كيف يفصل؟ لا بد أن يجمعهم أولاً ثم يفصل بينهم؛ فكان التركيب النحوي بالعطف في سورة الحج مفيدا لمعنى الجمع يوم الجمع لساعة الفصل.

يبقى السؤال حول التقديم والتأخير في الترتيب في آية المائدة قال تعالى والصابئون والنصارى، وآية البقرة فيها والنصارى والصابئين. ففي المائدة قدّم ورفع الصابئين ، بناءاً على أنه ذمّ النصارى في المائدة ذماً فظيعاً على معتقداتهم، وتكلم على عقيدة التثليث، فجعلهم كأنهم لم يؤمنوا بالله ابتداءً، وكأنهم صنف من المشركين ؛ ففيها قال تعالى {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ (٧٢)، وقال لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٤)}، ولما كان الكلام على ذم العقائد عقيدة النصارى أخّر النصارى حتى تكون منزلتهم أقل، وقدّم الصابئين مع أنهم لا يستحقون. وفي البقرة لم يذم عقيدة النصارى في سياق الآيات إذ لم يكونوا مقصودون به فوُضع الصابئين في موضعهم المنطقي في آخر المِلل.

ثانياً هناك فرق بين الآيتين فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون في آية سورة البقرة، أما في سورة المائدة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والمذكورين في الآيتين هم نفسهم (الذين آمنوا، الذين هادوا، النصارى، الصابئين)، فما دلالة ما جاءت في سورة البقرة فلهم أجرهم عند ربهم ولم تأتِ في سورة المائدة؟

الجواب أن في سورة المائدة السياق كما قلنا في ذمّ عقائد اليهود والنصارى ذمّاً كثيراً مسهباً. أما في سورة البقرة، فالكلام عن اليهود فقط وليس النصارى. ولنتأمل الآيات في السورتين وكيف تحدثت عن اليهود ففي سورة البقرة والتي كانت أول ما نزل في المدينة وفيها أول لقاء بين الرسول وأهل الكتاب، هنالك في السورة تجد السياق تذكير بنعمة الله وفضله على يهود والوعظ والأمل في عودتهم عن ضلالهم، فسياق الوعظ والترقيق في آيات البقرة يستصحبه الوعد بالأجر للمهتدين؛ ولذلك جاءت فلهم أجرهم عند ربهم.

على خلاف السياق في سورة المائدة والتي نزلت في أواخر ما نزل في عمر دعوة الرسول في المدينة حين اشتداد ضلال أهل الكتاب وحربهم على دين الله الحق ، فاسترسلت سورة المائدة في الدفاع عن عقيدة الحق وذم عقائد الضالين من يهود والنصارى، وفي هذا السياق القوى في الحق والعنيف على الشرك لا

مجال هنا سوى للترغيب اللطيف مع ترهيب خفي في قوله تعالى {فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون}؛ وكأنه يقول لهم لا نجاة من الخوف والحزن في الآخرة بغير تقوى الله والرجوع إلى سبيله.

وفي هذا دروس تربوية للمنهج الدعوي المتدرج في نشر الحق والدفاع عنه والقوة والحكمة في بيانه حين يقتضي الأمر.

وهذا بالضبط ما نقصده بالسياق الترتيبي، والسياق التاريخي الدعوي، والسياق التربوي، وأثر كل هذا في نظم وتركيب، ودلالة وتدبر القرآن العظيم.

وأيضاً بما أن سورة البقرة جاءت أقل غضباً ذِكراً لمعاصي اليهود لذا جاءت الرحمة فقد وردت الرحمة ومشتقاتها في سورة البقرة (١٩ مرة) بينما وردت في المائدة (٥ مرات) لذا اقتضى التفضيل بزيادة الرحمة في البقرة، والأجر يكون على قدر العمل فالنسبة للذين آمنوا من أهل الكتاب قبل تحريفه وهم مؤمنون بالله تعالى عليهم أن يؤمنوا إيماناً آخر باليوم الآخر المقصود الذين آمنوا إيماناً حقيقياً.

ثالثاً ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون تعبير في غاية العجب، والدقة من الناحية التعبيرية والدقة الدلالية والأداء، ولا تعبير آخر يؤدي مؤدّاه. بما يمكن أن نسميه الدقة الأدائية في لغة القرآن.

وتفصيل ذلك أنه نفى من الخوف الاسم ولم ينفي فعل الخوف، فلم تكن ولا يخافون ، كما قال ولا هم يحزنون ، ثم ما قيمة ضمير هم الدلالية ههنا؟

إن الخوف أمر جبلي لا ينفك عنه إنسان، وخصوصا في هول مشاهد القيامة؛ والمؤمن ممدوح بخوفه من الله الذي يبلِّغه الأمن يوم القيامة، فليس من المناسب نفى فعل الخوف عنه، والنفى هنا لمقتضى الخوف لا خوف عليهم معناها لا يُخشى عليهم خطر؛ فالخوف موجود، وهو طبيعي، ولكن الأمان من الله تعالى أمّنهم به. وبما أنهم عرفوا مكانهم عند ربهم فليس بقلوبهم مكان للحزن؛ فنفى فعلهم للحزن على ما فاتهم؛ فمن كان الله معه ل يفته شيء، كما نفى تجدد الحزن لهم في ذلك الموقف العصيب يوم الدين أو فيما يسقبل بعده، كما لا يستقيم قولنا لا حزن عليهم بمعنى لا يحزن عليهم أحد؛ فالمؤمن تبكيه الأرض والسماء، بعكس الكفار {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩)} (الدخان ٢٩).

والنكتة في ولا هم يحزنون بتقديم (هم) أي أن الذين يحزن غيرهم وليس هم. نُفي الفعل عنهم، ولكن أُثبت لغيرهم بدلالةٍ غير مباشرة؛ كأن نقول (ما أنا ضربته) أي لست أنا الذي ضربته، فانظر من ضربه؟ نفيته عن نفسي، وأشير إلى وجود شخص آخر ضربه (يُسمّى في علوم البلاغة التقديم للقصر)، أما عندما نقول (ما ضربته) يعني لا أنا ولا أعلم غيري.

ما الفرق بين (عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا) في سورة الكهف و (وَعَمِلَ صَالِحًا) هنا في آية البقرة؟

في عموم القرآن إذا كان السياق في العمل يقول (عملاً صالحاً). كما في آخر سورة الكهف مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً (١١٠) لأنه تكلم عن الأشخاص الذين يعملون أعمالاً سيئة، ويكون السياق في الحديث عن الأعمال وشروط قبولها وصحتها {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)} والسورة أصلاً بدأت بالعمل وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢).مع العمل يقول عملاً تنبيها لخطورة وشأن العمل في السياق الدلالي للآيات.

أما في آية البقرة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)} فليست في سياق الأعمال فقال عمل صالحاً هكذا بمطلقها.

وههنا نصل إلى أن لغة القرآن في دقة أداء كلماتها وقيمة تركيبها وسياقاتها الدلالية المتنوعة وتشابهها واختلافها محكمة احكاماً معجزا لا يستطيعه بشر، ومن يمتلك قدرا مناسبا من الحس اللغوي والبلاغي يدرك عظمة لغة القرآن وأدائها التربوي والعقلاني اللطيف.

الرد على شبهة حديث (رجم القردة التي زنت)[1] .

شبهة حديث رجم القردة

هنا ننقل عن البخاري من باب المناقب حديث رقم ٣٥٦٠ يقول

حدثنا نعيم بن حماد حدثنا هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون قال رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم

أي ان مجتمع القرود في الجاهليةكانت له الأسبقية في تطبيق حد الرجم

فعندما تقابلون ربكم و يسألكم لماذا رجمتم الزناة و لم تطبقوا عليهم حد الجلد ، فقولوا له أخذنا ذلك من القرود.

الرد عليها

ويرد عليها من عدة أوجه

الوجه الأول ماذكره الشيخ أبو عبد العزيز سعود الزمانان فى رده على الشبهة المثارة حول رواية قردة فى الجاهلية زنت فرجمت من موقع صيد الفوائد، حيث قال – حفظه الله

نصُ الأثرِ روى الإمامُ البخاري في صحيحه (٣٨٤٩)، كتاب مناقب الأنصار، بابُ القسامة في الجاهليةِ حَدَّثَنَا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ، حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ قَالَ رَأَيْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرَدَةٌ، قَدْ زَنَتْ، فَرَجَمُوهَا، فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ.

الردُ على النص

أولاً هذا الحديثُ ليس على شرطِ الإمامِ البخاري، فصحيحُ البخاري سماهُ الجامعُ المختصرُ المسندُ الصحيحُ من أمورِ رسولِ اللهِ – صلى اللهُ عليه وسلم – وسننهِ وأيامهِ فالخبرُ ليس مسنداً للرسولِ فهو

---

(١)وهو أثرٌ فى صحيح البخارى من كتاب الرجم بين إثبات المؤمنين ونفى منكري السنة. مقال جيد كتبه المستشار أحمد السيد على إبراهيم –وكيل هيئة قضايا الدولة والكاتب بمجلة التوحيد بمصر.

ليس على شرطِ البخاري - رحمهُ اللهُ . فالأحاديثُ الموقوفةُ، وهي الأحاديثُ التي تروى عن الصحابةِ، ولا يتمُ رفعُها للنبي - صلى اللهُ عليه وسلم ، والتي يسميها بعضُ أهلِ العلمِ الآثار هي ليست كذلك على شرطِ البخاري - رحمه الله .وكذلك الأحاديثُ المعلقةُ، وهي الأحاديثُ التي يوردها البخاري، ويحذفُ أولَ أسانيدها، أو يوردُ قولاً بدون سندٍ كأن يقول قال أنسٌ ، أو يوردهُ بصيغةِ التمريضِ كأن يقول يُروى عن أنسٍ ، وهذه المعلقاتُ سواءٌ رواها بصيغةِ الجزمِ، أو بصيغةِ التمريضِ، فليست هي على شرطِ الإمامِ البخاري ، وقد بلغت معلقاتُ البخاري في الصحيح ألفاً وثلاثمائة وواحداً وأربعين .

ثانياً هذا الخبرُ رواهُ عمرو بنُ ميمونٍ ، وهو من كبارِ التابعين ، وليس صحابياً ، وإنما هو ممّن أدرك الجاهليةَ ، وأسلم في عهدِ النبي - صلى اللهُ عليه وسلم - ولكنهُ لم يرهُ ، ولم يرو عنهُ ، ويطلقُ على أمثالهِ في كتبِ التراجمِ والرجالِ مُخَضْرَمٌ ، ترجم له الحافظُ في التقريب فقال مُخَضْرَمٌ مَشْهُوْرٌ [سيرُ أعلامِ النبلاء (١٥٨/٤) - والإصابةُ (١١٨/٣)] قال ابنُ الجوزي - رحمه الله وقد أوهم أبو مسعود بترجمةِ عمرو بنِ ميمونٍ أنهُ من الصحابةِ الذين انفرد بالإخراجِ عنهم البخاري ، وليس كذلك فإنهُ ليس من الصحابةِ ، ولا لهُ في الصحيح مسندٌ . [كشفُ المشكلِ من حديثِ الصحيحين لابن الجوزي (١٧٥/٤)] .

فعمرو بنُ ميمونٍ كما قال الإمامُ القرطبي - رحمه الله - يعدُ من كبارِ التابعين من الكوفيين [تفسيرُ القرطبي (٤٤٢/١) تفسير سورة البقرة الآية ٦٥] .

ثالثاً البخاري - رحمهُ اللهُ - لماذكر هذا الأثرَ الذي ليس على شرطهِ ، إنما أراد الإشارةَ إلى فائدةٍ والتأكيدِ على أن عمرو بنَ ميمونٍ قد أدرك الجاهليةَ ، ولم يبالِ البخاري بظنِ عمرو الذي ظنهُ في الجاهليةِ ، بأن القردةَ قد زنت فرجموها بسببِ الرجمِ .

رابعاً الخبرُ استنكرهُ الإمامُ ابنُ عبدِ البرِ - رحمهُ اللهُ - قال الحافظُ ابنُ حجرٍ - رحمهُ اللهُ وَقَدْ اِسْتَنْكَرَ اِبْن عَبْد الْبَرّ قِصَّة عَمْرو بْن مَيْمُون هَذِهِ وَقَالَ فِيهَا إِضَافَة الزِّنَا إِلَى غَيْر مُكَلَّف ، وَإِقَامَة الْحَدّ عَلَى الْبَهَائِم وَهَذَا مُنْكَر عِنْد أَهْل الْعِلْم . [فتح الباري لابن حجر ١٩٧/٧ (الطبعة السلفية)] .

خامساً   استنكر الحبرَ الإمامُ الألباني - رحمه الله - فقال   هذا أثرٌ منكرٌ ، إذ كيف يمكنُ لإنسانٍ أن يعلمَ أن القردةَ تتزوجُ ، وأن من خُلقهم المحافظةَ على العرضِ ، فمن خان قتلوهُ ؟ ثم هبّ أن ذلك أمرٌ واقعٌ بينها ، فمن أين علم عمرو بنُ ميمون أن رجمَ القردةِ إنما كان لأنها زنت   . [مختصر صحيح البخاري للألباني (٢/٥٣٥)] .

سادساً   قال الشيخُ الألباني - رحمهُ اللهُ   وأنا أظنُ أن الآفةَ من شيخ المصنفِ نعيمِ بنِ حمادٍ ، فإنهُ ضعيفٌ متهمٌ ، أو من عنعنةِ هُشيم ، فإنهُكان مدلساً   . [مختصر صحيح البخاري للألباني (٢/٥٣٥)] .

سابعاً   وممن ذهب إلى تضعيفِ الأثرِ محققُ   سير أعلام النبلاء   (٤/١٥٩) فقد قال في الحاشيةِ

ونعيمُ بنُ حمادٍ كثيرُ الخطأِ ، وهُشيمٌ مدلسٌ وقد عنعن   .

ثامناً   فالخبرُ ضعيفٌ في سندهِ نُعيمُ بنُ حمادٍ ، من رجالِ معلقاتِ البخاري لا من أسانيدهِ ، روى عنهُ البخاري مقروناً بغيرهِ في الأحاديثِ أرقام (٣٩٣ ٤٣٣٩ ٧١٣٩) ، ولم يقرنهُ بغيرهِ إلا في هذا الحديثِ المقطوعِ الذي ليس على شرطهِ - رحمهُ اللهُ - حديث رقم (٣٨٤٩) . ونعيمُ بنُ حمادٍ قال عنه الحافظُ في   التقريب   صدوقٌ يخطيءُ كثيراً   ، وقال النسائي   ضعيفٌ   ، ذكرهُ ابنُ حبان في   الثقات   وقال   ربما أخطأ ووهم   . [تهذيب الكمال (٢٩/٤٧٦)] .

تاسعاً   وكذلك الخبرُ ضعيفٌ لأن في سندهِ هُشيمَ بنَ بشيرٍ الواسطي ، وهو كثيرُ التدليسِ ، وجعلهُ الحافظُ في المرتبةِ الثالثةِ في طبقاتهِ ، وهم ممن لا يُحتجُ بحديثهم إلا بما صرحوا به السماعَ ، قلتُ   ولم يصرح بالسماعِ في هذا الخبرِ .

عاشراً   مال الشيخُ الألباني إلى تقويةِ هذا الأثرِ مختصراً دون وجود النكارةِ أن القردةَ قد زنت وأنها رُجمت بسببِ الزنا فقال   رحمه الله   لكن ذكر ابنُ عبدِ البر في   الاستيعاب   (٣/١٢٠٥) أنهُ رواهُ عبادُ بنُ العوام أيضاً ، عن حصين ، كما رواه هشيم مختصراً .

قلتُ   (القائلُ الألباني) وعبادُ هذا ثقةٌ من رجالِ الشيخين ، وتابعهُ عيسى بنُ حطان ، عن عمرو بنِ ميمون به مطولاً ، أخرجهُ الإسماعيلي ، وعيسى هذا وثقهُ العجلي وابنُ حبان ، وروايته مفصلةٌ تبعد

النكارةَ الظاهرةَ من روايةِ نعيم المختصرة ، وقد مال الحافظُ إلى تقويتها خلافاً لابنِ عبدِ البر ، والله أعلم . [مختصر صحيح البخاري للألباني (٥٣٥/٢ ٥٣٦)] .

الحادي عشر لو اقترضنا صحةَ الخبرِ ، فإن الراوي أخبر عما رأى في وقتِ جاهليته فإنهُ لا حرج من القولِ بأن هذا ما ظنهُ لا سيما أنهُ في روايةٍ رأى قرداً وقردةً مع بعضهما فجاء قردٌ آخر ، وأخذها منهُ فاجتمع عليها القردةُ الآخرون ورجموهما.

فهذه صورةُ الحكايةِ ظنها الراوي رجماً للزنى ، وهو لم يأخذ هذا حكايةً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وليست كذلك الراوي لها أحدُ أصحابِ النبي – صلى الله عليه وسلم ولو أخبر بها النبي – صلى اللهُ عليه وسلم ، وصح السندُ عنه قبلناهُ ، فإننا صدقناهُ فيما هو أعظمُ من ذلك .

الثاني عشر والغريبُ في هذا الأمرِ أن بعضَ أهلِ العلمِ قد تكلف جداً في توجيهِ هذا الخبر ، والذي كما أسلفنا ليس من قولِ الرسولِ – صلى الله عليه وسلم – ولا من قولِ أحدٍ من الصحابةِ ، فالخبرُ مقطوعٌ على أحدٍ التابعين ، فلا أدري لم هذا التكلفُ في هذهِ الردودِ على خبرٍ ضعيفِ السندِ ليس على شرطِ الإمامِ البخاري – رحمهُ اللهُ – . ومن هذهِ الأقوالِ التي فيها الكثيرُ من التكلفِ ما قالهُ بعضُ أهلِ العلم كما نقل عنهُ الحافظُ في الفتح لَعَلَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا مِنْ نَسْل الَّذِينَ مُسِخُوا فَبَقِيَ فِيهِمْ ذَلِكَ الْحُكْم . وقد ردهُ ابنُ التينِ والحافظ ابنُ حجرٍ فقال بعد أن نقل القولَ عن ابنِ التينِ ثُمَّ قَالَ – أي ابن التين إِنَّ الْمَمْسُوخ لَا يَنْسِل قُلْت وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَد لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح مُسْلِم أَنَّ الْمَمْسُوخ لَا نَسْل لَهُ (حديث رقم ٢٦٦٣ كتاب القدر – باب أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد) .

ومن الردودِ الظاهرةِ التكلفِ هو ما أوردهُ الحافظُ عن بعضِ أهلِ العلمِ بأنهُ لَا يَلْزَم أَنْ تَكُون الْقُرُود الْمَذْكُورَة مِنْ النَّسْل فَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الَّذِينَ مُسِخُوا لَمَّا صَارُوا عَلَى هَيْئَة الْقِرَدَة مَعَ بَقَاء أَفْهَامهمْ عَاشَرَتْهُمْ الْقِرَدَة الْأَصْلِيَّة لِلْمُشَابَهَةِ فِي الشَّكْل فَتَلَقَّوْا عَنْهُمْ بَعْض مَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَفْعَالهمْ فَحَفِظُوهَا وَصَارَتْ فِيهِمْ وَاخْتُصَّ الْقِرْد بِذَلِكَ لِمَا فِيهِ مِنْ الْفِطْنَة الزَّائِدَة عَلَى غَيْره مِنْ الْحَيَوَان وَقَابِلِيَّة التَّعْلِيم لِكُلِّ صِنَاعَة مِمَّا لَيْسَ لِأَكْثَر الْحَيَوَان وَمِنْ خِصَاله أَنَّهُ يَضْحَك وَيَطْرَب وَيَحْكِي مَا يَرَاهُ وَفِيهِ مِنْ شِدَّة الْغَيْرَة مَا يُوَازِي الْآدَمِيّ وَلَا يَتَعَدَّى أَحَدهمْ إِلَى غَيْر زَوْجَته فَلَا يَدَع فِي الْغَالِب أَنْ يُحَمِّلهَا مَا رُكِّبَ فِيهَا مِنْ غَيْرَة عَلَى

عُقُوبَة مَنْ اِعْتَدَى إِلَى مَا لَمْ يَخْتَصّ بِهِ مِنْ الْأُنْثَى وَمِنْ خَصَايِصه أَنَّ الْأُنْثَى تَحْمِل أَوْلَادهَا كَهَيْئَةِ الْآدَمِيَّة وَرُبَّمَا مَشَى الْقِرْد عَلَى رِجْلَيْهِ لَكِنْ لَا يَسْتَمِرّ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَنَاوَل الشَّيْء بِيَدِهِ وَيَأْكُل بِيَدِهِ وَلَهُ أَصَابِع مُفَصَّلَة إِلَى أَنَامِل وَأَظْفَار وَلِشَفْرِ عَيْنَيْهِ أَهْدَاب

قلتُ لا يخفى على الناقدِ البصيرِ أن هذا التوجيهَ لا يخلو من تكلفٍ واضحٍ لا يتناسبُ مع التيسيرِ في فهمِ النصوصِ ، وإضافة قيودٍ ومحترزاتٍ لا داعي لها أصلاً ، بل توحي لقارئها إلى وجودِ التقعرِ والتشدقِ ولي أعناقِ النصوصِ حتى نتفقَ مع من ذهب إلى هذا الرأي .

ومن الغريبِ حقاً في سبيلِ ردِ هذا الخبرِ أن الحميدي في كتابهِ الجمع بين الصحيحين زعم أن هذا الخبرَ أُقحم في كتابِ البخاري ، قال الحافظُ – رحمه الله وَأَغْرَبَ الْحُمَيْدِيّ فِي الْجَمْع بَيْن الصَّحِيحَيْنِ فَزَعَمَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيث وَقَعَ فِي بَعْض نُسَخ الْبُخَارِيّ وَأَنَّ أَبَا مَسْعُود وَحْده ذَكَرَهُ فِي الْأَطْرَاف قَالَ وَلَيْسَ فِي نُسَخ الْبُخَارِيّ أَصْلًا فَلَعَلَّهُ مِنْ الْأَحَادِيث الْمُقْحَمَة فِي كِتَاب الْبُخَارِيّ ، وقد رد الحافظ هذا القول وَمَا قَالَهُ مَرْدُود فَإِنَّ الْحَدِيث الْمَذْكُور فِي مُعْظَم الْأُصُول الَّتِي وَقَفْنَا عَلَيْهَا وَكَفَى بِإِيرَادِ أَبِي ذَرّ الْحَافِظ لَهُ عَنْ شُيُوخه الثَّلَاثَة الْأَئِمَّة الْمُتْقِنِينَ عَنْ الْفَرَبْرِيّ حُجَّة وَكَذَا إِيرَاد الْإِسْمَاعِيلِيّ وَأَبِي نُعَيْم فِي مُسْتَخْرَجَيْهِمَا وَأَبِي مَسْعُود لَهُ فِي أَطْرَافه نَعَمْ سَقَطَ مِنْ رِوَايَة النَّسَفِيّ وَكَذَا الْحَدِيث الَّذِي بَعْده وَلَا يَلْزَم مِنْ ذَلِكَ أَنْ لَا يَكُون فِي رِوَايَة الْفَرَبْرِيّ فَإِنَّ رِوَايَته تَزِيد عَلَى رِوَايَة النَّسَفِيّ عِدَّة أَحَادِيث قَدْ نَبَّهْت عَلَى كَثِير مِنْهَا فِيمَا مَضَى وَفِيمَا سَيَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّه تَعَالَى

قلتُ القولُ بإقحامِ خبرٍ أو حديثٍ ليس في أصلِ البخاري قولٌ فاسدٌ يفضي إلى عدمِ الوثوقِ بجميعِ ما في الصحيحِ ، وهذا القولُ خطأٌ ، بل ظاهرُ البطلانِ ، فلا أدري لم كلُ هذا التكلفِ في هذهِ التوجيهاتِ الباطلةِ لقبولِ خبرٍ ضعيفٍ ليس على شرطِ الإمامِ البخاري رحمهُ اللهُ .

الثالث عشر إن صحت هذه الحادثةُ فتبين أن القردةَ أطهرُ من الخنازيرِ ، القائلين بجوازِ تنقلِ محارمهم بين أحضانِ الرجالِ ، وأن تكونَ في كلِ يومٍ تحت يدِ صاحبٍ ، وفي كلِ ساعةٍ في حجرِ ملاعبٍ .

بل عند الرافضةِ القائلين بجوازِ إعارةِ الفروجِ ما يقتربُ من مذهبِ الخنازيرِ . فقد روى الطوسي عن محمدٍ عن أبي جعفر قال قلتُ الرجلُ يحلُ لأخيهِ فرجٌ ؟ قال نعم ؛ لا بأس بهِ ، لهُ ما أُحل لهُ منها

(كتاب الاستبصار١٣٦/٣) . ذكر الطوسي في الاستبصار (١٤١/٣) عن أبي الحسن الطارئ أنهُ سأل أبا عبدِ الله عن عاريةِ الفرجِ ، فقال لا بأس به .

الرابع عشر هل تعلم أن الرافضةَ ينسبون إلى جعفرٍ الصادق أنهُ قال أن الفيلَ مسخٌ ، كان رجلاً لوطياً ، وأن الدبَ كان رجلاً مخنثاً يراود الرجالَ . عن الصادقِ أنهُ قال المسوخُ ثلاثةُ عشر الفيلُ ، والدبُ ، والأرنبُ ، والعقربُ ، والضبُ ، والعنكبوتُ ، والدعموصُ ، والجري ، والوطواطُ ، والقردُ ، والخنزيرُ ، والزهرةُ ، وسهيلٌ ، قيل يا ابنَ رسولِ اللهِ ما كان سببُ مسخ هؤلاءِ ؟ قال أما الفيلُ فكان رجلاً جباراً لوطياً ، لا يدعُ رطباً ولا يابساً. وأما الدبُ فكان رجلاً مخنثاً يدعو الرجالَ إلى نفسهِ . وأما الارنبُ فكانت امرأةً قذرةً لا تغتسلُ من حيضٍ ولا جنابةٍ ، ولا غيرِ ذلك ، وأما العقربُ فكان رجلاً همازاً لا يسلمُ منهُ أحدٌ ، وأما الضبُ فكان رجلاً أعرابياً يسرقُ الحاجَ بمحجنهِ ، وأما العنكبوتُ فكانت امرأةً سحرت زوجها ، وأما الدعموصُ فكان رجلاً نماماً يقطعُ بين الأحبةِ ، وأما الجري فكان رجلاً ديوثاً يجلبُ الرجالَ عن حلائلهِ ، وأما الوطواطُ فكان سارقاً يسرقُ الرطبَ من رؤوسِ النخلِ ، وأما القردةُ فاليهودُ اعتدوا في السبتِ ، وأما الخنازيرُ فالنصارى حين سألوا المائدةَ فكانوا بعد نزولها أشدَ ما كانوا تكذيباً ، وأما سهيلُ فكان رجلاً عشاراً باليمن . [علل الشرائع (٤٨٦/٢)] وعن علي بنِ أبي طالبٍ عليهم السلام ، قال سألتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله عن المسوخ فقال هم ثلاثةُ عشر الفيلُ ، والدبُ ، والخنزيرُ ، والقردُ ، والجريثُ ، والضبُ ، والوطواطُ ، والدعموصُ ، والعقربُ ، والعنكبوتُ ، والارنبُ ، وسهيلٌ ، والزهرةُ . فقيل يا رسولَ اللهِ ؛ وما كان سببُ مسخهم ؟ فقال أما الفيلُ فكان رجلاً لوطياً لا يدعُ رطباً ولا يابساً ، وأما الدبُ فكان رجلاً مؤنثاً يدعو الرجالَ إلى نفسهِ ، وأما الخنازيرُ فكانوا قوماً نصارى سألوا ربَهم إنزالَ المائدةِ عليهم ، فلما أنزلت عليهم كانوا أشدَ ما كانوا كفراً وأشد تكذيباً ، وأما القردةُ فقومٌ اعتدوا في السبتِ ، وأما الجريثُ فكان رجلاً ديوثاً يدعو الرجالَ إلى حليلتهِ . [علل الشرائع (٤٨٨/٢)]

وأخيراً نقولُ

ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقلِهِ   وأخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعمُ

ورحم اللهُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ عندما وصف الرافضةَ بقولِهِ   أَنَّ الرَّافِضَةَ أُمَّةٌ لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ صَرِيحٌ ، وَلَا نَقْلٌ صَحِيحٌ وَلَا دِينٌ مَقْبُولٌ ، وَلَا دُنْيَا مَنْصُورَةٌ بَلْ هُمْ مِنْ أَعْظَمِ الطَّوَائِفِ كَذِبًا وَجَهْلًا وَدِينُهُمْ يُدْخِلُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كُلَّ زِنْدِيقٍ وَمُرْتَدٍّ كَمَا دَخَلَ فِيهِمْ النصيرية ، وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ فَإِنَّهُمْ يَعْمِدُونَ إلَى خِيَارِ الْأُمَّةِ يُعَادُونَهُمْ وَإِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ يُوَالُونَهُمْ وَيَعْمِدُونَ إلَى الصِّدْقِ الظَّاهِرِ الْمُتَوَاتِرِ يَدْفَعُونَهُ وَإِلَى الْكَذِبِ الْمُخْتَلَقِ الَّذِي يُعْلَمُ فَسَادُهُ يُقِيمُونَهُ ، فَهُمْ كَمَا قَالَ فِيهِمْ الشَّعْبِيُّ وَكَانَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِهِمْ   لَوْ كَانُوا مِنْ الْبَهَائِمِ لَكَانُوا حُمُرًا وَلَوْ كَانُوا مِنْ الطَّيْرِ لَكَانُوا رَخَمًا . ا.هـ. [الفتاوى (٤/٤٦٦)] . أهـ

الوجه الثاني   أن مصدر حد الرجم أخذناه من الكتاب والسنة ، ولم نأخذه من القردة ، فمن الكتاب قوله تعالى   وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلا   [النساء ١٥] وقد جعل الله لهن سبيلا بتشريع حد الجلد والرجم قال تعالى   الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة   [النور ٢] ومن السنة ما رواه عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ   قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ   (خُذُوا عَنِّي خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ وَنَفْيُ سَنَةٍ وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ جَلْدُ مِائَةٍ وَالرَّجْمُ) رواه مسلم . فقد أكدت السنة أن الرجم من السبيل الذى جعله الله حدا لمن زنى وهو محصن . ومن ثم يتضح جهل هؤلاء المستهزئين بشرع الله .

الوجه الثالث   أن هؤلاء المدلسين أمرهم مفضوح ، وليس لديهم منهج ثابت للبحث العلمي ، وانما يأخذون ما يوافق هواهم ويدعون ما لا يوافقه ، وليس أدل على ذلك من أنهم وصموا جميع الأحاديث التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك الآثار التي جاءت عن صحابته بتشريع حد الرجم ، بالضعف والوضع ، حتى ولو جاءت فى البخارى ومسلم أصح الكتب بعد كتاب الله ، ثم يحتجون الآن بحديث ميمون السابق فى صحيح البخارى ، فهم يكذبون البخارى ومسلم ولا يحتجون بما جاء بهما اذا

كان ضد مذهبهم الفاسد ، ويسارعون بالاحتجاج بما جاء بهما اذا كان سيدعم هذا المذهب ، وهو ما يدل على فساد مذهبهم وأن حجتهم داحضة .

الوجه الرابع كشفت دراسة أجريت على مدى تسع سنوات، أن الشمبانزي الذكر يصبح عدوانياً مثل الإنسان عندما يشتبه في أن شريكة حياته غير وفية. وأظهرت الدراسة، التي جرت بين عام ١٩٩٣ وعام ٢٠٠٤ في حديقة كيبالى الوطنية بغربي أوغندا، أن هناك تشابهاً ملحوظاً بين سلوك ذكور الشمبانزي والإنسان، فالكثير منهم إما يشوه شريكة حياته أو يخرجها من حياته عند الاشتباه في خيانتها. وتشير الدراسة إلى أن هناك أوقاتاً يصبح فيها الشمبانزي الذكر عدوانياً تجاه الأنثى في مجموعته، وخاصة عندما يشتبه في أنها ترحب بعرض ذكر أخر، بالرغم من أن الشمبانزي حيوان مسالم . وهذا يدل على أن كثيرا من الحيوانات والطيور قد تتشابه فى سلوكها مع البشر بالرغم من أنها ليست مكلفة مثلهم ،وقد يتعلم الانسان من بعض هذه السلوكيات ما ينفعه فى معيشته وليس أدل على ذلك من قوله تعالى فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه [المائدة ٣١] ذكر ابن كثير (رحمه آلله) ما مختصره قال السدي لما مات الغلام تركه بالعراء ولا يعلم كيف يدفن فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم حثي عليه فلما رآه قال يا ويلتى أ عجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي (آلمآئدة٣١) وقال ابن عباس جاء غراب إلى غراب ميت فحث عليه من التراب حتى واراه . أهـ . ثم جاءت الشرائع السماوية بتشريع دفن الموتى ، قال تعالى ثم أماته فأقبره [عبس ٢١] .

وقد ثبت علميا بالبحث والمشاهدة أنه حالة اغتصاب أنثى غراب آخر فإن جماعة الغربان تقضي بقتل المعتدي ضربا بمناقيرها حتى الموت . وتنعقد محاكم الغربان عادة في حقل من الحقول الزراعية أو في أرض فضاء واسعة تتجمع فيه هيئة المحكمة في الوقت المحدد ويجي الغراب المتهم تحت حراسة مشددة وتبدأ محاكمته فينكس رأسه ويخفض جناحيه ويمسك عن النعيق اعترافا بذنبه . فإذا صدر الحكم بالإعدام وثبت جماعة الغربان على المذنب توسعه تمزيقا بمناقيرها الحادة حتى الموت وحينئذ

يحمله أحد الغربان بمنقاره ليحفر له قبرا يتوآءم مع حجم جسده يضع فيه جسد الغراب القتيل ثم يهيل عليه التراب احترما لحرمة الموت .

وهكذا تقيم القرود والغربان العدل الإلهي في الأرض أفضل مما يقيمه كثير من بني الإنسان وصدق الله العظيم حيث يقول وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ { (الأنعام ٣٨).

درس في قوله تعالى { عفا اللّه عنك}

يقول تعالى {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)} (التوبة ٤٣)

قال أبو جعفر الطبري وهذا عتاب من الله تعالىذ كره، عاتب به نبيَّه صلى الله عليه وسلم في إذنه لمَن أذن له في التخلف عنه، حين شخص إلى تبوك لغزو الروم، من المنافقين.

يقول جل ثناؤه (عفا الله عنك)، يا محمد، ما كان منك في إذنك لهؤلاء المنافقين الذي استأذنوك في ترك الخروج معك، وفي التخلف عنك، من قبل أن تعلم صدقه من كذبه. وقوله تعالى (لم أذنت لهم) يعني لأي شيء أذنت لهم؟ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)، يقول ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف عنك إذ قالوا لك (لو استطعنا لخرجنا معك)، حتى تعرف مَن له العذر منهم في تخلفه، ومن لا عذر له منهم، فيكون إذنك لمن أذنتَ له منهم على علم منك بعذره، وتعلمَ مَنِ الكاذبُ منهم المتخلفُ نفاقًا وشكًّا في دين الله.

(بسنده) عن مجاهد (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ، قال ناسٌ قالوا استأذِنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا.

(بسنده) عن قتادة قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا) ، الآية، عاتبهكما تسمعون، ثم أنزل الله التي في سورة النور ، فرخَّص له في أن يأذن لهم إن شاء، فقال (فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ) ، (سورة النور ٦٢). ، فجعله الله رخصةً في ذلك من ذلك.

(بسنده) عن عمرو بن ميمون الأودي قال اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشيء إذنه للمنافقين، وأخذه من الأسارى، فأنزل الله (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ، الآية). [1]

٥٠١.

هذا هو تفسير الإمام الطبري للآية ومثله تفسير ابن كثير وهو أشمل التفاسير بالمأثور وأوثقها، وفي هذا الموضع وغيره تنقل كلها عنه.

والمسائلة هنا عن إشكاليات منها جعل الأمر عتابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لم يخطئ حين اجتهد فيما ليس فيه نص وقد أذن الله له بذلك وخصوصا في الإذن للمؤمنين بالقعود في قوله تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٢)} (النور ٦٢). ثم إن الأمر كما بينه الله تعالى ان المؤمنون حقا لا يتهربون من الجهاد ، بل يتهرب منه أهل النفاق الذين وبنص الآيات بعد - كره الله خروجهم لما يصنعوه من الفتنة وتخوير المؤمنين فثبطهم عن القتال، فكيف يعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإذن لهم بالقعود وقد كره الله خروجهم، ألم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أراد الله تعالى بالضبط حين أذن لهم فقعدوا . قال تعالى {لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧)} (التوبة ٤٤ - ٤٧).

---

[1] تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (١٤/ ٢٧٢-٢٧٤) باختصار .

ثم نجد الطبري يروي عن مجاهد قال ناسٌ قالوا استأذِنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أذن لكم فاقعدوا وإن لم يأذن لكم فاقعدوا .انتهى . فالأمر عند المنافقين المثبطين تحصيل حاصل فلم يجئ العتاب - كما توهم بعضهم بهذه الصورة؟

أليس هذا دليلاً على أن الآية لها تأويل آخر لا يخرج عن تقديرات اللغة القرآنية خاصة والعربية عمومان وكذلك يتوائم مع السياق الحدثي (أى على مستوى الاحداث التي ناقشتها الآية)، والسياق الترتيبي للآيات،وكذلك السياق التركيبي للآية، والسياق الخطابي (أى مستوى الخطاب القرآني وتوجيهه ههنا)؟ وهو ما سوف نناقشه بحول الله تعالى بعدُ.

وفي تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٨٠٥) بسنده عَنْ عَوْنٍ قَالَ سَمِعْتُمْ بِمُعَاتَبَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا؟ بَدَأَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الْمُعَاتَبَةِ فَقَالَ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ.

قال الفقيه السمرقندي سمعت من يذكر، عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال معناه عَفَا اللَّهُ عَنْكَ يا سليم القلب لم أذنت لهم، فيقال إن الله تعالى إذا قال لعبده لَمَ فعلت كذاوكذا؟ يكون ذلك أشد عليه من الموت كذاوكذا مرةً، لهيبة قوله لم فعلت كذا؟ ولو أنه بدأ للنبي صلّى الله عليه وسلّم بقوله لم أذنت لهم، لكان يخاف على النبي صلّى الله عليه وسلّم أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام. ألا إن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو، حتى سكن قلبه، ثم قال {لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} بالقعود عن الجهاد. {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا}، يعني معرفة الذين صدقوا بعذرهم وإيمانهم. {وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ} في عذرهم وإيمانهم ويقال معناه، حتى يتبين لك المؤمن المخلص من المنافق.

ثم بيّن له علامة المؤمنين والمنافقين، فقال الله تعالى لاَ يَسْتَأْذِنُكَ ، يعني بغير عذر الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ يعني صدّقوا بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ في السر والعلانية. أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ، يعني بالمؤمنين المخلصين.

ثم ذكر علامة المنافقين فقال إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ ، يعني في القعود عن الجهاد. الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، يعني لا يصدقون في السر، وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ يعني شكت قلوبهم ونافقت قلوبهم.

فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، يعني في شكهم ونفاقهم يحيرون ولا يتوبون ولا يرجعون عن ذلك). [١]

انتهى.

وهنا راعي الفقيه السمرقندي فقه الخطاب، والسياق الخطابي من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم وخليله من خلقه، فوقف قدر جهده عند معرفة ما وراء النص من الملاطفة الخطابية والخطاب التشاوري لا العتابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فكأن الخطاب هنا من باب مراجعة الله تعالى لرسوله ومشاورته، وليس عتابه، وفرق كبير بين عتاب واستنكار، وبين مشاورةٍ بدأت بالملاطفة لصرف الذهن عن معنى العتاب الموحش.

قال القاضي عياض [٢] (المتوفى ٥٤٤هـ)

وَفِي هَذَا مِنْ عَظِيمِ مُنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ مَا لا يَخْفَى عَلَى ذِي لُبّ. وَمِنْ إِكْرَامِهِ إِيَّاهُ، وَبِرِّهِ بِهِ مَا يَنْقَطِعُ دُونَ مَعْرِفَةِ غَايَتِهِ نِيَاطُ الْقَلْبِ.

قَالَ نِفْطَوَيْهِ (اللغوي النحوي العلامة) ذَهَبَ نَاسٌ إِلَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاتَبٌ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ بَلْ كَانَ مُخَيَّرًا، فَلَمَّا أَذِنَ لَهُمْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ لَقَعَدُوا لِنِفَاقِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي الْإِذْنِ لَهُمْ.

قال الفقيه القاضي يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الْمُجَاهِدِ نَفْسَهُ، الرَّائِضِ بِزِمَامِ الشريعة خلقه، أن يتأدب بآداب الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَمُعَاطَاتِهِ وَمُحَاوَرَاتِهِ، فَهُوَ عُنْصُرُ الْمَعَارِفِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَرَوْضَةُ الْآدَابِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، وَلْيَتَأَمَّلَ هَذِهِ الْمُلَاطَفَةَ الْعَجِيبَةَ فِي السُّؤَالِ مِنْ رَبِّ الْأَرْبَابِ الْمُنْعِمِ عَلَى الْكُلِّ، الْمُسْتَغْنِي عَنِ الجميع، ويستثير مَا فِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ، وَكَيْفَ ابْتَدَأَ بِالْإِكْرَامِ قَبْلَ الْعَتْبِ، وَآنَسَ بِالْعَفْوِ قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ إِنْ كَانَ هناك ذَنْبٌ انتهى

---

[١] تفسير السمرقندي = بحر العلوم (٢/ ٦٢)

[٢] في كتابه الماتع الشفا بتعريف حقوق المصطفى - محذوف الأسانيد (١/ ٨٠) دار الفيحاء - عمان ، الطبعة: الثانية - ١٤٠٧ هـ

كما يدرك من تذوق قوله تعالى {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) الآيات} (المدثر ١، ٢)، فانظر رحمك الله من فسرها يأيها المتدثر بثيابه عند نومه. ثم قال كان متدثرا في قطيفة.

وانظر من تأمل هذا الخطاب الجميل وتذوقه فرأى فيه ملاطفةً حانيةً من ربٍ ودود لعبده وخليله يقول له وبكل حبٍ لمَّا رأى من ارتجافه وشدة أمر الوحى في أوله عليه، وحرى به ذلك لعظمة ما اوكل إليه من مهمة، جاء له هذا الخطاب القرآني ملاطفاً وكأنه يربت على كتفيه ويثبته ويهيئه لرسالته الثقيلة يقول قم أيها النومان، قم فأنذر فقد مضى وقت النوم وقد هيئت لأمرٍ عظيم.

وهذا كما لاطف رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا ابن أبي طالب بكل حب وحنانٍ لما رآه وقد خاصم زوجه فاطمة عليها السلام. فَجَاءَهُ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَهُوَ مُضْطَجع قد سقط رِدَاؤُهُ عَن شقِّه فَأَصَابَهُ ترابٌ، فَجعل رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول قُم أَبَا تُرَاب، قُم ابا تُرَاب . (رواه البخاري ومسلم).

وكذلك مثل ملاطفته لأبي حذيفة ابن اليمان وقد أرسله لمهمة شاقة في غزوة الخندق ثم جاءه بالخبر وهو يرجف من البرد والخوف، فأعطاه برده الشريف فنام فيه حتى أصبح وجاء رسول الله يلاطفه ليوقظه يقول قم يا نومان. (والقصة في صحيح مسلم وغيره).

ثم إن الله تعالى حين يقول لنبيه وخليله عليه السلام {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)} (المزمل ١، ٢). فإن وراء الكلمات مدحاً عظيما..

قال العلامة ابن عطية نداء للنبي صلى الله عليه وسلم، واختلف الناس لم نودي بهذا، فقالت عائشة والنخعي وجماعة لأنه كان وقت نزول الآية متزملا بكساء، والتزمل الالتفاف في الثياب بضم وتشمير، ومنه قول امرئ القيس (الطويل).

كأن أبانا في أفانين ودقة .. كبير أناس في بجاد مُزَمَّلِ.

أي ملفوف، وإنما هو نعت لكبير، فهو عليه السلام على قول هؤلاء، إنما دعي بهيئةٍ في لباسه. وقال قتادة، كان تزمل في ثيابه للصلاة واستعد فنودي على معنى يا أيها المستعد للعبادة المتزمل لها، وهذا

القول مدح له صلى الله عليه وسلم. وقال عكرمة معناه {يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ} للنبوءة وأعبائها، أي المتشمر المجدّ. انتهى. [1]

فتأمل استشفاف ما وراء التفسير والحل المجرد لمعاني الكلمات، ومراعاة روح الخطاب في قول ابن عطية (فهو عليه السلام على قول هؤلاء، إنما دعي بهيئةٍ في لباسه). فلابد إذن من وجود مقصد بلاغي في هذا النداء والخطاب بهذه الطريقة الحانية الملاطِفة، على عكس ما يتوهمه الذين أهملوا فهم السياق الخطابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم هنا فتبجحوا بكلام فيه إساءة ادب تنم عن تقصير في البحث والفهم. [2]

---

[1] تفسير ابن عطية (المتوفي ٥٤٢هـ) = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥/ ٣٨٦).

[2] كما قال الزمخشري في تفسيره مع سوء أدبٍ تأنفه اللغة ويأنفه تذوق معاني القرآن الصحيح : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نائما بالليل متزمّلا في قطيفة، فنبه ونودي بما يهجن إليه الحالة التي كان عليها من التزمل في قطيفته واستعداده للاستثقال في النوم، كما يفعل من لا يهمه أمر ولا يعنيه شأن. ألا ترى إلى قول ذى الرمّة:
وكائن تخطّت ناقتي من مفازة ... ومن نائم عن ليلها متزمّل .ا.هـ.
ورد عليه العلامة الجميل ابن المنير السكندري فشفانا بعلمه وادبه وقال : قال الزمخشري : «هو المتلفف في ثيابه كالمدثر ونودي بما يهجن إليه ... الخ» قال أحمد (أى ابن المنير) : أما قوله الأول أن نداءه بذلك تهجين للحالة التي ذكر أنه كان عليها واستشهاده بالأبيات المذكورة. فخطأ وسوء أدب. ومن اعتبر عادة خطاب الله تعالى له في الإكرام والاحترام: علم بطلان ما تخيله الزمخشري، فقد قال العلماء : أنه لم يخاطب باسمه نداء، وأن ذلك من خصائصه دون سائر الرسل إكراما له وتشريفا، فأين تداؤه بصيغة مهجنة من نسائه، باسمه، واستشهاده على ذلك بأبيات قيلت ذما في جفاة حفاة من الرعاء، فأنا أبرأ إلى الله من ذلك وأربأ به صلى الله عليه وسلم، ولقد ذُكِّرت بقوله: أوردها سعد وسعد مشتمل...
ما وقعت عليه من كلام ابن خروف النحوي يرد على الزمخشري ويخطئ رأيه في تصنيفه المفصل، وإجحامه في الاختصار بمعاني كلام سيبويه، حتى سماه ابن خروف: البرنامج، وأنشد عليه:
أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الإبل
وأما ما نقله أن ذلك كان في مرط عائشة رضى الله عنها فبعيد، فان السورة مكية، وبنى النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة رضى الله عنها بالمدينة. والصحيح في الآية ما ذكره آخرا، لأن ذلك كان في بيت خديجة عند ما لقبه جبريل أول مرة، فبذلك وردت الأحاديث الصحيحة، والله أعلم. ا.هـ. تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤/ ٦٣٤) وحاشية ابن المنير عليه.

وهذه من المعاني التي يستشعرها الذين مرسوا على تذوق اللغة العربية ودقائقها، ودائمًا ما نقول إن ما نحتاجه حقا هو تدبر القرآن بمعنى النظر فيما وراء الكلمات والجمل وليس الحل الجامد لمعاني المفردات على ظواهرها فقط، وإن كان مفتاحا للفهم لا كل الفهم. وصدق سلفنا العظيم حين كانوا يقولون لا يفقه الرجل حتى يرى للقرآن أوجها. وهذا هو الحديث عن أن للقرآن ظاهر هو حل ألفاظه مجردان وباطن وهو فقه القرآن بلغته وخطابه وتدبر معانيه ومقاصده.

ولعل هذه المباحثات التي نبحثها في الآية هى من وحي الإيمان برسالة التدبر في العودة بالقرآن لحياتنا فاعلاً مؤثراً.

وما يعنينا هنا هو تثوير معالم لمنهجية فعالة في تدبر كتاب الله تعالى تخرج من تحت عباءة شيوخنا المفسرين الكبار، وتصنع لها شخصيتها الخاصة في تدبر وإحياء وجود كتاب الله في حياتنا، كل ذلك مع الاستغفار لشيوخنا، وتقبيل أيديهم لفضلهم علينا.

نعود للآية وتأملها، وقد أساء الزمخشري الأدب في تفسير هذه الآية فقال عَفَا اللَّهُ عَنْكَ كناية عن الجناية، لأنّ العفو رادف لها. ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت. ولِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ بيان لما كنى عنه بالعفو. ومعناه مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ من صدق في عذره ممن كذب فيه. [١]

وقد رد عليه العلامة ابن المنير – رحمه الله في حاشيته الانتصاف على الكشاف فقال – مشكورا ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين إما ألا يكون هو المراد. وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، وخصوصا في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام. ولقد أحسن من قال في هذه الآية إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء لم أذنت لهم؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد

---

[١] تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٢٧٤)

البشر عليه أفضل الصلاة والسلام. وقول الزمخشري «ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت» خاطب الله رسوله خطاب الرقة والرأفة (في كتابه كله)، وفسره المصنف هنا بخطاب الغلظة والقسوة، وشتان ما بينهما. اهـ. [1]

وقيل (لم يكن منه صلى الله عليه وسلم خرق حدّ أو تعاطى محظور، وإنما نذر منه ترك ما هو الأوْلى.

قدّم الله ذكر العفو على الخطاب الذي هو فى صورة العتاب بقوله «لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ».

أو من جواز الزّلة على الأنبياء عليهم السلام إذ لم يكن ذلك فى تبليغ أمر أو تمهيد شرع.

و كذا سنّة الأحباب مع الأحباب، قال قائلهم

ما حطّكَ الواشون عن رتبةٍ .. عندى ولا ضرّك مغتابُ.

كأنهم أثنوا ولم يعلموا .. عليكَ عندى بالذي عابوا.

ويقال حسنات الأعداء وإن كانت حسنات فهى مردودة، وسيئات الأحباب وإن كانت سيئات فهى مغفورة من ذا يؤاخذ من يحبّ بذنبه .. وله شفيع فى الفؤاد مشفّع). [2] انتهى.

قلت وهذا كلام فيه نظر من القشيري لأنه كأنه أقر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خالف الأولى في المسألة، وذلك الذي ردته الآيات بعد تلك الآية كما بينا آنفا.

وَقِيلَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَقَّرَهُ ورفع مَحَلَّهُ بِافْتِتَاحِ الْكَلَامِ بِالدُّعَاءِ لَهُ، كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِمَنْ يُخَاطِبُهُ إِذَا كَانَ كَرِيمًا عِنْدَهُ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ مَا صَنَعْتَ فِي حَاجَتِي، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ أَلَا زُرْتَنِي. وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَدَامَ اللَّهُ لَكَ الْعَفْوَ. لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ. [3]

وَكَذَا حَكَاهُ مَكِّيٌّ وَالنَّحَّاسُ وَالْمَهْدَوِيُّ (من أئمة اللغة)، وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ يَحْسُنُ الْوَقْفُ عَلَى {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ}. [4]

---

١ المصدر السابق الحاشية.

[2] القشيري في لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٢/ ٣٠)

[3] تفسير البغوي - إحياء التراث (٢/ ٣٥٤)

[4] فتح القدير للشوكاني (٢/ ٤١٧)

وعلى هذا القول يؤول من يوظف تعبيرات اللغة المتداولة في فهم الآيات، وهو قول ليس بضعيف يستقيم مع بعض سياقات الكلام المتعددة التي ذكرتها آنفاً.

أقول بعد أن ذكرت ما دندن حوله المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة وقد ذكرتُ منهم من أساء الأدب وأبعد النجعة، ورمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجناية والذنب مع أن أقسى الاحتمالات في تفسير الآية تشير أن رسول الله اختار خلاف الأَوْلى؛ فعاتبه ربه أجمل العتاب؛ والذي افتتحه بالعفو ترقيقا للخطاب، وإيناسا لقلب المصطفى صلى الله عليه وسلم ثم أتبعه بالعتاب الرقيق الحاني.

وقد تحيّل بعضهم لجعل عفا الله عنك فاتحة كلام اعتادتها العرب كما تقول عافاك الله، أعزك الله.. إلخ. وهذا الذي قالوه وإن كان مستقيما في لغة العرب، ولكنه ههنا لا يستقر مع بعض سياقات الآية، ويبقى المشكل من عتاب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم قائما، وله من التأويلات ما أشار إليه المفسرون فيما نقلنا عنهم.

ولعبد الله الفقير في هذه الآية غير ما ذهب إليه جُلُّ المفسرين إعتمادا على ما قررته من قواعد في تدبر القرآن الكريم [١]

وهى الأخذ بالنقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم صحابته الكريم وتابعيهم وأئمة التفسير، وفهمه في ضوء أسباب النزول، وفقه اللغة القرآنية أولا ثم اللغة بعامتها، وسياق الآيات سباقا ولحاقا، والقرائن المحيطة بالنص، ودلالات التضام (من حذف وإيجاز وبيان وغيره..)، وقبل ذلك كله فقه الخطاب القرآني ودلالاته وتفسير القرن بالقرآن.. ثم جمع كل هذه الدلالات في نسقٍ واحد لا يحويه تعسف أو تحايل لفهم النص الحكيم..

ومن هذه المنطلقات ندعي فهما متوازنا للنص الحكيم لا يجور فيه نقل على عقل، ولا عقل على نقل..

والله أعلم..

ولنا هنا نقاط في إعمال منهجنا هذا

---

١ في كتابي وقفات مع تدبر القرآن الكريم.

١. لم تنقل لنا كتب التفسير بالمأثور قولا يُطمَأن إليه في تفسير هذه الآية يمكن رفعه حتى لصحابي غير ابن عباس وبأسانيد فيها كلام فضلا عن رفعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وغاية ما هنالك هى أقوال للعلماء من التابعين (مجاهد وقتادة وعمرو بن ميمون الأودي وعون..) ومن بعدهم، وقد نقلنا هذه الأقوال وهى مضطربة متضاربةكما سيأتي. وتفسير التابعين مختلف في حجيته على فهم القرآن الكريم، والراجح عندي عدم اتجاه الحجية إلا فيما فيه اتفاق عام على المعنى بينهم، وهذا لا يوجد هنا.

٢. وإن ما أوقع في الأزمة حقيقةً هو حمل معنى العفو في اللغة على الجناية والذنب كما قال الزمخشري عَفَا اللَّهُ عَنْكَ كناية عن الجناية، لأنّ العفو رادف لها).

أقول وهذا غير واقع في فقه اللغة، ومنه احتاج من احتاج إلى تكلفٍ وتحيُّلٍ لحفظ المقام النبوي الشريف.

أما في اللغة فالعفو له من أصل مادته (عفا) معانٍ كثيرة وأصله الترك والمحو، وقيل هو من الأضداد فقد يحمل أكثر معانى الظهور وهى الكثرة والوفرة والتغطية، وقد يحمل أكثر معاني الخفاء وهو الانمحاء، والصحيح إن ذلك يرجع كله إلى معنى الترك . قال في تاج العروس [1] قَالَ شيْخُنا كَوْنُ العَفْو لَا يكونُ إلاَّ عَن ذَنْبٍ وَإِن اشْتَهَرَ فِي التَّعارُفِ غيْر صَحِيحٍ، فإنَّه يكونُ بمعْنَى عَدَمِ اللُّزُوم، وأَصْلُ مَعْناه التَّرْكُ، وَعَلَيهِ تَدُورُ مَعانيه، فيُفَسَّرُ فِي كلِّ مقامٍ بِمَا يُناسِبُه مِن تَرْكِ عقابٍ، وعَدَم إِلْزامٍ مَثلاً؛ وَفِي كَلامِ المُفَسِّرين وأَرْبابِ الحَواشِي إيماءً لذلكَ، وفرَّقَ عبدُ الباسِطِ البُلْقِينيّ بيْنَه وبيْنَ الصَّفْحِ بكَلامٍ لَا يظهرُ لَهُ كَبيرُ جَدْوى، انتَهى.

قُلْت (والكلام لصاحب التاج) الصَّفْحُ تَرْكُ التَّأْنِيبِ، وَهُوَ أَبْلَغُ من العَفْوِ، فقد يَعْفُو المرء وَلَا يصفح ..قالَ الرَّاغبُ فَمعْنى (عَفَوْتُ عنْكَ) كأَنَّهُ قَصَد إزالَةَ ذَنْبِه صارِفاً عَنهُ، فالمَعْفُوّ المَتْرُوكُ، وعنْكَ مُتَعَلِّق بمُضْمَر، فالعَفْوُ هُوَ التَّجَافِي عَنِ الذَّنْبِ.

---

[1] تاج العروس (٣٩/ ٦٧) بتصرف واختصار.

(و) {العَفْوُ (المَحْوُ)، قيلَ وَمِنْه {عَفا اللهُ عنْكَ}، أَي مَحا، مِن قولنا عَفَتِ الرِّياحُ الأَثَرَ، أَي دَرَسَتْه ومَحَتْه، وَمِنْه الحديثُ (سَلُوا اللَّهَ العَفْوَ والعافِيَةَ والمُعافاةَ)، فالعَفْوُ مَحْوُه الذنْبَ.

(و) العَفْوُ أَيْضاً (الامِّحاءُ). يقالُ عَفَا الأَثَرُ أَي امَّحَى، يتعدَّى وَلَا يَتَعَدَّى..). انتهى.

وبهذا يتبين لنا أن معنى العفو لا يقتصر فقط على التجاوز عن الذنب، وإنما يحمل معانى الترك والمحو والإخفاء، وهى معانٍ تؤخذ في سياقها، وسياق الآية ههنا ونظمها،وكذا سياق الآيات من قبل (السباق) والآيات من بعد(اللحاق)، وما هو معلوم من السياق الزمنى والمعنوي العام للآيات والأحداث يشير إلى معنى للعفو غير معنى التجاوز عن الذنب. وسيأتي كل هذا قريبا..

ومادة العفو في القرآن غلبت على معنى الترك، ولذكر بحول الله بعض تفصيل ذلك؛ فنقول لم يأتِ في كتاب الله تعالىذكر العفو بهذه الصيغة {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ} في غير هذه الآية، ثم جاء لفظ (عفا) في القرآن في ستة مواضع بيانها الآتي

الأولى في قوله تعالى {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)} (آل عمران ١٥٢)وقد جاءت في معرض الحديث عن غزوة أحد وتبلبل بعض المؤمنين واهتزاز قلوبهم تحت وطأة اغراء الدنيا تارةً وتحت وطأة الخوف أخرى، فقد أعلمهم الله تعالى بذلك من نفوسهم ثم عقَّب ببيان عفوه عنهم وفضله عليهم، والعفو هنا الصفح عن الذنب والزلة.

الثانية في نفس السياق تقريبا {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)} (آل عمران ١٥٥)، ومعنى العفو هناك هو ذاته هنا.

الثالثة {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥)} (المائدة ٩٥) ففي

الآية تحريم قتل الصيد أثناء الإحرام أو في الحرم وبيان كفارة ذلك، ثم ذكر الله تعالى عفوه عما سلف، أي ترك المؤاخذة على ما كان قبل نزول التحريم.

الرابعة قوله تعالى {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١)} (المائدة ١٠١)

أي لا تسألوا عن أشياء لا حاجة لكم بها ولا تعنيكم في أمر دينكم، هذه الأشياء التي إذا بدت لكم أي ظهرت وكُلفتم بها، ساءتكم بثقلها، فقد ينزل بها الوحي حين سؤالكم فيكون ذلك سببا للتكاليف الشاقة عليكم، بخلاف السؤال عنها بعد انقطاع الوحي بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا إيجاب ولا تحريم يتسبب عن السؤال. ويؤيده المروي عَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وحدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَنَهَى عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ لَهَا رَحْمَةً لَكُمْ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا .

عفا الله عنها أي عما سلف من مسألتكم فلا تعودوا إلى ذلك. ويمكن أن يقال إن العفو بمعنى الترك أي تركها الله ولم يذكرها بشيء فلا تبحثوا عنها، وهذا معنى صحيح أيضا.

الخامسة قول تعالى {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤١)} (الشورى ٤٠، ٤١).

يعنى لا تجاوزوا حدّ ما جنى الجاني عليكم في المكافأة أو الانتقام .

فمن عفا عن الجاني، وأصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس. أو العفو هنا ترك عقاب الجاني أو ترك القصاص...

والآية السادسة هى ما نحن بصدده {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣)} (التوبة ٤٣) ولها وقفة بإذن الله.

ألفاظ (يعفو) و (نعفو) و (عُفِيَ)، و(عفوا) وردت في القرآن في عدة مواضع

أولها قوله تعالى {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)} (البقرة ٢٣٧).

وقوله تعالى { مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}، يعني من قبل أن تجامعوهن وقبل أن تخلوا بهن ، {وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ}، يعني على الزوج نصف ما فرض لها من المهر. { إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ}، يعني إلا أن تترك المرأة فلا تأخذ شيئاً، {أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}، يعني الزوج يكمل لها جميع الصداق. {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى}، يقول أن تعفو بعضكم بعضاً كان أقرب إلى البر، فأيهما ترك لصاحبه فقد أخذ بالفضل. هكذا باختصار في الآية وإلا فإنها من آيات الأحكام التي يطول فيها الأخذ والرد، المهم أن العفو هنا هو الترك.

وأما الآية الثانية فهى قوله سبحانه {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩)} (النساء ٩٧ ٩٩) والحديث عن قوم كانوا قد أظهروا الإسلام بمكة ثم هان عليهم امر دينهم فلم يهاجروا إذ هاجر المؤمنون بدينهم، بل غرتهم الدنيا وعرضوا دينهم للفتنة فمات منهم من مات في فتنته ومات بعضهم وهو يقاتل في صفوف المشركين يوم بدر مجبرا فجاء العتاب والعتاب مع استثناء ذوي الأعذار القهرية، والعفو هنا ترك المؤاخذة.

والآية الثالثة {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)} (التوبة ٦٥، ٦٦)

عن عبد الله بن عمر قال قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس كذبت ولكنك منافق لأخبرن

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونزل القرآن قال عبد الله فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله تنكبه الحجارة وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول {أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} .

والعفو هنا ترك العقاب.

وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى { {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨)} (البقرة ١٧٨).

وهذه الآية في حد القصاص ، وقوله تعالى {فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان} وأصل العفو هنا الترك. إما ترك القصاص أو ترك القصاص والدية....

وَفِي التَّنْزِيلِ {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥)} (الأعراف ٩٥) عفوا أى كثروا. فالله بدلهم مكان الضراء النعمة والخير حتى كثروا وكثرت نعمته عليهم. وتشير أيضا إلى معنى الترك فقد تركهم حتى كثروا كما في قوله صلى الله عليه وسلم حفوا الشوارب واعفوا اللحى أي اتركوها حتى تكثر وتزيد.

عرفنا هنا مع تتبع آيات القرآن أن العفو في اللغة وفي استعمال القرآن عينه هو من أصل يرجع إلى (الترك)..

(وَقَدْ جَعَلَ) صَاحِبُ الْمَقَايِيسِ هَذَا التَّرْكِيبَ (ع، ف، و) دَالًّا عَلَى أَصْلَيْنِ تَرْكٍ، وَطَلَبٍ؛ إِلَّا أَنَّ الْعَفْوَ غَلَبَ عَلَى تَرْكِ عُقُوبَةِ مَنِ اسْتَحَقَّهَا (وَالْإِعْفَاءُ) عَلَى التَّرْكِ مُطْلَقًا، (وَمِنْهُ) إِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ وَهُوَ تَرْكُ قَطْعِهَا وَتَوْفِيرُهَا، وَقَوْلُهُمْ أَعْفِنِي مِنَ الْخُرُوجِ مَعَكَ أَيْ دَعْنِي عَنْهُ وَاتْرُكْنِي..

(وَقَوْلُهُمْ) الْعَفْوُ هو الْفَضْلُ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ إِذَا تُرِكَ فَضَلَ وَزَادَ (وَمِنْهُ حَدِيثُ) عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أُمِرْنَا أَنْ لَا نَأْخُذَ مِنْهُمْ إِلَّا الْعَفْوَ»، وكذا قولهم خُذْ مَا صَفَا وَعَفَا أَيْ فَضَلَ وَتَسَهَّلَ، (وَمِنْهُ) قَوْلُ عُمَرَ

بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَلَعَمْرِي مَا الْبَرَاذِينُ بِأَعْفَى مِنْ الْفَرَسِ فِيمَا كَانَ مِنْ مُؤْنَةٍ وَحَرْسٍ؛ يَعْنِي لَيْسَ هَذَا بِأَسْهَلَ مُؤْنَةٍ مِنْ ذَاكَ.. اهـ. (١)

قال (ابن فارس) في مقاييس اللغة (٤/ ٥٦)

(عفو) العين والفاء والحرف المعتل أصلان يدل أحدهما على ترك الشيء، والآخر على طلبه. ثم يرجع إليه فروع كثيرة لا تتفاوت في المعنى.

فالأول العفو عفو الله تعالى عن خلقه، وذلك تركه إياهم فلا يعاقبهم، فضلا منه. قال الخليل وكل من استحق عقوبة فتركته فقد عفوت عنه. يقال عفا عنه يعفو عفوا. وهذا الذي قاله الخليل صحيح، وقد يكون أن يعفو الإنسان عن الشيء بمعنى الترك، ولا يكون ذلك عن استحقاق. ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال «عفوت عنكم عن صدقة الخيل» فليس العفو هاهنا عن استحقاق، ويكون معناه تركت أن أوجب عليكم الصدقة في الخيل.

ومن هذا الباب العفو المكان الذي لم يوطأ (أي المتروك). قال

قبيلة كشراك النعل دارجة .. إن يهبطوا العفو لا يوجد لهم أثر

أي إنهم من قلتهم لا يؤثرون في الأرض.

وتقول هذه أرض عفو (أي متروكة) ليس فيها أثر فلم ترع. وطعام عفو لم يمسه قبلك أحد، وهو الأنف.

فأما قولهم عفا درس، فهو من هذا وذلك أنه شيء يترك فلا يتعهد ولا ينزل، فيخفى على مرور الأيام. قال لبيد

عفت الديار محلها فمقامها .. بمنى تأبد غولها فرجامها.

فهذا معنى العفو، وإليه يرجع كل ما أشبهه.

---

(١) المغرب في ترتيب المعرب لبرهان الدين المطرزي(ص: ٣٢١)

وقول القائل عفا، درس، وعفا كثر وهو من الأضداد ليس بشيء، إنما المعنى ماذكرناه، فإذا ترك ولم يتعهد حتى خفي على مر الدهر فقد عفا، وإذا ترك فلم يقطع ولم يجز فقد عفا. والأصل فيه كله الترك كما ذكرناه.

ومن هذا الباب قولهم عليه العفاء، فقال قوم هو التراب يقال ذلك في الشتيمة. فإن كان صحيحا فهو التراب المتروك الذي لم يؤثر فيه ولم يوطأ لأنه إذا وطئ ولم يترك من المشي عليه تكدد فلم يك ترابا. وإن كان العفاء الدروس فهو على المعنى الذي فسرناه. قال زهير

تحمل أهلها عنها فبانوا .. على آثار من ذهب العفاء

يقال عفت الدار فهي تعفو عفاء، والريح تعفو الدار عفاء وعفوا. وتعفت الدار تعفيا.

قال الخليل عفا الماء، أي لم يطأه شيء يكدره. وهو عفوة الماء. وعفا المرعى ممن يحل به عفاء طويلا.

قال أبو زيد عفوة الشراب خيره وأوفره. وهو في ذلك كأنه ترك فلم يتنقص ولم يتخون.

والأصل الآخر الذي معناه الطلب قول الخليل إن العفاة طلاب المعروف، وهم المعتفون أيضا. يقال اعتفيت فلانا، إذا طلبت معروفه وفضله. فإن كان المعروف هو العفو فالأصلان يرجعان إلى معنى واحد، وهو الترك، وذلك أن العفو هو الذي يسمح به ولا يحتجن ولا يمسك عليه. قال أبو عمرو أعطيته المال عفوا، أي عن غير مسألة (أي تركت مسألته)).١٠٥.

نخلصنا من استعمال العفو في لغة العرب وفي اللغة القرآنية أنه يختص بالترك، ثم يأتي السياق التركيبي والمعنوي ليحدد أى الاضافات تناسب هذا الترك، وهو ما نرمي إليه هنا في دراسة الآية التي نحنن بصددها.

٣. سياق الآيات

والسياق هنا كما قلنا آنفا فإن معنى الآيات سِباقا ولِحاقا لا يستقيم على معنى العتاب على خطأٍ ما حدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ

بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢)} (التوبة ٤٢) فهذا حديث استباقي عن نيةٍ مسبقَة وعزم مبيّتٍ من المنافقين على القعود والنكوص عن الجهاد فهو بالنسبة إليهم شاق وليس من ورائه في نفع الدنيا التي يبغون دائمًا نصيبن لذلك فهم مصرون على الاعتذار بكل الاعتذارات من اجل التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه.

ثم يأتي بعد هذه الآية (اللحاق) الذي يؤكد أن الله لا يريدهم ان يخرجوا في المسلمين لنهم مصدر فتنة وتهييج على الباطل ولذلك فقد كره الله خروجهم وثبطهم سبحانه وتعالى عن الجهاد في سبيل الله تعالى {وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) } (التوبة ٤٦، ٤٧).

فكيف بين هذا وذاك يأتي العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإذن لهم في القعود وقد كان حكما إلهياً ورضاً منه سبحانه بقعودهم.

فما المقصود من الآية إذن؟

٤ السياق التركيبي للآية

وهذه نظرة أسلوبية في تركيب الجملة القرآنية ههنا فلو صح تفسير الآية بذلك الذي فسره به بعض المفسرين لكان هناك اختلال في ميزان التركيب من حيث

تقطيع الآية والوقف بما يأت توقيف بالوقف عليه في القراءة، فحتى ينتظم المعنى الذي ذهبوا إليه يستلزم أن تكون الآية {عفا الله عنك} ثم وقف، ثم {لم أذنت لهم} وتحمل على أنها استفهام إنكاري، ثم تقدير محذوف (هلا تركت الإذن لهم) {حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين} ..

وفي هذا تعسف لغوي يجعل في الآية محذوفا لا دلالة عليه إلا السياق العقلي عند من يرى توجيه الآية إلى معنى العتاب، وهو ملزوم باطل أوجد لازما مضطرباً، وهو ما ينفيه السياق المنطقي الذي وضحته آنفاً.

قال العلامة الرازي في التفسير الكبير لا يجوز أن يقال المراد بقوله { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } الإنكار لأنا نقول إما أن يكون صدر عن الرسول ذنب في هذه الواقعة أو لم يصدر عنه ذنب ، فإن قلنا إنه ما صدر عنه ذنب ، امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } إنكار عليه ، وإن قلنا إنه كان قد صدر عنه ذنب ، فقوله { عَفَا الله عَنكَ } يدل على حصول العفو عنه ، وبعد حصول العفو عنه يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه ، فثبت أنه على جميع التقادير يمتنع أن يقال إن قوله { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } يدل على كون الرسول مذنباً ، وهذا جواب شاف قاطع .ا.ه. [1]

فما هو المعنى الذي نقصد توجيهه في هذه الآية في هذا البحث؟

فبعد أن عرفنا ان مطلق معنى العفو هو الترك سواء في لغة القرآن أو في اللغة العربية، وبعد أن عرفنا أن المعنى لا يستقيم كلية توجيهه في هذه الآية لمعنى العتاب على فعل خطأ أو فعل خلاف ما هو الأولى على أقوال نستطيع أن نوجه الآية لهذا التركيب {عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين}.

أى (ترك الله البيان أو أخفى عنك سبب إذنك لهم لكي أو إلى أن يتبين لك الصادقين وتعلم الكاذبين).

ويكون هنا معنى (عفا) على أصله اللغوي في الترك (أى ترك البيان) أو الإخفاء.

ويكون الاستفهام هنا في سياق الخبر خبراً كما تقول ما أخبرني محمود أين ذهب؟ أى ما أخبرني عن مكان ذهابه. والمعنى في الآية (لم أذنت لهم) أى سبب إذنك لهم.

ويكون معنى (حتى) هنا على بابها بمعنى (لكي) لبيان السبب، أو بمعنى (إلى ان) لبيان الغاية.

---

[1] (٨/ ٣٩، بترقيم الشاملة آليا)

ولا يكون هناك وقف واقتطاع في الآية، بل هى كلٌ متصل مستقيم بلاغياً وتركيبيا.
وكذلك لا حاجة لتقدير ما لا دليل عليه.
ثم هذا يتفق مع السياق عموما سواء السباق واللحاق، وسياق الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى العام للسياق التاريخي.
ويمثل هذا التأويل يمكن إعمال منهج منضبط في تدبر وفهم القرآن بعيدا عن الحل اللفظي المجرد للآيات، وبعيدا عن استقطاع الآيات والتعامل معها كجزر منعزلة، بل نتحدث عن منهج شمولي ينظر للقرآن كله كوحدة لغوية وأسلوبية ومعنوية متصلة ومكتملة ومتنامة.
وهو ما عنيته دائما بتدبر القرآن الكريم من داخله.
وتقليل دور العوامل الخارجية في فهم النص القرآني قدر الإمكان.
وهوم ما يقلل بدوره أخطار وأخطاء كثيرة في قراءة النص الحكيم من الخارج، ويعتمد على قواعد منضبطة تفرضها لغة النص ذاتها في إطار من السياقات المتنامة في قراءة النص القرآني.
والحمد لله رب العالمين.

ومن أجمل القصائد التي قرأتها

هي القصيدة الماتعة للشيخ أبي الفتح محمد بن علي البستي

زيادةُ المرءِ في دنياه نقصانُ   وربحُهُ غيرَ محضِ الخيرِ خُسرانُ.

وكلُّ وِجدانِ حظٍ لا ثباتَ له   فإن معناه في التحقيقِ فقدانُ.

يا عامراً لخرابِ الدهرِ مجتهداً   تالله هل لخرابِ الدهرِ عمران ؟

ويا حريصاً على الأموالِ تجمعها   أنسيتَ أن سرورَ المالِ أحزان

يا خادمَ الجسمِ كم تسعى لخدمته   أتطلب الربحَ فيما فيه خسران

أقبلْ على النفسِ واستكمل فضائلَها   فأنتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ

دع الفؤادَ عن الدنيا وزخرفِها   فصفوها كدرٌ والوصلُ هجران.

وأوعِ سمعكَ أمثالاً افصِّلُها   كما يُفصَّل ياقوتٌ ومرجانُ.

أحسِنْ إلى الناسِ تستعبدْ قلوبَهمُ   فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ.

وإن أساء مسيءٌ فليكن لك في   عروض زَلَّتِهِ صفحٌ وغفران.

وكن على الدهر معواناً لذي أملٍ   يرجو نَداكَ فإن الحُرَّ معْوانُ.

واشددْ يديكَ بحبل الله معتصماً   فإنه الركنُ إن خانتكَ أركانُ.

مَنْ يتقي اللهَ يُحمَد في عواقبه   ويكْفِهِ شرَّ مَن عَزُّوا ومَن هانوا.

ومنِ استعان بغير الله في طلبٍ   فإن ناصرهُ عجزٌ وخِذلانُ.

من كان للخير مناعاً فليس له   على الحقيقة إخوانٌ وأخدان.

مَن جاد بالمال مالَ الناسُ قاطبةً   إليهِ والمالُ للإنسانِ فَتَّانُ.

من سالَمَ الناسَ يسلمْ مِن غوائلهم   وعاش وهو قريرُ العينِ جَذلان.

من مدَّ طرْفاً لفَرْط الجهلِ نحو هوىً   أغضى على الحق يوماً وهو خَزْنان.

من عاشرَ الناسَ لاقى منهمُ نَصَباً   لأن أخلاقَهمْ بغيٌ وعدوان.

من كان للعقل سلطانٌ عليه غداً   وما على نفسه للحرص سلطان.

ومن يفتش على الإخوان يقلهم فجُلُّ إخوانِ هذا العصرِ خوّان.

ولا يغرنك حظٌّ جرَّهُ خَرَق فالخرق هدْم ورفق المرءِ بنيـان.

فالروض يزدان بالأنوار فاغمة والحر بالعدل والإحسـان يـزدان

صن حر وجهك لا تهتك غلالته فكـل حر لحر الوجه صوان

وإن لقيت عدواً فالقه أبداً والوجه بالبشر والإشراق غضـان

من استشار صروف الدهر قام له على حقيـقة طبع الدهر برهـان

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الزرع إبـان

من استنام إلى الأشرار قام وفي قميصه منهم صل وثعبـان

كـن ريق البشر إن المرء همته صحيفة وعليها البشر عنوان

ورافق الرفق في كل الأمور فلم يذمم يندم رفيق ولم يذممه إنسـان

أحسن إذا كان إمكان ومقـدرة فلن يدوم على الإنسان إمكـان

دع التكاسل في الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان

لا ظل للمرء أحرى من تقى ونهى وإن أظلته أوراق وأغصـان

الناس إخوان من والته دولتـه وهم عليه إذا عـادته أعوان

سحبـان من غير مال باقل حصر وبـاقل في ثرآء المال سحبان

لا تحسب الناس طبعاً واحداً فلهم غـرائز لست تحصيها وأكنـان

ما كان ماء كصدآء لوارده نعم ولا كل نبت فهو سعدان

وللأمور مواقيت مقـدرة وكـل أمر له حد وميـزان

فلا تكن عجلاً في الأمر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران

حسب الفتى عقـله خلا يعاشره إذا تحامـاه إخوان وخلان

هما رضيعا لبان حكمة وتقى وسـاكنـاً وطن مال وطغيـان

إذا بنا نباخ بكريم موطن فله وراءه في بسيط الأرض أوطـان

يا ظالماً فرحاً بالعز ساعده إن كنت في سنة فالدهر يقظان
يا أيها العالم المرضي سيرته أبشر فأنت بغير الماء ريان
ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج فأنت ما بينها لاشك ظمآن
لا تحسبن سروراً دائماً أبداً من سره زمن ساءته أزمان
إذا جفاك خليل كنت تألفه فاطلب سواه فكل الناس إخوان
وإن نبت بك أوطان نشأت بها فارحل فكل بلاد الله أوطان
خذها سوائر أمثال مهذبة فيها لمن يبتغي التبيان تبيان
ما ضر حسانها والطبع صائغها إن لم يصغها قريع الشعر حسان.

"واضرب لهم مَثَل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء".

{واضربْ لهم مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فأصبحَ هَشِيْماً تَذْرُوهُ الرياحُ وكان اللهُ على كلِّ شيءٍ مُقْتَدِرا } [الكهف ٤٥]

شبَّه تعالى الدنيا بالماء، لأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل، كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها. (تفسير القرطبي)

قلتُ المثل هنا تصوير الحياة الدنيا بمثالٍ نراه كل يومٍ ويمر علينا مرورا ولا نتدبره، إن الراكضين في الدنيا يظنون أنها دائمة ويتصرفون بناءً على ذلك، فمصالح الدنيا، ومكتسبات الدنيا، ومباهج الدنيا هي كل ما ينظرون إليه ولكن القرآن يصدمهم بتذكيرهم بهذا المشهد المتكرر لقصةٍ نراها بتفاصيلها كل يوم، ولا نتعظ، ولا نأخذ العبرة. إن {مَثَل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء} فوقع على حب في الأرض لم يكن شيئاً فنما هذا الحب فصار نباتا كثيرا عظيما مُخْضَرًّا مُورقاً يسر الناظرين، { فاختلط به نبات الأرض} ثم كعادة كل شيء ينمو ويزيد ثم يضمحل ويذبل ويهوي ويرجع كأنه لم يكن شيئا { فأصبح هشيما} نباتا ميتا جافا ساقطا { تذروه الرياح} أي تطيّره وتطرحه وقد صار لا نفع فيه، هكذا الدنيا ولكن الناس يعيشون لحظة الازدهار والاخضرار كأن لا نهاية لها ومثله ما قال تعالى في سورة يونس (الآية ٢٤) {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}

قال الطبري في تفسيرها إنما مثل ما تباهون في الدنيا وتفاخرون به من زينتها وأموالها ، مع ما قد وُكِّلَ بذلك من التكدير والتنغيص وزواله بالفناء والموت، ، كمثل ماءٍ أنزلناه من السماء، يقول كمطر أرسلناه من السماء إلى الأرض ، {فاختلط به نبات الأرض} يقول فنبت بذلك المطر أنواعٌ من النبات ، مختلطٌ بعضها ببعض، (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها) يعني ظهر حسنها وبهاؤها ، {وازينت} وتزينت ، {وظن أهلها} ، يعني وتوهم أهل الأرض { أنهم قادرون عليها} يعني على ما

أنبتت (أو قادرون على التحكم في الأرض بكل زينتها)

{أتاها أمرنا} جاء الأرض ، أمرنا ، يعني قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات ، إما ليلا وإما نهارًا ، (فجعلناها)، يقول فجعلنا ما عليها ، {حصيدًا} يعني مقطوعة مقلوعة من أصولها.{كأن لم تغنَ بالأمس} كأن لم تكن تلك الزروع والنبات على ظهر الأرض نابتةً قائمة على الأرض قبل ذلك بالأمس.

يقول فكذلك يأتي الفناء على ما تتباهون به من دنياكم وزخارفها، فيفنيها ويهلكها كما أهلك أمرُنا وقضاؤنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها ، حتى صارت كأن لم تغن بالأمس، كأن لم تكن قبل ذلك نباتًا على ظهرها.

يقول الله جل ثناؤها (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ، يقول كما بينَّا لكم أيها الناس ، مثل الدنيا وعرّفناكم حكمها وأمرها، كذلك نُبين حججنا وأدلَّتنا لمن تفكَّر واعتبر ونظر.

وخصَّ به أهل الفكر، لأنهم أهل التمييز بين الأمور ، والفحص عن حقائق ما يعرض من الشُّبَه في الصدور. انتهى

وعند البغوي (كأن لم تغن بالأمس) أي كأن لم تكن بالأمس ، وأصله من غني بالمكان إذا أقام به . وقال قتادة معناه أن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل ما يكون .انتهى

وفي تفسير ابن كثير قال قتادة (كأن لم تغن) كأن لم تنعم .

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ؛ ولهذا جاء في الحديث يؤتى بأنعم أهل الدنيا ، فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟فيقول لا . ويؤتى بأشد الناس عذابا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ، ثم يقال له هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول لا

وقال تعالى إخبارا عن المهلكين {فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها } [هود ٩٤ ، ٩٥] كأن لم ينعموا فيها. انتهى.

ومثله في قوله تعالى {اعلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ } [الحديد ٢٠]

قال الزمخشري في كشافه أراد أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور، وهي اللعب واللهو والتفاخر والتكاثر، وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام، وهي العذاب الشديد، ومغفرة من الله ورضوان، وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتمل مما أعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله فيما رزقهم من الغيث والنبات، فبعث الله عليه العاهة، فهاج واصفر وصار حطامًا عقوبة لهم على جحودهم. انتهى

• "ليسأل الصادقين عن صدقهم"

فإذا سُئِلَ الصادقون وحوسبوا على صدقهم، فما الظن بالكاذبين؟ (اغاثة اللهفان لابن القيم)

والآيات بسياقها هي قوله تعالى {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا } [الأحزاب ٧، ٨]

قال الإمام الطبري يقول تعالىذكره أخذنا من هؤلاء الأنبياء ميثاقهم كيما أسأل المرسلين عما أجابتهم به أممهم، وما فعل قومهم فيما أبلغوهم عن ربهم من الرسالة. [١]

فَإِن قَالَ قَايِل وَأي حِكْمَة فِي سُؤَالهمْ عَن تَبْلِيغ الرسَالَة؟ وَالْجَوَاب عَنهُ الْحِكْمَة فِي ذَلِك تبكيت الَّذين أرْسلُوا إِلَيْهِم، وعَلى هَذَا الْمَعْنى قَوْله تَعَالَى {وَإِذ قَالَ الله يَا عِيسَى ابْن مَرْيَم أَأَنْت قلت للنَّاس اتخذوني وَأمي إِلَهَيْنِ من دون الله} .

وَيُقَال ليسأل الصَّادِقين عَن عَمَلهم لله، وَقيل ليسأل الصَّادِقين بأفواههم عَن صدقهم فِي قُلُوبهم. [٢]

([١])تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر (٢٠/ ٢١٣)

([٢])تفسير السمعاني (٤/ ٢٦٢)

قلتُ وهو ما أومأ إلى ترجيحه ابن قيم الجوزية في إغاثة اللهفان كما نقلنا ولكن السياق في الحديث عن ميثاق الدعوة إلى التوحيد الذي أخذه الله على كل الأنبياء والمرسلين وتواصيهم به، ثم سؤالهم عن تكذيب أقوامهم لهم، لذلك فقول ابن جرير الطبري وجمهور المفسرين هو المتجه بدلالة السياق.

ويؤيده ما ورد في التنزيل { فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [الأعراف ٦]

قال صاحب الكشاف

وَاذكر حين {أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ جميعا مِيثاقَهُمْ} بتبليغ الرسالة والدعاء إلى الدين القيم {وَمِنْكَ} خصوصا [وفيه تنبيهٌ لطيفٌ على تقديم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على الأنبياء] {وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسَى} وإنما فعلنا ذلك {لِيَسْئَلَ الله} يوم القيامة عند تواقف الأشهاد المؤمنين الذين صدقوا عهدهم ووفوا به، من جملة من أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى {عَنْ صِدْقِهِمْ} أي عن عهدهم وشهادتهم، فيشهد لهم الأنبياء بأنهم صدقوا عهدهم وشهادتهم وكانوا مؤمنين. أو ليسأل المُصَدِّقين للأنبياء عن تصديقهم، لأن من قال للصادق صدقت، كان صادقا في قوله. أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم به أممهم.انتهى [١]

وللإمام القشيري كلام رائع

يسألهم سؤال تشريف لا سؤال تعنيف، وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب. والصدق ألّا يكون في أحوالك شوب ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب. ويقال من أمارات الصدق في المعاملة وجود الإخلاص من غير ملاحظة مخلوق. والصدق في الأحوال تصفيتها من غير مداخلة إعجاب.

والصدق في الأقوال سلامتها من المعاريض فيما بينك وبين نفسك، وفيما بينك وبين الناس التباعد عن التلبيس، وفيما بينك وبين الله بإدامة التبرّى من الحول والقوة، ومواصلة الاستعانة، وحفظ العهود معه على الدوام.

---

(١)تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٣/ ٥٢٤)

والصدق في التوكل عدم الانزعاج عند الفقد، وزوال الاستبشار بالوجود.

[وأ حسب أن مقصد القشيري أن تكون راضيا إذا فقدت أو وجدت، وفي ذلك يقول عبد الله بن خفيف القناعة ترك التشوف إلى المفقود والاستغناء (بالموجود)، والشاكر الذي يشكر على (الموجود) والشكور الذي يشكر على المفقود (انظر الرسالة القشيرية ص٨١، ٨٩) . ومع ذلك فقد وردت (الوجود) فى قول النوري الصوفي نعته السكون عند العدم والإيثار عند الوجود ... فالوجود بهذا المعنى ضد العدم أي وجود الأشياء وفقدانها.

وفي اصطلاح الصوفية كذلك؛ يطلق الوجود بل هو أكثر استعمالا عندهم على الدرجة القصوى بعد التواجد والوجد، وهو للحق].

والصدق في الأمر بالمعروف التحرّز من قليل المداهنة وكثيرها، وألا تترك ذلك لفزع أو لطمع، وأن تشرب مما تسقى، وتتصف بما تأمر، وتنهى نفسك عما تزجر. [1]

من فوائد الشيخ الشنقيطي رحمه الله.

(١)

قال العلامة الشنقيطي بعد تفسيره لقوله تعالى في سورة محمد {إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ }

(اعلم أن كل مسلم، يجب عليه في هذا الزمان، تأمل هذه الآيات، من سورة محمد وتدبرها، والحذر التام مما تضمنته من الوعيد الشديد؛ لأن كثيراً ممن ينتسبون للمسلمين داخلون بلا شك فيما تضمنته من الوعيد الشديد.

---

[1] لطائف الإشارات = تفسير القشيري (٣/ ١٥٣)

لأن عامة الكفار من شرقيين وغربيين كارهون لما نزل الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو هذا القرآن وما يبينه به النبي صلى الله عليه وسلم من السنن.

فكل من قال لهؤلاء الكفار الكارهين لما نزله الله سنطيعكم في بعض الأمر، فهو داخل في وعيد الآية.

وأحرى من ذلك من يقول لهم سنطيعكم في الأمر كالذين يتبعون القوانين الوضعية مطيعين بذلك للذين كرهوا ما نزل الله، فإن هؤلاء لا شك أنهم ممن تتوفاهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم.

وأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، وأنه محبط أعمالهم.

فاحذر كل الحذر من الدخول في الذين قالوا سنطيعكم في بعض الأمر.) انتهى

(٢)

ومن ذلك أيضاً ماذكره الشيخ الشنقيطي كذلك في سياق كلام طويل قيم نفيس في التنبيه على قضايا مهمة متعلقة بتفسير قوله تعالى (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد ٢٤) ؛ قال رحمه الله

(والله جل وعلا يقول في سورة القمر مرات متعددة {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}.

ويقول تعالى في الدخان {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَـٰنِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}. ويقول في مريم {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلَسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً}.

فهو كتاب ميسر، بتيسير الله، لمن وفقه الله للعمل به، والله جل وعلا يقول (بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ}، ويقول {وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

فلا شك أن الذي يتباعد عن هداه ، يحاول التباعد عن هدى الله ورحمته.

ولا شك أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله إلى أرضه، ليستضاء به فيعلم في ضوئه الحق من الباطل والحسن من القبيح والنافع من الضار، والرشد من الغي.

قال الله تعالى {يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً}.

وقال تعالى {قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ . يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنِ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ}. وقال تعالى {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلاَ ٱلإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا} وقال تعالى {فَآمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلنّورِ ٱلَّذِىۤ أَنزَلْنَا} وقال تعالى {فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىۤ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ}.

فإذا علمت أيها المسلم أن هذا القرآن العظيم، هو النور الذي أنزله الله ليستضاء به، ويهتدى بهداه في أرضه، فكيف ترضى لبصيرتك أن تعمى عن النور.

فلا تكن خفاشي البصيرة، واحذر أن تكون ممن قيل فيهم

خفافيش أعماها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم .

مثل النهار يزيد أبصار الورى ... نوراً ويعمي أعين الخفاش .

{يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ}. {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلأَلْبَـٰبِ}.

ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور، تخبط في الظلام، ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور.

وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف، أنه يجب عليك الجد، والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما، علماً صحيحاً.

ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان أيسر منه بكثير في القرون الأولى، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك، من ناسخ ومنسوخ وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين وأحوال الرجال، من رواة الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف، لأن الجميع ضبط وأتقن ودون، فالجميع سهل التناول اليوم.

فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي صلى الله عليه وسلم ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين.

وجميع الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم حفظت ودونت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف.) انتهى .

(٣)

ومن أمثلة ذلك ماذكره الشنقيطي أيضاً عندماذكر أصول الاقتصاد في الإسلام عند تفسيره لقول الله تعالى { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً} (الفرقان ٦٧) ، فقد قال بعد كلام مهم يحسن الرجوع إليه في أضواء البيان

(ولا شكّ أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السمٰوات والأرض، على لسان رسوله ، ويكون كفيلاً بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية ، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعًا ؛ لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم، لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئًا منها يجوز شرعًا، لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية ، أو على غرر، لا تجوز معه المعاملةكأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا، فإنك لا تكاد تجد شيئًا منها سالمًا من الغرر، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبيّ ، ومن المعلوم أن من يدّعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات، من المعاصرين أنه مخطىء في ذلك، ولأنه لا دليل معه بل الأدلّة الصحيحة على خلاف ما يقول، والعلم عند اللَّه تعالىٰ.).

ومن تفسير القرطبي تخيَّرتُ.

لقول الله تعالى وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (القرقان ٢٠) ذكر مسائل متعلقة بأحكام الأسواق ، ومنها

(المسألة الرابعة خرّج مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله قال «أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها». وخرّج البزّار عن سلمان الفارسيّ قال قال رسول الله «لا تكونن إن استطعتْ أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها موكة الشيطان وبها ينصب رايته».

أخرجه أبو بكر البرْقانيّ مسنداً عن أبي محمد عبد الغني بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبي عثمان

النهدِيّ عن سلمان قال. قال رسول الله «لا تكن أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فبها باض الشيطان وفرّخ». ففي هذه الأحاديث ما يدلّ على كراهة دخول الأسواق، لا سيما في هذه الأزمان التي يخالط فيها الرجال النسوان. وهكذا قال علماؤنا لما كثر الباطل في الأسواق وظهرت فيها المناكر كُره دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم في الدِّين تنزيهاً لهم عن البقاع التي يُعصى الله فيها. فحق على من ابتلاَه الله بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله اقتصَر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته.

الخامسة تشبيه النبيّ السوق بالموكة تشبيه حسن؛ وذلك أن الموكة موضع القتال، سمي بذلك لتعارك الأبطال فيه، ومصارعة بعضهم بعضاً. فشبّه السوق وفعل الشيطان بها ونيله منهم مما يحملهم من المكر والخديعة، والتساهل في البيوع الفاسدة والكذب والأيمان الكاذبة، واختلاَط الأصوات وغير ذلك بموكة الحرب ومن يصرع فيها.

السادسة قال ابن العربي أما أكل الطعام فضرورة الخلق لا عار ولا درك فيه، وأما الأسواق فسمعت مشيخة أهل العلم يقولون لا يدخل إلا سوق الكتب والسلاح، وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيها؛ لأن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة؛ ومن الأحاديث الموضوعة «الأكل في السوق دناءة».

قلت ماذكرته مشيخة أهل العلم فنعما هو؛ فإن ذلك خالٍ عن النظر إلى النسوان ومخالطتهن؛ إذ ليس بذلك من حاجتهن. وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن، وقلة الحياء قد غلبت عليهن، حتى ترى المرأة في القيسارِيات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها، وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا. نعوذ بالله من سخطه.) انتهى

ومن روائع تفسير السعدي.

لقول الله تعالى { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }.

حيث قال (ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعوهم عن دينهم، ويكونوا كفارا بعد إيمانهم حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك، ساعون بما أمكنهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

وهذا الوصف عام لكل الكفار، لا يزالون يقاتلون غيرهم، حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصا، أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبثوا الأطباء، وبنوا المدارس، لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخيلهم عليهم، كل ما يمكنهم من الشبه، التي تشككهم في دينهم.ولكن المرجو من الله تعالى، الذي مَنّ على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه، أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم القيام، وأن يخذل كل من أراد أن يطفئ نوره، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر دينه، ويعلي كلمته.

وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار، كما صدقت على من قبلهم إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ .

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام، بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرا، فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لعدم وجود شرطها وهو الإسلام، وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

ودلت الآية بمفهومها، أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل ردته،وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.).

ونقلتُ من فتح القدير للشوكاني

في تفسيره لقول الله تعالى {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}

قوله {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم} الخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم أو لكل من يصلح له والخوض أصله في الماء ثم استعمل في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيها بغمرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول وقيل هو مأخوذ من الخلط وكل شيء خضته فقد خلطته ومنه خاض الماء بالعسل خلطه والمعنى إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا بالتكذيب والرد والاستهزاء فدعهم ولا تقعد معهم لسماع مثل هذا المنكر العظيم حتى يخوضوا في حديث مغاير له أمره الله سبحانه بالإعراض عن أهل المجالس التي يستهان فيها بآيات الله إلى غاية هي الخوض في غير ذلك.

وفي هذه الآية موعظة عظيمة لمن يتسمح بمجالسة المبتدعة الذين يحرفون كلام الله ويتلاعبون بكتابه وسنة رسوله ويرد ذلك إلى أهوائهم المضلة وبدعهم الفاسدة فإنه إذا لم ينكر عليهم ويغير ما هم فيه فأقل الأحوال أن يترك مجالستهم وذلك يسير عليه غير عسير وقد يجعلون حضوره معهم مع تنزهه عما يتلبسون به شبهة يشبهون بها على العامة فيكون في حضوره مفسدة زائدة على مجرد سماع المنكر

وقد شاهدنا من هذه المجالس الملعونة ما لا يأتي عليه الحصر وقمنا في نصرة الحق ودفع الباطل بما قدرنا عليه وبلغت إليه طاقتنا.

ومن عرف هذه الشريعة المطهرة حق معرفتها علم أن مجالسة أهل البدع المضلة فيها من المفسدة أضعاف أضعاف ما في مجالسة من يعصي الله بفعل شيء من المحرمات ولا سيما لمن كان غير راسخ القدم في علم الكتاب والسنة فإنه ربما يتفق عليه من كذباتهم وهذيانهم ما هو من البطلان بأوضح مكان فينقدح في قلبه ما يصعب علاجه ويعسر دفعه فيعمل بذلك مدة عمره ويلقى الله به معتقدا أنه من الحق وهو من أبطل الباطل وأنكر المنكر) انتهى

قدرة المفسِّر على إفادة أهل مجتمعه.

وفي خضم مسألةٍ مُهِمَّة، و هي مدى قدرة المفسِّر على إفادة أهل مجتمعه و من يفسِّر لهم كلام الله تعالى ، إذ إن تفسير القرآن لا ينبغي أن يتحول إلى تفكيك رموز دون أن يكون لها هدايات و آثارٌ في توجيه الناس و دعوتهم إلى الله تعالى ، و تقريبهم إلى جنَّة الله و رضوانه هذا في الأصل - لكن ما نفتقده - أحياناً - هو غياب هذا الهدف عند البعض ، و لذا خرج هذا الموضوع الجميل لأنَّ ربط الواقع بكلام الله قليل و الله المستعان .

وكنت قد حاولت ربط الترف بالواقع من خلال فهم أسباب الترف و مظاهره و علاجه ، من خلال القرآن و ربط ذلك بالواقع فكان من أهمّ تلك المظاهر التي ذكرتها ووجدت المفسِّرين قد أشاروا إلى كثير منها ؛ وحيث إن الترف ظاهرةٌ متميِّزةٌ لدى الأغنياء و الفقراء فلقد صوَّرت لنا الآيات في سورة يوسف بعض مظاهر الترف غير المألوفة في الأزمان السابقة سوى العلية من القوم و الطبقة الراقية منهم كما جاء في الآيات التالية يقول الله تعالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾

يتجلى في هذه الآيات الكثير من الكماليات التي يسعى إليها المترفون ؛ وقد يحصلُ بعضها لهم نظراً لطبيعة الطبقية التي يعيشونها والمجتمع الذي يتعاملون معه دون أن يبحثوا عنها ، وقد تأتي بعد إجهاد المرء نفسه للكماليات على حساب الواجبات والمستلزمات الضرورية ، لكن المجتمع لا يرحمه - في نظره

فتلك القصة في ذكر امرأة العزيز توضح بعض اللمحات وتكشف النقاب عن كثيرٍ من الهنات لدى المترفين آمالاً وأعمالاً في القصور .

يقول سيد قطب في الظلال لقد أقامت مأدبة في قصرها . وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية . فهن اللواتي يدعين في القصور . وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر . ويبدو أنهن

يأكلن وهن متكئاتٍ على الوسائد والحشايا على عادة الشرق في ذلك الزمان . فأعدت لهن هذا المتكأ . وآتت كلَّ واحدةٍ منهن سكيناً تستعملها في الطعام - ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية في مصر كانت قد بلغت شأواً بعيداً ، وأن الترف في القصور كان عظيماً ؛ فإن استعمال السكاكين في الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته في تصوير الترف والحضارة المادية - وبينما هنّ منشغلاتٍ بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ؛ فاجأتهنَّ بيوسف ..ثم قالت قولة المرأة المنتصرة ، التي لا تستحي من بنات جنسها وطبقتها ، والتي تفخر عليهن بأن هذا في متناول يدها ..) .

وقد ندرك الترف في بعض الصور منها أنها أرسلت غيرها بالدعوة إيغالاً في السلطة وتميزاً بين نساء الطبقة ، ولإثبات القدرة والسيطرة على الأمور ، وأنهن لا يزلن في عداد طبقتها ولم تكن شاذةً عنهن بارتكابها هذا الخطأ

ومنها أن أعدت لهن المتكأت يقول الألوسي (أي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد كما روي عن ابن عباس وهو من الإتكاء الميل إلى أحد الشقين .. وروي عن الحبر أيضاً أن المتكأ مجلس الطعام لأنهم كانوا يتكؤن كعادة المترفين المتكبرين ، والتي لا توجد هذه - في الغالب إلا في بيوت الطبقة الأرستقراطية آنذاك وبعده ، وأعطت كلّ واحدةٍ من أولاءِ النسوة سكيناً مع كثرة الأكلة ووفرة أصناف الطعام ومع ذلك فالسكاكين والمتكأت متوفرة ، واعتمدت كذلك على عنصر المفاجأة.{ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ } مما يؤكد أن العدد كبير والفرصة مواتيةٌ لدخوله ؛ لاكتمال العدد

ومنها التبجح في ارتكاب المنكر وإضماراً للشر وتبييتاً له. {وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ }، يقول سيد قطب (فهذه البيئة التي تسمح بهذا . وذلك بيئةٌ خاصةٌ ؛ هي بيئة الطبقة المترفة دائماً) .

ومنها ضعف الغيرة في مواجهة الخيانات الزوجية فهنا كما يقول سيد (تبدو لنا صورة من الطبقة الراقية في الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هي هي اليوم شاخصةً رخاوةٌ في مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميلٌ إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله) .

وأحب إلى أشيد بماذكرته من الحاجة إلى ربط الآيات بالواقع و الحياة التي يعيشها الناس فكلام الله ليس مقصوراً على طائفةٍ أو زمن و الله المستعان .

أقول:

كان هذا ما يسَّر الله تعالى لي جمعه وبيانه والتعليق عليه-في الجزء الأول- من بحرٍ كبير من الكتب والعلوم كنتُ أناوش شواطئه بين الحين والحين، فتقع عيني على الأصداف، وفي الأصداف درر، فكنت أجمع ما أقدر عليه منها وأزيِّنه لطالب علمٍ ولطالب فهمٍ فأضعه بين يديه.

وأسأل الله تعالى أن يغفر لي الزلل وما جرُأْت عليه من الحديث في دينه وشرعه.

وأن يجعل صوابي محسوبا لي عنده يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

اللهم اغفر لوالديَّ ولزوجي ولولدي وأحسن إليهم واحفظهم بحفظك يا كريم.

والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه/ أبو عمر وحمزة وعبد الرحمن

د. محمد عبد المعطي محمد

جدول المحتويات